نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد

ويسمى أيضاً

اليواقيت الحسان في تصريف معاني الإنسان

تأليف

العارف بالله تعالى سيدي علي بن عبد الرحمن بن محمد العمراني

المعروف بالجمل

المتوفى سنة ١١٩٣ هـ

تحقيق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

نصيحة المريد
في
طريق أهل السلوك والتجريد

ويسمى أيضاً

اليواقيت الحسان
في تصريف معاني الإنسان

تأليف

العارف بالله تعالى سيدي علي بن عبد الرحمن بن محمد العمراني

المعروف بالجمل

المتوفى سنة ١١٩٣هـ

تحقيق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Rami Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Rami Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 604610 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4300-x



http://www.al-ilmiyah.com/

email: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمٰن بخلقه، الرحيم بخاصة أهله المسلمين والمؤمنين والمحسنين، الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، الظاهر بلا انكشاف، والباطن بلا خفاء، الأحد بذاته، والواحد بأسمائه وصفاته وأفعاله، الكنز المخفي، والمتجلي للخلق ليعرفوه بما منه إليهم، القديم حيث لا شيء غيره والباقي حيث لا شيء بعده، الموجود حيث لا شيء معه، والواجب بكمالاته، القيوم بهويته والقائم بنفسه، المنزّه عن مدارك العقول والأوهام والخيالات الذين لم يقدّروا الله حق قدره ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية 11].

والصلاة والسلام على سر القرآن الذاتي ومجلى الفرقان الأسمائي والصفاتي برزخ الوجوب والإمكان، الرحمة المهداة للمرايا الخلقية، أول الرسل بروحانيته وآخرهم ببشريته، الإنسان الكلي والخليفة الحقيقي المتحقق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ [الفتح: الآية 10] .

وعلى آله الطيبين من دنس رؤية سراب الأغيار، المتحققين بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: الآيتان 26، 27] وعلى أصحابه الأخيار المقتدين بأنوار حبيبهم المختار، الحسية والمعنوية، النفسية والقلبية، وعلى التابعين لهم بإحسان في كل حال ومقام إلى يوم الدين.

وبعد، فبما أن مدار معرفة الله تعالى عند السادة الصوفية أهل مقام الإحسان متوقفة على معرفة النفس مصداقاً لقوله ﷺ: «من عرف نفسه عرفَ ربه»، والسالك إلى الله تعالى لا يعرف نفسه الأمارة بالسوء والمليئة بالأمراض والحجب إلاّ على يد مرشد كامل وارث محمدي سلك الطريق إلى الحضرة الإلٰهية إسلاماً وإيماناً وإحساناً، جسماً وقلباً وروحاً ملكاً وملكوتاً وجبروتاً ثم عاد إلى عالم الحسّ بالله

تعالى ليخبر القوم بما استفاد، وليسلك غيره من المريدين طالبي الحقيقة، حرصنا على إصدار كتاب «نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد» لأحد شيوخ الطريقة الشاذلية الدرقاوية الكبار فريد عصره، المربي الكامل، والعارف المحقق الوارث المحمدي الشيخ علي العمراني، الملقب بالجمل والمتوفى سنة 1193هـ، قدس الله تعالى سره ونفعنا بعلومه.

والكتاب يطبع لأول مرة عن مخطوط بخط فضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام العمراني الخالدي، وفي ملكه الخاص، زودنا به جزاه الله خيراً لنقوم بإضافته إلى مجموعة كتب التصوّف الإسلامي التي نقوم بتحقيقها وتنقيحها وتصحيحها ونشرها بأبهى حلة خدمة للركن الثالث من أركان الدين الإسلامي الكامل، الذي هو مقام الإحسان، مقام التربية والسلوك إلى ملك الملوك، مقام: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ونلفت نظر القارىء الكريم إلى أن بعض الكلمات والعبارات كتبها المؤلف باللهجة المغربية الدارجة لذا تركناها كما هي.

ومما لا شك فيه أن كتب التصوف الإسلامي تساعد المريد على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: الآية 99] . كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب، وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض. لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار الدين الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ الملك والملكوت والجبروت؛ العبادة والعبودية والعبودة؛ العبادة والقصد والشهود. فالشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لإصلاح السرائر.

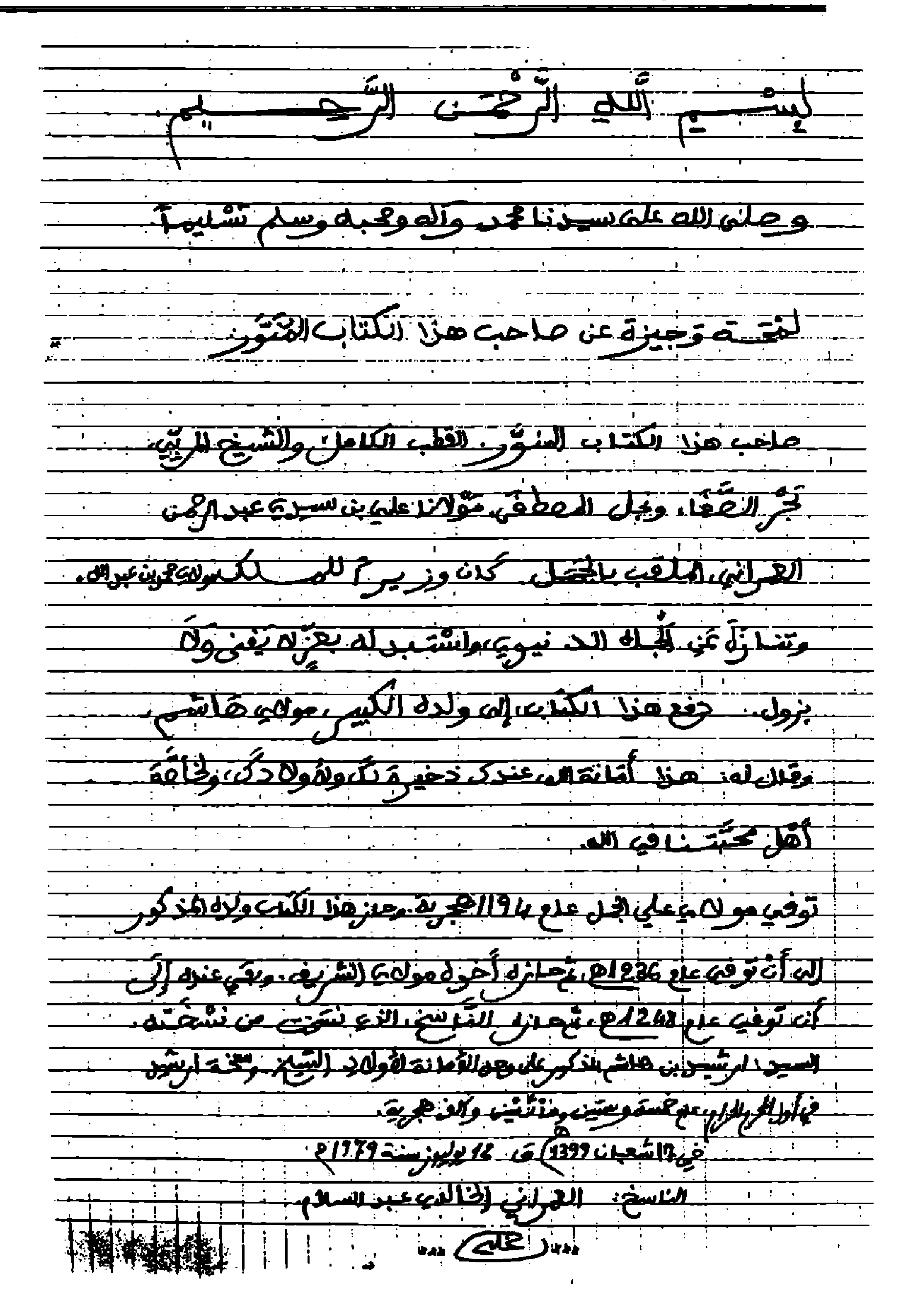
ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا الله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: الآية 21] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان 3،4] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ [النساء: الآية 69] لننال السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان 22، 23] .

كتبه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

لمحة وجيزة عن صاحب هذا الكتاب المنوّر

صاحب هذا الكتاب المنوّر، القطب الكامل والشيخ المربي، بحر الصفا، ونجل المصطفى، مولانا علي بن سيدي عبد الرحمن العمراني، الملقب بالجمل. كان وزيرا للملك مولاي محمد بن عبد الله. وتنازل عن الجاه الدنيوي، وانشغل بعزة تغني ولا تزول. دفع هذا الكتاب إلى ولده الكبير مولاي هاشم، وقال له: هذا أمانة الله عندك ذخيرة لك ولأولادك، ولخاصة أهل محبتنا في الله.

توفي مولاي علي الجمل عام 1194 هجرية. حاز هذا الكتاب ولده المذكور إلى أن توفي عام 1236 هـ، ثم حازه أخوه مولاي الشريف. وبقي عنده إلى أن توفي عام 1248 هـ، ثم حاز هذا النسخ الذي نسخت من نسخته السيد الرشيد بن هاشم المذكور على وجه الأمانة لأولاد الشيخ. ونسخة الرشيد في أول المحرم الحرام عام خمسة وستين ومائتين وألف هجرية.

في 17 شعبان 1399 هـ الموافق 12 يوليوز سنة 1979 م

الناسخ: العمراني الخالدي عبد السلام

الصفحة الأولى من المخطوط

قف على محبة الأخيار

وأيضًا: محبة الأخيار تسوق إلى الأسرار، ومحبة الأشرار بسبب
لغضب الجبار. ولا تدرك الحكمة واليقين، إلا بصحبة العلماء فيه
وكلام تعلقت همتك به. لا تدركه إلا بصحبة أهله. ويشترك كل
في هذا الطريق، معرفة أهل الصدق والتحقيق، الذين تجلى لهم
الحبيب، وشفاهم من شديد أنينه، وقليل ما هم. فعليك من
يا أخي بصحبة الأخيار، فالمرء على دين خليله، كما قال النبي
المختار. والحب منه يخفى عليه أحواله، وأفعاله، وأحوالك
وأترك من يعجز عن دفع الأذى عن نفسه، وأصحب من يتمتع
الشكل بجميله. والله الملك من حقيقته. هـ

انتهى كلام سيدي علي الجمل رضي الله عنه، ولا ينتهي الثناء
الحسن عليه. وكان الفراغ من نقله هنا، عشية يوم السبت
سابع عشر من شهر رمضان المعظم، عام تاسع وتسعين
وثلاثمائة وألف هجرية (1399هـ). الموافق لحادي
عشر غشت، سنة تسع وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية.

ناقله عبد ربه، وراجي عفوه، الفقير إلى مولاه على الدوام،
العمراني الخالدي عبد السلام. لطف الله به في الدارين
آمين، والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على
سيدنا محمد
وعلى آله
وصحبه
وسلم
تسليمًا.
تمت

الصفحة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بسيدي العارف بالله تعالى الشيخ علي الجمل العمراني ـ رضي الله عنه ـ لجامع كتابه «نصيحة المريد» الأستاذ عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن العارف الربّاني الأكمل، سيدي علي المعروف بالجمل، من أكبر شيوخ التربية النبويّة، الجمالية والجلالية والذوقيّة. وقد طلع نجمه في البلاد المغربية، وورث سرّه أتباعه، وعلى رأسهم شيخ مشايخ التربية، مولاي العربي الدرقاوي الحسني ـ رضي الله عنه ـ ونقل عنه في مؤلفاته، سيدي أحمد بن عجيبة العارف بربه. وقد أشفى الغليل عنه العلاَّمة الأكبر بحر المعاني، الأستاذ سيدي جعفر الكتاني[1] في كتابه «سلوة الأنفاس» فهذا محصّله، ومبدؤه من قوله: «ومنهم الشيخ العارف بالله، سيدي علي بن عبد الرحمٰن بن محمد بن علي بن إبراهيم بن عمران، الشريف الحسني الإدريسي العمراني، من شرفاء بني عمران، أهل قبيلة بني حسان، الملقب بالجمل، لأنه وجد بعيراً راقداً في الطريق فرفعه ووضعه خارجه، فرآه شخص فقال: إنه الجمل، فتعارف بهذا الاسم، وهو ملقّب عند الملائكة بالجمال.

كان أول أمره بمدينة فاس، متصلاً بالمخزن ووزيراً في المملكة، ثم تنازل عن العز الدنيوي، وغادر فاساً إلى تونس، في عهد السلطان أبي عبد الله محمد بن أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، خوفاً على نفسه. فلقى بتونس مشايخ انتفع بهم، وبعثوه إلى وزان، عند الشيخ سيدي الطيب الوزاني رضي الله عنه ووصل عنده عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف هجرية، ثم بعثه مولاي الطيب إلى فاس في نفس السنة، وقرأ بها ما شاء

(1) انظر كتابه «سلوة الأنفاس في ذكر صلحاء مدينة فاس»، الجزء الأول منه، من صفحة 358 إلى صفحة 361.

الله من التصوُّف، على الشيخ أبي عبد الله جسوس، وصحب العارف الأكبر، أبا المحاسن سيدي العربي بن أحمد بن عبد الله معن الأندلسي، ولزم خدمته ستة عشر عاماً، فانتفع به غاية النفع، وسمع منه من الأسرار ما لا حصر له.

ولما توفي شيخه سيدي العربي رضي الله عنه بنى لنفسه زاوية بالرميلة حيث ضريحه بمدينة فاس. وكثر أتباعه وخدّامه، وكان رضي الله عنه آخذاً بالشريعة في جميع أحكامها لا يتعدى أمرها، ويلبس تارة أفخر الثياب، وتارة رثّها. وكان يمد يده للسؤال لقوم مخصوصين، قتلاً للنفس لا رغبة في الفلس دون إلحاح، وأكثر ما تراه جالساً في القرويين، بالباب المظلم، لناحية باب فندق سيدي عبد المجيد، دائم الفكرة، كثير العِبْرة والعَبْرة، وإذا كلّمته وجدت منه بحراً زخّاراً بالعلم والعرفان.

وكان من أجّل شيوخ الطريق، من أهل تجديد الظاهر والباطن معاً، متقشفاً ذاكراً خاضعاً متواضعاً، خالياً عن الدعوة محيداً عن أهلها، مولعاً بالوحدة، وغريقاً في العلوم الموصلة إليها، أصولها وفروعها، على طريقة الشيخ أبي الحسن الششتري ونظائره من الأكابر، وكان مستغرق الأوقات في رؤية النبي ﷺ، يقظة ومناماً. حتى كان يقول: «إن خطر ببالي رسول الله ﷺ وجدته هو وأصحابه العشرة، حاضرين بين يدي حسّاً لا معناً، ونتكلم معهم، نأخذ العلم من عين العلم، والعمل من عين العمل».

وكان تلميذه الأكبر، مولاي العربي الدرقاوي يقول فيه: «والله ما كان شيخنا مولاي علي الجمل إلاّ أكبر استغراقاً في ذات رسول الله ﷺ من أبي العباس المِرْسي».

وقال مولاي العربي الدرقاوي في رسائله: «ترجّح لي والله أعلم أنه أقوى من سيدي المِرْسي، بما رأيت منه من الاستغراق في رؤية رسول الله ﷺ».

وكان من أهل التصريف في وقته، ويضمن القوافل، ويأخذ من أرباب القافلة درهماً عن كل جمل من أجمالها، ويرجعون إلى البلد سالمين، واتفق في يوم من الأيام، أن بعض أرباب القافلة تشطّر معه في جمل، فلم يعطه عليه شيئاً، فخرج فيهم اللصوص، ونهبوا لهم ذلك الجمل وحده، وأدرك القطبانية العظمى وعاش بها جلّ عمره. وكان يعرف أربعاً وعشرين طريقاً في الحكمة. ومن أراد أن يعرف مقامه في التحقيق، فليطالع كتابه «نصيحة المريد، في طريق أهل السلوك والتجريد».

وكان الشيخ سيدي عبد الواحد الدباغ يقول «لا يعرف سيدي علياً الجمل، إلاّ من كان هو سيدي علي»، أي في مقامه. وقال: «كان سيدي علي الجمل، فقيهاً كبيراً، عالماً شهيراً في علم الضدّين، يعني الشريعة والحقيقة، والحرية والعبودية،

والجمع والفرق، والسكر والصحو، والسلوك والجذب، والفناء والبقاء، وما أشبه ذلك.

توفي رضي الله عنه بفاس عشية يوم السبت، تاسع وعشري ربيع الأول، عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف هجرية، عن عمر يناهز المائة وستة أعوام. ودفن يوم الأحد بزاويته بالرميلة، من عدوة فاس الأندلس، وقبره بها مشهور معروف يزار.

هذا هو سيدي علي الجمل العمراني، رضي الله عنه، صاحب كتاب «نصيحة المريد» عرفّناه للأحباب، وفتحنا لهم نحوه الباب، والحمد لله في البدء والختام.

وذلك يوم الأحد 9 جمادى الأولى، عام 1425هـ المقابل 27 يونيه سنة 2004م.

خديم الصوفية: عبد السلام العمراني الخالدي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

كتاب نصيحة المريد في طريق أهل السلوك والتجريد

بدأهُ، رضي الله عنه، بمقام الفناء.

[مَقَامُ الفَنَاءِ][1]

إنَّ صاحب مقام الفناءِ كَنْز مُطَلْسم، ممنوع الانتفاع به، بينه وبين الخلق حُجب من نارٍ، لذلك لا يطيقون القرب إليه.

ومن جملة أوصافِ صاحب مقام الفناء، أنه يكون بواطنه عزّاً وشرفاً، وظواهره ذِلّةً وإهانة. بواطنه علماً وطاعة. وظواهره جهلاً ومعصية. بواطنه حياة وبسْطاً، وظواهره موتاً وقبضاً. بواطنه جَمْعاً وقُرْباً، وظواهره فَرْقاً وبُعْداً. بواطنه عطاء وحقاً، وظواهره منعاً وباطلاً. بواطنه جمالاً ونوراً، وظواهره جلالاً وظُلْمة. بواطنه صدقاً ورجاءً، وظواهره كذباً وخوفاً. بواطنه معروفة، وظواهره منكورة. بواطنه توسيعاً ورحمة، وظواهره ضيقاً ونِقمَة. بواطنه مُلكاً وعشقاً ووصْلاً، وظواهره مِلكاً وهَجراً وانقطاعاً.

باطنه يمدُّ الكون وما فيه: عُلوي وسفلي، وهو غني عن الكَوْنِ وما فيه، وظاهره يستمدّ من الكون وما فيه: عُلوي وسُفلي وهو محتاج إلى الكون وما فيه.

باطنه مِلك للوجود بأسره، وظاهره مملوك للوجود بأسرهِ.

هذه بعض أوصافه، مما ليس له حصر من هذا المعنى. من أجل ذلك تجد

(1) كل عناوين الكتاب الموجودة في هامش المخطوط هي من وضع الناسخ الشيخ عبد السلام العمراني، لذلك وضعنا هذه العناوين بين مزدوجين هكذا [ ].

الخلق يَفِّرون منه فِرارهم من النّار، ولا ينتفعون به، ما دام في هذا المقام، إلاّ النادر من الخلق وذلك لأنَّ العامة نفوسهم قريبة العهد من الحضرة الإلٰهية، من أجل ذلك، صارت نفوسهم مجبولة على حب الكمالِ وبُغْض النقص، مع أنه في الحقيقة لا نقص وإنما الكل كمال. وذلك الذي رأوه نقصاً، إنما هو وَهْمٌ حصل لهم في نفوسهم من جَهْلها، يرحم الله القائل:

وكـلّ قَـبِـيـح إن نَـسَـبْـت لـحُـسْـنِـهِ أتـتـك مـعـاني الـحـسْـن فـيـه تـسَـارعُ
يـكـمِّـلُ نـقـصـانَ الـقـبـيـح جَـمَـالُـهُ فـمـا ثـمَّ نـقـصـانٌ ولا ثـمَّ بَـاشِـعُ

وصاحب هذا المقام، أي مقام الفناء، إنما نكره الخلق، لأنه ليس منهم ولا هو في العالم الذي هم فيه.

هم في عالم الشريعة، وهو في عالم الحقيقة. صار كأنه ليس من جِنْسِهِم، ما بينه وبينهم نسبة. صاحب الحقيقة، وهو صاحب مقام الفناءِ لا يأويه إلاّ الحق، وإلاّ من كان مِنَ الناس عند الحق حقٌ.

صاحب الظّاهر تمده الأكوان، وصاحب الباطن بالعكس.

صاحب الظاهر تمدُّه الأكوان كلها، وهي تطلبه. وصاحب الباطن هو يمدُّ الأكوان كلها، ويطلبها. صاحب الظاهر هو بالأكوانِ، وصاحب الباطن الأكوان به. وشتّان بين من يكون هو بالأكوانِ، وبين من تكون الأكوان به.

[مُجالَسَة الضّعفاء]

وأيضاً، اعلم أنه لا شيء في الوجودِ أشرف وأرفع من مجالسة الضعفاء. لأن المَرْءَ على دين خليله. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القَصَص: الآيتان 5، 6] .

والضعفاء ثلاثة: ضعفاء النفوس، وضُعَفاء الدّنيا، وضعفاء الدّين.

أخبرنا شيخنا سيدي العربي، عن شيخه سيدي أحمد اليماني نفعنا الله بالجميع، أنه كان رضي الله عنه يجالس الضعفاء، ويَبَرُّ بالأغنياء، وكان كثيراً ما يحنّ ويشفق على ضعفاءِ الدِّينِ. كان رضي الله عنه يشفق على قاتل النفسِ ويحنّ عليه، أكثر من شفقته على المقتول. وكان أيضاً يشفق على أهل الرياسة، ويحنّ عليهم أكثر من شفقته على الرَّعية. وكان رضي الله عنه، يشفق على العصاة ويحنّ عليهم أكثر من شفقته على الطائعين.

[أوصاف الوَلي الكَامِلِ]

وأيضاً، أوصاف الولي الكامل، ألاَّ يكون محتاجاً إلاَّ إلى الحال الذي يقيمه مولاه فيه في الوقت. يعني ما له مراد، إلاَّ ما يبرز من عُنْصُر القدرة، لا تشتهي نفسه غيره، كما قال الشيخ الكامل، سيدنا أحمد اليماني، نفعنا الله به، لأصحابه يوماً، قال لهم: وذلك عندما اختلفوا في حقيقة الولاية. كل واحد قال فيها ما ظهر له، ووقع الاختلاف بينهم في ذلك، ورفعُوا أمرهم إلى الشيخ، وذكر له كل واحد منهم ما ظهر له في حقيقة الولاية. والشيخ لم يقرَّ لهم شيئاً من ذلك. فلما عجزوا عن الجواب، قالوا له: يا سيدي أردنا من الله ومنك أن تخبرنا أنت عن حقيقة الولاية. قال لهم: حقيقة الولاية هو إذا كان صاحبها جالساً في الظلّ لا تشتهي نفسه الجلوس في الشمس. وإذا كان جالساً في الشمس لا تشتهي نفسه الجلوس في الظلّ.

[حكمة الأجير]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الخصوصية، لا يدخل بلاد العمومية، إلاَّ مع أحد من أهلها، مستجيراً به لأنها ليست بلاده، وإن دخلها من غير أجير لا يدخلها إلا ذليلاً مستخفياً من أهلها، لئلا يشعرون به.

دخوله إليها من غير أجير كأنه سارق، وكذلك صاحب العمومية، لا يدخل بلاد الخصوصية إلا مع أحد من أهلها، مستجيراً به لأنها ليست بلاده وإن دخلها من غير أجير كأنه سارق.

كان الشيخ، سيدي أحمد اليماني، نفعنا الله به، ممَّن كان يدخل بلاد العمومية مستجيراً. كان أجيره معه لا يفارقه أبداً كأنَّ البلاد تَحِنّ على صاحبها، كما تحنّ المرأة على ولدها، وتنكر من ليس من أهلها كما تنكر المرأة غير ولدها. ولا شكَّ أن من دخل البلاد مع أحدٍ من أهلها كمن دخلها بالخير، لا يخشى من التَّلَفِ.

[الخَمْرَةُ كَمَال]

وأيضاً: أنظر يا أخي وتأمّل هذه الخمرة، كيف كملت فيها الأوصاف، وتوفَّرت فيها الشروط، وكيف كمل نقصانها، كما كمل كمالها. سبحان من أظهرها بالكمال في النقص والكمال، حتى صار الكل كمالاً ولا نقص. ومن ذلك.

انظر يا أخي، ما أقربها في بُعدها وما أبعدها في قُرْبها، وما أرفعها في علوِّها وما أوضعها في أسفلها، وما أكبرها في صغرها، وما أصغرها في كبرها. وما أقواها

في ضعفها، وما أضعفها في قوّتها، وما أغناها في فقرها وما أفقرها في غناها، وما أعزَّها على نفسها وما أذلَّها لنَفْسِها. وما أعظم قدرتها على نفسها وما أضعف عجزها على نفسها.

وانظر ما أوسع تفرقها وما أضيق اجتماعها، وما أوسع عطاءها لنفسها، وما أضيق منعها على نفسها، وما أعظم خيرها مع شرّها، وما أعظم شرها مع خيرها، وما أسرع إقبالها مع إدبارها، وما أسرع إدبارها مع إقبالها، وما أعظم إحسانها مع إساءتها وما أعظم إساءتها مع إحسانها، وما أشرف محبَّتها وشوقها وما أوضح عداوتها وبُغْضها، وما أحْلى حلوها في مُرّها وما أَمَرَّ مُرَّها في حلوِها، وما أشد بطشَهَا مع حِلْمِها وما ألْطف حلمَها في بطشها، وما أطْمعها في نَفْسِها مع قناعتها، وما أقنعها من نفسها مع طَمَعها، وما أكرمَها على نَفْسها مع قَسْطها، وما أقسطها على نفسها مع كَرَمِها.

وانظر مادَّة كلامها مع صمْتِها، وطول صمتها مع مادَّة كلامها. وما أرضاها في سَخطِها وما أسْخطها في رضائِها. وحرّها ببردها، وبَرْدها في حرّها، وحلاوتها في حرارتها، وحرارتها في حلاوتها، وارتفاع همَّتها في وضعها ووضع دورتها في ارتفاعها. وما أعرفها بنفسها وما أجهلها بنفسها، وما أخفاها عن نفسها، وما أظهرَها لنفسها. وما أفسق تخليطها، وما أفْرَد توحيدها. وما أذكرها لنفسها في غَفْلتها وما أغفلها في ذكرها، وما أشكرها لنفسها في كفرها وما أكفرها لنفسها في شكرها، وما أقبلها على نفسها في إدْبَارها، وما أدبرها في إقبالها، وما أقوى نُصرتها لنفسها مع خذلانها وما أعظم خذلانها لنفسها مع وجود نصرتها، عاشقة لنفسها، معشوقة عند نفسها، واصلة عند انقطاعها، قاطعة عند وصولها، مضحكة في بكائها، باكية في ضحكها، مُمْرِضة لنفسها مع شفائها، شافية لنفسها في مرضها، مخيية لنفسها في مَوْتِها، مُمِيتة لنفسها في حياتها، باسطة في قبضها، قابضة في بسْطها، موجودة في عَدَمِها، معدومة في إيجادها، حاضرة في غيْبَتها، غائبة في حضورها.

[التَّجريد]

وأيضاً: اعلم أنَّ التجريد لا يكمل لصاحبه حتى يكون نفساً وديناً ودنيا. وعلامات كمال صاحبه، أنك تجده لا يُنكِر أحداً من مخلوقاتِ الله، يُقرّهم في أقوالهم وفي أفعالهم وفي أحوالهم، حتى نفسه، ولا يرى الوجود كله وما حوى إلاّ في غاية الكمال والاتقان. وهذا المقام، هو المُكَنّى عندهم بالفناءِ، فإذا كمل للعبد المتجرد

هذا المعنى فعند ذلك ربما يصير حينئذ بأمر الله تعالى يقول للشَّيْءِ كن فَيَكون.

[إقرار الُوجودِ وإنكارهُ]

اعلم أنك إذا أقررت للوجود أنه منك وأنت منه، فإن الوجود يقرُّ لك أنت منه، وهو منك، فإذا حصل هذا الإقرار بينك وبينه فإنَّ الوجود كله يصير عندك بمنزلة أعضائِك، يتحرَّك بتحركِ هِمَّتك، ويسكن بسُكونها، فإذا صار الأمر هكذا، يصير الوجود فوْقي وسُفلي كله واحد، وأنت ذلك الواحد.

قال الشيخ الششتري رحمه الله في بعض كلامِهِ:

إذا شعرت بالوجود قد لاح في ذاتك هودس ولازم الجحود هذه صفاتك

واضرب بترس العقود وألق عصاتك

لأنَّ هذا الوجود، خلقه الله تبارك وتعالى منك وخلقك منه، يعني كانت نشأته منك في عالِمَ الحقيقة، كما كانت نشأتك منه في عالم الشريعة، لكن فضلك وكرمك عليه حيث جَعَلك أميراً عليه، وجعله تابعاً لهمَّتِكَ، وأمرك وإرادتك، جعلك الله تحكم عليه ولا يحكم عليك الوجود كله مِرْآة مقابلة لك، أحوالك أحواله، وأقوالك أقواله، وأفعالك أفعاله، من غير زيادة ولا نقصان وإذا عطفت عليه وأقررت له بقربه منك عطف عليك وأقرَّ لك بقربك منه وإذا أبعدته منك ونكرت قربه، بَعَدَكَ ونكَرَ قربك منه.

[العز الظاهري]

وأيضاً: أهل العزّ الظاهري الدنياوي يتنافسون، مَن يكون أعلى من صاحبِهِ فبذلك ثبت عزهم أبداً. قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: الآية 20].

[للخصوصية ظاهر وباطن]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخصوصية لها ظاهر وباطنٌ، كما أنَّ العمومية لها ظاهر وباطن، لكن ظاهر العمومية ليس كظاهر الخصوصية، وباطن الخصوصية ليس كباطن العمومية.

وأيضاً: اعلم أنه ما تلاقيا اثنين واحد من أرباب البواطن، وواحد من أهل الرياسة الظاهرية إلا ويظهر بينهما أمر عظيم، وذلك لأنهم أضداد، ولا شكَّ عند ملاقاة الأضداد، تظهر الأمور العظام، إما جلالية أو جمالية.

وأيضاً: اعلم أنَّ الحق متجلياً في كل شيء، ولكن لا تجده إلاَّ في مَوْضع أيقنت أنَّ الحق فيه. وذلك، لأنَّ الحق عند ظن عبده به.

ما رأيت الحق إلاَّ وجدته حقاً، وما رأيت الباطل إلاَّ وجدته باطلاً، ولا زائدة.

[الجذب والسلوك]

وأيضاً: اعلم أنَّ الجذب والسلوك مثلهما كالأشجار، شجرة الجذب لها عروق وفروع، وكذلك شجرة السلوك، لها عروق وفروعٌ، وكل عرْق وفرْع منهما له أثمار.

عروق الجذب هي العلوم اللَّدنية الغيْبية، وأثمار فروع الجذب، هي أن يكون صاحبها بأمر الله تعالى يقول للشي كُن فيكون والكل مواهب وكذلك عروق شجر السلوك تثمر بالعلم الظاهر، وفروعه تثمر بالعمل الظاهري وإن تفاوت أهل السلوك مع أهل الجذب إلاَّ أنَّ أهل السلوك عبادتهم من وراء حجابٍ، وأهل الجذبِ ما بينهم وبين الله حجاب منه إليهم، ومنهم إليه.

المُلْكُ ثلاثة أقْسَام

وأيضاً: اعلم أن المُلك على ثلاثة أقسام:

مُلك أرضي بشري، وملك سماوي روحاني، وملك عَرْشي ملكوتي.

المُلك الأرضي: ملك العامّة، والملك السماوي: ملك الخاصّة، وهم أهْل السلوك. والملك العرشي: مُلك خاصّة الخاصّة، وهم أهل الجذب مع السلوك. وحُكم الجميع واحد. إلاَّ أنَّ أهل الملك الأرضي حكمهم في الأرض فقط، وأهل الملك السماوي حكمهم على أهل السماء والأرض. وأهل الملك العرشي خلائف الحق، أمْرُهُم أمْره وفعلهم فِعله، والكل فضله تعالى، وهو غني عن العالمينَ.

[خلق البشر من مادتين]

وأيضاً: أن هَذَا البَشَر، جعله الله تبارك وتعالى مادَّتين، مادَّة نسِبت للعبودية، ومادَّة نسِبتْ للرّبوبية، والكل من الله وإليه.

المادَّة التي نُسِبت للرّبوبية، هي مادة العزّ بالله، منها دخل على الله أهلُ الجذب.

والمادَّة التي نُسِبَت للعبودية؛ هي الذلّ لله تعالى. منها دخل على الله أهْلُ السُّلوك، وهتان المادَّتَانِ: مادَّة العزِّ بالله، ومادَّة الذّلّ بالله. أبداً يتواردان على السالك وعلى المجذوب، بل ولا على كل أحدٍ. فالحقيقة أبداً. لكن أهل الجذب غلبت

عليهمّ شهودُ العزّ لأجل ذلك نُسِبُوا إليه، وأهل السلوك غلب عليهم شهود الذّل لله تعالى، لأجل ذلك نسبوا إليه، ولذلك تجد أهل الجذب بواطنهم عِزّاً وظواهرهم ذُلاً. وأهل السلوك بالعكس ظواهرهم عِزّاً وبواطنهم ذُلاً، المجذوب مَلِك بالله، والسَّالك مملوك لله. رزقنا الله بَركَة الجميع.

[حِكْمَةُ الصَّمْتِ]

حكمة الصّمت أسرع لقضاء الحوائجِ من الكلام، وذلك، لأنَّ الكلام أنت متصف به مجازياً عارياً لا حقيقة. والصَّمْت وصفك الحقيقي. الكلامُ عِزّ والعِزُّ وصف الحيّ، والصّمْت ذل، والذلّ وصْفكَ، الكلام علوي، والصمت سفلي، وإذا تلاقيا: واحد متكلم والآخر ساكت، الحكم للساكِتِ على كل حالٍ.

[السالك والمجذوب]

وأيضاً: اعلم أنَّ السالك يقرّه العامّة، وينكره أهل الفَنَاء، يعني الخاصة والمجذوب يقرّه الخاصة، وينكره العامة. والسَّالك المجذوب يقرّه العامّة، كما يقرّه الخاصّة. ولما كان هو لا يُنكر أحداً، صار لا ينكره أحد، والإنسان كله، جرتْ عادة الله فيه، أن وصفه يعود عليه، قال جلَّ من قائلٍ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية 139] .

[الحقائق كلها على قسمين]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقائق كلها على قسْمين: جمالية وجلالية، وزيادات الوجود كلها عند اقترانِ الأضدادِ، يعني الجلال والجمال، وهذه الحقائق هي مظاهر الحقّ. وزيادة الوجود أيضاً، تنقسم إلى قسْمَيْنِ: زِيادة حسّية، وزيادة معنوية.

زيادة الحسّ جمالية الظاهر، جلالية الباطن، وزيادة المعْنَى جلالية الظاهر، وجمالية الباطن.

[ظهور الله في الأكوان]

وأيضاً: اعلم أن الله تبارك وتعالى، ظهر في الأكوان كلها بحكمتِهِ وقدرته، والحكمة فَرْق، وهي: كأنها ضِدّ القدْرة، والقدْرة جَمْعٌ، وهي كأنها ضِدّ الحِكمة. وكل من دَخَلَ للحكمةِ، قبل علمهِ بالقدرَةِ فهو مخذول. وكذلك من دخل للقدرة قبل علمه للحكمة، فهو معطول. والعارف الكامل في ساعة البُعْد يتصرف بالحكمة. فيكون

في يده مثل المُوسَى: «السكين الماضي» أو مثل الورقة القصاصة يفتح بها كل شيء.

وفي ساعة القرْب، يتصرف بالقدرة، فتكون في يده مثل الشّاقُور الماضي الثقيل، كل ما ينزل عليه به يسحقه، حتى يصير رَمِيماً لو نزل به على الوجود بأسِرْهِ لانْقَلَب حُكْمه وِفقَ إرادته، كما قال بعضهم: أمري بأمْرِ الله، إن قلتُ كُن يكون.

هذه بعض صفات الرجال، الذين استوى تصرفهم في الأحوال وفي أضدادِها، نفعنا الله بهم، ورزقنا محبَّتهم. آمين.

[السعاية: التسول]

وأيضاً: وجدتُ في السعاية خصْلتان: ليس في الوجود أشرفُ منهما: الأول: ذلّ النفس لله، واستضعافها إليه بين يدي الأقدار؛ وهذه الخصلة هي أشرف الخِصَال، لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝﴾ [القَصَص: الآيتان 5،6] .

والثانية، ذكر الله تعالى، وهي أيضاً أكبر الخصال كلها، لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العَنكبوت: الآية 45] . وهذانِ الخصلتان: ذكر الله والذلّ لله بين يدي عَبِيد الله. لم نجدهما مجموعتين إلا في قول السّاعي: «إمْتَاعَلّلهْ لِلهِ». ولا شك أن ذكر الله ما قرِن بشيء إلاَّ أفناهُ، ولا يَبْقى إلاَّ ذِكر الله. وأما الذلّ لله بإجماع أهل التحقيق والتّدْقيق وهما أرباب الحقيقة وأشياخُهَا وهم مفتاح الفتوحات كلها، ومنشأ الخيراتِ بأجمعها.

وأشياخ الحقيقة رضي الله عنهم: هم المشاهير، مثل أبي الحسن الشّاذلي، وأبي العباس المرسي، وابن عطاء الله، ومنبع سرّهم مولانا عبد السلام بن مشيش، وعبد القادر الجيلاني، وابن وفا، وأبو مدْين الغوث، وسيدي أحمد بن يوسف، ومولانا عبد الله الغزواني، والتباغ، والجَزُولي، وسيدنا عبد الرحمٰن المجذوب، وسيدي يوسف الفاسِي، والشيخ الغزّالي، والإمام الششتري، والإمام الجُنَيْد، وأمثال هؤلاء الرجال متعَنَا الله بهم ورزقنا محبَّتهم آمين.

[أقسام الفقراء]

وأيضاً: اعلم أنّ الله تعالى، أوجد العزّ وجَعله مَنْبَع قدرتهِ، وأضافه إليه. كما أوجد الذلّ وجعله مَنْبَع حكمته، وأضافه لخلقِهِ، والكلّ منه وإليه.

الرّبوبية قائمة بين قدرة وحِكمة، كذلك العبودية قائمة بين حكمة وقدرة. صار العز منه نبعث قدرة جميع الخَلقِ. كما أنَّ الذلّ هو مَنْبَع حِكمتهم، والقدرة قدرته تعالى، كما أن الحِكمَة حكمته تعالى، والكل إهابة منه وفضلاً على عبْدِهِ.

وأيضاً: اعلم أنَّ الفقراء المُنتسبينَ ينقسمُونَ إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هم أهل الانتساب بمجرَّدِ القول جاهلين لا يفقهون شيئاً، ولا يُفرقون بين ظاهر ولا باطن.

والفرقة الثانيّة: أهل ظاهر، لم تَحْصُل لهم ثمرته، ولا يعرفون شيئاً من الباطنِ.

والفرقة الثالثة: أهل ظاهر مع حصول ثمرتهِ ولا يعرفون شيئاً من الباطن.

والفرقة الرابعة: حصل لهم الظاهر، وحصلت لهم ثمرته، وحصّلوا الباطن، ولم تحصل لهم ثمرته.

والفرقة الخامسة: حصلوا الظّاهر، وحصّلوا ثمرتَه كما حصّلوا الباطن، وحصّلوا ثمرته، ويكون بالعكس، حصّلوا الباطن، وحصّلُوا ثمرته، وحصلوا الظاهر، وحصّلوا ثمرتهُ. صاحب هذا المقام: هو الذي قالوا فيه، إنه برْزَخ بين بحرَيْن: بحر الشريعة، وبحر الحقيقة. كما قال المجذوب:

أفـقـيـر وغـنّـي وامـدخ ولا نـرفـد الـحـال بـيـدي
يـمـنـي وعـشـري مـسـرخ نـضـرب بـهـذي وهـذي

[الحقيقة والشّريعة]

وأيضاً: اعلم أن الحقيقة باطنية جمع، والشريعة ظاهرية فرْقٍ. ومهما ظهرتِ الحقيقة بأقوالٍ أو بأفعالٍ، ينقلب جمعها فَرْقاً حتى أنها تؤدي لافتراق الرجل مع أبيه. والرجل مع أخيه وزوجته وأصحابه، وربما تفرقه حتى مع الأشياخ الذين أخذت الحقيقة عنهم وربما تُفرِّق له بين روحه وجسده. وانظر قول القائل:

بـالـسـرِّ إن بـاحُـوا تُـبَـاح دِمَـاؤُهُـمْ وكـذا دِمَـاء الـبـائـحـيـنَ تُـبـاحُ

وكذا الشريعة إذا بطنت بسكوت عن أقوالٍ، أو بهدنة عن أفعال، فإن فرقها ينقلب جمعاً ليحصل لصاحبها التّعْطيل عن جميع الخلائق. حتى لا يَبْرأ منهم إلا إذا كانت له كَرَامات ظاهرة مثل الشمس، وإن لم يكن ذلك لا يسلمون له أبداً، ولا يجد راحة في نفسه من الخلق أبداً، يُؤذونه بألسنتهم، وبأعينهم وبأيديهم وبأرجلهم حتى لا يجد الراحة إلاّ إذا اعتزل منهم.

[صاحب الظاهر وصاحب الباطن]

وأيضاً إذا أنفقت على مولاك صفاتك، أباح لك التمتع بمشاهدة صفاتِهِ وإذا أنفقت على مولاك ذاتَكَ، أباح لك التمتع بمشاهدة ذاته، صاحب الصفات، فناؤه في باطنِهِ ونتائجه في ظواهره، وصاحب الذَّات فناؤُهُ في ظواهره ونتائجه في بواطنِهِ.

صاحب الظاهر اعتماده على القدرة أو على الخلق وصاحب الباطن اعتمادُهُ على ذاتِ الحقِّ. صاحب الظاهر مفروق بجمَعْه، وصاحب الباطن مجموع في فَرْقِهِ. صاحب الظاهر، مفروق عن حضرة ربّه، مجموع على حضرة نَفْسِهِ، صاحب الباطن مجموع على حضرة ربّه، مفروق عن حضرة نفسهِ. والذات لا تظفر بها إلاَّ بفناءِ الصفات في الذَّاتِ كما أنَّ الصفات لا تظفر بها إلاَّ بفناءِ الذاتِ في الصفاتِ، وفناء الصفات لا يكون إلاَّ بفناءِ الذَّاتِ كما أنَّ فناء الذَّات، لا يكون إلاَّ بفناءِ الصفات.

[فضل الصمت على الكلام]

وأيضاً، الكلامُ علوي، والصّمْت سُفْلي، والصمت إذا كان عن عِلْم فهو أعلى من الكلام وأشرف، والكلام إذا كان عن جَهْل، فهو أوضع من الصمت وأحقر منه، صار السفلي حقاً هو الكلام عن جهل، كما أن العلوّ حقاً هو الصّمت عن علم. صاحب الصمت عن علم، يملك الوجود بأسْرِهِ، عُلوِيَ وسفلي يفعل فيه بأمر الله ما شاء. وصاحب الكلام عَن جَهْل مملوك للوجود بأسره، عُلْوي وسُفلي، يفعل به الوجودُ ما شاء. حاصل هذا المعنى: أن صاحب الصمت عن علم مَلِك حقيقة، حين كان مجموعاً في جمعه، مفروقاً في فَرْقِهِ، وصاحب الكلام عن جَهْلٍ مملوك شريعة، حين كان مفروقاً عن جمعه مجموعاً في فَرْقِهِ. واختلفوا في الكلام عن علْم، هل هو أفضل من الصمت عن جهل، أو بالعكس. من النَّاس من قال: الصَّمْت عن جَهْل أشرف. ومنهم من قال: الكلام عن عِلم أشرف. وهو لا محالة أنَّ الكلام عن علم أشرف من الصمت عن جَهْلٍ على كل حال.

مثل صاحب الصّمت عن جَهْلٍ، كضبع لابساً جلد أسَدٍ. ومثل صاحب الكلام عن علم بالعكس. الأول لا يُفضح ولا يُحَقَّرُ حتى يتكلَّم. والثاني لا يُعرف قدره، ويُعظَّم حتى يتكلم، وصاحب الصمت عن علم أسَدٌ ظاهراً وباطناً، قلباً وقالباً، كما أنَّ صاحب الكلام عن جَهْل ضبعٌ قلباً وقالباً ظَاهِراً وباطِناً.

[الفَرْق جلالي، والجمع جَمَالِي]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفَرْق جلالي، والجمع جمالي. وكل ما هو بظاهرك جمال

جمع بباطنك جلال فَرْق. وكل ما بظاهرك جلال فَرْق بباطنك جمال جمع. هكذا جرت سنة الله في عباده. وكلما أخذ الفرق الجلالي في ظاهرك والجمع الجمالي في باطنك، ينعكس الأمر حتى يأخذ الجمع الجمالي في ظاهرك. والفرْق الجلالي في باطنك، فباطنك مأخوذ ضده منك، وهو الحال الذي قبله. فمن وقع ذلك به قهراً ليس كلامنا عليه وإنما كلامنا على السالك اختياراً. فالمجذوب: وهو من ملك نفسه، أو من ملَّكها لأحد من أرباب الفنّ، لأنَّ النفس إذا ملكها صاحبها، فإنها تصير مطاوعة في كل ما يفعل بها.

وأما المملوكون في أيْدي نفوسهم، ليس كلامنا عليهم.

والإنسان لا يَخْلُو، إمَّا أن تملكه نفسه، أو يملكها هو، وعلامة ملكيتِها بِيَد صاحبها، هو أن يكون إن شاء ألبَسها الفرْق الجلالي في ظاهرها فيبقى أن يكون الجمع الجمالي حينئذٍ في باطنها، وإن شاء عكس.

لمَّا يُلبِسها الجمع الجمالي في ظاهرها، فيبقى الفرق الجمالي في باطنها، فتَصِيرُ نفسه مملوكة بِيَده، مثل الفرسِ المُرَيَّض المربى، عند الأمر والنَهي. وكلّ من ادَّعى السلوك في الجذبِ، ولم يُرَيِّض نفسه على لبْس الفَرْق الجلالي، فإن الجلالة تبقى في ظاهرها زمناً طويلاً حتى يظهر صدق تهذيبها إليك، والخلق كلهم خصوصاً وعموماً، كل من ادَّعاه فدعواه باطلة، وهو مخدوع خدعته نفسه، ولَعِبتْ به، لأن النفس مجبولة على حُبّ الجمع الجمالي، فظواهرها عند أهل الطريقة حرام على المريد في بدايته.

قال في القوانين[1]: مَنِ ادّعى شهود الجمالِ، قبل تأدّبِهِ بالجلالِ، أرْفُضْهُ فإنَّه دَجَّال. وانظر قول الشاذلي رحمه الله: اللّهُمَّ إن القوم قد حكمت عليهم بالذّلّ حتى عَزُّوا، وحكمت عليهم بالفَقْدِ حتى وجَدُوا. صار من لا ذلَّ له لا عِزَّ له، ومن لا فقد له لا وجْد له. ومن ادّعى العزَّ من غير ذلّ فهو مخدوع، ومن ادَّعى الوجْد من غير فَقْدٍ فهو كاذبٌ.

هذه بعض الأصول، من أصول الطريقة؛ التي ليس للمريدين مسلك إلا عليها، وإنَّ الكمال ليس هو في الفرق الظاهري ولا في الجمع الباطني، ولا بالعكس. وإنما هو في استوائهما، حتى يكون سواء عند النفس، وجودها وفقدها.

[أهل الأسباب وأهل التجريد]

وأيضاً: أهل الأسباب سلكوا ذلّهم بالصفاتِ، وجَدوا عِزَّهم بالصفات. وأهل

(1) يشير إلى كتاب «قوانين حكم الإشراف» لأبي المواهب الشاذلي.

التجريد بالعكس، سلكوا ذُلَّهُم بالذَّاتِ، وجدوا عِزَّهم بالذَّاتِ.

أهل الأسباب، لمَّا كان ذُلّهم معنوي، صار اجتهادهم حِسِّي. وأهل التجريد، لما كان ذُلّهم حسِّي، صار اجتهادهم معنوي. وصاحب الاجتهادِ الحسِّي مفروقٌ أبداً. وصاحب الاجتهاد المعنوي مجموع أبداً، فلذلك دامَ سُرُورهُ وبَسْطه، وصاحب الاجتهاد الحسِّي مفروق أبداً، فلذلك دام حُزْنُهُ وقَبْضهُ.

[العَارِفُ بِالله الكَامل يَمْلِكُ الأشياءَ بأضدادِها]

وأيضاً: العارف بالله الكامل، هو الذي يَمْلِك الوجود وأهله بالأشياء، كما يملكه وأهله بأضدادها، إذا سكت يَمْلك الوجود بسكوتِهِ، وإذا تكلَّم يملك الوجود بكلامه، وإذا اجتمع يملك الوجود باجتماعه، وإذا تفرّق يملكه بافتراقه. ويملكه بالذّلّ كما يَمْلكه بالعزِّ، ويملكه بالقرب كما يملكهُ بالبُعْدِ، ويملكه بالبسطِ كما يملكه بالقبضِ، ويملكه بالخير كما يملكه بالشرّ، ويملكه بالعطاء كما يملكه بالمَنْع، ويملكه بالسكون كما يملكه بالحركة، ويملكه بأدْنَى شيء كما يملكه بأعلى شَيْءٍ. إلى ما لا نهاية له من الأضداد، وكُلُّ مَنْ يملك الأشياء بحالٍ ولم يملكها بضدِّهِ فهو محتاج إلى خِدمة الرجال، وتقبيل الأرض بين أيديهم أحَبَّ أم كره.

[العُزْلة الكُبرى والصُّغْرى]

وأيضاً اعلم أنَّ الطيور على قسمين: طيور الحسّ، وطيور المعْنَى. طيور الحسِّ تصطاد بشكبة الأحبال والأوتار، وطيور المعنى تصطاد بشبكة الاعْتِزال والأفكار، أو بمجالسة الكبار، إن وُجدوا. وقليل ما هم. طيور الحس تصطاد الحسَّ في مرْج الغروس، لتتغذّى بها الأشباح، وطيور المعنى تصطاد بمدفع المعنى في مرج النفوس، لتتغذّى بها الأرواح.

طيورُ الحسِّ تسرَحُ وتَرُوح في علم الظواهر بالجناح، وطيور المعنى تسرَحُ في عالَم البواطِنِ وتروح لملكوتِ الأرواحِ.

العزلة الصَّادقة الكاملة، بَذْل مجالسة الحماق بمجالسة أهل الصدق الطالبين لمشاهدة الخلاق.

والعُزْلة الصَّغرى عند ضعفاء أهل التصديق، اعتزالك في البراري من جميع الخلق: عدوّ وصديق. العُزْلة بالقُلُوب دون الأشباح، من وصف الأقوياء الماهرين المتعشّشين في عَالَم الأرواح. والعُزلة بالأشباح دون القلوب، من وصْف الزهّاد

الفارّين بنفوسهم لعالم الغيوب. والمعْتزل بقلبه وبدنِهِ سالمٌ من كل آفةٍ، إلاَّ أنه حازَ فضل الفذِّ، وفاته فضل الجماعة. قَوْم يجدون التكليف في التكليف وقومٌ لا يجدون الراحة من التكليف إلاَّ في التكليف، والتكليف حقاً عندهم هو عَدَم التكليف.

[الناس على ثلاثة أنواع]

وأيضاً: الناس على ثلاثة أنواع: العامة، وهم أهل حقائق، متعطشين للشرائع. والخاصَّة: وهم أهل شرائع، متعطشين لشرائع الحقائق. وخاصَّة الخاصَّة: وهم أهل حقائق متعطشين للشرائعِ، وهذه الثلاثة مراتِبِ لا يحسب أحد أنه حاز واحدة منها إلاَّ إذا ظهر عليه أثر فِعْلها، لا قَوْلها. وذلك لأنَّ الأقوال إخبار بالفنّ والأفعال هو الفن بنفْسهِ. العامَّة لمَّا حازوا الفِعل بالحقائق، وفعلهم بها عن تقليد، فبذلك صاروا عواماً. والخاصة لما حازوا الفعل بالشريعة وفِعلهم بها عن أدِلَّة وبَرَاهين، فبذلك صاروا خصوصاً. وخاصة الخاصة لما حازوا الفعل بالحقائق، وفِعلهم بها عن مشاهدة وعيانٍ، فبذلك صاروا خاصَّة الخاصة. أهل هذه الحضرة، يعني حضرة العيَان رضي الله عنهم، إذا نظروا لحبيبهم، نظروا إليه بلا عِلَّةٍ، معششين في مقام الإحسان. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91].

[السَّخَاء بالنَّفْسِ أو الفِلْسِ لِمَلِك الوُجُودِ]

وأيضاً: من أراد أن يَمْلك الوجود بأسره، فليَسْخَ بنفسه أو بِفِلْسه، إلاَّ أنَّ السَّاخي بنفسه يَمْلك التصرف بالمغيبات حتى يكون الغَيْب طوْع يديه، والسَّاخي بفلسه يملك التصرف بظواهر الأشياء حتى يكون الخلْقُ تحت أمْرِهِ ونَهْيِهِ.

[أهل الظاهر وأهل الباطن
كلاهما لا يعبئان بما أتى كل منهما به]

وأيضاً: إعلم أنَّ أهل الظاهر لا يعبؤونَ بالباطن، ولا بِمَن أتى به. كما أنَّ أهل الباطن لا يعبؤُونَ بالظاهر ولا بمن أتى به. قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 53].

والعارف الكامل يُعْطي لكل ذي حقّ حقَّهُ، ويوفي كُلّ ذي قسْط قسْطهُ. يلاحظ أهل الظواهر بظواهرهم حتى يملكهم بذلك، أحَبّوا أم كَرِهُوا، ويلاحظ أهل الباطن ببواطنهم حتى يملكهم بذلك أحبُّوا أم كَرِهوا. فإذا فرغ منهم باثنين، فعند ذلك يَبْسط يده على الوجود بأسره فيحصره: علوي وسفلي. العلوي يأخُذه بسَيْف العُلْويات،

والسفلي يأخذه بسَيْفِ السفليات. عند ذلك يصير بأمر الله تعالى خليفةً على تلك البلادِ والعباد. يدبِّر في مُلكه ما أرَاد. قال الشاعر في هذا المعنى[1]:

يـا تَـائِـهـاً فـي مَـهْـمَـه عـن سـرِّهِ　　أنـظُـرْ تَـجِـدْ فِـيـكَ الـوجـودَ بـأسْـرِهِ
أنـت الـكـمـال طـريـقـة وحـقـيـقـة　　يـا جـامـعـاً سِـرَّ الإلـه بـأسْـرِهِ
غيره من لـم يعش بيـن أقوام يسرّ　　بـهـم بـدهـره أبـداً هـمٌّ وأحـزان
فأخبثُ العيش ما لـلـنَّاس فيه أذى　　وبَـسْـط الـجِـنـان مـع الأعـداء نـيـران
وأطيب العيْش ما للنفس فيه هوى　　سَـمُّ الـخـيـاطِ مَـعَ الأحْـبَـاب مَـيـدانُ

شِعر آخر:

لا يـمـرح الـنَّـاسُ سِـوَى بـيْـنَـنـا　　ومـن نَـهَـى عـنـهـم ومـن بَـانَـا
لـو مـاتَ إبـلـيـس عـلـى ظُـلْـمِـهِ　　لـقـيـل أحْـسَـن مـا كَـانَـا

شعر آخر:

قَـنَـعْـنَـا بِـنـا عـن كُـلِّ مـا لا يُـرِيـدُنـا　　وإن كـمَـلـت أخْـلاقـه ونُـعُـوتـهُ

شعر آخر:

لـعـداوة مـن غـافـلٍ ذي فِـطْـنـةٍ　　أحْلَى وأعْذبُ من صَدَاقة جاهلِ

شعر آخر:

سأكْتُمُ عِلْمِي عَن ذَوِي الجَهْلِ طَاقَتِي　　ولا أنْثُر الدّرّ النفيس على البهم
فـإنْ قَـدَّرَ الـلّـهُ الـكَـريـم بـلُـطْـفِـهِ　　ولاقيـت أهـلاً لـلـعـلـوم لـلـحِـكَـمِ
بَذَلْت علومي واستفدتْ عُلُومَهُمْ　　وإلاَّ فَـمَـخْـزونٌ لَـدَيَّ ومَـكْـتَـتـمُ
فَمَنْ مَنَعَ الـجُهَّال عِـلـمـاً أضَـاعَـهُ　　ومَنْ مَنَعَ المُسْتوجِبينَ فَقَدْ ظَلَمْ

شعر آخر:

تَـقَـدَّمـت الأرْذال مـن طَـبْـعِـهَـا　　تَـصُـدُّ الأفَـاضِـل عَـن نَـفْـعِـهَـا

شعر آخر:

إذا أنكـر الـجـهـال حـالـي بِـقَـوْلِـهِـم　　وقالوا طروس الفقه تَشْهَد بالنَّقْلِ
أقـول لـهُـمْ: إنَّ الـعـلـومَ مـواهـبٌ　　خَصَائها تغنِي عن الكتب والنقل

شعر آخر:

---

(1) ثبت في حاشية الأصل عبارة «الأبيات الأولى وجدتها ممحوة لا تقرأ فتركتها، وكتبت آخرها».

ومقعد قوم قد مَشَى من شرابنا وأعْمَى سقيناهُ ثلاثاً فأبْصرا
وأخْرَس لم ينطق ثمانين حجة أدَرْنَا عليه الرّاح يوماً فأخبرا
وآخر بَيْنَ النّاس لا يعرفونَه سُقِي قطرَةً من خَمْرنا فتحيَّرَا
وميّت دعا الساقي به فأجابهُ وسبَّح للصَّهباءِ طوعاً وكَبَّرَا
فَلَو عَايَنَ الرُّهْبَان سرعة بعثهِ لصلّوا له مثل المسيح أو أكثرا
فخمرتنا التقوى وعاصِرها الحجا ولا تَحْسِبَنها خَمْرَ كِسْرَى وقيصَرَا

الفتحُ الأول

وأيضاً: اعلم، وفّقني الله وإياكم يا إخوان، لا تنكروا فضل العوام، والله ما فتح إليّ الباب إلاّ على يد رجل عامي جاهل من عوام المسلمين فاتت له أيام كان يراقب فيها أحد العارفين. فلما اجتمعت مع ذلك العامي مُصادفة من غير قصد، وكنت ذلك الوقت واقفاً ملتصقاً بالباب، أدُق عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، فلمّا أراد الله أن يفتحه إليّ، اجتمعت مع ذلك العامي بقرب الباب، وفي يده المفتاح، وهو لا يدري ما الباب وما المفتاح. ألهمني الله، تبارك وتعالى، إليه، فمددت يدي إليه لنأخذه على أن أقيسَه على الباب هل تفتح أم لا، فدفعه إليّ ذلك العامي؛ وهو زاهد فيه، لا يعرف له قدراً. فأدخلت المفتاح في الباب، فانفتح الباب، فدخلت في الحين فكنت أول نهاري مع العوام، وآخر نهاري مع الخصوص، فلما دخلت سجدت وقلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: الآية 34] فالمنّةِ لله ورسوله ﷺ. وأصل ذلك كله، أني كنت أُكْثر زيارة الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به وبأمثاله، وهذا الباب الذي ذكرنا هو باب الفناء، ليس للداخل عنه محيد، ولا ننكر المربّي الذي ربّانا بعد الدخول، جزاه الله عنا خيراً.

جَمَعَنا الله تبارك وتعالى به بعد الدخول، ومما قال لي الشيخ رضي الله عنه، قال: يا ولدي، شتّان بين من يُضيّق على نفسه الحقيقة، ويعيش دائماً بين الضيْق، وبين من يُوسّع على نفسه الحقيقة ويعيش دائماً في السّعة، بينهما فرْق عظيم لا يعرفه إلاّ الحكماء العارفون.

وتوسيع الحقيقة يطلب من المتوجهين في الحسّ وفي المَعْنَى، من ضيّق على نفسه الحقيقة، في الحسّ أو في المعنى تضيق عليه، ويعيش في ضيق وهَمّ ونكادٍ. ومن وسّع على نفسه وُسّع عليه، ويعيش في سعَة وهناءٍ وعيْش رغَدٍ.

[من ترفع همتك عنه]

وأيضاً: كل من ترفع همّتك عنه حتماً يعشقك ويطلبك، وكل من تعشقه وتطلبه حتماً يرفع همّته عنك. جرت سنّة الله بذلك.

ومما قال لي الشيخ نفعنا الله به، قال لي: يا ولدي، الدنيا ما أغنَتْ مولاها قط، الغِنَى لا يكون إلاّ بالله.

[صاحب المُلك الظاهري والباطني]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب المُلك الظاهري، لا يثبت مُلْكهُ ولا يستقيم تصرفه، حتى يكون عبداً لملوكِ الباطنِ، مملوكاً لهم، عند أمْرهم ونهيهم. فعند ذلك يصير يتصرف في مُلكك كما يشاء.

صار صاحب الباطن مملوكاً لصاحب الظّاهر في ظاهره، وصاحب الظاهر مملوكاً لصاحب الباطن في باطنِهِ. صاحب الظاهر لا يقوم ملكه إلاّ بموافقة مُقابِلِه، وهو مَلِك الباطن، وصاحب الباطِن لا يقوم ملكهُ إلاّ بموافقة مقابله؛ وهو مَلِك الظّاهر. هذا لا غناء له عن الخضوع لهذا، وهذا لا غناء له عن الخضوع لهذا، وهكذا.

[الإنسان في الشتاء والصيف]

وأيضاً: حكمته في الأمر، أن الإنسان في الشتاء ثُلثَا طعام، وثلث ماء. وفي الصيف بالعكس، يعني ثلثا ماءٍ وثلث طعام. والخريف والرّبيع زيادة الأضدادِ تنتهي أضدادها. سبحان الحكيم العليم.

[دخول الحضرة الإلٰهية كدخول الجنة في الشروط]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحضرة الإلٰهية مثل الجنة لا يدخلها صاحب حسَدٍ، ولا صاحب بُغْضٍ، ولا صاحب غلولٍ، ولا صاحب غضَبٍ، ولا صاحب هَمٍّ، ولا صاحب نكادٍ. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿47﴾﴾ [الحِجر: الآية 47].

[الرياسة الباطنية والظاهرية]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الحقيقة ينبغي له أن لا يكون كلامه وخطابه وإشارته إلاّ مع أهل الرياسة ـ أهل الشرائع خدّام لأهل الحقائق ـ. الظاهرة تقول: الثور لا يحرث إلاّ مع قرينِهِ.

أهل الحقائق، أهل رياسة باطنية غَيْبيّة، وأهل المخزن أهل رياسة ظاهرية حاضرية. وبالجملة؛ كلهم أهل حقائق، إلاّ أن حقيقة المخزن نُسِبَت للمخلوقِ ومن ذلك صارت ظلمانية، وحقيقة أهل الله نسبَت إلى الله، من ذلك صارت نورانية. وفي الأصل، الكلّ لله وبالله، لا شيء إلاّ الله والوجود كُلّه بين أهل رياسة ظاهرية وأهل رياسة باطنية فقط. كل ما اتفقوا عليه واجتمعت كلمتهم عليه، كان الوجود كله تابعاً لهم.

أهل الحقائق في الوجود بمنزلة الرأس من الجسد، وأهل الشرائع، أعني شرائع العامة، وأهل شرائع الخاصّة بمنزلة الجوارح. ولا شك أن الرأس لا يقوم أمره إلاّ بالجوارح كما أن الجوارح لا يقوم أمرها إلاّ بالرأسِ. ولكن الخطاب والأمر والنهي للرأس على الجوارح، والجوارح ما لها حُكمٌ على الرأسِ، فكأنَّ الرأس سلطانٌ، والجوارح خدَّامٌ. كذلك أهل الحقائق، جعلهم الله ملوكاً أخراراً، كما جعل أهل الشرائع مماليك عبيدٍ. وإن كانت حريّة أهْل الحقائق أخذوا من عُبُودية أهل الشرائع، كما أنَّ عبودية أهل الشرائع أخذوا من حرية أهل الحقائق. لكن كل واحدٍ يُحكم له بمرتبته في الوقت.

وأهل الشرائع أيضاً على قسمين: أهل شرائع الخاصّة، وأهل شرائع العامّة.

أهل شرائع العامّة: هم أهل الحِرف والصنائع، وهم خدَّام لأهل الحقائق الظلمانية.

وأهل شرائع الخاصّة: هم أهل العلم الظاهر، وأهل العمل الظاهر. وهما خدَّام لأهل الله تعالى. نَفَعنا الله بالجميع.

[طريقتنا جلالية الظاهر جمالية الباطن]

وأيضاً: طريقتنا هذه، جلالية الظاهر، جمالية الباطن، صاحبها لا يتضعضع لأحدٍ إلا لمولاهُ. ولا يَفُتُّه أحد من كلامه ولا من نظره حتى إنه لو دعي في بعض الأوقات لم يُخِفْهُ نَفَس الملوك وحالة المساكين وذلك لأنها طريق عين الوحدة. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: الآيات 1-4] . صاحب هذا الطريق كلما ازداد جلالاً في ظاهره، فذلك شربه على قدره يزداد جمالاً في باطنه. هذه طريق الباطن، والباطن مقابل للملك الظاهر، كل ما يليق بملك الظّاهر يليق بالملك الباطني.

وأيضاً: الباطن يوجد بما يوجد به النَّوْم، ويذهب بما يذهب به النَّوْم، أي الباطن

يوجد بما يوجد به النوم، ويعدم بما يُعدم به النوم.

كما أنّه بكَثرة الكلام في المكان يذهب النوم عن النّائم ولا يجده، كذلك إذا كَثُر الكلام بين يدي صاحب الباطِنِ يذهب له باطنهُ. فلا يجد له أثراً كما أنَّ النوم أيضاً يُوجد مع العُزْلة، كذلك الباطن يوجد مع العزلة لصاحب الباطن، وكما أنَّ النوم يذهب عن صاحبه بكثرة الفرح أو ضِدّه، وهو كثرة الهَمّ والنكادِ، كذلك صاحب الباطِنِ إذا كان ببَدنِهِ وجع، فإن باطنه يذهب حتى لا يجد له أثراً.

حاصِله: كل ما يبطل به النوم، يبطل به الباطن، حكمة الله. انظر كلام الششتري رحمه الله تعالى حيث قال في بعض قصائده في شأنِ الباطِنِ:

فلي محبوب إنما هو غيوز تـراه يطل كطير حزوز

إن رأى في القلب شيئاً امتنع أنْ يَزوزْ

[الركون]

وأيضاً: النجدة لصاحب طريقتنا هذه: الرُكون لأعلى شيءٍ في الظّاهر، لا يكون ذلك إلاَّ بمرافقة رؤساء أهل العلويات. وإلاَّ فالنجاة له أيضاً في الرُكُونِ لأسفل شيءٍ في الظاهر أيضاً، ولا يكون ذلك أيضاً إلاَّ بمرافقة رؤساء أهل السفليات.

ترى صاحب الحقيقة ما له مهرب ولا ملجأ إلاَّ لهذين الوجهتين فقط. وأما إذا لم ينحَزْ لأحد هذين الوجهتين، وبقي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فإن أهل الشرع يأخذونه أخذاً وبيلاً، ويمزّقوا عرْضه وبَدنه. انظر قول شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب نفعنا الله به حيث قال:

أهْل الحقيقة يُعززونَا وأهْل الشريعة يحرّقُونَا

وكل مَنْ هُلِكَ من أهل الحقيقة ما كان سبب هلاكه إلاَّ أنه لم يَنْحَزْ لأهل العلويات، ولا لأهل السّفليات، وبقي يتردَّدُ بينهما حتى أُخِذ، مثل الحلاج وأمثاله ممَّن سلك هذا الطريق، وكل من نجا من أهل هذه الطريق، أعني طريق الحقيقة، تجده أخذ بأسفل السّفليات أو بأعلى العلويات.

[من عقد عقدة مع أهل الحقيقة]

وأيضاً: من عقد مع أهل الحقيقة فعقده صحيح، الأمير وأتباعه، وأتباع أتباعه، كلهم كرجل واحدٍ، والقَطْبُ وأتباعه، وأتباع أتباعهِ، كرجل واحدٍ أيضاً. ومهما تعاقد رجل من أهل الرياسة الظاهرية مع رجل من أهل الله بشيءٍ، أو على شيءٍ، فعَقَدهُمَا

صحيح، ويشمل أهل الله كلهم، ويشمل أهل الرياسة كلهم.

وكذلك إذا خَانَ رَجُلٌ من أهل الرياسة رجلاً من أهل الله في العَهْد، حكم ذلك واحدٌ. كأنَّ أهل الرياسة كلهم خانوا الله تعالى. هذا قياس صحيح مأخوذ من الحقيقة.

وأيضاً: سمعت الشيخ، نفعنا الله به، يقول: من أرَاد أن يرى الحُجُب فليفعل الحُجَب يرى الحجب، ومن أراد أن تخرق له الحجبُ وهو لا يفعل ما يخرق الحجب فهو كمن أراد أن يجني من الشوك العنب.

[إعراضك للخلق]

وأيضاً: اعلم أنك ما أعرضتَ عن الفرْق إلاَّ توجَّهت للجمْعِ، وما أعرضت عن الجمع إلاَّ توجهتِ للفَرْقِ، لا ثالث لهما. والوجهة التي تتوجه إليها بهمّتك يمدك مولاك منها وتجدها عاشقة لك، مشتاقة إليك أكثر من اشتياقك إليها.

الغَيْب والحُضور يتزاحمان على الإنسان تَزَاحم الزَّوجتَين على زوجهما. من ظفرت بالزوج دون الأخرى تفتخر على شريكتها به، عن كل حضرة الغيب على الحضور إذا أظفرت بالإنسان دون الأخرى والإنسان معشوق بينهما، ولا في الوجود حقيقة إلاَّ الله.

واعلم، أنَّ كل ما تتوجَّه إليه لا يكون ابتداؤه إلاَّ شبيهاً بالمزَاحِ، وآخره جِدّ، جرت عادة الله أن الجدّ لا يخرج إلاَّ من المزاح، كما أن المزاح لا يخرج إلاَّ من الجدّ. لكن الغالب على الأمور أنَّ البداية لا تكون إلاَّ كأنها مزاح، والنهاية جد، والأشياء كلها حتماً لا تخرج عن أضدادها، وهكذا.

[الحقائق كلها ظاهرية وباطنية]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقائق كلها ظاهرية وباطنية، كلها زَرَاريع تُزْرع في أرض النُّفُوس، ماؤُها صدق الطلبِ، به تُسْقى، وثمارها الشرائع.

من غرَس الحقائق، وهي جمع، لا تثمر إلاَّ بضدها، وهي الشرائع، والشرائع فَرْق، لا تثمر إلاَّ بضدها أيضاً. صار الجمع يثمر بالفرقِ كما أنَّ الفرْق لا يثمر إلاَّ بالجمعِ.

[الكلف وعدمه]

وأيضاً: الكُلَف صفة الفرْق، وعدم الكُلَف صفة الجمع.

اعلم أنَّ الكلف صفة من أوصاف الفرقِ، وعدَم الكُلَف صفة من أوْصَاف الجمع. والفرْق عبودية وهو حق، والجمع ربوبية وهو حق أيضاً. صار الحق هو القائل وهو المستمعُ لما قالَ. لأجل هذا المعنى تجد هؤلاء المتوجهين إلى الله تعالى من غلب عليه شهود الجمع تجده في غاية البَسْطِ والرّاحةِ من الكُلفِ، ومن غلب عليه شهود الفرْقِ تجده في غاية الجمعِ والقبض والتّعَب والكُلَف، يرحم الله ابن عربي الحاتمي إذ قال:

الـرَّبُّ حـقّ والـعـبـد حـقّ ... يـا لـيْـتَ شِـعْـري مَـنِ الـمُـكَـلَّـفُ

إن قـيـلَ عـبْـد فـالـعَـبْـد مـيْـتٌ ... أوْ قـيـل رَبٌ أنّـى يـكَـلَّـفُ

وقد أجابه سيدي عبد الرحمٰن الفاسي، نفعنا الله بالجميع، بقوله:

نَـعَـمْ بـحـق إثـبـاتِ عـبـد ... لِـنَـعْـتِ فَـربٌّ مـعـه يُـكَـلَّـفُ

والـعَـبْـد مـيّـت بِـغـيـر ربٌ ... بِـسِّـرِ عَـوْنٍ مـنـه يُـكَـلَّـفُ

[الجاهل والسكران، والعارف المميز]

وأيضاً: اعلم أنَّ الجاهل ما غاب عليه حالٌ، إلاّ غاب فيه عَنْ غيره، والسكرانُ هو من الجهل والتلف.

الله تعالى جعل هذا الإنسان مجموعاً أبداً، مفروقاً أبداً، ولكن تارة يتغلّب جَمْعه على فَرْقه، وتارة يتغلب فَرْقه على جَمْعِهِ. والذي غَلَب على الآخر الحكم له في الوقت. إذا غَلَب جمعه على فَرْقِهِ يكون الحُكم للعلم على العمل. العارف يفهم ذلك من نَفْسه، ومن غيره. ويعرف ما زاد وما نَقَصَ. والجاهل ما غلب عليه حال إلاّ تلف فيه عن غيره. حتى كأنه ينكر كل ما سواه. والسكران هو عيْن الجهل والتلف. لأجل هذا المعنى تجد كثيراً من المتفَقّرة الذين أخذوا الفن عَملاً من غير علم مسجونين محصورين محجوبين بما في أيديهم من العمل حتى يظنّ كثير منهم أنهُ لا خَيْر في الوجود إلاّ فيما في أيديهم، وذلك من جَهْلهم بالله، كأنهم يُحَجِّرون القدرة الأزلية. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية 85] وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: الآية 9]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية 28] عصمنا الله من ملاقاةِ الذين ضلّوا وأضلّوا.

لأجل هذا المعنى كان الشيخ رحمه الله تعالى كثيراً ما يقول لي: يا ولدي الفقير الكامل هو الذي يكون رأسُ مالِهِ معانِي، كما قال بعضهم: اجْعل عملك مِلحاً، وأدبك دقيقاً، والأدَبُ هو المعاني والمعاني هي العِلْم. شَتّان بين الفقير الذي يكون علمه تابعاً

لعمَلِهِ ومن يكون عمَله تابعاً لعِلمه، الأولُ عالمٌ بِعِلْمِه، والثاني عامل بعمله. وكيف يكون العمل والعلم به يشبه العلم والعمل به، وبعد هذا كل من تراه من المتوجهين دام على حالةٍ واحدة، فاعلم أنه محجوب بيَده عن مولاه، لأن كل من واجَهته الحقيقة لا بد أن يتلوَّن بتلوّنها، «المرءُ على دين خليله» الحديث. إذا كان الإنسان حتماً يتلوَّن بتلوّن شخص مثله إذا رافقه، فكيف بمُرَافقته لحقيقة الحقائق. قال الششتري في بعض كلامه: وغايتي في الحبِّ أن أتلَوَّنَ.

[الكامل من الأقوياء]

وأيضاً: اعلم أنَّ الكامِلَ في الأقوياء، هو الذي يسير بسير الضعفاء، الكامل هو الذي يتنزَّل للضعفاءِ، حتى يُنْتَفع منه، يتنزَّل من أعلى مَنْزِلةٍ إلى أسْفل منازل الضعفاء، ويسير معهم على قدر أحوالهم. إذا كان هكذا يصير ينتفع منه الفريقان، يمُدّ الأقوياء في أعلى منازلهم ويمد الضعفاء في أسفل منازلهم: «حدّثوا الناس على قدر ما يفهمُون»[1] الحديث.

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الحقيقة، يغيرُون عليها من الظهور أكثر منْ غيْرتهم على ظهور عَوْرَتهم وعورة نِسَائهم.

[الخصوصية كلها ذكر]

وأيضاً: الخصوصية كلها ذكر الله. اعلم أنَّ الخصوصية كلها أذكاراً. قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العَنكبوت: الآية 45] إلاَّ أن الخصوصية تنقسم على قسمين: خصوصية ظاهرية وهي ذكر حسِّي مصحوب بالمعاني، وخصوصية باطنية وهي ذكر معنوي مصحوب بالحسيات. والإنسان ذاته مشتملة على جوارح حسية، وجوارح معنوية. إذا كانت خصوصية المخصوص ظاهرية تكون عبادته بالجوارح الظاهرية الحسِّية والجوارح المعنوية بحسب التَّبَع لها. وإذا كان المخصوص خصوصيته باطنية تكون عبادته بالجوارح الباطنية المعنوية، والجوارح الحسية بحسب التبع لها. وحُكم الخصوصية الظاهرية كحكم الخصوصية الباطنية، وبالعكس، حكم الباطنية كحكم الظاهرية إلاَّ أنَّ الظاهرية فرْق، والباطنية جَمْعٌ. والعارف بالله فرْقه جمعه، وجمعه فَرْقه.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، حديث رقم (127) [1/ 59] ولفظه حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله».

وأيضاً: لا يكون العارف عارفاً حتى تشرق عليه شموس المعارف، ومَنْ لم يُفِقْه الهوى فهو في جَهْلٍ.

[ما أحببت شيئاً إلا أمدك الله منه، وبالعكس]

وأيضاً: ما أحببت شيئاً إلاَّ أمدَّك مولاكَ بِهِ منه. انظر قول الششتري رحمه الله:

من ايلوا محبوب يرى عجب صفات الحقّ تجهلُوْا

وذلك، لأنَّ كل ما تطلب، طلبت إياه به منه، وأنت أنت وهو سَوَاء، علمت ذلك أم جهلته. هذا من جهته، لا من جهتك. وأما من جهتك فشتَّان ما بين العالم والجاهل ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 9].

[شرف أصول الأشياء وتلونها]

وأيضاً: مما يدلك على كمال شرف أصُول الأشياء، إن كنت تَفْهم، هو تطورها في الأحوال، كل وقت تتطور بطورٍ خلاف ما كان قبله، وذلك لأنَّ الأصل شريف عظيم كبير كريم حليمٌ إلى ما لا ينحصر من كمال شرف أصله، قال الششتري في بعض كلامه:

«وغايتي في الحبّ أن أتلَوَّنَ»

وقال ابن الفارض في بعض كلامه في الحضرة:

يقولون لي صِفْها فأنْتَ بِوَصفِها خبير أجَلْ عِنْدِي بأوْصَافِها قِدْمُ

صَفَاءٌ ولا مَاءٌ ولطف ولا هَوَى ونُورٌ ولا نَارٌ ورُوحٌ ولا جِسْمُ

نَفَعَنا الله بهم أجْمَعين. هذا سواء تفرقت أو اجتمعت، العارف باجتماعه حصل على خير تفريقها، والجاهل فافتراقه تلف عن خَيْر جَمْعها.

[العمل والأدب]

وأيضاً: قال بعضهم: اجعل عملك ملحاً، وأدبَك دقيقاً. العمل إشارة إلى الحسّ، والأدب إشارة إلى المعاني.

الحسّ والمعْنَى حقيقتان لا يخلوُ منهما بَشَرٌ، جعلهما الله في كل إنسانٍ لكن لا بدَّ أن تكون واحدة غالبة على الأخرى.

العامَّة عندهم الحسّ غالب على المعنى، أمورهم كلها مبنية على الحِسّ، والمعنى بحسَبِ التبع. والخاصَّة بخلاف ذلك، المعاني عندهم غالبة على الحسّ.

أمورهم كلها مبنية على المعاني والمحسوسات بحسب التَّبع.

سمعت من الشيخ، نفعنا الله به، يقول: الفقير هو الذي يكون رأسُ ماله معانٍ، ولُبَاب المعاني هو العِلمُ. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطِر: الآية 28].

[ملكك للوجود أو ملكه لك]

وأيضاً: مهما تركتَ الأمور لمولاها، يتصرف فيها كما يشاء يردّها سبحانه إلَيْكَ ويمكِّنك من زمامها، وأمرها يكون عند أمركَ ونَهْيك تتصرف فيها بمشيئتك حتى لا يكون منها إلاّ ما تريد. ومهما تعرَّضت للأمور، وأردَّتها أن تكون عند أمرك ونَهْيك، يردّك مولاك إليها، ويمكّنها من زمامِكَ.

كانت الأمور خديمة لك، مملوكة لك، فصرت أنت خديماً لها، مملوكاً لها، تَفْعل بك ما أرادت، وشتَّان ما بين المَالِك والمملوك.

سبب عبوديتك للوجود، هو حب عبودية الوجود إليك. وأنت والوجود عبيد الله، وسبب عبودية الوجود إليك هو عبوديتك لله. «يا دنيا أَخْدُمي من خَدَمَنِي، واتْعبِي مَن خَدَمكِ». الحديث القدسي[1].

وأيضاً: مما قال لي الشيخ، نفعنا الله به: كل ما استعصى عليك من أمور الدنيا والآخرة، اهبط فيه أسفل تجد راحتك فيه.

وأيضاً: كل ما تمشي فيه على نظَرِ غيركَ، تخطأ فيه القليل وتُصيب فيه الكثير. وكل ما تمشي فيه على نظرك، تصيب فيه القليل وتُخطيء فيه الكثير.

وأيضاً: كل ما يصرف لك من شغل الغيْبِ، حاول حتى لا تقابله بغيْب آخر. فإنه يؤثّر فيه، لمَّا كان من جنسه، لأن الجنس يؤثر في الجنس على كل حالٍ.

[الذي يتقدم للكلام]

وأيضاً: مثل الذي يتقدم للكلام في الجماعة كالخبير الذي يتقدَّم أمام القَوْمِ وهم في بلدٍ لا يعرفونها، إذا كان عارفاً أرشد نفسه، وأرشد القوم، وإذا كان جاهِلاً أتلف نفسه وأتْلَفَ القوم.

وسمعت من الشيخ، نفعنا الله به، قال لي: الفقير الذي لم يكن عندك معه في

(1) مسند الشهاب حديث رقم (888) [ج 2 ص 325].

نَفْسِهِ ما يرفع به الهموم حتى لا يضرّهُ شيء منها، قلّت الهموم أو جلّت ليس بفقيرٍ. وأما العارفون بالله رضي الله عنهم فعندهم في نفوسهم ما يدفعون به الهموم والشّرّيات: خيرات وأفراحاً.

والفِرقة الأولى هم الخاصّة، فعندهم ما يدفعون به الهموم حتى لا يضرهم شيء منها، والفرقة الثانية وهم خاصة الخاصة؛ فعندهم ما يقلبون به الهموم حتى تصير أفراحاً، والشّرّيات حتى تصير خَيْراتٍ. لأجل ذلك تجِدهم ينتفعون بالشريات، كما ينتفعون بالخيريات.

[العبودية والخصوصية]

وأيضاً: اعلم أنَّ العبودية، ضد الخصوصية، والخصوصية ضِدّ العبودية، مَنْ طلبَ العبودية وجَدَ الخصوصية، ومن طلب الخصوصية وجد العُبُودية. صارت الخصوصية تطلبُ في العبودية، والعبودية تطلب في الخصوصية. انظر كلام الشيخ الشاذلي رضي الله عنه، كيف طلب العبودية في جميع الحالات اقتداءً بالنبي ﷺ، لمّا طلبَ من مولاهُ أن يكون نبيّاً عبداً «خَديمٌ القوم سيّدهُم» الحديث.

وممّا أوصاني به الشيخ، نفعنا الله به، أوصاني بِمُواساة الأكابِرِ، والبُرورِ بهم. أكابر أهل الدنيا، وأكابر أهلِ الدِّين، وأكابر أهل الأقوال، وأكابر أهل الأفعال، وأكابر أهل الله تعالى، وأكابر أهل الأخلاق، لأنَّ الكلَّ لله وبالله.

وأيضاً: أوصاني أن أكْتُمَ الحقيقة عن جميع الخلائقِ، غيْرَةً عليها، إلاَّ على أهلها، وقليل ما هُمْ. لا تؤتُوا الحكمة غير أهلها، فتظلموها، ولا تمنَعُوا الحِكمة أهلها فتظلموهم. أو كما قال.

[ما يشفي الغليل]

وأيضاً: سألت الشيخ رضي الله عنه، قلت: يا سيّدي، كنت أظنُّ أنه لا يشفي غليل الإنسان إلاَّ الفِعل الحسِّي، ولا ظننت قطّ أنَّ فعل المعاني يشفي الغليل أبداً. والآن وجدت نفسي كما كانت، لا يشفى غليلها إلاَّ بالحسِّ، بعكس ذلك اليوم، صارت لا يُشْفَى غليلها إلاَّ بالمعاني مع أنّي كان فِراري في بلادِ الحس ولا غناء لي عن بلاد المعاني. واليوم انقلَبَ الأمْرُ، صار فِراري في المعنى ولا غناءَ لي عن الحسيات. فأجابني، نَفَعَنا الله به، بأن قال لي: يا ولدي، لمّا كانت همَّتك متنوّرة للحسِّيَات، أمَدك الله فيها، فصرت لا تقطع إلاَّ بالحسيات، وإن كنت لا غنَاءَ لك عن المعاني،

ولكن تِبعاً للحسّ، والآن انعكس الأمْرُ، لمَّا رافقت أهل المعاني، أثَّرَتْ معرفتهم فيك بتشوير همَّتك لبلاد المعاني، وانقلبَتْ هِمَّتك عن بلاد الحسِّ وتشوَّرتَ لبلادِ العِلْم، أمدك الله فيها، فصرت تقطع بالمعاني كما كنت تقطع بالحسِّيَات. مع أنك لا غناء لكَ الآن عن الحسيات ولكن عندك الحسّ بحسب التبع للمعاني، والإنسان أبداً حكمُه بهمَّتِهِ، أينما شوَّرتْ، إنْ شوَّرتْ للحسِّ أمَدَّهُ الله فيه، فيقطعُ به كما يقطعُ بالسَّيْفِ، وإن شَوَّرَتْ للمعاني أمَده الله فيها، حتى يصير يقطع به كما يقطع بالسيف. وأيضاً: على قَدْرِ طيش الهِمَّة للشيء تكون قوة المدد، وعلى قدْرِ صُدُودِها عن الشيء يكون ضعف المدد.

[الخير والشر لا يجتمعان إلا فيمن كملت فيه الحقيقة]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخَيْر له فعل حِسِّي ظاهر، وفعل معنوي بَاطِني، والشَّر كذلك، له فعل حسي ظاهري وفعل معنوي باطني.

الخير فعله الحسِّي يثبِّت فعله المعنوي. والشر فعله الحسِّي يُثبِّت فعله المعنوي. والكمال هو ظهور الفِعلين في الحسِّ، لأن ظهورهما في الحسِّ يستلزم ثبوت الفِعْلَين المعنويين، وثبوتهما في الحسِّ والمعنى لا يجتمعان، إلاَّ فيمن كمُلت فيه الحقيقة. وقليل ما هم لأنَّ صاحب هذا المقام استوى عنده الخيريات والشريات، صار حاصِلاً على فَضْلِ الخيريات والشريات. وأيضاً: المتوجه القوِّي، إذا كان في الحقائق العلويات يشتاق إلى الحقائق السّفليات، كما يشتاق آكل الطعام إلى شُرْبِ الماءِ.

وإذا كان في الحقائقِ السّفليات، يشتاق إلى الحقائق العلويات، كما يشتاق شارب الماءِ إلى الطَّعام، والكامل لا غناء له عن السفليات. كما لا غناء له عن العلويات. كما لا غناء لك عن الأكل والشرب، الأكل والشرب قوت الأشباح، والحقائق السّفليات والعلويات قوت الأرواح ولا يفهم هذا إلا أهل العقول الراجحة.

[المحب والمحبوب]

وأيضاً: الإنسان لا يخلو من أن يكون محبّاً أو محبوباً. أولا يحبّ ولا محبوباً، فإن كان محبّاً وجبَ عليه أن ينحاز لمحبوبه، على أي حالة كان، وإن كان محبوباً، استلزم أن يحبّه محبوبه، على أيّ حالة كان، وإن كان في وقت ليس محبّاً ولا محبوباً ربما يكون ذلك عيبٌ فيه، والعيبُ يُردُّ لموَلاه، فذلك عَيْن الصواب.

وأيضاً: تقدَّمتْ لي معرفة أحدٍ من مُلوكِ الظاهر، كنت أُرافقه وأُجالسه، قبل

دخولي لهذا الفنّ، ومما رأيت عندهم، إذا أراد أحد أن يكون من الخدّامِ أول ما يقف بين يديهم يتزيّى بِزَيّ عبيد الأزْوَى، ويتجرّد ويقِفُ بين يدي المَلِكِ. يسمُّون ذلك التجريد بعُقد الأزوى. فكل من رآهُ المَلِك متجرّداً بِعُقد الأزْوَى فذلك علامة على أنه أراد خِدمة المَلِك. فلما اصطحبْت مع أهل الباطِنِ، ووافقتهم، وجدت ذلك عندهم، كل من أراد أن يدخل حضرة الباطن، أول فعل يحتاج أن يفعله أن يتزي بزي عبيد الأروى، أن يتجرَّد بتجريد عُقْدة الأزْوَى. يعني، كما يخرق العادة من نَفسه، طالب حضرة الملك الظاهري حتى يفهمه أهلها، أنه أراد أن يكون عبداً لهم فيقرّبونه، كذلك يخرق العادة من نفسه، طالب حضرة الملك الباطني حتى يفهمه أهلها، إنه أراد أن يكون عبداً لهم، فيقرّبونه. صار التجريد كما هو شرط في طلب الحضرة الظاهرية في الفرْقِ كذلك هو شرط في طلب الحضرةِ الباطنية في الجمع، لا زائد، وكل من تحقق ذُلّهُ في طلب شيءٍ تحقق عِزُّه بالظَّفر به، ومَنْ يخطب الحسْنَاء يَصْبِرْ على البَذْلِ.

قال الشاعر:

لـنْ تَبْـلُـغَ الـمـجْـد حتـى تـلـعَـق الـصَـبْـرا

[مثل الشيخ مع المريد]

ومما قال لي الشيخ: مثل المريد مع الشيخ مثل البَيْضة مع الدّجاجة، كما أنَّ البَيْضة لا تصلح ليخرج منها الفرْخ، إلا بتحضين الدَّجاجة على البيضة، فلو كانت البيضة خارجة عن جناح الدجاجة بعيدة من ريشها، ولو شيئاً قليلاً لا تفلح. كذلك المريد لا يصلح حاله ويظفر بما ظفر به شيخه أو بعضه إلاَّ بتحضين الشيخ بحيث لا يُفارقه، لا تفترق ركبته مع رکْبتهِ حتى يفترقا بالموت أو بإذنٍ من الشيخ. وانظر إن كنت فاهِماً، الدَّجاجة تصلح البيْض بتحضينها، بالحسِّ في الظاهر، وبهمتها بالمعاني في الباطن، فتظهر النتيجة بين الحسِّ والمعنى كذلك المريد لا تظهر فيه النتائج إلا بتحضين الشيخ عليه في الظاهر وبِهِمَّته في الباطِنِ. فلذلك وجبَتْ عليه الصّحْبة كما صارت شَرْطاً في حقِّهِ.

[روح الإنسان من أين جاءت]

وأيضاً: اعلم أنَّ هذه الرُوح، أي روح الإنسان، جاءَت من عَالَم الراحة، وهو عَالَمُ الروحانية، وهو في أعلى علّيين. والجسَد جاء من عَالَم التّعَبِ، وهو عَالَم البشرية، وهو في أسْفل سافلين وجمعهُما الحق بحِكمَتِهِ وقُدْرتِهِ، فكانَ بَشَرا سَوِيّاً.

ومن حِكمته تعالى أيضاً: أنْ جعل الرّوح ضد الجَسَدِ، والجسد ضِدَّ الروحِ،

ولكن حتماً يكون الحُكْمُ للأعلى على الآخر فإذا كان الحُكمُ للجَسَدِ على الرُّوح، كان صاحبه أبداً في تَعبٍ ومَشقة، لأنَّ الجَسَدَ جَاءَ مِن عَالَمِ التعبِ، فتتعَبُ الروح من أجله، لأنها حكْمهُ، وإذا كان الحُكْمُ للروح على الجسد كان صاحبه في راحة من التَّعَبِ، لأن الرُّوح جاءت من عالم الراحة، فيرتاح الجسد من أجل الروح، لأنَّ الحكم لها على الجسدِ، فهو تحت يدها.

من أجل ذلك صار في راحةٍ لراحَتِها، فصار الإنسان كله: له عَالَمَانِ: عَالَمُ الراحة، وهو عالم الرّوح، وعَالَمُ التَّعب، وهو عالم الجَسَدِ.

العامَّة غَلَب عليهم عَالَم أجسادهم، فصاروا متعوبين أبداً. والخاصَّة غَلَب عليهم عالَمُ أرواحهم، فصاروا في راحةٍ أبَداً.

العامَّة لا ينقلب حكْمُ أجسادهم لأرواحهم إلاَّ بعد مَوْتهم الحسية. والخاصَّة انقلَبَ حكم أجْسَادهم لأرواحِهِمْ قبل مَوْتهم الحسية، أعني الآن. والأمر أكثر مما يصف الواصفون سُبْحَان من خصَّ الخصوص، وعَمَّ العموم بِحِكْمته.

[تصرف النفس كتصرف الفلس]

وأيضاً: اعلم أنَّ تصرُّف النَّفس كتصرف الفِلْسِ، كما أنَّ صاحب الفِلْس يَمْلِك به ما يُريد، كذلك صاحب النفس، يملك بها ما يريد.

أهل الفلوس من يكون عبداً لِفِلْسهِ، وهذا لا حُكْمَ له على الفِلْسِ، لأنَّ محبُوبه هو فِلْسُهُ، ومن يقدر أن يَسْتَحي بمحبوبه. ومنهم أيضاً، أن يكون فلسه خديماً له، والكلام مع هذا لأنَّ هذا مالِكٌ ليس مملوكاً. فهذا يتصرف بِفِلْسِهِ ويَجْلب به كل شيءٍ.

وأهل النفس أيضاً على فِرْقَتَيْن، فِرقة عبيد لنُفُوسهم، لا حُكْمَ لهُمْ عليها، بل هي حَاكمة عليهم.

وفِرْقة نفوسُهُم مملوكة في أيديهم، وليس الكلام إلاَّ مع مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ حتى يتصرَّف فيها كتصرف أهل المالِ في المالِ. وهذا أيضاً مالك، والكلام إنما هو مع الملوكِ.

[صاحب القريحة في الأمور]

وأيضاً: اعلمْ أنَّ صاحب القريحة في الأمور مثلُهُ كالعُودِ الأخْضَرِ، أينما غَرَسْته ينبُت ويَنْمُو وتظهر نتائجه من الأزهار والأثمَارِ وغير ذلك. والذي تجده خالياً من القريحة في الأمور مثله كالعودِ اليابِسِ، مُحَالٌ أن تصدر منه الزيادة، وإذا لم تصدر منه

الزيادة، فعلى كل حالٍ يَصْدر منه النَّقْصُ، وقد قالوا: مَنْ لَمْ يكنْ في ازديادٍ فهو في نُقْصَانٍ. ومن شأن الأعْوَاد إن يَبِسُوا ولم يبْق فيهم خضرة، كان انتهاؤهم إلى النارِ.

[من عظمت نورانية باطنه أو ظلمانية ظاهره لا بد أن يتبعه جلال]

وأيضاً: اعلم أنَّ من عظمت نورانية باطنِهِ لا تجده إلاَّ قليل المعرفة بالخلقِ وذلك لأنها ما عظمت نورانية باطنه حتى عظمت ظلمانية ظاهره، ومن عظمت ظلمانية ظاهره فإنَّ الخلق يفرُّونَ منه، ولا بعد فِرار الخلقِ منه إلاَّ إقبال الحق عليه. وكذلك من عظمت نورانية ظاهره لا تجده إلاَّ قليل المعرفة بالحقِّ، وذلك لأنَّه ما عظمت نورانية ظاهره حتى عظمت ظلمانية باطنه. فإنه محجوبٌ عن الحقِّ، وماذا بعد حجابه عن الحق إلاَّ إقبال الخَلْقِ عليه.

المُقْبِلُ على الخَلْقِ هو المُدْبِر عَنِ الحَقِّ. والمُدْبِرُ عَنِ الخَلْقِ هو المُقْبِلُ على الحقِّ.

[كل جمال لا بد أن يتبعه جلال]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل جَمالٍ لا بد أن يَتْبعه جَلالٌ، إن يفعل اختياراً فإنه يكون رطباً هَنياً، وإن لم يفعل اختياراً أتى قهراً. والجلال إذا كان قهراً كانَ شديداً قوياً وكذلك الجلال لا بُدَّ أن يتبعه جمالٌ.

إن فعل اختياراً، كان جمالاً رطباً هنيّاً، وإلاَّ أتى قهراً على كل حَالٍ، وذلك أن كلَّ شيءٍ لا يقوم إلاَّ بضدِهِ. وما خلق الله سبحانه شيئاً إلاَّ خلق ضِدهُ مقروناً معه. ومن أتاه طوْعاً فذلك. وإلاَّ أتاه قَهْراً رغماً على أنْفِهِ. سبحان الحكيم العليم.

[الاعتكاف فخ التجريد]

وأيضاً: اعلم أنَّ الاعتكاف هو فَخّ التجريد، وهو من لُبَاب العبودية، وهو أعظم أوصاف الذّاتِ. وفي الأصل: العبودية كلها اعتكاف. فالصلاة والصوم والذّلّ والقراءة وقيام الليل، والعزلة، والصمت، وغضّ البصر والسمع، والمجالسة بين يدي الرجال، وعدم التدبير والاختيار، والرضى بالواقِع، ومراقبة الله تعالى، والتجريد، والزهد، والقناعة من الدنيا، واليقظة، ومجانبة أهل النَّقصِ، كل ذلك اعتكاف، وتخريب الجاه، وعدَمُ الرياسة اعتكاف أيضاً، إلى ما ليس له حَصْرٌ من أوصاف العبودية الظاهرية والباطنية. والعبودية كلها جَلاَلٌ، وهي مفتاح الجمالِ؛ الذي هو أعظَمَ مِنْ الاعتكافِ بل الاعتكاف شجرة وأوصاف العبودية كلها أغصان لها.

[بعض آداب المريد مع الشيخ]

وأيضاً: ومن آداب المريد مع الشيخ، ألاَّ يأكل معه، ولا يَنام معه، ولا يضحك بين يديه، ولا ينام في فراشِهِ، ولا يجلس في موضع جُلُوسِهِ، ولا يتكلَّم في مجلس الشيخ من غير إذنِهِ، ولو كلمة واحدة، والكلام فيه سوء الأدب أكثر من كل شيءٍ. وكل ما يُشْبه هذه الأوصاف يؤدّي لعَدَمِ التّعظيم، وازدراء بجانب الشيخ، وذلك هو عين الخُسْران، والعياذ بالله من السلب بعد العطاءِ، والطرد بعد الإقبال. قالوا: اجعل عملكَ ملحاً، وأدبك دقيقاً.

وقال الشاعر:

أدَبُ الـــعَـــبْـــد تـــذلّـــل والـــعَـــبْـــد لا يَـــدع الأدَبْ
فـــإذا تـــكـــمَّـــل ذُلّـــهُ نَـــالَ الـــمَـــوَدَّةَ واقْـــتَـــرَبْ

[القدرة جمع والحكمة فرق]

وأيضاً: اعلم أنَّ القدْرَة جَمْعٌ، والحِكْمَة فَرْقٌ. والحِكمة تصرفها كتصرف القدرة عند أهل التصرُّف، إذا كانت الحِكمة سالمة من التخليط، وكذلك القدرة تصرفها كتصرّف الحِكمة إذا كانت القدرة سالمة من التخليط أيضاً. وتخليط الحِكمة، هو تخلّق صاحبها بأوصافِ القدرة في الوقت، كما أنَّ تخليط القدرة هو تخلّق صاحبها بأوصاف الحِكمة. والحِكمة والقدرة صفتان من أوصاف الحقّ، وهَبَهُما سبحانه لعَبْدِهِ الإنسان فضلاً منه عليه، فهما يتَوَارَدَانِ على الإنسان وهو لا يَخْلُو من الحِكمَة والقدْرةِ.

وقت القدرة قدْرة، ووقت الحِكمة عَجْزٌ. وقت القدرة غناء، ووقت الحِكمة فَقْرٌ. ووقت القدرة عِزّ، ووقت الحِكمة ذلٌ. ووقت القدرة قوة، ووقت الحِكْمة ضُعفٌ. ووقت القدرة رجاءٌ ووقت الحِكمة خَوْف. ووقت القدرة بسْطٌ ووقت الحِكمة قَبْضٌ. ووقت القدرة جَمَالٌ ووقت الحِكمة جَلاَلٌ. ووَقت القدرة عطاءٌ ووقت الحِكمة مَنْعٌ. ووقت القدرة قربٌ، ووقت الحِكمة بُعْدٌ.

وإذا كـــنَّـــا بـــه تِـــهْـــنَـــا جـــلالاً عـــلـــى سَـــائـــر الـــحـــرائِـــرِ والـــعـــبـــيـــدِ
وإذَا نَـــحْـــنُ عُـــدْنَـــا إلَـــيْـــنَـــا يُـــشْـــبـــه ذُلّـــنـــا ذلّ الـــيَـــهُـــودِ

[الجذب بالقهر والجذب بالاختيار]

وأيضاً: أهل الجذبِ على فِرْقتين: أهل جذبٍ قهري في بدايته ونهايته. وفِرْقة أخرى أهل جذبٍ يغرسونه في بدايته اختياراً، فيتمّ لهم في نهايته قهراً.

أهل الجذب الذي يكون في بدايته قهراً، وفي نهايته قهراً، قد حازوا ما فضل الجمعِ، وفاتهم فضل الفَرْقِ. وأهل الجذب، الجامعُون بين الاختياري والقهري قد حَازُوا فضل الحَضْرَتيْن، فضل حضرة الجمع، وفضل حضرة الفَرقِ، لأن شرف المجذوب يعظم على قدر صحوهِ مع سكرهِ.

[الصحو والسكر]

من كان صحوه رُبُع سكره، فهو أشرف ممَّن كان صحوه ثُمُن سكرهِ، ومَن كان صَحوه نصف سُكْره فهو أشرف ممَّن كان صَحوه رُبُع سكرهِ. ومن كان صحوه أقلّ من سكرهِ بِرُبُع، فهو أشرف ممَّن كان صحوه نصف سكره، ومن كان صحوه مسْتوٍ مع سكرهِ، فهو أشرف ممَّن كان سكره أقوى من صحوهِ. والصحو يتجَزَّأ بالنصف، والثمن والرُّبُع مثلاً. والسُكر لا يتجزّأ، ولذلك كان الصحو فَرْقاً والفرق لا يجتمعُ، وإذا اجتمع، انقَلَب حكمه، فيصير جمعاً والسكر جمع، والجمع لا يتفرّق، وإذا تفرّق انقلَبَ حكْمهُ فيَصِيرُ فَرْقاً.

وأشرف أهل الجذْبِ: هو الذي يكون صحوه على قدر سكرهِ، وسكره على قدر صحوهِ، هو يزيد سكراً، وهو يزيد صحواً. يأخذ من حضرة الجمع، ويدفع لحضرة الفرقِ. كما يأخذ من حضرة الفرْقِ ويدفع لحضرة الجمع. فلا جمعه يصده عن فرْقِهِ ولا فرْقه يصدّهُ عن جَمْعِهِ.

رأيت عند الشيخ ابن عطاءِ الله في بعض رسائله، قال: قال أبو بكرِ الصدّيق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها لمَّا نزلت براءَتُها من الإفكِ على لسان رسولِ الله ﷺ: يا عائشةِ، اشكري رسول الله ﷺ. فقالت: والله، لا أشكر إلاَّ الله تعالى. دَلَّها أبُو بكرٍ رضي الله عنه على المقام الأكْمَلِ، مقام البقاء المقتضي لإثبات الأثَرِ، وقد قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: الآية 14]، وقال صلوات الله عليه وسلامه: «لا يشكر الله مَنْ لَمْ يَشْكر النّاس». وكانت رضي الله عنها في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها، غائبة عن الأثرِ، فلم تشهد إلاَّ الواحد القهَّار.

[المعاني تُدْرِك ولا تُدْرَك]

وأيضاً: اعلم أنَّ صفات المعاني تُدْرِكُ ولا تُدْركُ معنىً. والمعاني من وَصْفِها تُدْرِكُ ولا تُدْرَكُ، والذّات ضِدّ.

والحسيّاتُ من وَصْفِها تُدْرَكُ ولا تُدْرِكُ، كأنَّ الذّات فرْق، والصفات جَمْعٌ.

والجمع يدرك الفرْق، والفرْق لا يدرك الجمع. كما أنَّ الفَرْق يدركه الجمع، والجمع لا يدركه الفَرْق، صار من أراد أن يدرك كل شيْءٍ حتى يجتمع بكلِّ شيءٍ، حتى بنفسه عليه بالجمع، ومن أراد أن لا يدرك شيئاً حتى يفترق عن كل شيءٍ، حتَّى عن نفسِهِ، فعليه بالفَرْقِ.

والجمعُ لا يكون جمعاً حتى يكون جامعاً لِلْفَرْقِ، وكذلك الفَرْق لا يكون فَرْقاً حتى يكون فارِقاً للجَمْعِ. يقول الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به، في بعض كلامه: «وجَمْعَكَ صِلَةٌ إنَّ فَرْقَكَ قَاطِعٌ». وقال الششتري رحمه الله في هذا المعنى: لا تنظر للأواني وخض بَحْرَ المعاني لعلك تَرَاني على عَهْد الصوفية. كأنه يقول: لا تنظر الفَرْق وخُضْ بَحْر الجَمْع لعلكَ تشاهِد الحق على عهد الصوفية، أي على مِنْهج الخُصُوصِ من أهل المعرفة بالله تعالى، أهل العلم به والعمل به.

[الإنسان خليفة الله في الوجود]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى أوْجَد هذا الوجود، وخلق هذا الآدَمِي وجعله هو خليفته[1] فيه، ما شَاء الخليفة في الوجود كان في الوجود وما لم يشأ الخليفة في الوجود لا يكون في الوجود.

تصرُّفات الوجود بأسره لا تبرز إلاَّ على وِفْق إرادة الخليفة، وإرادة الخليفة هي إرادة الله تعالى. وهو تعالى ستَره عن الوجود وما فيه قد فرَغ منه وقلَّدهُ في عاتق خليفته الآدمي، يتصرف فيه بإذنه تعالى، وتفرَّد هو سبحانه في علوِّهِ وكبريائه، وعظمته وارتفاعه، وجعل أيضاً خليفته الآدمي هو عريس المملكة، وقطبها وأميرها، الأكوان كلها عاشقة له، وذلك لأنَّ عليه مَدَارها: عُلوي وسفلي، الآدَمِي بَرْزَخٌ بين حَضْرَة الحقِّ، وحضرة الخلق. وإن كان هو بنفسه من الخلقِ. سبحان من اختاره من خلقه، وخصَّه وفضَّله، وجَمَعَ فيه ما افترقَ في غيره، سبحان الحكيم العليم.

[مقام البقاء الذي هو مقام الملك بالله]

وأيضاً: اعلم أنَّ مقام البَقَاءِ، هو مقامُ المُلْكِ بِالله، وهو مقامُ خاصَّة الخاصَّة، وهو مقام الراحة بعد الشقاءِ، والرِّبحُ بعد الخسْران، وهو مقام العبودية لله بلا علةٍ، والنَّظرُ إليه بلا واسِطَةٍ، وهو مقام التفريق بعد الاجتماع، والتواضُعِ بعد الارتفاع،

(1) ثبت في هامش الأصل عبارة: «الإنسان خليفة الله في أرضه ما شاء كان، وما لم يشأ لا يكون».

والعجزِ بعد القدْرَةِ، والأدب بالله بَعْدَ التمكين في الحضرة الإلٰهية. صاحب هذا المقام راسخ في العِلم والعمل، راتعٌ في شهود الحق في الجلالِ والجَمَال، بتحقيق المقامات والأحوال. قال أبو المواهب التونسي في قوانينه: مَنْ وَصَلَ البقاء، أمِنَ مِنَ الشقاءِ.

[الوجود في قبضة الإنسان، منه تبرز الأمور شريعة؛ وإليه تعود حقيقة]

وأيضاً: اعلم أنَّ البدايات في الأمور كلها هي الشرائع، كما أنَّ النهايات في الأمور كلها هي الحقائق. هكذا جرتْ عادة الله في جُلّ الأمور وأكثرها. والله يفعل ما يُريد، وحقائق النهايات تعظُم على قَدْر عِظَم شرائع البدايات، وتضْعُف على قَدْرِ ضُعْفِها، ومن كَرمِ الحق تعالى أنه خلق عبده الإنسان عاجزاً لا يقدر على جَلبِ خَيْرٍ لنفسه ولا على دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فضلاً عن غيره ثم بعد ذلك تفضَّل عليه سبحانه بأن جعل مفاتِح الأمور كلها بين تصرفات الوجود بأجمعها بِهِ تُفتحُ، وعليه تدورُ، منه تبْرُز شريعة، وإليه تعود حقيقة جميع بني آدم. من شرَّع شيئاً تحقق له خيراً كان أو شرّاً، ولا يظلم ربك أحَداً. أنت تشرع، وهو يحقق لك تعالى قلَّتْ أم كَثُرتْ. في أكبر شيءٍ، أو في أصغر شيءٍ. في أغلى شيءٍ أو في أدْنَى شيءٍ. في أشرفِ شيءٍ أو في أوْضع شيءٍ. حتى لو شرَّعت في طلب النظر في وجهه تعالى لحقَّقه لك، ولا يعظم عليه شيء كما لا يحقر لديه شيءٌ، يغني ممَّن استعان به، أو انتصر به، أو توكل عليه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34] .

[ذكر الله على الأشياء يقلب شرّها خيراً]

وأيضاً: اعلَمْ أنَّ الشَّرَّ والمُرَّ والمُنْكَر، لا يكونون إلاَّ قبل أنْ تذكر اسم الله عليهم أو فيهم، ومهما ذكرت الله تعالى فيهم أو عليهم فإن الشرَّ ينقلب مِنْ حينِهِ خيراً، والمُرَّ ينقلب من حينه حُلواً. والمنكر ينقلب من حينه معروفاً. لأنك مهما ذكرت الله تعالى على الأشياء: خيرياتها وشرّياتها، فإنَّ الأشياء تسْقط وتفنى وتتلاشى من حِينِها، ويبقى الله تعالى. ومن جملة الأشياء نفسك، إذا ذكرتَ نَفْسَكَ نسِيتَ ربكَ، وإذا ذَكَرْتَ ربك نسيت نَفْسَكَ. قال في الحِكم: لو ظهَرتْ صفَاته لاضمَحلَّتْ مكوّناتُهُ. والاسم من لُبَاب الصفات، وكيف لا تضمحل الأشياء عند وجود ذكره. قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: الآية 18] ، وقال عزَّ من قائل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿81﴾﴾ [الإسراء: الآية 81] .

[محل الفناء والبقاء ظاهراً وباطناً]

وأيضاً: اعلمْ أنَّ الفناء محَله الظواهِر، كما أنَّ فناء الظواهر محله البواطِنُ. والبقاء محلّه البواطن، كما أن بقاء البقاءِ محله الظواهر، يعني، أنَّ فناء الظواهر مقرون مع بقاءِ البواطِنِ. لا يقومان إلاَّ ببعضهما، كما أن فناء الفناءِ في البواطن مقرون ببَقاءِ البقاء في الظواهر لا يقومانِ إلاَّ ببعضهما معاً، وذلك لأنَّ الإنسان: ذاته وصفاته، وجودهما ثابت بثبوت تجلّي ذات الحق وتجلّي صفاته في الإنسان ولولا ذلك لم يكن إنساناً، إلاَّ أنه تارة تتجلّى الذّات في ظاهر الإنسان، فيتبعها تجلّي الصفات في باطنِهِ، فيكون حينئذ الإنسان فانياً في ظاهره، باقياً في باطنهِ، فهذا يسمَّى عند أهل الطريقة بمقام الفناءِ، ولو كان الفناءُ لا يقوم إلاَّ بوجودِ البقاءِ معه. ولكنَّ الحكم عندهم على مختارات الظواهر لا على وهبيات البواطنِ. وهذا المقامُ، وهو مقام الفناء، يدفع صاحبه للمقام الذي بعده، وهو مقام البقاء، كما يدفع الإنسان زمَنَ الشتاء، لزمِن الصيْف. فإذا وَرَدَ مقام البقاء يصير تجلّي الذّات الذي هو في ظاهِرِ الإنسان ينقلب لباطِنِهِ، وتجلّي الصفات الذي كان في بواطنِهِ ينقلّب لظواهره، فيكون حينئذٍ فانٍ في بواطنِهِ. فهذا أيضاً يسمى عند أهل الطريقة بمقام البقاءِ، ولو كان ذلك البقاء ما قام وجودهُ إلاَّ بوجودِ الفناء معه، لكن كما قلنا: الحكم عندهُم على مختارات الظواهر لا على وهْبِيات البواطِنِ. وهذه التجليات، يعْني تجلّي الذّات وتجلّي الصفات في الإنسان، لا بدَّ أن يكون الظاهر اكتساباً باختيار الإنسان سواء كان تجلّي الذات أو تجلّي الصفات فيه الباطن وهبياً جبراً على الإنسان، سواء كان تجلّي الذات أو تجلّي الذات أو تجلّي الصفات فيه. صارت أبواب وهبيات البواطن هي اكتسابات الظواهِرِ، كأنَّ الظواهر أُصول وعروق، والبواطن فروعها، وإذا شربَت الأُصول اكتساباً في الظواهر، على كل حال، تظهر ثمار الفروع قهراً في البواطِنِ. «أُمِرْتُ أنْ أحْكُم بالظَّهائِرِ والله يتولى السَّرَائِر»[1].

وأيضاً: من كلام أحد من أهل الحقيقة، قال:

نَعمل اعماما مِنَ المَا وانشُدْهَا... ونَلبَسْ مِنَ الثَّلْجِ بَرْنُوصْ... إذا اجْمَعْت الفوائدْ... نشعل من الرِّيح قَنْدِيْل... ومِن الضَّبَاب افْتَايِلْ.

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2541) [ج2 ص236] والسيوطي في الدر المنثور، قوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [ج2 ص123].

[العلم هو العمل وبالعكس]

وأيضاً: اعلم أنَّ العلْمَ هو العَمَل بِنَفْسِهِ، كما أنَّ العمل هو العلم بنفسه، لكن المادة واحدة، فرق المادة واحدة، دائمة أبدية سرمدية، إلا أنها تارة مَعْنَوِية عِلماً وتارة تكون حسّاً عَمَلاً، شَعر أم لم يَشْعُر، أحبَّ أمْ كَرهَ. قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، أورثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ»[1] الحديث. ولا ينقطع ويقف مع العلم دون العمل، أو مع العمل دون العلم، إلاَّ من خسفت شمس هِمَّتِهِ وخسوف شمُوسِ الهِمَم هُو كونها طالبة لمولاها قاصدة إليه، زائدة من صعود إلى صُعودٍ. فيبقى بعض المريدين كذلك تعرض لهم الدنيا بزينتها وزخرفها، فإن أعرضُوا عنها وفَرُّوا لمُلازَمَةِ المشايخ، وكثرة الجلوس بين أيديهم، ونَبْذ ما يعرفونه من عِلْمٍ وعَمَلٍ، والعمل بما يسْمعون من أفواههم، ويشهدون من أحوالهم، فهم سالمون من شرورها، لا تكون عليهم إلا بَرْداً وسلاماً، ورُبَّما يستعينون بها على السَّيْرِ إلى الله، فتصير لهم مطيَّتهُ. قال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [المؤمنون: الآية 22]، فمن كان من المريدين على هذا الوصف، فهو سالمٌ نجيٌّ، وإلاَّ فهو غريق.

وجدتّ عند الشيخ زروق، نَفَعَنا الله به، في شَرْح من شروحاته على الحِكم قال: الدّنيا كنَهْر طالوت، لا ينجو منها شارب إلاَّ مَن اغترف غرفة بيدهِ. وقال: «إنَّ الهِمَم القاصدة إلى الله بمرافقة العارفين بالله لا تقف مع شيءٍ سوى الله تعالى».

الهِمَم لا تَنقَطع ولا تقف ولا تَنحَصِر، إلاَّ إذا ظلمت المخلوق، واعترضت عن الحق.

المخلوق مكَيّف محصور، والهِمَّة الغالبة لا تَتَحَيَّز بتحيُّزِ مطلوبها ولا تتكيَّفُ بتكييفه، ولا تنحَصِرُ بِحَصْرِه. والهِمَّة المغلوبة للحق. كما أن الحق تعالى لا يحيَّزُ ولا يكيّف ولا يحصَر. كذلك هي لا تُكيف ولا تحيَّز ولا تُحْصر، لِمَا قالوا: عبد الدنيا أسيرٌ، وعَبْد الآخرةِ أجِيرٌ، وعبد الله أميرٌ، وكل من لم يكن في زيادة فهو في نقصانٍ، إلاَّ أن المتوجه إلى الله الصادق، زيادته بالزّيادة كزيادته بالنقصانِ. كما أن المتوجه لغير الله نقصه بالزيادة كنقصه بالنقصان، مع أن غير الله ما كان ولا يكون، لكن توهم الغَيْر والتوهّم باطلٌ.

---

(1) رواه الدارمي في سننه بلفظ قريب منه، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله تعالى، حديث رقم (382)، وأورده السيوطي في الدر المنثور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [ج 2 ص 123].

[مواهب العلم ومواهب العمل]

وأيضاً: اعلم أنَّ المواهب لا تكون مكاسِب. والمواهب: هي مواهب العلم، وحكمها واحد: العلم والعمل. مادَّة إلٰهية وَهْبية، تتلوّن. تارة تكون علماً، وتارة تكون عملاً. وهي لا تأتي لأهلها إلاَّ بغتة، وكل من ادَّعى بملكيتها فهو جاهل أحْمق، وذلك لأنَّ الحقيقة تتبع الشريعة أبداً، كما أنَّ الشريعة تتبع الحقيقة أبداً. هكذا جرت سنة الله تعالى في عالَم النفوس، وفي عالَم الوجود. ومن قال بأنَّ المواهب تكتسب، كمن قال: هو الناكحُ للزوجة، والصانع للجَنِين في بطنها، والخالق لهُ. وهذا هو المحال الذي لا يقوله إلاَّ الجُهَّالُ، أو الأحمق لأن الحق جلَّ ثناؤه، حكمته تفضَّل على خلقه بها يفعلونها بأيديهم اكتساباً، مثل النكاح للمرأة، والحراثة للأرض كما أن قدرته سُبْحانه وهَبَها لخلقه، إهابة قَهْرٍ مثل الولادة للمرأة، وإنبات الزَّرع في الأرض تفعل بهم ولا يقدرون على جَلْبِها إذا أُفقدتْ ولا فقدها إذا وُجدتْ. وإن كان تفضَّل على عبْده بأن جعل قدرته تعالى تابعة لحِكْمةِ العَبْد باكْتسابهِ، ولكن لم يُمَلِّك القدرة للعبد إلاَّ الوقت الذي يريد أن يخرجه عن وصْفِهِ، وعن بشريته، فحينئذ إن ظهرت عليه أوصاف القدرة ليس هو الفاعل لها. وإنما الفاعل به هو مولاهُ، وأما هو، فقد فنى عن عالم الخلقِ، وتلاشى حتى لم يَبْق له فيه أثر، صار حينئذ الحق هو الفاعل به، كما كان يفعل به وهو في بطن أمِّهِ. صارت القدرة خاصَّةً به تعالى لا يُملكها لأحدٍ من خَلْقِه، وإن أراد أن يُمَلكها لأحدٍ من الخلق لا يملكها له حتى يخرجه عن حسِّه، فحينئذ يصير هو الفاعل سبحانه بقدرته لنفسه بنفسه، ولا عبد حينئذ، ومهما حضر العبد تخرج القدرة وتدخل الحِكمة.

وإذا دخلت الحِكمة فذلك مقام العبودية، والحِكمة تقابلها القدرة، وهي مقام الرّبوبية، والرّبوبية محال أن يتصف بها العبد إلاَّ إذا فنيت العبودية. فحينئذ تبقى الرّبوبية لأنَّ الوجود بأسْرِهِ ما فيه إلاَّ عبودية حادثة، فانية مجازية، قائمة بقيام الربوبية بها، أو رُبوبية قديمة باقية حقيقية قائمة بنفسها في نفسها.

[العارف سائر دائماً: جمعاً وفرقاً]

وأيضاً: العارف سائر دائماً بشاهِدَيْن عدْليْن، شاهد الجمع في عالَم نفسه، وشاهد الفَرْق في عالم جِنسِهِ. إن ضلَّ أحد الشهود يُذكِّره الآخرة ﴿ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ [يُونس: الآية 35] كأنَّ شاهدها في النفس حقيقة، وشاهد الجِنْس شريعة، والعارف سائر بينهما، كما قال بعض المتكلمين:

إذا اتبعتَ الطريقة نظرت سروراً في مَعَاني
بين الشريعة والحقيقة شاهِدْ مَنْ لا له ثاني
سيدي إمام الطريقة المصطفى هو إمامي
من حُبِّهِ قد سَقَانِي كَأساً وكُنت عَلِيلاً
مَهما ارتقى الرّاح في صَدْرِي شفيت منه الغَلِيلاً

[تربية الشيوخ للمريدين والشيخ الجاهل لا يربي]

وأيضاً: اعلم أن الفساد الاختياري يسُوق الصَّلاح الوهبي، كما أنَّ الصَّلاَح الاختياري يسوق الفساد القهري. وتربية المشايخ للمريدين كلها تدّربهم على اقتحام الفسادِ الاختياري، لأنَّ الفساد الاختياري حتماً يجرّ الصلاح الوهبي، وكلامنا هذا خاصّ بمريدي الخصوصية لا غيرهم. وكل من ريَّض المريد في بدايته على الصلاح الاختياري، فقد عرّضه للفساد القهري، ولا يُعرِّض المريد للفساد القهري إلاَّ الجاهل بمعرفة النفسِ ودسائِسها.

ولا شك أن الجاهل بالنفس هو الجاهل بالله، كما أن العارف بالنفسِ هو العارف بالله، والشيخ إذا كان جاهلاً بنفسه كيف يتصوّر أن يُهذِّب نَفْس غيره الجاهل بالطريق، لا يُخْبِر غيره به، وإذا فعل فهو ضالّ هو ومن تبِعَهُ، كما قال الششتري في بعض كلامه حيث يقول: من لا تَرَبَّى كَيْفَ يُرَبِّي»، ولا يُنْتَفَع منه بشيءٍ.

وأيضاً: سمعت الشيخ نفعنا الله به يقول: يا أسفى على الجاهِل الذي لم يعرف شيئاً، ويا أسفى على العالم الذي لم يَعْمل شيئاً، ويا أسفي على العالم العامل الذي لم يجمع بين العلم وفضل الجهل، وبين خَيْر العمل وخَيْر البطلان. فمن وصل هذا المقام، طوبَى له، حُقّ له الهَنَاءُ، وهذا المقام يُسمَّى بمقام التمكين بالتلوّن. يقول الششتري رحمه الله: وغايتي في الحب أن أتلَوَّن.

[الوصل وعدمه: الساخي بنفسه وفلسه واصل والبخيل بهما مقطوع]

وأيضاً: السَّاخي بنفسه وفِلسه، راكب على ظهر فرسٍ مانعٍ، والساخي بنفسه دونَ فلسه، كأنه سائر على رجله بلا مركوب، والساخي بفلسه دوَن نفسه كأنه أرسل فرسه مع الفرقة أعانهم به ولم يَسير معهم بنفسه. الأول وَاصِلٌ مسْتراح، والثاني واصل متعوب، والثالث بطال غير واصل، لكن مجازى على إعانته وإكرامه لأهل نسبة الله

تعالى على كل حالٍ، وهو إن دام على سخاوة الفِلْس، مع أهل نِسْبَة الله، يرجى له أن يتّبع نفسه بفلسه، وما ذلك على الله بعزيز.

[الفاني والباقي]

وأيضاً: اعلم أنَّ المتكلم بغير الفناءِ، ليس هو من أهل الفناءِ، وإنما هو كمن تعَشَّق للفناءِ، كما أنَّ المتكلم بغير البقاءِ ليس هو من أهل البقاءِ، وإنما هو متعَشّق للبقاء. وذلك لأن الكلام لا يكون إلاَّ عند التعشق، لا عند الوصال. والتعشق لا يكون إلاَّ عند الاستشراق لا عند الوصول بالفعل. وأما إذا حصل الوصول بالفعل فالفعل ينقض القول الفاني: قوله بلسانهِ عزيز وفِعله بذاتِهِ ذليلٌ. كما أن الفاني: قوله بلسانِهِ ذليل وفِعْله بذاته عزيزٌ. الفاني بالذَّاتِ، هو الباقي بالصفات، وهذا أيضاً هو الذي يكنّى عند أهل الطريقة بالباقي بالله، صار كل فانٍ لا يقوم فناء ذاته، إلاَّ ببقاء صفاتهِ. كما أن كل باقٍ لا يقوم بقاءُ ذاته إلاَّ بفناء صفاتِهِ. لكن من لا فناء له بذاتِهِ فلا بقاءَ له بصفاتِهِ حتى يصير فانٍ حقاً لا بقاءَ له بذاتِهِ، ولا فناءَ له بصفَاتِهِ، حتى يصير باقٍ حقاً. يقول صاحب القوانين[1]: الفَناء أساس الطريق، به تُوصَلْ إلى مقام التحقيق، وقال أيضاً: كلّ باقٍ فَان، وليس كل فانٍ باق.

[الإنسان خليفة الله في الأرض، والوجود عبد له]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان خليفة الله في أرْضِهِ، والوجود جَعله الله عبداً للخليفة، وهو الإنسان، وهو نسخة من الوجود ذات الوجود، لا تبرز إلاَّ على وفق ذات الإنسان، وصفات الوجود لا تَبْرزُ إلاَّ على وفق صفات الإنسان. وأفعال الوجود لا تبْرُز إلاَّ على وِفقِ أفعال الإنسان، وأقوال الوجود لا تبرز إلا على وفق أقوال الإنسانِ. وعُلويات الوجود لا تبرز إلاَّ على وفق علويات الإنسان، وسفليات الوجود لا تَبرُز إلاَّ على وفق سفليات الإنسان، وعزّ الوجود لا يبرر إلاَّ على وفق عِزّ الإنسان، وذلّ الوجود لا يبرز إلاَّ على وِفق ذلّ الإنسان وجلال الوجود، لا يَبْرُز إلاَّ على وفقِ جَلاَل الإنسان، وجمال الوجود لا يبرز إلاَّ على وِفْقِ جَمَالِ الإنسان. وخطاب الوجود لا يبرز إلاَّ على وِفق خطاب الإنسان، وعناية الوجود لا تبرز إلاَّ على وفق عناية الإنسان.

خلاصته: الوجود مرآة، والإنسان مقابل له. أو الوجود بمنزلة الخيال مع الإنسان

---

(1) يقصد الشيخ «أبي المواهب الشاذلي» مؤلف كتاب «قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق».

يقوم بقيام الإنسان، ويجلس بجلوسه. ويتحرّك بتحركِه. سبحان من جعل صغار الحقيقة ككبارها، كما جعل كبارها كصغارها. يعني ما اجتمع في الصغير هو الذي تفرّق في الكبير. سبحان الحكيم العليم.

[من دخل الحقيقة من غير رفقة]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل من دَخَل الحقيقة من غير رفقة أهلها فهو مبتدعٌ. وذلك لأنَّ كل فنٍّ من فنون الحقيقة أهله هم شرائعه وكل من دخل فنّاً من فنونها من غير شريعة فهو ضالّ تالِفٌ هالِكٌ فيها. ما أفلح من أفلح إلاّ بصحبة من أفْلَح.

عبودية الشرائع هي باب لعبودية الحقائق، من كان عبد الشرائع؛ فهو عبد الحقائق ومن لم يكن عبد الشرائع فلا نصيب له في عبودية الحقائق وإن كان عبد الحقائق. قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: الآية 80]، وقال جلَّ من قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: الآية 10].

[الداخل للحقيقة]

الدَّاخل للحقيقة كمن دخل بلاد الصحراء الخالية، إما أن يكون عارفاً بالبلاد فهو ناجٍ، وإلاّ يكون دخوله إليها مع أحد من خبرائها فهو أيضاً ناجٍ. ولا يدخلها جاهلاً بها منْ غير رفقة أحدٍ من أهلها، فهو تالفٌ هالكٌ. صار الأمر: مَا ثمَّ إلاّ عَالِمٌ بالبلد ناجٍ، وإلاّ مُتعلمٌ مرافقٌ لعالم بها ناجٍ. وإنَّ كل جاهل مستكفي بجهله هالك، ولا يحل لامرئٍ أن يَقْدِم على أمْرٍ حتى يعْلَمَ حكم الله فيه.

وأيضاً: قال جلَّ من قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: الآيات 1-3]، انظر وتأمل، إن كنت ذا فهم فإنك تجد عِظمَ الأشياء لا تخرج إلاّ من عظيمها، النور العظيم لا يخرج إلاّ من الظلمة العظيمة، والواسِع العظيم لا يخرج إلاّ من الضيق العظيم، والعِزّ العظيم لا يخرج إلاّ من الذّلّ العظيم، والقرب العظيم لا يخرج إلاّ مِنَ البُعْدِ العظيم، والبسط العظيم لا يخرج إلاّ من القبض العظيم، والعطاء العظيم لا يخرج إلاّ من المنع العظيم، والربحُ العظيم لا يخرج إلاّ من الخسْرَانِ العظيم، والجمع العظيم لا يخرج إلاّ من الفرق العظيم. وكذلك بالعكس في هذه الأمور كلها، وغيرها مما لا نهاية لها. سبحان من جعل الأشياء كلها كامنة في أضدادها بحكمته وقدرته تعالى. سبحان العظيم الحكيم الرؤوف الرحيم.

[البشرى من الشيخ بالظفر بالولاية العظمى من شيخه]

وأيضاً: اعلم أنّه كما أن الأفعال قد تنقص الأقوال، كذلك الأفعال الباطنية تنقص الأفعال الظاهرية. والحِكمة عند اقتران الباطن بالظاهر. وإذا اقترن الظاهر بالباطن يغلب الظاهر لا محالة. ومما وقع لي مع الشيخ، شرّفنا الله بذِكرِهِ، ذات يوم جئت إليه صباحاً، كما كانت عادتي معه، فصادفته نفعنا الله به خارجاً من باب الدار، فلما رآني تبسَّم ضاحكاً، فسلَّمت عليه، وقبَّلت طرفه، وصار قاصداً الزاوية، وأنا من وراء ظهره حتى دخلنا الزاوية فجلس وجلست بين يديه، فكان أول ما تكلم به أن قال لي: هل عرفت لِمَ ضحكت حين أقبلت على باب الدار؟ قلت: لا يا سيدي، قال: أردت أن أتكلم لك بكلام لا تظن أن أقوله لك. قلت: وما ذاك يا سيدي، كل ما يخرج من عندك حسن. قال لي: هذا الصباح الذي تجيء إلينا لا تجيء. قلت: وكيف يا سيدي؟ قال لي: الفائدة التي كنت تجيء إلينا تطلبها ظفرت بها أنت والحمد لله، ما عندنا عندك، وما عندك عندنا، ولماذا تبقى تمشي وتجيء إلينا صباحاً ومساءً. فلما سمعت هذا الكلام نزل بي أمر عظيمٌ لا أقدر على وصْفِهِ، واشتدَّ بي البكاء وأنا أخفيه حتى غلبني وما قدِرت على كتمه، فجعلت أشهق وأبكي حت عاينت الهلاك من نَفْسي، وهو نفعنا الله به يصبّرني ويقول لي: والله يا ولدي، ما قلت لك هذا الكلام حتى عاينته منك وعرفت أنك لا تحتاج إلي. وقلت له: يا سيدي والله لا أقدر أن أغيب عنك حيّاً ولا ميّتاً، فقال لي: أما أنا فقد ذكرت ما هو عليَّ حق أن أذكره إليك، وإذا أردت أن تأتي إلينا من باب المحبَّة فافعل. قلت له: يا سيدي كيف بكلام سيدي أبي مدين حين قال: وإنْ غبْتم عنا ولو نفساً مُتْنَا. قال لي: قالها على العروة الوثقى، والذُّرَّة البيضاء. قلت له: يا سيدي، والله إلاَّ أنت العروة الوثقى والذرة البيضاء. قال لي: افعل ما شئت.

[نماذج المجاهدة وثمرتها]

وأيضاً: أول ما كنت في ابتداء أمري، السنة بعد السنة، أقوم من الليل نحو نصفِهِ، وكانت عندي أوْراد بالليل وأوراد بالنهار. فأوراد الليل كنت أُصَلِّي ركعات بالقرآن حزباً في كل تسليمة، وأوراد النهار كانت عندي عشرين ألفاً من الذّكر كل صباحٍ ملقوطة من الأسماء وغيرها. كنت أتممها قريباً من الزَّوال، وكنت إذا أتممت أورادي لا يفْترُ لساني عن الذِّكر ليلاً ولا نهاراً، وكنت أفضّل العزلة عن الخلق ولا أقدر على كثرة الكلام معهم. وبقيت مدة من ثلاث سنين وأنا على تلك الحال، فأول

ما فتح لي الباب وأنا جُنب بالحمام: ظلمة الجنابة، وظلمة الحمّام، فما شعرت بنفسي حتى أشرقت أنوار باطني على ظلمة ظاهري، هذه أول فجأة مفاجأة فاجأني الحق تعالى بها، إذ دخل عليّ وقال لي: أنا سيّدك هل عرفتني؟ قلت: نعم، وكيف لا أعرفك يا مولاي وأنا بك قد عَرَفْت مجيئك. وأدناني وسقاني وهنأني، وقال لي: أخرج وابشرْ، أنت من أحبابي وأصفيائي وأوليائي وخُذْ مائي في قرب حضرتي ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفَجر: الآيتان 29، 30] . فهذه أول ثمرة جنيتها من باطني كأني حرست جناناً وهذا أول طعمِهِ. فلما وقع لي هذا الأمر وأنا في هاتين الظلمتين: ظلمة الجنابة وظلمة الحمام، ألْهَمني الله تبارك وتعالى، فعلمت أنَّ عمارة الباطن لا تكون إلاَّ بتخريب الظاهر لأن الإنسان ليس له إلاَّ مَادَّة واحدة ما تقوت من جهة الظاهر إلاَّ ضعفت من جهة الباطن، ولا تقوَّت من جهة الباطن إلاَّ ضعفت من جهة الظاهر. والعارف هو الذي ملَّكهُ الله تعالى نفسه ورُزقه، أي العلم بالحكمة الأزلية حتى صارت الحِكمة طوْع يديه، تقوية الظاهر بيديه، وتقوية الباطن بيديه. فصار عندي من ذلك اليوم باطني يتقوّى وظاهري يضعُف، حتى علّمني الله تبارك وتعالى ما لا كنت أعلم، من علم الظاهر وعلم الباطن، فصِرتُ أجني من ثمار الظاهر كما أجني من ثمار الباطن، علماً وعملاً، والحمد لله على فضله وجوده وإحسانه القديم.

[ظهور الحقّ]

وأيضاً: الحق لا يظهر إلاَّ إذا اقترنتِ الأضداد، واستوت وتوازنت، فعند ذلك يلوح الحق وإذا لاح الحق وظهر فإن الباطل يضمحلُّ، والباطل لا يجتمع مع الحق أبدا كما أنَّ الظلام لا يجتمع مع الضوء أبداً. مثال ذلك كالميزان إذا استوت الكفتانِ وهما ضِدَّانِ فإن الحق يظهر عند استواءِ العمودِ.

[الإنسان نسخة الوجود]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان جعله الله تعالى نسخة من الوجود، وخلق فيه البرودة والحرارة، كما خلقهما في الوجود. فكما أنَّ الحبَّة من الحنطة جعلها الله لا تُوجد ولا تكمل ولا تثمر إلا باقتران البَرْدِ والحرارة. كذلك الحِكمة في الإنسان، لا توجد ولا تكملُ ولا تثمر إلا باقترانِ البردِ والحرارة. ومهما تقوى البرودة على الحرارة، أو تقوى الحرارة على البرودة، بتسعة وثلاثين (39) بطلت الحكمة كما تبطل الحبَّة بالأرض، تبطل الحكمة في الإنسان، وبطلان الحِكمة أيضاً من الإنسان من قلّة صحبة العارفين بحكمة النفوس، لأنَّ الحكمة تحيى بصحبة أهلها، وتموت بصحبة غيرهم، وقليل ما هم.

[تعليم الحكمة]

قال لي الشيخ سيدي العربي، نفعنا الله به، كان رجلاً حكيماً، وكان له ولدٌ، فلما شبَّ قال له ابنه: يا أبتي أردت أن تعلمني الحِكمة. قال له: يا ولدي، سرْ وانظر من يُعلمها لك غيري لأنك ولدي وأنا أبوك أُشفق عليك، والمُعَلِّم إذا أشفق على متعلِّمِهِ لا يتعلم منه شيئاً. فصار يطلب من يعلمه الحِكمة حتى وجد حكيماً فأخذ عنده سنين حتى ظن أنه تعلّم، وجاء إلى أبيه، فقال له أبوه: يا ولدي ماذا بلَغْت من الحِكمة؟ قال: يا أبتي بلغت فيها إلى معرفة ما لا يعنيني، قال له: نعم، ولكن بقيت لك واحدة، فاذهب وانظر من يُعَلمها لك. فذهب وغاب سنين فلم يجد لها خبراً، فجاء إلى أبيه وقال له: يا أبتي ما وجدت من يخبرني بها فعَلِّمني إيَّاها لوجه الله تعالى. قال له: بقي لك أن تَحُكَّ برُكبتك ركبة الحكماءِ.

[الموت الحسي والموت المعنوي]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله خلق الموت على وجهين: موت حسِّي، وموت معنوي. وجعل حكْم الموت الحسِّي هو حكم الموت المعنوي. فكما أنَّ من مات موتاً حسِّياً ترفع عنه جميع التكاليف كذلك من مات موتة معنوية ترفع عنه جميع التكاليف. كما قال الشيخ أبو مدْين في بعض كلامه: فقد رُفِع التكليف في سُكْرنا عنَّا. فإنَّ العبد إذا كان شاخصاً بصير النظر في وجه سيده فإن التكاليف كلها تسقط عنه بل تحرم عليه، لأن حكمه حكم الواقف في الصلاة، يحرُمُ عليه الالتفات عنه ويحرم عليه كل ما يشغله عن صلاته.

كان الشيخ سيدي بوشتا، نفعنا الله به، إذا قيل له: فلان مات، يقول: استراح من الصلاة. وقد أخبر الشيخ سيدي محمد بن سعيد والشيخ سيدي أحمد بن عبد الله نَفَعنا الله بالجميع، قال له: كشف الله على بَصَرِي فرأيت أهل السماوات السبع، وأهل الأرضين السبع، كلهم ساجدون لله تبارك وتعالى إلاَّ أنا فلم أسجد، فاغتممت لذلك غمّاً كبيراً، فإذا أنا بالنداء عليَّ من قبل الله تبارك وتعالى فقال لي: يا محمد، إنّي أطلُبُ السجود ممَّن بيننا وبينه حجابٌ، وأمَّا من ليس بيننا وبينه حجاب فلا سجود عليه، فإن الإنسان مهما رضي بالعبودية وامتزج بها، نقله مولاه إلى مَقَامِ كُنْتُهُ. قال بعضهم:

دُعِيت لِمِلْكهم فلما أجَبْتهم   قالوا: دَعَوْنَاكَ للمُلكِ لا لِلْمِلكِ

لأن الله تعالى أكرم من أن تجود عليه بنفسك وهو لا يجود عليك بنفسه، بل

مهما رضي العبد بالعبودية، واطمأنّت نفسه إليها، يقول له الله تبارك وتعالى: «أنا أكرم مِنْ أن ترضى بعبوديتي وأتركك عبداً بل أنتَ أنا وأنا أنتَ».

[أهل الطريقة الشاذلية لا ينقطعون ولا يقطعهم عن مولاهم حال من الأحوال]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل هذه الطريقة الشاذلية، رضي الله عنهم، لا تتعَزَّر مادّتهم أبداً لا من جهة الظاهر ولا من جهة الباطن، لأن الحِكمة الأزلية في أيديهم، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: الآية 269] وذلك أنهم إذا احتاجوا لمادة الظاهر قطعوا مادة الباطن. فتتقوّى مادة الظاهر في الحين وإذا احتاجوا لمادة الباطن قطعوا مادة الظاهر فتتقوى مادة الباطن في الحين، وصاروا لا يقطعهم عن مولاهم حال من الأحوال بل يعرفونه في جميع الحالات في الأشياء وفي أضدادها، وبالأشياء وبأضدادها. قال الشاعر:

يا ربَّةَ القوط التي أتْلَفَت نَسْكِي عَلَى أيّ حَالٍ فالبَذْلُ منّي إليكِ

إمَّا بِذُلٍّ وهو ألْيَقُ بالهَوَى وإمَّا بِعِزٍّ وهو ألْيَقُ بالمُلْكِ

[ما زدت ذلاً إلا زدت عزاً]

وأيضاً: اعلم أنك أنت تزيد ذُلاً بين يدي مولاك، والأكوان تزيد ذُلاً بين يديك. أنت تزيد خضوعاً وفقراً بين يدي مولاك، والأكوان تزيد خضوعاً وفقراً بين يديك، لأنَّ الكون مثل المِرْآة ما قابلت مولاك بشيء إلا قابلتك الأكوان بمثله.

[التجريد العلوي والسفلي]

وأيضاً: اعلم أنَّ الوجود كله دائر على الزيادة، وطالب لها، ومنبع الزيادة وعنصرها خَلْقَةٌ تُرَقّى أو خَلْقَةٌ تُدَلّى. يعني إذا زاد الإنسان خَلْقَةً إلى فوق وجد الزيادة، وكذلك إذا زاد خلقة إلى أسفل وجد الزيادة في هاتين الخلقتين. انحصرت الزيادة كلها، أعني زيادة الوجود كلها عرفها من عَرَفها من أهل الحِكْمة والمعرفة بالله وجهلها من جهلها من أهل الفُتور والحجاب والتخليط والظلمة. لكن العامة يطلبون الزيادة الفوقية ويعرفونها وينكرون الزيادة السّفلية ويفرُّون منها. وهاتان الزيادتان لا محيد للإنسان عنهما، بل للإنسان وغيره مادّتان يتواردان على الوجود تارة هذه وتارة هذه، جرت عادة الله بهما وحكمته في خلقه، لا رادَّ لحكمه، ولا مُعَقب لأمره.

وأهل هذه الطريقة الشاذلية رضي الله عنهم أَلْهَمهم الله بحكمته، فعرفوها وعلموا بها، واصطحبوا معها، فبذلك استوت عندهم الأشياء وأضدادها، وحلوّها ومُرُّها، وخيرها وشرها، وعطاؤها ومنعها، وحياتها وموتها، وصحتها وسُقمها، ومدحها وذمُّها، وإقبالها وإدبارها، وفوقها وسفلها. لو وُزنوا في جميع أحوالهم ما رجح حال بحالٍ، كما قال الشيخ القطب الربّاني أبو الحسن الشاذلي جعلنا الله من السالكين على منهجه القويم: «واجعلنا عبيداً لك في جميع الحالاتِ».

صار أهل هذه الطريقة رضي الله عنهم ينتفعون بالشرّيات كما ينتفعون بالخيريّات، وذلك لما حصل لهم: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصرُهُ الذي يُبْصر به»[1] الحديث. صاروا لا يشهدون سواه، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. من أجل ذلك غابوا عن كل شيءٍ وحضروا في كل شيءٍ. يرحم الله القائل:

بيْن الطلوع والنزولْ تخبَّلَت الغزولْ
فَنَى مَنْ لَمْ يَبْق وأبْقَى مَنْ لَمْ يَزُلْ

[الفقير مثل الحمّام]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفقير مثل الحمّام، إذا كان سخناً كثيراً ولا فيه بَرْداً، لا عِبْرَة به، وإن كان بارداً كثيراً ولا فيه سُخونة لا عِبْرَة به أيضاً. وإذا كان جامعاً بين السّخونة والبُرُودة نَعَمْ. ذلك هي كلمة الله التي لا نفاد لها، وذلك هو ليلة القدر السّامية وهو الوارث لنُورِ النبوءة؛ لأنَّ العارف بالله أول ما يَمُنُّ الله عليه به، يجعل له زمام نفسه بيده، حتى تطاوِعه، يقلبها حيث شاء ويفعل بها ما يشاء.

[تصرف العارف الكامل في الملكوت العلوي والسفلي]

ثم بعد ذلك يمُنّ عليه منَّة أُخرى يجعل له زمام الوجود كله بيده، وعند أمره ونهيه، يقلّبه حيث شاء، ويفعل به ما شاء. وذلك لما علم أدبه معه أنه لا شيء له إلاّ ماء مولاه، فعند ذلك يُمَلِّكه التصرف في الملكوت العلوي والسُّفْلي، وذلك أن صاحب هذا المقام مشتغلٌ عن المشيئة باستغراقه في النظر إلى مولاه، فلا يشهد إلا إيّاه، وإذا ظهرت منه مشيئة فإنما هي مشيئة مَوْلاهُ ظهرت عليه، امْتُحِنْ لديه الأكوان

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (6137) [ج 5 ص 2384]، ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله. . .، حديث رقم (347) [ج 2 ص 58] ورواه غيرهما.

وانطوت ولا بقي إلاّ المكوّن.

قال ابن عطاء الله في الحِكَم: لو ظهرت صفاته لاضمحلّت مُكوَّناته. وصاحب هذا المقام لا فرق عنده في وجود الأشياء وعدمها، يعني استوت عنده الأحوال كلها وأضدادها، لو وزن في جميع أعماله أحواله لتعادل، وذلك لغيبته في حضوره وحضوره في غَيْبته. وبعد هذا، فإن الأمر فوق ما يصفه الواصفون، كما قال القائل: مَن ذاق عَرَف. لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده، ولا الصبابةَ إلاّ من يُعانيها.

[الولي مثل الزرع]

وأيضاً: الولي مثل الزَّرع، لا يحصل له الكمال حتى يأخذ حِسَابه من الشتاء والصيف، ثم تحصل له المرتبة الثالثة وهي مرتبة الكمال، مرتبة الشتاء هي مرتبة الظواهر، ومرتبة الصيف هي مرتبة البواطن، ومرتبة الكمال هي مرتبة الاعتدال، وهي مرتبة الحق. وما ظهر فيه الحق تخضع له رقابُ أهل السماوات وأهل الأرض، بل يخضع له كل شيءٍ في العوالم كلها وفي المغيبات كلها.

[على قدر أدبك مع شيخك على قدر قربك من مولاك]

وأيضاً: اعلم أنه على قدر ما يحصل لك مع الشيخ من الأدب، على قدر ما يحصل لك مِنَ القرب من مولاك، لأن الآدمي خليفة الله في أرضه. من حسَّن الأدب مع الخليقة يرجع به حسن الأدب مع مولاه، ومن لم يحسن الأدب مع الخليقة كيف يُحْسنه مع المولى، كما أنَّ «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[1] الحديث.

[لا بد للإنسان من البعد والقرب]

وأيضاً: الإنسان لا بدَّ له من البُعْد والقرب، إذا كان البعد في الظاهر يكون القُرْب في الباطن، وإذا كان القرب في الظاهر يكون البُعْد في الباطن، وهكذا.

[إن الله يرزق العبد على قدر همته]

وأيضاً: «إن الله يرزق العبد على قَدْرِ هِمَّتِهِ»[2] الحديث. ومن ذلك، أن الله تعالى يمُدّ كل فِرقة من خلقه بما طلبت، يمدّ من طلب الاسم بالاسم، ويمدّ من طلب

(1) رواه الترمذي في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم (1955)، ورواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، حديث رقم (4811) ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

الصفات بالصفات، ويمدّ من طلب الذَّات بالذات، ومادة كل واحدٍ على قدْرِ همتِهِ. القوي مادَّته على قدر قوته، والضعيف مادته على قدر ضعفِهِ. وأهل الاسم يطلبون الاسم بالاسم، يمدّهم الله بالاسم كعامة المسلمين. وأهل الصفات يطلبون الصفات بالصفات يمدّهم الله تعالى بالصفاتِ كخاصَّة المسلمين. وأهل الذات يطلبون الذات بالذات يمدهم الله بالذات، كخاصَّة الخاصَّة، نفعنا الله بالجميع.

أما صاحب الاسم مع نفسه له الأجر ما دام في عمله حتى يقطع، وعلامته: تارة في شدَّةٍ، وتارة في رخاءٍ. وطالب الصفات واقف مع القدرة شاخص بصره لما يبرُز منها لا يرى لنفسه قدراً ولا يعنى بها. هذا مقدمة مقام الشكر والشاكر لا ينقطع أبداً.

وعلامتهُ: الرجوع إلى الله في السرَّاء والضراءِ.

لا يشهد في الوجود إلاَّ الله. غائب عن الأكوان مع المكوِّن مستغرق في شهود مولاه لا يخطر على قلبه سوى مولاه، ولا يرى بعينه ولا يسمع بأذنه إلاَّ هو، استوى رجاؤه وخوفه.

وعلامته: أن استوت عنده الأشياء كلها، الأشياء وأضدادها، لا فرق عنده بين الحلو والمُرّ، وبين العدوّ والحبيب، وبين العطاءِ والمنع، وبين الإسَاءة والإحسان، وبين العلوّ والسّفلي إلا ما لا نهاية له. نسأل الله تعالى بجاه هؤلاء الأولياء أن يجعل لنا نصيباً معهم بفضله وإحسانه، إنه على كل شيء قدير. كما قال بعض العارفين: مَنْ بلغ حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عَنِ العمل، ومن بلغ حقيقة الإيمان، لم يقدر أن يلتفت إلى العملِ، ومن بلغ حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى ما سواه.

الكلامُ حقيقة عُلْوية، والصمت حقيقة سفلية. الكلام جمالي، والصمت جلالي، والعزلة جلالية، والاجتماع جمالي.

[آداب الطلب]

وأيضاً: ما بين الحقائق السّفلية والحقائق العلوية، ما بين الذَّهب والفضة. الحقائق السّفلية من الذهب والحقائق العلوية من الفضَّة.

فلو يكن الكلام في القياس ... من فضَّةٍ بيضاء عند الناس
إذن لكان الصمت من الذَّهب ... فافهم رعاك الله آداب الطلب

[الفقير الصادق]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفقير الصادق هو الذي لا يجد عدُوُّه سبيلاً إلى الوصول

لإذايته، هذه علامته، لأنه يكون دائماً لا شغل له إلاّ حبيبه، واشتغاله بحبيبه يحجبه عن عَدُوِّهِ، والحبيب مع العدوّ مثل الليل مع النهار، لا يجتمعان أبداً.

[ظهور الحق بين عالم الحس وعالم النفس]

وأيضاً: اعلم أنّ الله تعالى خلق عَلَمَيْنِ: عَلَم الحسّ وعَلم النَّفس. كما خلق زمن الصيف وزمن الشتاء. وظهر جلّ ثناؤه بين هذين العَلَمَيْنِ وجعل عَلَم الحسّ كبيراً في الحسّ، صغيراً في المعنى، وعلم النفس صغيراً في الحسّ، كبيراً في المعنى، وعالم الحس قائم بعالَم النفس، وعالم النفس قائم بعالم الحسّ. وزيادة الحس لا يكون إلا بتَقْوى النفس، وزيادة النفس لا تكون إلاّ بنقص الحسّ.

والعارفُ بالله هو الذي عرّف حكمتها، حتى صار يتصرَّف بالنفس كما يتصرف بالحسّ، ويتصرف بالحس كما يتصرف بالنفس. وعالَمُ الحس هو الكون الفوقي والسفلي، وعالم النفس، هو عالم ذات الإنسان. ومن ملك التصرف في عالَم نفسه لا بد أن يملك التصرف في الكون، ومن لم يملك التصرف في عالم نفسه، لا تصرف له في الوجود.

[الفقراء ثلاثة فرق]

وأيضاً: اعلم أن الفقراء على ثلاثة فِرَق: فرقة صالحون لأنفس الخلق، مُفْسِدون لأنفسهم، وفرقة صالحون لأنفسهم مفسدون لأنفس الخلق. وفرقة صالحون لأنفسهم وأنفس الخلق، هؤلاء هم الذين جَمَعوا بين صلاح الجانبين، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ [ص: الآية 24] .

[زيادة النفوس بنقص الفلوس]

وأيضاً: زيادة النفوس لا تكون إلاّ بنقص الفلوس، وزيادة الفلوس لا تكون إلاّ بنقص النفوس. ولا يجمع بين الزيادتين إلاّ قليل من الكُمَّالِ الأقوياء العارفين بالله. ولا يُمْكن الجمع بينهما إلاّ بعد حينٍ، يعني بعد الخروج عن مشقة البدايات إلى الرسوخ في الكمال.

[أوصاف العبيد والموالي]

وأيضاً: اعلم أنّ المريد لا شرف له مثل النقص، لأنّ النقص وصف العبيد، والعبد لا شرف له إلاّ التخلّق بأوصافه: الطرد والإهانة. لا مثل الكمّال لأن الكَمَال

وصْفُ الموالي. صار كما يتشرف العبد بأوصافه، يُهان وينجس ويطرد إذا اتّصف بأوصاف مواليه. شاهده من كلام العامّة قولهم: العَبْد إذا جمل أو ابيضّ من قلّة حسبِهِ لأنه كما لا يليق بأوصاف الموالي إلاّ الكمال كذلك لا يليق بأوصاف العبيد إلاّ ما فيه نقص النقص.

[من حكم الحقيقة]

وأيضاً: ومن جملة حكم الحقيقة البُعْدُ والقربُ، لا يخلو منها بَشَرٌ. من كان بعيداً من جهة الحسّ يكون قريباً من جهة المعْنَى، ومن كان بعيداً من جهة المعْنَى يكون قريباً من جهة الحسّ، وهكذا.

[العارف بالله مالك نفسه ومتصرف في الوجود بمولاه]

والعارف بالله هو الذي يكون يَمْلك زِمام نفسه بيده، يعني زمام البعد والقرْب بيده، يقف حيث شاء إذا أراد أن يقرب في المعاني يَبْعد في الحسّ، وإذا أراد أن يقرب في الحس يبعد في المعاني. فمن كانت فيه هذه الأوصاف فهو من ملوك النفوس، يعني ممّن تفرّد للخصوصية، لأنه مالك نفسه يتصرف فيها بهذا التصرف بمشيئته ما حصلت له هذه المزية مع نفسه حتى حصلت له مع الوجود كله، يتصرَّف فيه بما أراد، ويقلبه كما يشاء. سبحان من عَلَّم الإنسان ما لم يَعْلم مع جهله، سبحان من تَفضل على عبده بقدرته مع ضعف العبد وعجزِه. سبحان من لا يتوقف فضْله على شيءٍ، سبحان من يعطي بلا شيءٍ، ويمنع بلا شيءٍ، لا إله إلاّ هو الكبير المعال.

[نفسك نسخة من الوجود والوجود نسخة من نفسك]

وأيضاً: اعلم أنَّ نفسك نسخة من الوجود، والوجود نسخة من نَفْسِك. من ملَّك الله له التصرف في نَفْسِهِ يملك التصرف في الوجود. ومن لم يملك التصرف في نفسه لا تصرّف له في الوجود، لأنَّ حكم نفسك هو حكم الوجود، وحُكم الوجود هو حكم نفسك.

[للخصوصية جسد وروح]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخصوصية لها جَسَدٌ وروح، أما جسدها فهو التجريد إليها، وأما روحها فهو دوام الجلوس بين يدي أهلها. والجسد لا يقوم بلا رُوحٍ، والروح لا تقوم بلا جَسَدٍ، ومهما اجتمع الجسد مع الروح وجدت الخصوصية بينهما.

[عبودية الحس وعبودية المعنى]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان نهاية شرفه هو العبودية، والعبودية على وجهين: عبودية الحسّ، وعبودية المَعْنَى. وبين عبودية الحس وعبودية المعنى ما بين الدِّرْهم والدِّينار، فأهل عبودية الحس لا نصيب لهم في المعاني، وأهل عبودية المعاني لا نصيب لهم في الحسِّ، إلاَّ أن صاحب العبودية الحسِّية لا بدَّ له من العبودية المعنوية. يعني، إذا انتهى في الحسية لا تطلقه إلا في المعنوية. وصاحب العبودية المعنوية لا بد له من العبودية الحسية. يعني: إذا انتهى في المعنوية لا تطلقه إلاَّ في الحسية، لأن مادَّة الإنسان محصورة في هذين الوصفين: الحسّ والمَعْنَى. إما هذه، أو هذه، ولا بعد هذه إلاَّ هذه. يتعاقبان على الإنسان كتعاقب الشتاء والصيف.

[الجواب بين يدي الشيخ سوء أدب]

وأيضاً: ومن أعظم وجوه سوء الأدب في المريدين، السبق للجواب بين يدي المشايخ، وكثرة الكلام والتعبير بين أيديهم. وذلك لأنَّ الكلام في الأصل كُلّه عِزّ وعلوٌّ. والعلوّ من شأن الموالي لا من شأن العبيدِ. والمريد المطلوب منه هو وصف العبودية، ووصف العبيد، فهو ضد وصف الموالي، ومهما ظهر وصف الموالي بطلت العبودية.

قال في الحِكم خطاباً للمريد: أخرج عن أوصاف بشريتك، وعن كل وَصْفٍ مُناقض لعبوديتك، لتكن لنداء الحق مجيباً، ومن حضرته قريباً، وذلك أنَّ كل ما يشير للدُّنو والانخفاض، فقد ناقض الحرية، وهو باب الحرية ومفتاحها. يعني من أتى للعبودية اختياراً لا بد أن تأتيه الحرية على قدر تلك العبودية قهراً. وكذلك العكس، كلما يشير للعلوّ والارتفاع فهو حرية، وهو ناقِض للعبودية. وهو أيضاً باب العبودية ومفتاحها، يعني من أتى الحرية اختياراً لا بد أن تأتي العبودية قهراً على كل حالٍ، وهكذا.

قال في الحِكَم: من رأيته مجيباً عن كل ما سُئِلَ ومُعَبِراً عن كلِّ ما يشهد، وذاكراً كل ما عَلِم، فاستدلَّ بذلك على وجود جَهْلِهِ.

[مناجاة الله لعبده لا تنقطع]

وأيضاً: اعلم أنَّ مُناجاة الحق للعبد أبداً لا تنقطع عنه، كما أنَّ معاملة الحق للعبد من إحسانه معه لا تنقطع عنه. وجود العبد قائم بمناجاة الحق له بالمعاني،

وبأفعال الحق له بالحسيات، وهاتان الحقيقتان: المناجاة للعبد بالكلام، والمعاملة معه بالفعل، حقيقتان قديمتان أزليتان، ليس قبلهما قبلٌ ولا بعدهما بَعْدٌ، لو فقَدَ العبد مواجهة هاتين الحقيقتين في طرفة عين لتلاشى وفنى. ومناجاة الحق لك على وجهين: تارة يناجيك من نفسك في باطنك، وتارة يناجيك من جنسك في ظاهرك، وكذلك المعاملة، تارة يعاملك من نفسك لنفسك، وتارة يعاملك من جنسك لجنسك، وأنت أبداً بين عالم ظاهري وباطني، وبين عمل ظاهري وباطني، القول الباطني من نفسك لنفسك وبنفسك لربك. والقول الظاهري بالعكس ومهما أعرضت عن مناجاة الجنس، جاءتك مناجات الحق من النفس، وكذلك مهما أعرضت عن معاملة الجنس، جاءتك معاملة الحق من النفس، وفي الحقيقة الكل حق من النفس ومن الجنس، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

يقول الشيخ الششتري: أنا بالله أنطق، ومن الله أسمع، هذا والله من عرف مناجات الحق من جنسه ومن نفسه. ثم قال رحمه الله: اعلم أن أهل طريقتنا هذه في عالم النفوس بمنزلة الحدادين من عالم الوجود، كما أن الحدادين في عالم الوجود يسخنون الحديد بالنار الحسية، وإذا لم تكن نار لا سبيل لهم لخدمة الحديد. كذلك نحن نطبخ حديد النفوس بالنار المعنوية، وهي التعظيم، وإذا لم يكن تعظيم فلا سبيل لنا لخدمة حديد النفوس، إن وجد التعظيم نصنع من النفوس ما شئنا، وإن لم يوجد تعظيم ولا مرافقة فالباب مسدود والعياذ بالله. نسأل الله السلامة.

[الوجود يقابلك كما قابلته]]

ثم قال رحمه الله: اعلم أنك إذا توجهت للوجود بظاهرك ظلمة، وباطنك نوراً، فإن الوجود يقابلك كما قابلته، ظواهره ظلمة وبواطنه نوراً، وإذا قابلته بعكس هذا الأمر يعني بظواهرك نوراً وببواطنك ظلمة، فإن الوجود يقابلك كذلك أيضاً، أي بما قابلته يقابلك، ومن ذلك لبس الثياب الجميلة، جمال للخلق جلال لنفسك، بذلك يقابلك الخلق، يدفعون الجلال إليك وبالجمال لأنفسهم، كأن الوجود مرآة بما تقابله يقابلك.

[خرق عوائد الوجود وخرق عوائد النفوس]

ثم قال رحمه الله: ليس الشأن في خوارق الوجود، وإنّما الشأن في خرق عوائد النفوس، لأن خرق عوائد الوجود يجمعك على الخلق، وخرق عوائد النفوس يجمعك على الحق. خرق عوائد الوجود من أوصاف أهل الاجتهاد من أرباب الظواهر، وخرق

عوائد النفوس من أوصاف القلوب من أهل البواطن. خرق عوائد الوجود من أوصاف أهل الاسم من أهل الدليل والبرهان، وخرق عوائد النفوس من أوصاف أهل الذات من أهل الشهود والعيان. عوائد الوجود عند أهل العبادات الظاهرية على يد الوسائط من وراء الحجاب، وخرق عوائد النفوس عند أهل العبادات المعنوية بلا واسطة ولا حجاب، خرق العوائد في الوجود إذا دام عليه صاحبه على كل حال، يرجع لخرق عوائد النفوس، كما يرجع زمان الشتاء لزمان الصيف. وخرق عوائد النفوس أيضاً إذا دام عليه صاحبه على كل حال برفقة تعرف عوائد الوجود لأن الظواهر هو مفتاح البواطن، كما أن البواطن هو مفتاح الظواهر.

[الاتصاف بأوصاف الموتى]

ثم قال رحمه الله: اعلم أن القبر بيت وسكانه موتى، ولا شك أن بيت الموتى ليس هو لأهل الحياة فيه مدخل ولا نصيب، إلا أن المبتدئين قد رخّص لهم أن يتصفوا بأوصاف الموتى، ويدخلون مع الموتى حتى يحصل لهم الموت حقيقة بمرافقة الموتى؛ لأن المرء على دين خليله، والموت هنا بمعنى الفناء، والرخصة التي جعلت للمبتدىء هكذا يدخل مع الموتى الذين قتلوا أنفسهم في الله، وحيت قلوبهم بالله، وهم المسمون عند الله بالفقراء. وحقيقة هذا الاسم يعني الفقر، هو الفقر من الشرك حقيقة، والفنا بالله طريقة، والفنا بالله الحقيقي لا يحصل إلاً لمن افتقر لله الفقر الحقيقي والفقر الحقيقي هو الفناء الذي عبّر عنه بالموت، كما قال بعض الفقراء في بعض كلامه:

الموت فيه حياتي وفي حياتي قتلي

وقال آخر: غناي في فقري، وعزتي في الهوان.

قال في الحكم: من أشرقت بدايته، أشرقت نهايته. يعني: النهاية تعظم على قدر البداية، كأنه يقول: الأدب في مقام البدايات، على قدره يكون الفناء في مقام النهايات، والفناء في مقام النهايات، على قدره يكون البقاء في مقام النهايات، أي كأنه يقول: المقام يكون في مقام نهاية النهايات نسخة من الفناء في مقام النهايات، والفناء في مقام النهايات يكون نسخة من الأدب في مقام البدايات، وهذه المرتبة الأولى ما عمرت في هذه المراتب وأضيفت لهم إلاً بالتشبّه، يعني مرتبة أدب البدايات، مقام أهل التشبه بالفناء، يكون مقام أهل الفناء بالأدب فناء مجازي، وهو باب الفناء الحقيقي، كما أن الفناء الحقيقي هو باب البقاء الشرعي. أدب أهل البدايات فناء في الفرق، وأدب أهل النهايات فناء في الجمع، وأدب أهل النهايات فناء في الجمع بالفرق، وفناء

في الفرق بالجمع في ذلك؛ لأن الطريقة كلها أدب. يرحم الله القائل: اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً. وقال الشاعر:

آداب العبد تذلُّل والعبد لا يدعَ الأدب
فإذا تكامل ذُلّه نال المودّة واقترب

وأيضاً: قال بعض العارفين: عَرَفْتُ ربِّي بربِّي، ولولا ربِّي ما عرفت ربِّي. ويُحكى أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه سئل، فقيل له: يا سيدي أعرفت الله بمحمّد ﷺ أم عرفت محمداً بالله؟ فقال: لو عَرَفت الله بمحمّدٍ لأعْبَرتُهُ، ولكان محمداً أوْقف في نفسي من الله، ولكن الله عرّفني نفسه بنفسِهِ».

[صاحب الفناء سكران]

وأيضاً: اعلم أنَّ ادب المريدين في مقام البدايات، يعْظم على قَدْرِ عظم أدب مشايخهم في مقام النهايات، ويضعف على قدر ضعفهم، كما أنَّ مَنْ عَظمَ أدبه في عبودية بدايتهِ، على قدْره يعظم أدبه في عبودية نهايته. صارت النهايات مجْلَى البدايات لأهل المشيخة مع التلامذة، كما صارت البدايات مجْلَى النهايات لمقام البدايات مع مقام المشيخة. والعبودية هي المطلوبة من الإنسان في بدايتِهِ، وهي المطلوبة منه في نهايته. والبداية هنا هو ما كان قبل الفَنَاءِ، والنهاية هنا هو ما كان بعد الفناءِ، وهو المكنّى عند الناس بالبقاءِ.

وما بين البدايات والنهايات فهو الفناءُ، وهو مقام السكر، والسّاكر ليس معه كلامٌ، فقد رُفع التكليف في سكْرنا عنّا. وإنما الكلام مع صاحب عبودية محو البدايات، أو مع عبودية صاحب محو النهايات. وأما صاحب الفناء فهو ساكر لا عبودية له، فقد فَنِي مِلْكه في مُلْكه، وفنيت ظلمته في نورانيته، وفنى فَرْقه في جَمْعه، فلا عبودية، ولا ظلمة، ولا فرْق، ومهما فنيت ظلمة العبودية لم يبْقَ إلا نور الرّبوبية. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91] . وإذا بطل الفَرْق بطل التكليفُ. يرحم الله القائل:

الرّبّ حق والعبد حق يا ليتَ شِعري مَنِ المُكَلَّفُ
إنْ قيل عَبْدٌ فالعَبْد ميّتٌ أو قيل ربٌّ أنّى يُكَلَّفُ

[الصامت والمتكلم]

وأيضاً: اعلم أنه إذا اقترن الصامت والمتكلم، فالحكم للصامت على المتكلم، لا للمتكلم على الصّامت. وذلك أنَّ الصَّمْت سُفْلي، والكلام علوي، وإذا اقترنَ

العلوي والسّفلي فالحكم للسفلي على كل حالٍ.

وأيضاً: صاحب الصمت له مواهبُ، وصاحب الكلام له مواهبُ. ومواهب صاحب الصمت أقوى من مواهب صاحب الكلام. وذلك أن الكلام من شأن أهل الفناءِ، والصمت من أوصاف أهل البقاءِ. ولا شك أنَّ مواهب صاحب البقاء أقوى من مواهب صاحب الفناءِ، بأضعاف كثيرة.

وأيضاً: الصمت عبودية، والكلام حرية. ولا يشك في أن مادة صاحب العبودية أقوى من مادة صاحب الحرية. ولولا ذلك ما اختار النبيُّ ﷺ العبودية على كل شيء، وذلك لأنها أقوى من كل شيءٍ. ومادَّة أوسع منكباً وأعلى من كل شيءٍ قدراً، وأشرف من كل شيءٍ حسَباً.

واجعلنا عبيداً لك في كل الحالات، بفضلك وإحسانك يا ربّ.

[ما يأخذ الظاهر من الباطن، يأخذه الباطن منه]

وأيضاً: اعلم أن ظاهر الإنسان وظاهر الوجود، في الحقيقة كله جلال، كما أن باطن الإنسان وباطن الوجود في الحقيقة كله جمال. ولكن بامتزاج الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر ربما يظهر شيء من جمال الباطن على الظاهر، وشيء من جلال الظاهر على الباطن. وهي: قدر ما تأخذ الظواهر من جمال البواطن، تأخذ البواطن من جلال الظواهر، وذلك أنَّ الجلال كله صفات فَرقٍ، والجمال كله صفات جَمْعٍ. وعلى قدر ما يظهر من أثر الصفات على الذَّات يظهر من أثر الذَّات على الصفاتِ، صار جلال الظواهر هو جمال البواطن وجمال البواطن هو جلال الظواهر. أين هو حبيبك ثم عدوّك؟.

والجلال في الظواهر أحلى، والجمال في الظواهر أمَرُّ. والزيادة تنمُو بين الأصل والعارِفِ، وبين الأصل والأصلي، وبين العارف والعارف، من الباطن إلى الظاهر، ومن الظاهر إلى الباطن. الأمر راحل أبداً، قاطن أبداً، ظاهر أبداً، باطن أبداً، مجموع أبداً، مفروق أبداً، قريب أبداً، بعيد أبداً، صغير أبداً، كبير أبداً، علوي أبداً، سفلي أبداً، حسي أبداً، معنوي أبداً، جلالي أبداً، جمالي أبداً، حيٌّ أبداً، ميّت أبداً، موجود أبداً، مفقود أبداً، متحرك أبداً، ساكِن أبداً، إلى ما ليس له حصرٌ من نعوت أوصافه.

[الإنسان نسخة من الوجود]

وأيضاً: انظر، إن كنت ذا بصيرة وفَهم، أليس الإنسان نسخة من الوجود، من سُرّته إلى فوق عالَم المعاني، وسرته إلى أسفل عالَمِ الحسيات.

انظر جوارح عالَم المعاني من الإنسان، تجدها تنطق وترى وتسمع وتشمّ وتجِسُّ.

وانظر جَوَارح عالم الحسيات من الإنسان تجدها صُمٌّ بُكم عميٌ بذلك، كأن العالم العلوي وهو عالمُ المعاني، عالمُ الملكِ، جوارحه ملوك من أهل العالَم الحسّي السفلي. وبذلك كان العالم السفلي، وهو عالم الحسيات، عالم الفُلك، جوارحه ممالِك لأهل العالم العلوي، وهكذا في عالم الوجود، أهل العالم السفلي، وهم الذين غلبت حسياتهم على معنوياتهم وظلمتهم على نورانيتهم، أولئك هم الممالك وأهل العالم العلوي، أو هم الذين غَلَبَت معانيهم على حسياتهم، ونورانيتهم على ظلمانيتهم؛ هم الملوك، والملوك مالِكُون للممالِكِ، والممالك مملوكون للملوكِ. إن كانت ذات كل واحد من الجميع محتوية على مُلك ومِلك، لكن الحكم للغالب، مَن غلب مُلكه على مِلكه فهو مَلِك للمَالِك، ومن غلب مِلْكه على مُلكه فهو مملوك للملوكِ. هكذا جرت سنة الله في خلقِهِ، ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً.

[وصف الربوبية ووصف العبودية]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الحقائق العلوية ضعيفٌ، لأنَّ هذا الوصف له عارِضٌ لا حقيقي، والعلو وصف الربوبية، وكل من اتصف بوصفِ الربوبية اختياراً فهو مخذولٌ. وصاحب الحقائق السّفلية قويٌّ، وذلك لكونه اتصف بوصفه الأصلي وكل مَنِ اتصف بوصف العبودية اختياراً فهو منصورٌ.

وأيضاً: صاحب الحقائق العلوية موكول إلى نفسه، وصاحب الحقائق السفلية متوكل على ربّه. وشتّان بين المتوكل على ربه، والمتوكل على نفسه. قال في الحِكَم: تحقق بأوصافِكَ يعرفك بأوصافِهِ.

[وصف العبودية]

وأيضاً: اعلم أنَّ العبودية في الحرية، والحرية في العبودية. العبودية: كل ما هو سُفلي، فهو عبودية. والحرية: كل ما هو علويّ فهو حرية. الأدب مع عباد الله وصف من أوصاف العبودية، وهو ذُلٌّ اكتسابي، يجرّ عِزّاً قَهْريًّا.

وسوءُ الأدب مع عباد الله ربما يكون من أوصاف الحرية، وهو عِزٌّ اكتسابي، يجرّ ذُلاً قَهْرياً. والكلام وصف من أوصاف الحرية، ربما يجر ذلاً قهرياً، وهكذا في جميع أوصاف العبودية والحرية جرَتْ عادة الله هكذا، ولن تجدْ لسنَّة الله تبديلاً. وقد تكون

العبودية قهرية في ابتدائِها، وقد تكون الحرية قهرية في ابتدائها.

أيضاً: وهذا نادر، والنادر لا حُكْم له. وإنما الحكم للجلّ؛ وهو ما ذكرنا أولاً. والعبودية أيضاً تكون ظاهرية حسّاً، وقد تكون باطنية معنىً. وكذلك الحرية تكون باطنية معنىً وقد تكون ظاهرية حتماً. كم من متجبر لبس ثياباً مُرَقَّعة رثَّةً وكم من متواضع لبِس ثياباً شريفة جديدة. والكل خيْرٌ، لبس الثياب الرَّثة ولبْس الثياب الحَسنة، ثم يكون عارفاً. فحكم هذه وهذه، والكل شرّ لمن يكون جاهِلاً بأحكامها، تقتل البلاد مَن يعرفها، وتقتل البلاد من لا يعرفها. اللهم إلاَّ أن يكون الجاهل مُرافقاً لعارف، فحكمه حكم العارف.

[فتح المواهب كلها:
ثم أمرك بأمر الله تعالى تقول للشي كن فيكون]

وأيضاً: إذا أردت أن تفتح لك المواهب، مواهب العلم، ومواهب العمل، عليك بلبس المُرَقع من الثياب، والصمْت مع وجود التوجه للطريقة، والانتساب للفقر بالصمت تخرق العادات بالعلوم اللدُنية، وتخرق العوائد بلبس المرقعة، تخرق العوائد بالمواهب الفعلية، وأمرك بأمر الله، إن قلت للشيء كن فيكون، وذلك لأن هذين الوصفَيْن، يعني الصمت ولبس المرقعة، وصفان من وصف العبودية. ولا شك أنَّ العبودية هي مفتاح الفتوحات كلها. وهذا القياس يقتضي وجود ضده، وهو أنك إذا أردت أن تنطمس عنك فتوحات الباطن حتى لا تجد لها خَبَراً حتى كأنها لم تكن، عليك بلبس الثياب الجميلة، وكثرة الكلام مع أبناءِ الدنيا، فإذا اتصفت بهذين الوصفين فإن الفرْق يملكك عند ذلك حتى لا تجتمع لك فكرة، فعند ذلك يحصلُ لك نسيان نَفسك، وإذا نَسِيت نفسَكَ على كل حالٍ، يحصل لك نسيان ربكَ. قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحَشر: الآية 19] .

[العلم والعمل]

وأيضاً: إيجاد العلم، هو الدليل على ضعف العمل؛ وهو الضَّامن لإيجاد العمل. كما أنَّ إيجاد العمل هو الدليل على ضعف العِلْم، وهو الضامن لإيجاد العلم، يعني وقت العلم ليس هو وقت العمل ولكن هو بساط العمل كما أن وقت العمل ليس هو وقت العلم، ولكن هو بساط العلم. قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية 282] انظر كيف جعل الحق سبحانه التقوى بساط العلم، وقولنا: وقت

العلم ليس هو وقت العمل، وذلك لأن قلب الإنسان ما له إلاَّ وجه واحد، إذا توجه إليه انقطع عما سواه، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية 4] وكذلك إيجاد الجمال، هو الدليل على فقد الجَلالِ، وهو الضامِن لإيجاد الجلال. وهكذا في سائر وجوه الحقيقة كالفَرْق والجَمْع، والحسّ والمعْنَى، والشريعة والحقيقة، والظلمة والنور، والعبودية والحرية، والذلّ والعزّ، والفقد والوجد، والفناء والبقاء، والبسْط والقبض، والعلو والدّنوّ، والمِلك والمُلك إلى ما لا نهاية له من الأسماء والأفعال التي افترقت حتى لم يُوجد فيها جمع، كما اجتمعت حتى لم يُوجد فيها فَرْقٌ. وفرْقها ممزوج في جمعها كامتزاج الجسد بالروحِ، وكذلك جمعها ممزوج في فرْقها كامتزاج الرُوحِ بالجَسَدِ. والكل حق وما ثمّ إلاَّ الحقّ، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه.

[الأشياء وأضدادها، والإيجاد والفقد]

وأيضاً: اعلم أن الحسِيات اثنان: الأشياء وأضدادها. وكذلك المعنويات اثنان: الأشياء وأضدادها، والكل منهما. وجود الشيء تارة يكون سبب فقدان ضدّه، وتارة يكون وجوده سبب وجود ضِدّه، وذلك لأنه من عادته تعالى في خلقه؛ فيه الحسيات والمعنويات، الذي يُعذِّب به يَرْحَمُ به إن شاء، والذي يرحمُ به يعذب به إن شاء. وحتى ذلك الإيجاد خُلِقَ له ضِدّه، وهو الفقد. تارة يرحم عبده بالوجد، وتارة بالوجد يعذبُهُ. وتارة الفقد، تارة يعذب عبده به وتارة بالفقد يرحمه، وذلك كله دليل على أنَّ الوحدانية كلها لله وحده لا تأثير لشيءٍ من مخلوقاته إلاَّ به. ورَبُّ الحسيات هو ربُّ المعنويات، وحكم الحسيات هو حكم المعاني، وعلاج المعاني هو علاج الحسيات، إلاَّ أنَّ المعاني جمع والحسيات فرْق. وجمع الجمع يجمع الجميع، وحق الجمع يجمع ما يُجْمَع، ويُفَرّق ما يُفَرّق.

«حقٌ لحقٌ في حقٌ، يحق الحق ينطق بالحق. والحق يَفْعَل بالحق، والحقُّ يُبْصِر بالحقّ، والحق يسمع بالحقّ، في حضرةِ الحقّ بالحقّ.

[مقام التّلون ومقام الفناء والبقاء والعبودية بوجود الوسائط وفقدها]

وأيضاً: اعلم أنَّ نتيجة عبودية أهل الله الفناء في الله، كما أن نتيجة الفناءِ في الله البقاء بالله. كما أنَّ نتيجة البقاء بالله الفناءُ ولا فناءَ، والبقاء ولا بقاء.

عبودية أهل الله عبودية كسْبية، وعبودية أهل الفناءِ في الله عبودية قهرية، وعبودية أهل البقاءِ بالله، عبودية كسْبية بعد القهرية، وعبودية بقاء البقاءِ كسبية قهرية، أو قهرية كسبية.

الأولى: عبودية الله بوجودِ الوسائِطِ.

والثانية: هي المسماة بالفناء: عبودية مع فقد الوسائطِ.

والثالثة: هي المكناة بالبقاء، عبودية بوجود الوسائِطِ بعد فقد الوسائطِ.

والرابعة: هي المكناة ببقاء البقاءِ: عبودية الوسائطِ مع فقد الوسائِطِ. وعبودية بفقد الوسائطِ مع وجودِ الوسائطِ. وهذا المقام الرابع، يقال له: مقام التلوين بالتمكين بالرُّسوخ في مقامات اليقين.

[الفناء فناءان والبقاء بقاءان]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفناء فناءان: تفنى أولاً عن البشرية، ثم تفنى ثانياً عن فنائِك الذي فنيت به عن بشريتك. وكذلك البقاء بقاءان: تبقى أولاً عن فناء فنائِكَ، ثم تبقى ثانياً عن بقائك الذي بقيت به عن فناء فنائك البشرية، يستشرفك عن الفناءِ بالصفات في الصفاتِ، والفناء بالصفاتِ يستشرفك عن الفناءِ بالذات في الذّاتِ. والفناء بالذات يستشرفك عن البقاء بالصفات في الصفات، والبقاء بالصفات يستشرفك عن البقاء بالذّاتِ في الذّات. يرحم الله الششتري حيث قال:

أفْـنَـانـي ذا الـحـبُّ عَـنِ الـفَـنَـاءِ وصـرت بـعـد الـفـنـاء وجـود
وصـار مـشـروبـي مِـن إنـاءِ لـكـن مـا اسـتـعـذب الـوُرُود
تَـعَـجَّـبَ الـنَّـاسُ مـن بَـقَـائِـي وأنـا بـمـن نَـهْـوى نُـسُـود

وقال الشيخ، سيدي عبد القادر الجيلاني في بعض كلامه:

فـاسْجُـد أي افْـنَ وافْـنَ عَـنِ الـفَـقْـدِ فـاسـجـد أُخـرى والـتـيـمّـم وَالِـعُ
وقَـلْـبِي مُـذْ أبْـقَـاك حُـسْـنـكَ عِـنْـدهُ تـحـيـاتـهُ مـنـكـم إلـيـكـم تُـسَـارِعُ

[خرق العوائد والتصرف في الظاهر والباطن]

وأيضاً: قال في الحِكَم: كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تَخْرَق من نفسك العوائد، كأن الخصوصية كلها خرق عوائد النفس، بمخالفتها وخرق عوائدها بمساعفتها. أهل الخصوصية فيه على فِرْقتين: فرقة خرقوا العوائد من نفوسهم بمخالفتها؛ وهم أهل الشرع بالحقائق، وطريقهم طريق الجلال. وفرقة خرقوا العوائد

من نفوسهم بالمساعفة لها وهم أهل الحقائق بالشرائع، وطريقهم طريق الجَمَالِ.

أهل المخالفة، خرقوا العوائد بالمبالغة في مخالفة نفوسهم ومخالفة الخلقِ، انخرقت لهم العوائد في ظواهر نفوسهم وفي ظواهر الوجود، حتى صاروا يتصرفون في الظاهر تصرف السيد في عبدهِ. وكذلك أهل المساعفة، خَرَقوا العوائد بالمبالغة في مُسَاعفة نفوسهم، ومساعفة الخلق حتى انخرقت لهم العوائد من مغيبات نفوسهم، وفي غيب الوجود بأسره حتى صاروا يتصرفون بالغيب تصرُّف السيد في عبده.

أهل الظاهر لما خرقوا العادة من نفوسهم بالمخالفة أمدَّهم الله تبارك وتعالى بعلم الظاهر وبعمله، حتى صار الظاهر كأنه طوع أيديهم، وذلك لما كان مقصودهم في ذلك الله لا شيء معه سواه.

وأهل الباطن، لما خرقوا العوائد من نفوسهم بالمساعفة أمدَّهم الله تعالى بعلم الغيب وعمله، حتى صار الغيب كأنه طوَّع إليهم، وذلك لما كان مقصودهم في ذلك الله، لا شيء سواه، صارت حكمتهم جميعاً إنما هي في المقاصد لمَّا قصدوا الحق جميعاً، وجدوا الحق جميعاً. ألا أن الماء واحد، والزُّهر ألوانٌ، الطلاَّب اختلفت ألوانهم والمطلوب واحدٌ، أما أهل الظاهر، وهم أهل المخالفة غلبت عليهم شهود الفرق فلذلك صاروا أهل مجاهدة، وذلك لما افترق لهم الأمر لم يجدوا في أيديهم سوى المجاهدة، بها التأم لهم شغلهم، ولو عدمت مجاهدتهم لانطمست أنوارهم، ولكن داموا عليها فبذلك استمرَّ شغلهم ودام. وأمَّا أهل الباطن وهم أهل المساعفة بخلاف ذلك، غلب عليهم شهود الجمع، فلذلك صاروا أهل مشاهدة، وذلك لمَّا اجتمع أمرهم لهم لم يجدوا في أيديهم سوى المشاهدة بها التأمَّ أمرهم. ولو عدمت مشاهدتهم لانطَمَست أنوارهم، ولكن داموا عليها، فبذلك استمرَّ شغلهم ودام مع أن أهل الفرق ما قام شغلهم إلاَّ بالجميع ولكن الحكم للغالب، وهو الفرْقُ. وكذلك أهل الجمع، ما قام شغلهم إلاَّ بالفرْقِ، ولكن الحكم للغالب، وهو الجمع. وفي الحقيقة الفرْق هو غير الجمع، والجمع هو غير الفرق، ولا ثم إلاَّ الحق بالحق في الحق للحق.

[أهل الخصوصية اثنان مشتغل بنفسه ومشتغل بربّه]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الخصوصية اثنان: مشتغل بنفسه، ومشتغل بربِّه. المشتغل بنفسه، لا يجد سبيلاً للاشتغال بربّه لأنَّ سرَّه مجموع على تخلية نفسه وهمَّتُهُ واقفةٌ هنالك. والمشتغل بربه أيضاً لا يجد سبيلاً للاشتغال بنفسه لأن سرَّه مجموعٌ على

مشاهدة ربِّهِ وهمته منتهية من ربه إلى ربه، والحق هو أن كل من يشاهد نفسه فهو محجوب عن ربِّه، وكل من يشاهد ربَّهُ، فهو محجوبٌ عن نَفْسِهِ.

[الخلق كلهم يشهدون الحق، ولا يعرفه إلا من مليء قلبه بأنوار المعاني]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخلق كلهم، بَرَّهُم وفاجرهم، يشهدون الحق ولكن لا يعرفونه، ولا يَرَى الحق حقاً ويعرفه إلاَّ من مُلِيء قلبه بأنوار المعاني، وهذه أنوار المعاني التي يُشاهد بها الحق، وبها يعرف، لا تظهر في القلب إلاَّ بتظليم الحسِّ، بقصد طلبِ الحق. كما أن ظلام المعاني لا يظهر إلاَّ في تنوير الحسِّ، لأنَّ الحِكمة ليست في المشاهدة وإنما هي في المعرفة، لأنَّ الحق ظاهر لكل أحدٍ، باطن لكل أحدٍ. والعارف هو الذي يعرفه في ظهوره كما يعرفه في بطونه، ويعرفه في بطونه كما يعرفه في ظهوره. وأما من عرفه في الظهور دون البطون، أو عرفه في البطون دون الظهور، فهو جاهل، والجاهل لا يُقال فيه عارف.

يقول الشيخ الششتري رحمه الله: لا تنظر للأواني.. وخض بَحْر المعاني.. لعلَّك تراني. على عهد الصوفية صارت المعاني شرط في الرؤية، وتظليم الحسّ شرط في ظهور المعاني، وتصوير الضمير لطلب الحق شرط في تظليم الحسّ. والله الموفق.

[الذي لا يصلح للتربية]

وأيضاً: لا يكون المربي مُرَبّياً حتى يفرغ من تهذيب نفسه، وتتوفَّر فيه شروط التربية. يعلم ذلك هو من نفسه، ويعلم منه غيره من أرباب الفنِّ. ومن جملة شروط التربية أن يكون وصفه وصف إمام العارفين ﷺ جاء في الصحيح أنه ﷺ كان جلالي الظاهر، جمالي الباطن.

لا يكون المربِّي مُرَبّياً حتى يتصف بهذا الوصف الكريم، لأنه ﷺ إمام أهل التربية من النبيئين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وقدوة أهل التحقيق من أرباب حكمة تهذيب النفوس، العارفين بدقائقها، من تشبَّه منهم بهذه الأخلاق العظيمة ـ أعني أخلاقه وسنته ﷺ ـ فإنَّ الخلق يصلح على يده، وتتنوَّر ظواهرهم وبواطنهم بقربه ومجالسته. ومن لم يمْش في ذلك على سنَّة النبي ﷺ فلا يسأم برعاية الخلق وإن تحققت عدالته، فهو من النوادر.

يحكى أن سيدي محمد بن عبد الله، نفعنا الله به، كان مع سيدي بوشتا في زمن

واحدٍ، وكان يقول لأصحابه حين يقع الكلام على سيدي بوشتا، يقول لهم: سيّدي بوشتا وليّ الله حقاً، والذي يتزيّى بزيِّهِ ويسير على سيره لا يربح، وهو خاسِرٌ. سمعت ذلك من سيدي العربي عن أبيه سيدي أحمد عن جدّه سيدي محمد المذكور، نفعنا الله بالجميع، لأن هذه التربية مثل رعاية الغنم وهل الرّاعي الذي لا يصلح على يده إلاّ أقوياء الغَنَم مثل الراعي الذي يصلح على يده أقوياؤها وضعفاؤها؟.

[الملك ملك واحد أصغر وأكبر إن حققته]

وأيضاً: اعلم أن أهل الرياسة أهل المُلك الأصْغر، وأهل الله هم أهل المُلك الأكبر، والمُلك الأصغر نسخة من المُلكِ الأكْبر، كما أنَّ الملك الأكبر حُكمه حكم المُلك الأصْغَر. وإن حققت تجد المُلك الأكبر والأصغر ملكاً واحداً إلاّ أنك إذا نظرت من قِبَلِ الفَرْق وجدتهما اثنان، وإن نظرت من قبل الجميع وجدتهما واحداً، وذلك مما يدلك على عظمة الحقّ أنك تجد الحقيقة أكبرها كأصغرها، وأصغرها كأكبرها، من الذّرة على صغرها، إلى الوجود على كبره، وكذلك ما بينهما. حكم البعض كحكم الجميع وحكم الجميع كحكم البعض، والبعض داخل في الجميع، كما أن الجميع مشاهد للبعض، كمال الذّرة كِكمال الوجود، وكمال الوجود ككمال الذّرة، والكل كمال واحد. ولا ثمّ إلاّ الواحد، والذّرة داخلة في الوجود كما أن الوجود شاهِد للذّرة. سبحان العظيم الكريم، القادر المقتدر، العظيم الجواد، الواسع المُتَعال.

[ما يرد من حضرة الحق وما يرد من حضرة الخلق].

وأيضاً: انظر يا أخي وتأمل إن كنت ذا عقل تجد كل ما يرد من حضرة الحق، من حسِيات ومعانٍ، في غاية الكمال، من البيضاء، إلى حبَّة الخَرْدلِ، إلى الوجود. وانظر فيما يردُ مِن حضرة الخلق أيضاً من حسيات ومعانٍ أكبر شيءٍ وأصغر شيءٍ لا تجده إلاّ ناقصاً إلاّ ما يكون من الخلق بالله، لا بنفسه، فهذا ما يبرز منه من الحق بَرَزك منه، وقليل ما هم، وإلاّ فالخلق كلهم بالله، لكن التحقيق أن ما ظنّ به الله فهو بالله، وما ظن به الله فهو لله، وما ظنَّ به بغير الله أو لغير الله، فهو بغير الله، أو لغير الله، مع أن الغير لا غَيْر، ولكن وهم توهّم الغير، والوَهْم باطلٌ، ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ.

[ذكر الله ما لفعله حصر]

وأيضاً: اعلم أنه لو كانتِ المعاصي مثل زبَد البحر، وكانت هي سبب ذكر العبد

لله، أين البحر من ذكر الله؟ قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العَنكبوت: الآية 45] لأجل هذا قالوا: من عَصَى وذكر الله أفضل ممن لم يَعْصِ ولم يذكر الله. أين هي معصية العبد في ذكر الله تعالى، لأن العبد الصادق ما له اعتمادٌ على الطاعة وفِعلها، ولو كان مأموراً بفعلها كما أنه لا اعتماد له على المعصية وتركها، ولو كان مأموراً بتركها، وإنما اعتماده على الله بلا عِلَّة حكمٍ. جلَّ حكم الأزل أن ينضاف إلى العِللِ، لأنَّ الله تعالى فعّال لما يُريد، ربما يرحَم عَبده بالمعصية إن شاء ذلك، وربما يعذبه بالطاعة إن شاء ذلك وبالعكس. ولا ظلم إذا كان الأمر هكذا، كيف يعتمد العبد على طاعته أو على معصيته بل لا يكون اعتماد العبد إلاَّ على من خلقَهُ، وخَلَق طاعته ومعصيته، وهو الله تعالى.

[الحقائق مثل الزراع، والشرائع مثل الأشجار]

وأيضاً: اعلم أن الحقائق هي نتائج الشرائع، كما أن الشرائع هي نتائج الحقائق، الشرائع مثل الزَّرع، والحقائق مثل الأشجار، والزَّرع هي نتائج الأشجار، كما أن الأشجار هي نتائج الزَّرع، صارت الحقائق هي عين الشرائع كما أنَّ الشرائع هي عين الحقائق، يرحم الله القائل في مدح النبي ﷺ حيث قال:

يا زَيْنَ الخَلائق يا عَيْنَ الحقيقة   حققت الحقائق وكانت وثيقة

هذا، والله، ممَّن كانت عنده الشريعة هي عين الحقيقة، كما أن الحقيقة هي عين الشريعة، وحقيقة الحقيقة والشريعة، إنما هما تجليات الحق، إن شئت قلت: إذا تجلَّى ظاهراً تجلَّى بحقائقه وإذا تجلَّى باطناً تجلى بشرائِعهِ، والكُلّ حق، ولا ثمَّ إلاَّ الحق، إلاَّ أنَّ الحقائق جَمعٌ، والشرائع فرْق، والفَرْق هو عين الجمع، كما أن الجمع هو عين الفرق، ولا في الوجود إلاَّ الحقّ.

[صاحب الأحوال]

وأيضاً: اعلم أن صاحب الأحوال التي تكون بالله، تصير أحواله عنده خيرياتها وشرياتها كلها كأنها مطايا يتعاون بها، ويركب عليها، وبها يسير في كل وقت إلى الحقّ، خيرياتها كأنها خيل شُقْرٌ، وشرّياتها كأنها خيلاً أدهمُ. وهو كل وقت يسير لسيده، راكباً على فَرَسٍ، خلاف الذي ركب قبله، إذا ركب الأدهم يسْبي العقول بِحسْنه وجماله، وتارة أخرى يركب الأشقر، حسنه كالذي قبله أو أعظم. وتارة الأشهب، حسنه أيضاً كالذي قبله أو أعظم. وتارة يركب الأحمر، وتارة الأصفر، وهو يتبختر على المراكب، ويلوّنها على كل لون، وكل وصف حتى يصير لا يرجع لوناً

على لونٍ، يعني لا يرجح حالاً على حالٍ، كلها في غاية الحُسْنِ، وغاية الجمال، وفي غاية الإتقان. وذلك لأنهم وردوا من حضرة الكمال، فلذلك تحاشوا عن النَّقْصِ، ولا يتوهَّم فيهم النقص إلاَّ من لا عقل له. يرحم الله سيدي عبد القادر الجيلاني حيث قال في بعض كلامه:

وكُلّ قَبيح إن نسبت لحسنه أتتكَ معاني الحسْن فيه تُسارعُ
يكمِّلُ نُقصانَ القَبيحِ جَمَالُهُ فما ثَمَّ نُقصَانٌ ولا ثَمَّ باشِعُ

نفعنا الله بالقائل وبأمثاله.

[كل من أتى شيئاً اختياراً يأتيه ضده قهراً]

وأيضاً: أهل الرياسة الظاهرية، جاؤوا إلى الجمال اختياراً، فجاءهم الجلال قهراً. وأهل الرياسة الباطنية جاؤوا إلى الجلال اختياراً فجاءهم الجمال قهراً، جرت سنة الله تعالى بأن كل من يأتي شيئاً اختياراً يأتيه ضِدُّه قهراً.

أهل الظاهر تعرَّضوا للزيادة، فتعرض لهم النقصُ، كأنهم وجدُوا النقص في الزيادة. وأهل الباطن بالعكس، تعرضوا للنقص، فتعرضت لهم الزيادة كأنهم وجدوا الزيادة في النقصِ.

العارف الكامل من الأشياخ، هو الذي يأخذ صاحبه من جهة النقص، وهو يريد به الكمال، يأتي به للنقص اختياراً حتى يأتيه الكمال قَهراً، وأين من الأشياخ من يكون هكذا، وقليل ما هم، مع أن السلف الصالح من هؤلاء الأكابر الذين تقدموا كلهم ساروا على المنهج القويم، حتى وردوا من هذا الموردِ الكريم. نفعنا الله بجميعهم.

انظر قول الشاذلي رحمه الله: «اللَّهم إنَّ القَوْمَ قد حكمتَ عليهم بالذلِّ حتَّى عَزُّوا، وحكمت عليهم بالفَقْدِ حتى وجدوا».

وقول الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به: «أتَيْت جميع أبواب الحق فوجدت الازدحام على الأبواب، حتى أتيت باب الذّلة والافتقار فوجدته خالياً، فدخلت منه، والتفت، فإذا أنا قد دخلتُ وتركت الناس يزدحمون على الأبواب».

وقول أبو يزيد البزْطامي، نفعنا الله به: «ناداني الحق فقال لي: يا أبا يزيد، قلت: نعم يا رب، قال: خزائنا مملوءة بالخِدمَة، فإن أردتنا عليكَ بالذِّلَةِ».

وقال أبو العباس المرْسي: «إنما سُلِّكت الطريق، بأقوام كُنِسَتْ بأرواحهم المَزَابِلُ». نفعنا الله بأجمعهم، وجعلنا وإياكم من السالكين على منهجهم.

تذَلَّلْ لِمَن تهوى، فليس الهوى سَهْلٌ إذا رَضِي المحبُوبُ صحَّ لكَ الوَصْلُ
تَـذَلَّـل لَـهُ تَـحْـظَـى بِـرِضَـى جَـمَـالِـهِ فَفِي وجهِ مَنْ تَهْوَى الفرائِضُ والنَّفْلُ

[العز والذل القهريان والاختياريان]

وأيضاً: اعلم أنّه بين الذّلّ القهري والذل الاكتسابي فرق عظيمٌ، وكذلك العِزّ القهري والعز الاكتسابي بينهما فرق عظيم، كأنَّ الذّل القهري حقيقي والعز القهري حقيقي، وكأنَّ الذلّ الاكتسابي شرعي، وكذلك العز الاكتسابي شرعي. والاكتساب هنا بمعنى الاختيار، والعِزّ الشرعي، والذلّ الشرعي، هو الذي يأتي باختيار صاحبه اكتساباً. والعز القهري والذلّ القهري، هو الذي يأتي قهراً على صاحبه. يعني اختياره. والعِزّ لا يُفارق الذل كما أنَّ الذلّ لا يفارق العِزّ. وكل من لبِسَ الذل اختياراً حتماً يلبس العِزّ قَهْراً، وكذلك العكس. كل من لبِسَ العز اختياراً حتماً يلبس الذلّ قهراً. وكل ما كان اختياري لا يكون إلاَّ رطباً هيّناً، وكل ما يكون قهراً لا يكون إلاَّ شديداً قويّاً متيناً، فلهذا المعنى أختار أرباب العقول الذل الاختياري على الذلّ القهري، واختاروا العِزّ القهري على العزّ الاختياري.

[معنى الزبد بالشهد]

وأيضاً: الكامل من أهل الباطن، بعد حصول ثمَرَة باطِنِه، إذا كان من الرجال الأقوياء يأخذ من الظاهر ما لا محيد عنه.

رأيت في تأليف لبعض المشايخ العارفين بالله رضي الله عنهم قال: صاحب هذا الفنّ: يعني فنّ الباطن يَفِرُّ من أهل الظاهر فراره من الأسد، وإذا كان الباطن وهو القلب، في حضرةِ الحقّ، والظاهر، وهو الجوارح في حضرة الخلق، فذلك عين الزبد بالشهدِ. وهذا الوصف لا يوجد إلاَّ في الرجال الأقوياء، وهذه الفرقة يقال لهم: أهل العُزْلة بالقلب دون الجسد. كما قال بعضهم: الجَسَدُ في الحانوت، والقلب في الملكوت. اللّهُمّ إلاَّ أن يكون صاحب الباطن تقدم له علم الظاهر قبل عِلم الباطن. وكانت معه قوّة عظيمة، فربما يخوض بعض الأحيان في علم الظاهر. سمعت أن الشيخ سيدي عبد الرحمٰن الفاسي نفعنا الله به وبأمثاله قال: كنت أعرف أربعة عشر علماً من علوم الظّاهر، فلما دخلت في العلم بالله ذهبَتْ تلك العلوم كلها، حتى لم يبق لي منها إلاَّ علمانِ أخوض فيهما مع أصحابنا في بعض الأحيان: علم الحديث، وعلم المنطق.

والعلمُ بالله هو علم الباطن بنفسه، وهو حتماً ما دخل العلم بالله للقلب إلاَّ خرج غيره منه على كل حالٍ. فحول الرجال من أهلِ العلم بالله تجد عندهم تسعة أقسام من العلم بالله، وقسماً واحداً من علم الظاهر، ولا يوجد هكذا، إلاَّ من له قوة عظيمة لأنَّ الحق غيور، ما دخل قلباً مشتركاً قط.

[طريق الشاذلية لها ثلاثة شروط]

وأيضاً: اعلم أنَّ طريقتنا هذه، لها ثلاثة شروط، إن وجدت هذه الشروط وُجدتْ وإن عُدِمت الشروط عُدِمَتْ.

أوَّل الشروط، مداومة صحبة أربابها. وثاني الشروط: الاستماع إليهم في فعل ما أمروك به ولو كان كأنه محالٌ بدون توانٍ ولا التفات. والشرط الثالث: الانتساب لأهل الفنّ والتشبُّه بهم.

[كن عبداً لعبيد الله تكن عبداً لله حقاً]

وأيضاً: إذا أردت أن تكون عبداً حقاً فكُنْ عبداً لعبيد الله حقّاً تَجِدْ نفسك عبد الله حقاً. وإذا أردت أن تكون صادقاً مع الله فكن صادقاً مع عباد الله. فذلك التواضع لله.

[كن محسناً لعباد الله لتكون له محسناً]

وإذا أردت أن تكون فرحاً بالله، فكُنْ فَرِحاً بعبادِ الله، وإذا أردت أن تكون مُحْسِناً إليه، فكُن محسناً لِعِباد الله. فذلك هو إحسانك لله.

وإذا أردت أن تكون شاكراً لله فكُنْ شاكراً لعباد الله، فذلك هو شكرك لله.

[شغلك مع الله هو شغلك مع عباد الله]

وإذا أردت أن تُعظِّم الله، فعَظِّم عباد الله. فذلك هو تعظيمك لله، هذا لعباد الله خصوصاً وعموماً. وإذا تكبَّرت على عباد الله فأنت متكبِّر على الله، وإذا تجبَّرت على عباد الله فأنت متجبِّرٌ على الله. وإذا سُؤْتَ الأدب مع عباد الله فقد أسأت الأدب مع الله، وإذا غضبت على عباد الله فأنت غاضب على الله، وإذا بخلت على عباد الله فأنت بخيل على الله. وإذا أسأت لعباد الله فأنت مسيء لله. وإذا أحْقَرت جانب عباد الله فأنت محقر بجانب الله. وإذا تعزَّزت على عباد الله فقد تعزَّزت على الله.

حاصله: شغلك مع الله هو شغلك مع عباد الله، وشغلك مع عباد الله هو شغلك مع الله، من غير زيادة ولا نقصان، لأنه لا موجود في الحقيقة إلاَّ الله، ولا في الوجود إلاَّ الله،

والآيات من كتاب الله والأحاديث من كلام النبي ﷺ التي تصدّق هذا المعنى كثيرة.

[قف على من تحقق ولم يتشرع ومن تشرع ولم يتحقق]

وأيضاً: اعلم أنَّ الدخول للحقيقة من غير شريعة تَزَنْدُق. والخلق كلهم شرائع، أعني بالخلق المشايخ، صار كل من دخل الحقيقة على يد شيخ عارف فقد دخل الحقيقة بالشريعة. وكذلك الشريعة، مَن دخلها من غير حقيقة تفسّق. ودخول الشريعة هنا من غير حقيقة، هو أن كل من اصطحب مع أحدٍ من الخلق على غير نسبة الله فقد تفسّق. قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: الآية 114] والكمال بالتحقيق هو الدخول للحقيقة بالشريعة، والدخول للحقيقة بالشريعة عند طالب الله هو الدخول لله، على يد شيخ عارف بالله تعالى، ما أفلح من أفلح إلاّ بصحبة من أفلح.

[طالب طريق الشاذلية]

وأيضاً: اعلم أنَّ مُريد طريقتنا هذه، وهي الشاذلية، لا ينالها حتى يحصل له الصدق في التصديق فيها. والصدق في التصديق هو مفتاح الفتوحات الرّبانية، كما قال الشيخ الشاذلي رحمه الله: التصديق بطريقتنا هذه ولاية.

[الفقد والوجد]

وأيضاً: اعلم أن الدنيا لها وجهان: وجه للقرب، ووجه للبُعْد. من نظر فيها مِنَ الخلق من جهة القرب أحبّها، ومن نظرها من جهة البُعدِ أبغضها. ومن كشف له على خير بُعدها، كما كشف له على خير قُرْبها. فهذا استوى عنده قُرْبُها وبُعْدها.

قال ابن الفارض وغيره: وَصْل وهجر عندي سواء. العامة حصلوا على لذّة الوجد، ولم يحصلوا على لذّة الفقدِ. والخاصة رضي الله عنهم، حصلوا على لذّة الفقدِ ولم يحصلوا على لذّة الوَجْد. وخاصّة الخاصة حصلوا على لذّة الفَقْدِ، كما حصلوا على لذّة الوجد، حتى صار عندهم الفقد والوجد واحداً على حدّ سواء، في الأشياء كلها، حتى أنهم لا يرجحون شيئاً على ضدّه.

[السلفيات أصول والعلويات فروع]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ نفعنا الله به، لما رآني تخلقت بشيءٍ من العُلويات:

يا ولدي، هذا الشأن الذي أنت فيه اليوم خيره بمنزلة شأنٍ من مائة شأنٍ من الذي كنت فيه. يعني منه السّفليات، كأنَّ الشيخ نفعنا الله به أعْلمني أنَّ الحال السّفلي الذي كنت فيه، كان يصلني من مائة خير، والحال الذي رآني فيه من العلويات يحصل لي منه خيرٍ واحد، لأن السفليات أصول، والعلويات فروع وثمارٌ، ومفاتح الأشياء هي أصولها. الفقير الصادق، أقل أحواله يكون ثُلُثاها سفليات، والثلث الواحد علويات، هذا رأس ماله محفوظ، وأهل الخذلان بالعكس، الثلثان علويات، والثلث سُفليات، هذا حال الضعفاء الذين ضيعوا رأس المال، يقول أهل الأسباب الدنيوية: لا يعدم فضل من يَبْقى له رأس المال.

[الكل من أهل الخير والشر يمده الله بما يريد ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾ [الإسرَاء: 20] الآية]

وأيضاً: انظر يا أخي هذا الربّ الكريم ما أكرمه! وما أعظمه! ما توجّهت همّتك لخيرٍ أو لشرٍّ إلا أمدّك به وأعانك عليه وهيّأه إليك، «من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت منه ذراعاً»[1] الحديث. قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ [مريَم: الآية 76] كان هَديك لخير أو لشرٍّ، كله في الحقيقة واحد. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: الآية 34] .

[الأكوان لها حبال، وكلها عاشقة للإنسان طالبة له]

وأيضاً: اعلم أنَّ الأكوان لها حِبَال، وكلها عاشقة للإنسان، طالبة له، خيرياتها وشرّياتها، حكمها واحدٌ إن ظفر بك الخير ربطك بحباله، العامّة كلهم مربوطون، من لم يُربط بحبل خير، رُبط بحبل شرٍّ، والخاصة، نفعنا الله بهم، أحرار لم يُربطوا بقيْدِ خير، ولا بقيد شرٍّ. وعلامة أهل هذا المعنى، أن تجدهم يتلوّنون بالألوان كلها، في أقوالهم وأفعالهم، حتى لا يقيدوا بوصف دون وصفٍ، ولا يكيفوا بحالٍ دون حالٍ.

قال الشيخ الششتري رحمه الله في بعض كلامه: وغايتي في الحب أن أتلوّن. صاحب التلوين حرّ مالك، مُلكه عام في الوجود بأسره، وصاحب الركون للأشياء هو مملوك للوجود وما فيه، وشتّان بين مَن مَلِك الأكوان ومن مَلَكته الأكوان.

---

(1) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد، ما جاء في قول الله عز وجل بلغ. . .، حديث رقم (311) [ج 1 ص 94].

[من غلبه الوجود أو غلب الوجود]

وأيضاً: اعلم أنك إذا خِفْتَ من الوجود، وغلبَكَ الوجود، فخوْفك منه أصْلِي. وغُلْبتهُ لك أصْلية. وإذا غَلَبْت الوجود وخاف منك الوجود فغلبتك له أصلية، وخوفه منك أصلي، يرحم الله الششتري في قوله:

اغـلـبْـهـا بـالـرجـلـى والـتـيـارة   تـعُـدْ تـخـاف مـنـك يـا زعـيـمُ

وحاصل هذا الكلام: أنك إذا كنت بالله تغلب كل شيء، ويخاف منك كل شيءٍ، ويكون بمرادك وعند أمرك ونهيك، وإذا كنت بنفسك غلبك كل شيء وخِفت من كل شيءٍ، وأين من يخاف منه كل شيءٍ من الذي يخاف من كل شيءٍ. الثاني مملوك للوجود، والأول مالك للوجود، وشتان بين المالك والمملوك.

[النفس بمنزلة الرعية والإنسان أمير عليها]

وأيضاً: النفس بمنزلة الرعية، والإنسان أمير عليها. ومن شأن الرّعية مع الأمير إذا لم يجر عليها، جَارَت عليه. حكم مُلك الجنس وحكم مُلك النّفس واحد. «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته». صار الخلق لهم أمراء رُعاة، من ليس بأمير على جِنسه فهوَ أمير على نفسه، وكل من لم يَدْر سياسة مُلكه لرعيته ينقلب ملكه عبودية، فيصير المالِك رعية والرّعية مَلِكاً، وكل من نزَّل نفسه منزلة الملِك يجد نفسه ملِكاً حقاً، وكل من نزَّل نفسه منزلة المملوك يجد نفسه مملوكاً حقاً، صار المُلك فيك حقاً وأنت أهل له، فأنت برزخ بينهما.

[الشرائع والحقائق من حيث ورودهما]

وأيضاً: اعلم أنَّ الشرائع وردت من عالم الفرق لأجل ذلك، تجد خيرها رقيقاً، ليناً، رطباً، والحقائق وردت من عالم الجمع من أجل ذلك، تجِدْ خيرها قوياً شديداً متيناً، وشرها أيضاً قوياً شديداً متيناً. والشرائع هي كل ما يأتي من جهة المخلوق والحقائق هي كل ما يأتي من ناحية الحق تعالى وبقدرتهِ.

ومما سمعت الشيخ نفعنا الله به يقول: أقل الناس من يتركُ ما عنده لما عند الناس.

[من تخلّق بعوائد العامّة خرج من زمرة الخاصَّة]

وأيضاً: هذه الطريق، أعني الطريقة الشاذلية، طريق العجائب، صاحبها لا يزال

يتخلق بالعجائب، ومهما تخلّق بعوائِدِ العامة خرج من زمرة أهلها لأن غرس العوائد يثمر بالعوائد، وغرس العجائب يثمر بالعجائب. أهل التجريد شرفهم على قدر ظواهرهم، وأهل الأسباب شرفهم على قدر صلاح ظواهرهم، وما ازداد فساداً وتخريباً في ظواهر أهل التجريد على قدره يزداد تنويراً وصلاحاً في قلوبهم.

والقلب هو السلطان، والجوارح الظاهرة والباطنة كلها جنود له. وأهل الأسباب بعكس ذلك، كل ما ازداد صلاحاً وتنويراً في ظواهرهم على قدره يكون الفساد والتخريب في بواطنهم، وذلك لأن الاختلاف لا بد منه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118] جرت سنّة الله في عبده الآدمي: ما كان ظاهره مطوق على شيءٍ إلا كان باطنه مطوق على ضده. ولكن جعل سبحانه بحكمته الباطن به يُحكم على الظاهر، ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: الآية 70] وجعل سبحانه أيضاً: الظاهر يُمَجِّد الباطن، كأن الباطن سلطان، والظاهر جنوده. فكما أن الجنود لا يقومون إلاَّ بالمَلِكِ كذلك المَلِك لا يقوم إلاَّ بالجنود. كأنَّ الجند مقابلٌ للأمير والأمير مقابل للجند. إذا اجتمعت كلمة الجند على أمرٍ تبعهم الأمير، أحبَّ أم كَرِهَ، وإذا اجتمعت كلمة الأمير على أمْرٍ تبعه الجند، أحبَّ أم كَرِهَ، صار الأمير مقامه مقام الجند والجند مقامه مقام الأمير. يعني الجند بأسره يعادل الأمير، والأمير يعادل الجُنْد.

[كل موضع عظم فيه الخير عظم فيه ضده]

وأيضاً: اعلم أنَّ الموضع الذي عظم فيه الخير، عظم الشر فيه، والموضع الذي عظم فيه الربح، عظم فيه الخسران، والموضع الذي قربت فيه الأحباب قربّت فيه الأعادي. أين هو حبيبك، ثم أين هو عدوك؟ يعني: كل موضع وجدت فيه الحبيب فيه تجد العدوّ. وموضع قوي فيه النور قويت فيه الظلمة، وموضع القرب هو موضع البعد، وموضع العطاء هو موضع المنع، وموضع الضيق هو موضع الوسع، وموضع الشدة هو موضع الرخاء، وموضع العبيد هو موضع المَوَالي، وموضع الذلّ هو موضع العزِّ، وموضع القوة هو موضع الضعف، وموضع الفقد هو موضع الوَجد، وموضع الفرق هو موضع الجمع.

[رؤية العارف للأشياء]

العارف إذارأى الأشياء، وتحقق أنَّ الأشياء كلها كامنة في أضدادها، صارت عنده الأشياء وأضدادها واحد، لا فرق فيها، وإذا تحقق عنده هذا المقام وثبت، لم يبق بعده إلا الاستغراق في عين بحر الوحدة، وذلك عين المقصود. وهذا الاستغراق

هو المعبَّر عنه بالفناءِ، نسأل الله بفضله وإحسانه أن يجعل لنا نصيباً مع أهل هذه المراتب العالية، إنه على كل شيء قديرٌ.

[العارف وتطييبه للأشياء ولأفعالها]

وأيضاً: العارف بالله لا يأكل ثمار المعاني حتى تطيب، كثرة الصَمْت تطيب الكلام، وكثرة الكلام يطيب الصمت، والأشياء كلها لا تطيبُ إلاَّ بأضدادها، ولا يطيب الأشياء بأضدادها إلاَّ العارف الكامل، وهذا المعنى يكون مع النفس ومع الجنس. والذي يكون مع الجنس هو ما ذكرنا والذي يكون مع النفس إذا حصل للإنسان شيء من الملل في نفسه يقابل ذلك الحال بضدِّه. فإنَّ ذلك المَلَل يذهب وتطيب النفس، وهذا دأب أهل سياسة النفس، وسياسة الجنس، لأن حكمهما واحد.

[من ملك نفسه يملك الوجود]

وأيضاً: كل مَنْ ملك نفسه يملك الوجود بأسْرِهِ، وكل من ملكته نفسه، فهو مملوك للوجود وما فيه. والنفس لا تُملك إلاَّ بمعرفة سياستها، والجنس كذلك.

وأيضاً: اعلم أنك ما واجهت الخلق بالجلال إلا واجهوك بالجَمالِ، ولا واجهتهم بالجمال إلاَّ واجهوك بالجلال، لأنَّ الضد لا يَجْلُب إلاَّ ضده هكذا جرت حكمة الله في خلقِهِ. صاحب الجلال من جهة الخلق مبرور، وصاحب الجمال من جهة الخلق منكور، ومن جهة الغيْب منكور.

والعارف الكامل، هو الذي يطيب الجلال بالجمال، ويطيب الجمال بالجلال، ولا يأكل إلاَّ التي طابَتْ. وهذه المعاني لا يظفر بها إلاَّ من ملك نفسه، حتى يفعل بها ما أراد. وأما الذي ملكتْهُ نفسه فليس الكلام معه، والكلام ما هو إلاَّ مع الأحرار، وأما العبيد فلا نصيب لهم في هذه المعاني. والأحرار عبيد الله المخلِصُون إليه، والعبيد هم عبيد الدنيا وعبيد الآخرة. وإنما كانوا عبيداً لأنهم ملّكوا نفوسهم للعبيد. وأما من مَلَّكَ نفسه للحق تعالى فالله تعالى أكرم من أن يتركه عبداً بل يجعله حرّاً. والوجود وما فيه عبدٌ له مكافأة حين ملَّكَ نفسه للكريم ليكون سبحانه هو أكرم منك على كل حالٍ، أنت تكَرَّمت عليه بنفسك، وهو يتكرَّم عليك بالوجود كله، مع أنه هو الذي أعطاك نفسكَ، وتفضَّل عليك بها قبل إيجادك، وملكها لك بفضله، ولكن لما أعطاها إليك وهو الكريم، صارت لك مُلكاً صحيحاً، فإن رددتها له، أي لعبوديته، فعند ذلك يملكك ملكةً تتصرف فيه بمشيئتك، فتصير كأنك خليفته في خلقهِ، تفعل فعل سيدك، بأمر سيدك.

وسمعت من الشيخ، نفعنا الله به، يقول: كلمة الرجل مثل بنته، والرجل لا يزوج بنته إلاّ من يَبُرّ بها، ويحسن إليها. وسمعته يقول أيضاً: الدّار التي لا قَمْحَ فيها خالية.

[مباشرة الشيخ أولى للمريد]

وأيضاً: أول ما يباشر به الشيخ ـ إن كان عارفاً ـ للمريد الذي يطلبُ الله أن يُباشره بالأفعال الجلالية لا بالأقوال. وهذا مما يجب على المربّي وجوباً، أن يباشره بالجلال أولاً، وذلك ليحصل له طرف من التعظيم. والتعظيم هو المطلوب في البدايات، وهو المقصود في النهايات. وأما إذا باشره بالأقوال أولاً، والأقوال جمال، فإنه يحصل له بذلك البسْط، والبسط قبل التعلم سُمٌّ قاتِلٌ، وهو عين الفساد. قال في القوانين: مَنِ ادَّعى شهود الجمال قبل تأدُّبِهِ بالجلال أرْفُضْه فإنه دجَّالٌ.

[النفس تعدل الوجود]

وأيضاً: اعلم أنَّ نفس الإنسان، جعلها الله نسخة من الوجود لا تقرُّ عينها، يعني النفس، حتى تملك قدرها، يعني لا تقرّ عين نفس الإنسان ما لم تملك قدرتها، يعني ما يُعادلها، فلا تحصل لها راحة أبداً، ولا تطمئن أبداً. وإذا وجد الإنسان هذه المرتبة واستشرفت نفسه عليها، على كل حالٍ تحصل له الطمأنينة والسكون، فعند ذلك، تقرّ عين النفس. وإذا قرّت عين النفس، صار شغل الحس تتصرف به كتصرفها بالمعاني، وتتصرف بشغل المعاني كتصرفها بالحسّ، يعني تصير تتصرف بخرق العوائد، كتصرفها بالعوائِدِ.

قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به:

ونفسكَ تحوي بالحقيقة كلَّها ... أشَرْتُ بجِدّ القَوْل ما أنا خَادِعُ
تَهَنَّأ بها واعْرِفْ حَقِيقتها فما ... كَعِرْفانِها شَيْءٌ بذلِكَ نافِعُ
فَحَقِّقْ وكُنْ حقاً فأنتَ حَقِيقَةٌ ... بِحقِّكَ والمخلوق للذّاتِ جَامِعُ

العامَّة سُجِنت نفوسهم لمَّا انحصَرت في بعض الحقيقة. يعني ملكت شيئاً منها، وفاتها شيءٌ. هذا سبب الحجاب، والخصوص سرحت سجونهم، وخرقت حُجُبهم، وقرَّت عيونهم، لمَّا احتوت نفوسهم على الحقيقة وشرحت نفوسهم في عوالمها كلها، فصاروا مُسَرحي القيود، يَسْرَحون حيث شاؤوا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين. ومن حصل له هذا الوصف، فهو آخذ نَصِيبَه من الخِلافة، يعني خلافة آدم، ومن لم يحصل

له شيء من هذه الأصاف، لم تدركه مرتبة الخلافة، وإنما هو عبد الخلافة قهراً. وأما عبودية الخلافة اختياراً ومحبَّة، فهي مفتاح هذه المراتب التي ذكرت، والتي فوقها، بل هي مفتاح الخير كله.

[النفس لا تغلب أبداً]

وأيضاً: الإنسان ليس عنده خصيمٌ أعظم من نَفْسِهِ، إذا غَلَبَ نفسه، غلب الأكوان وما احتوت عليه، وإذا لم يغلب نفسه، فهو مغلوب بكل شيءٍ. وليس غلب النَّفس هو صَرْفها عما تريد بل النَّفس لا تغلب أبداً حتى تشاهد مولاها. من يقدر على غلبة النفس؟ وهي تعدِل الوجود، ونسخة منه. لكن إذا شاهدت مولاها الذي خلقها تسجد له، أحبَّت أم كَرِهت، خوفاً وقهراً، أو شوقاً ومحبَّةً، وما دامت لم تشاهد مولاها فلم تَرْض، ولو أُعطيت ملء الأرض ذهباً، ولا تُغْلب، ولو صَرَعها الوجود بأسره، ولا تسكن ولا تستريح ولا تريح حتى تشاهده، إما في الحياة أو بعد الموت. وأما صرفها عما تريد فإنما هو أدبٌ وتربية لها، وأما غلبها الحقيقي فكما ذكرناه. ولا يعرف هذا حقيقة إلاَّ من سَلَك هذا الفنَّ وأخذه عن أهله، وقليل ما هم.

[المريد والمملوك لأهل الوقت]

وأيضاً: الولي: من خضعت له رقاب خصوص العوامِّ، من أهل وقته، ومن لم تخضع له خصوص العوامّ من أهل وقته فليس بوليّ، ولو ادَّعى ما ادَّعى.

وخصوص العوام، هم أهل الرياسة وأتباعهم، لأنَّ أهل الرياسة لهم نورانية عظيمة جلالية ممزوجة بجمالٍ، وأهل الله لهم نورانية أخرى عظيمة جمالية ممزوجة بجلالٍ، وصاحب النور الجلالي مع صاحب النور الجمالي يملك القوي منهما الضعيف على كل حالٍ. فإذا كان الولي نورانيته قوية مَلك صاحب الرياسة، فيصير صاحب الرياسة مملوكاً، والوليّ ملكاً. وإذا كان صاحب الرياسة نورانيته أقوى من نورانية الولي مَلَك الوليَّ، فيصير الولي مملوكاً، وصاحب الرياسة مَلكاً. والولي إذا كان مملوكاً لاَ ولاية له.

[الولي حقاً يملك الوجود بأسره]

والولي حقاً يملك الوجود بأسره، ولا يملكه هو إلاَّ الله. إنما قسْنا هنا نورانية الولي، مع نورانية صاحب الرياسة الظاهرية، لأنهم كلهم في الأصل لله، وفي الله، وبالله. ولا ثمَّ إلاَّ الله، لأجل ذلك صار القوي يغلب الضعيف منهما، من غَلَبَتْ

نورانيته نورانية أهل رياسة وقته يخضع له أهل الرياسة، وإذا خضع له أهل الرياسة خضع له أهل وقته كلُّهُم. ومَنْ غلبتْ نورانية أهل رياسة وقته على نورانيته فهو عاميّ من العموم أحبَّ أم كرِه.

[معرفة أهل الله]

وأيضاً: معرفة أهل الله، مثلها، كأنها شخص برُوحٍ، إذا أطعمته وسَقيته وخطيته صار زائداً في كل وقتٍ وكل ساعة تمرُّ عليه زيادة بعد زيادة. وإذا أغفلت عنه وفرّطت فيه فإنه ينقص شيئاً فشيئاً، وربما مات. كذلك معرفة أهل الله، لأنه مَنْ لَمْ يكن في زيادة فهو في نقصانٍ لا غير.

[بقدر العبودية تعظم نور المشاهدة]

وأيضاً: اعلم أنَّ بين الشغل الذي تفعله بواسطة، والذي تفعله بنفسك فرق عظيم بينهما، ما بين المالك والمملوك، مَنْ له واسِطة مَلِك، ومن يباشر الأشياء بنفسه كأنه مملوكٌ.

[الوسائط]

والوسائط كلها في الأصل عبودية، وتكون حسّية ومعنوية، والعبودية مفتاح الرُبُوبية، فالعبودية لا تصلح بلا ربوبية وعلى قدر ما تعظم العبودية تعظم فتوحات الرّبوبية.

[الإنسان بين حكمة وقدرة]

وأيضاً: اعلم أن الإنسان اليوم في الدّنيا يتشوّق لما يأتي في الآخرة. وفي الآخرة يتشوق لما فات في الدنيا، كأن الآخرة روح الدنيا كما ستعود الدنيا هي روح الآخرة، وكما أن الآخرة هي واسطة الدنيا كذلك ستعود الدنيا هي واسطة الآخِرة.

[الروح في الدنيا كامنة في الجسد والجسد في الآخرة كامن في الروح]

الروح في الدنيا كامنة في الجسد، والجسد في الآخرة كامن في الرُّوح، كما أن الروح اليوم كامنة في الجسد، كذلك سيعود الجسد في الآخرة كامناً في الروح. كأنَّ الإنسان في الدنيا حسُّه غالباً على معناه، وسيعود في الآخرة معناه غالباً على حسِّهِ.

وأيضاً: اعلم أن الإنسان جعله الله تعالى بين حكْمة وقدرةٍ، الحِكمة تقلبه تقلُّب

الخُبْز في اليد، والقدرة تقلبه أيضاً كذلك، وهو بَرْزَخٌ بينهما، يخرج من القدرة يحصل في يد الحِكْمة، ويخرج من الحِكْمة يحصل في يد القدرة لا زائد.

القدرة خيرياتها وشريّاتها، والحِكمة أيضاً بخيرياتها وشرّياتها، منزلة القدرة والحِكمة في الإنسان، كرجل له امرأتان، كل واحدة منهما تأخذ منه حقَّها.

[الذي يؤذي أهل النسبة]

وأيضاً: سمعت الشيخ سيدي العربي، يروي عن أبيه، أنه كان يقول: مثل الذي يؤذي أهل النسبة كمثل الذي يُدْخل يده في الغيران. الغار الذي وجَدَ يدخل فيه يده كلما أخرج يده سالمة يقول: لا فائدة في هذا الغار، حتى يقوى على ذلك ويستأنس به. فيصادف غاراً فيه ثعبان وهو يظنُّ مثل تلك الغيران التي تقدمت، فيُدخل يده فيه كعادته، فيُهْلك من حينه. نفعنا الله به وبأبيه، آمين.

[الفقير الكامل]

وأيضاً: الفقير الكامل مثل النحلة التي ترعى النوار أينما وجدته، وكيف ما وجدته. كما ترعى الورد والزّهر والسوسان، ترعى نوار الدِّفلة ونوار المطرون، لأنه صاحب معاني، والمعنى الذي تَحْصل من الوَرْدِ هي التي تحصل من نوار الدِّفلة، لأنَّ رغْيَه على نظرة في حُسْنِهِ لا على طعمِهِ، حلوه ومرّه واحد. ولا شك أن النظر معنى مثل السمع والكلام والشمّ. هذه كلها معانٍ، والطعم حسٌّ، والإنسان مشتمل على حسٍّ ومعنى. الحسُّ قوت الأشباح. والمعاني قوت الأرواح. والناس في هذا القياس على فِرْقتين، فرقة الحكم لأرواحهم على أجسادهم وهم أهل المعاني، وإن كان عندهم الحسّ فهو ضعيف، كأنه لم يكن.

وفِرْقة أخرى الحكم لأجسادهم على أرواحهم، وهم أهل الحسّ، وإن كانت عندهم المعاني فهي ضعيفة كأنها لم تَكُنْ.

أهل المعاني لا يعبؤون بالحسيات، وُجدت أو عُدمت، وإنما مدارهم على المعاني، يأخذونها أينما وجدوها، وكيف ما وجودها، سواءً كان طعمها حُلْواً أو مُرّاً؛ لأن الطعم حِسّي، وهم ليسوا أهل حسّ. وكذلك أهل الحسّ لا يعبؤون بالمعاني وُجدت أو عُدِمت، وإنما مدارهم على الحسّ يأخذونه أينما وجدوهُ وكيفما وجدوه، سواء رأوا عليه قبيحاً أو مليحاً، أو سمعوا من أجْلِهِ قبيحاً أو مليحاً، لأنَّ النظر والسمع معانٍ، وهم ليسوا أهل معانٍ، وإنما مدارهم على الحسّ يأخذونه بمرارة المعاني أو

بحلاوتها. كما أنَّ أهل المعاني يأخذون معانيهم أينما وجدوها، وكيف ما وجدوها، كذلك أهل الحسِّ يأخذون حِسَّهم أينما وجدوه وكيف ما وجدوه. انظر قول القائل:

يا لَيْتَك تَحْلُو والحيَاةُ مَرِيرَةٌ ... ولَيْتَك تَرْضَى والأنَامُ غِضَابُ

وليْت الذي بَيْنِي وبَيْنك عامِرٌ ... وبَيْني وبيْن العالمين خَرَابُ

إذا صَحَّ مِنْكَ الوُد فالكُلُّ هَيِّنٌ ... وكلّ الذي فَوْقَ التُّرابِ تُرَابُ

[المعنى كلما زادت رقّة زادت شرفاً؛ وملك بها صاحبها الوجود]

وأيضاً: المعنى: كلما رقَّت وارهافت زادَتْ شرفاً، وغَلاَ سَوْمُهَا، والحسُّ بخلافِ ذلك. هو يزيد غلظاً وهو يزيد شرفاً، وسَوْمه يَغْلى، وذلك أنَّ المعنى إذا انتهت رقتها حتى لا يعلمها إلاَّ صاحب العقل الراجح، فعند ذلك صاحبها يملك بها الوجود وما حَوَى، ولو أُعطيت الجنة وما حَوَتْ في ثمنها فضلاً عن الدنيا ما استوفي ولو العُشر من ثمنِها.

وأيضاً: العارِف الكامل يُنَوِّرُ قَلْبه بما يُنَوِّر قلوبهم به أهل المعاصي. مثال ذلك كالذي يسْتضيء بالزَّيت المَغُورَة مقصودة في ذلك إدفاع الظلمة ولو بما هو محرَّمٌ على غيره، كالذي يَدْفع الغُصَّة بجرعة خمر إذا لم يجد ماءً. كذلك صاحب هذا الفنّ، إذا لم يجد ما يدفع به موت القلب مِنَ المباحاتِ، يدفعها ولو بمُحرَّماتٍ إذا كانت المحرمات تباح في جَلْب الحياة الفانية، فكيف لا تباح في جلب الحياة الباقية؟ بل هي من باب أولى.

يحكى أن الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله، كان جالساً ذات يوم في موضع من أطراف المدينة، وإذا برجلٍ من أهل المعاصي يغني بغناء أهل التخريب، وسيدي أحمد بن عبد الله يستمع، والرجل لا يشعر بذلك، فإذا بالرجل التفَت فرأى الشيخ فاستحيى منه فسكت. فناداه الشيخ فقال له: قل ما كنت تقول، أنا أحوج إليه منك. أنْتَ غَنِّ كيف تعرف وأنا أسمع كيف أعرف. فردَّد الرجل ما كان يقول عن إذن الشيخ، نفعنا الله به وبأمثاله.

[الشر مرتبط بالخير والخير مرتبط بالشر]

وأيضاً: اعلم أن موضع الخير هو موضع الشَّرِّ، على قدر ما يطلع الخير ويعظم يطلع الشر معه ويعظم. والشر مرْتبط بالخير لا يُفارقه، كما أن الخير مُرْتبط بالشر لا يفارقه. وأنت برزخ بينهما، إذا ظفرت بالخير طلبك الشر، وإذا أظفرت بالشر طلبك

الخير، هذا حكم الإنسان في ظاهره، وأما في باطنه: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: الآية 70] وكل من يَمْلك التصرف بالخير، يملك التصرف بالشر، وبالعكس. ولكن من الناس مَنْ تصرَّف بالخير كثيراً، وبالشر قليلاً. هذا خيره غالب على شرِّه، ومن الناس من هو بالعكس، تصرفه بالشر كثيراً وتصرفه بالخير قليلاً، هذا شره غالب على خيره، والناس محصورون في هاتين الفرقتين.

[تمثيل الأصبع بالنَّفس ومِلكه مُلكُ الوجود]

وأيضاً: اعلم أنَّ الوجود كله كرَجُلٍ واحدٍ، وأنت بمنزلة أُصبع من ذلك الرَّجُل. إذا أمْلكت ذلك الأُصبع، وهو نفسك، ملكت الوجود بأسره وغلبته وقهرته طوعاً أو كرهاً. حتى تكون تتصرف في الوجود بأسره بما تريد. ولا يكون فيه إلاَّ ما تُرِيد. وإذا غلبك ذلك الأُصبع، وهو نفسك، يَغلبك الوجود بأسره، ويملكك ويقهرك طوعاً منك أو كرهاً. حتى يكون الوجود يتصرف فيك بما يريد، كما يريد، إذا ملكْت نفسك فالوجود كله عبدك، وإذا ملكتك نفسك فأنت عبد الوجود والنفس حتماً لا تملِك إلاً بمعرفة العارفين بالله، وبصحبتهم وبمجالستهم على الدَّوام.

[الفقراء إلى الله والأغنياء بالله]

وأيضاً: اعلم أنَّ المنتسبين لله على فِرْقتين، فرقة يقال لهم: الفقراء إلى الله، وفرقة يقال لهم: الأغنياء بالله. وهاتان الفرقتان هما أهل الله، وهما ضدّان لبعضهما بعض. كل ما يليق بالفقراء لا يليق بالأغنياء، وكل ما يليق بالأغنياء لا يليق بالفقراء، لكل مقامٍ مقالٌ. من جملة ذلك أن الفقراء لله لا يضرّهم شيء مِثْلَ التدبير والاختيار، ولا ينفعهم شيء مثل عدم التدبير والاختيار.

والأغنياء بالله بالعكس، لا ينفعهم شيء مثل التدبير والاختيار، والفقراء إلى الله لا يضرّهم شيء مثل الظهور، ولا ينفعهم شيء مثل الخفاءِ والخمول، واغنياء بالله بالعكس، لا يضرّهم شيء مثل الخفاء. الفقراء إلى الله يضرهم البَسْط، وينفعهم القبْض، والأغنياء بالله ينفعهم البسْط ويضرّهم القبض. الفقراء إلى الله يضرهم الاشتغال بالخلقِ، وينفعهم الاشتغال بنفوسهم، والأغنياء بالله يضرّهم الاشتغال بنفوسهم وينفعهم الاشتغال مع الخلق إلى ما لا نهاية له.

حاصله: كل ما يليق بهؤلاء لا يليق بهؤلاءِ، سبحان من جعل هذا الوجود كله قائماً بين الأضداد، بحيث صارت حسنات قوم عند قوم مصائب. ومصائب قوم عند

قوم هي الحسنات. وقولنا في الفقراء يليق بهم هذا، يعني هو الغالب على أحوالهم، مع أن ما يليق لا يقوم إلاّ بما لا يليق، لكن الحكم للغالب. وكذلك قولنا في الأغنياء، يليق بهم هذا، يعني هو الغالب على أحوالهم، مع أنهم كذلك. ما يليق بهم لا يقوم لهم ولا لغيرهم إلاّ بما لا يليق، لكن الحكم للغالب. جرت سنّة الله تعالى أنّ الوجود وما فيه لا يقوم إلا بين ضِدّيْن، ولكن يكون الحكم للواحد من تلك الضدين على الآخر في الوقت، والذي يكون له الحكم هو الغالب على كل حالٍ.

[الوعدة في الحين]

وأيضاً: اعلم أن الوَعْدة منها ما يكون بالله، ومنها ما يكون لله. ما كان بالله يقضى في الحين على كل حالٍ، وما كان لله يقضى ولكن بعد حين، الوَعْدة التي تكون بالله هي التي تكون في الحين، فعلها لا يفترق مع قولها. إذا كانت هكذا، تخرج النتائج في الحين بين القول والفعل، والوَعدة التي تكون لله هي التي تكون بالقول، إلى أمدٍ تُقْضَى ولكن بعد حينٍ. وشتّان بين ما هو بالله وما هو لله، كأنّ ما هو لله شرائع لأنها مع المخلوق، وما هو بالله حقائق لأنها مع الحق، ولا شك لأن فعل الشارع رطب وفعل الحقائق قريب قوي متين.

[الوجود منك وأنت منه، بما تعامِله به يُعاملك به]

وأيضاً: اعلم أن الوجود في الحقيقة هو منك وأنت منه، وعلى قدر ما تكون عبداً لله يكون هو عبداً لك. وعلى قدر ما تكون أنت سيّدهُ يكون هو سيّدك. وعلى قدر ما تعظمه وتشكره يعظمك ويشكرك هو على قدر ذلك، وعلى قدر ما تحتقره وتذمُّهُ يحتقرك هو ويذمك، وعلى قدر ما تنفق وتتكرَّمُ على الوجود ينفق هو عليك ويتكرّم عليك من غير زيادة ولا نقصان. وعلى قدر بخلك عليه يكون بخله عليك. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: الآية 38] . وعلى قدر حبك له يكون حُبُه لك. وعلى قدر بغضك له يكون بغضه لك. وعلى قدر إقدارك له يكون إقداره لك. وعلى قدر إنكارك له يكون إنكاره لك، وعلى قدر صدقك معه يكون صدقه معك. وعلى قدر إحسانك معه يكون إحسانه معك، وعلى قدر إساءتك له تكون إساءته لك. وعلى قدر ذُلّك له يكون ذلُّهُ لك، وعلى قدر عِزّك عليه، يكون عِزّه عليك، إلى ما ليس له نهاية من هذه الأمور.

كأنّ الأمور كلها منك تخرج، وعليك تعود، خيرياتها وشرياتها، كأن الأمور كلها بيدك والحق هو أنها كلها بيدك، من جهتك التي قابلت بها الرّبوبية والحق أيضاً

هو أنه ليس بيدَك شيء منها، أي من جهتك التي قابلت بها العبودية. وكل إنسان له هاتين الوجهتين: وجهة الربوبية ووجهة العبودية، وهو كالمرآةِ، إذا قابلَتْهُ العبودية ظهر عليه آثارها، أحبَّ أم كره، وإذا قابلته الرّبوبية ظهر عليه آثارها، أحبَّ أم كره، ولكن العموم صاروا عموماً لأنهم جاهلون بذلك يردُّونَه ولا يعرفون حُكمه. من أجل ذلك مُنِعوا من نفحاته. والخصوص نفعنا الله بهم صاروا خصوصاً لعلمهم بذلك وعملهم به، يردّونه على معرفة وعيان، فحصلت لهم نفحاته، عاجلة وآجلة، شمُوا الأنوار، وأكلوا الأثمار، رزقنا الله محبتهم وجعلنا من المتعلقين بأذيالهم في الدنيا والآخرة بفضله وإحسانه.

[المعاني العلويات والسفليات]

وأيضاً: اعلم أن الأفعال في الحقيقة كلها سُفلية، وذلك لأنها من بَلَدِ الحسّ، وما ظهر فيها من العلويات، ما جاءها إلاّ من قربها من المعاني. وكذلك الأقوال بعكس ذلك، الأقوال في الحقيقة كلها عُلْوية وذلك لأنها من بلاد المعاني، وكل ما ظهر من السفليات ما جاءها إلاّ من قُربها من الحسّ مثلها في الإنسان، كالجسد مع الروح، الجسد ميّت ولكن صار حياً بقربه للحياة، وهي الروح. والروح حيّةٌ، ولكن صارت ميتة بقربها للميّت، وهو الجسد. كذلك حكم الأفعال مع الأقوال. والحِكمة جعلها الله تعالى تتّبع بين مقابلة الشيء مع ضدّه، تظهر زيادات الوجود كلها، إذا تقابل صاحب الأفعال وصاحب الأقوال، وكانت الأفعال علوية والأقوال علوية، صاحب الأفعال يَغلب لأن الأفعال أصلها من بلاد الدّنوّ، والأقوال أصلها من بلاد العلوّ. وإذا تقابل صاحب العلوّ وصاحب الدنوّ، صاحب الدنوّ يغلب. وكذلك إذا تقابل صاحب الأقوال وصاحب الأفعال أيضاً، صاحب الأفعال سُفلي وصاحب الأقوال علوي، صاحب الأفعال يغلب. وكذلك إذا تقابل صاحب الأفعال وصاحب الأفعال، وكان واحد أفعاله سُفلية والآخر علوية، صاحب الأفعال السّفلية يغلب. وكذلك إذا تقابل صاحب الأقوال وصاحب الأقوال، وكان واحد قوله سُفلي، والآخر قوله علوي، فالسّفلي يغلب العلوي على كل حالٍ. وكذلك إذا تقابل صاحب الأفعال وصاحب الأفعال، وكانا علويين معاً، فالذي تكون مَعْنَوِيَتَهُ أقوى من الآخر هو الذي يغلبُ الآخر، وكذلك إذا تقابل صاحب أقوالٍ مع صاحب أقوال، وكانا معاً أقوالهما سفليَيْن، فالذي يكون حسه أقوى من الآخر هو الذي يغلب.

سمعت من الشيخ نفعنا الله به يقول: إذا اقترنَ ريحٌ سُفْلِي وريح علوِي في

الوقت، فالريح السُّفلي يَغْلِب. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: الآية 5] . اسْتَخْلص لنا من هذه المعاني كلها: أن صاحب الأفعال السفلية التي تكون ناشئة عن عِلْم وضمير حسَنٍ، لا يُغلب أبداً، وهو يَغلبُ أبداً كل من تقابل معه. فهو مغلوبٌ في يده أحبَّ أم كَرِه، وهي الحالة التي قالوا فيها: نَفس الملوكِ، وحالة المساكين، وهي التي كان عليها الجمهور من الأكابر. نفعنا الله بهم.

[عمارة الوجود]

وأيضاً: اعلم أن الوجود عامر لا يخلى أبداً، ومن أراد خلاءَهُ أو قال بخلائِهِ فهو جاهلٌ. إلاَّ أنَّ عمارته جعلها الله مختلفة بين حسٍّ ومعنى، ما زاد في الحسِّ نقص من المعنى، وما زاد في المعنى نَقَصَ من الحسِّ والوجود عامر أبداً بحس ومعنى، ولو فتشت الوجود بأسره لم تجد فيه مقدار حبَّة من خردلٍ خالياً من حسٍّ أو معنىً، وهذا القياس لا يفهمه ولا يعرفه إلاَّ من خاض بحر المعاني، يرحم الله الششتري حيث قال في بعض كلامه: لا تنظر للأواني، وخُضْ بحر المعاني، لعلك تراني، على عهد الصوفية، من أراد المعاني عليه بتخريب الحسِّ، ومن أراد الحس عليه بتخريب المعاني. كأنَّ الحسَّ فَرْق، والمعنى جَمْعٌ. وما دخل المعنى على الحسِّ إلاَّ خرج الحس، وما دخل الحس على المعنى إلا خرج المعنى. والوجود عامر بينهما أبداً، إما بهذا وإما بهذا، والخلاء محال.

[الرُّشاد للمريد]

وأيضاً: لا يدخل الحضرات كلها إلاَّ إذا ظهر عليه أثر الرجال، أي لا يحلّ للمريد أن يدخل الحضرات كلها إلاَّ إذا ظهر عليه أثر الرشاد. وإن لم يظهر عليه أثر الرّشاد يحرم عليه ذلك بإجماع أرباب الحقيقة، لأنه إن دخل لحضرة غير أهل فنه، قبل أن تتوفر فيه الشروط فقد عرَّض نفسه للهلاك ولا يحل لامرئٍ أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه. ومن أوصاف أثر رشادِ المريد أن يكون يأكل من الأشياء كلها، ولا تأكل الأشياء منه شيئاً. يعني: إذا باشر الأشياء يظهر أثره فيها، ولا يظهر لها فيه أثر.

ومن أثر الرشاد أيضاً في المريد: أن يكون عارفاً بأحكام الحقائق العلويات كما يكون عارفاً بأحكام الحقائق السفليات. كما قال المجذوب رحمه الله: يمْني وعسري مْسَرَّحْ، نَضربْ بْهَذِي وَهَذِي، الذي لم يأخذها بأعلى شيءٍ يأخذها بأسفل شيءٍ، وبالعكس. والأوصاف لا تتناهى، ولا يكمل الرشاد للمريد حتى يكتب له الإجازة أهل

وقته، وأما قبل ذلك فهو لم يزل محجوراً، ولو وصل ما وصل، إذ هو لا يعرف الرشاد من نفسه حتى يعرفه فيه غيره.

[ربط النَّفس بالفُلوس وربط الفلوس بالنفس]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفلوس تربط النفوس، كما تربط النفوس الفلوس، كأن الوجود كله بعضه كفء لبعض، مع أنه واحدٌ. اختلف وافترق، حتى لم يكن فيه جمع وافتراق، واجتمع حتى لم يكن فيه فرْق. صار جمعه هو عيْن فرْقِهِ وفَرْقه هو عين جمعه. وذاته هي عين صفاته، وصفاته هي عين ذاته. وقربه هو عين بُعده، وبُعْده هو عين قُرْبِهِ، وفناؤه هو عين بقائه، وبقاؤه هو عين فنائِهِ، ووجوده هو عيْن عَدَمِهِ، وعدمه هو عين وجوده، وذُلّه هو عين عِزّه وعِزّه هو عين ذُلّه. وطُلُوعه هو عين نزوله ونزوله هو عين طلوعه، إلى ما لا ينتهي من الأوصاف.

[من لم يكن زعيماً لا حظ له في هذه الطريقة ولا يكون زعيماً حتى تَعْدِل همّته هِمَمِهم]

وأيضاً: اعلم أن طالب طريقتنا هذه إذا لم يكن زعيماً: الرّبح والخسارة واحد عنده، إذا لم يكن هكذا ما له فيها نصيبٌ. وذلك لأنها طريق المُلك الباطني الغيبي حُكْمه حكم الملك الظاهري، ولكن لا يكون المَلِك مَلكاً على أهل وقته حتى تكون همَّته تَعْدل همم أهل وقته بأجمعهم، يعني: لو وُزنت هِمَمُ أهل وقته بأجمعهم، مع همَّتِهِ لرجحت همته عليهم جميعاً، وإذا عظمَتِ الهِمَّة حتماً تعظم الأفعال على قدرها. لأنَّ الظاهر عنوان الباطن، كلما بطن في غيب الضمائر ظهر في شهادة الظواهر. يرحم الله الششتري حيث يقول: أغلبْها بِالرجل والتياره، تَعُدّ تخاف منك يا زَعيم.

[التصرُّف بالدرجة الرابعة]

وأيضاً: سمعت الشيخ، نفعنا الله به، يقول: لا يُباشر المخزن من الفُقراءِ إلاَّ مَن مَلك التصرف بالدرجة الرابعة، وإن باشره وهو لم يملك التصرف بها فهو غريق. والتصرف يكون بالدرجة الأولى وبالدرجة الثانية وبالدرجة الثالثة. ولا يَمْلك التصرف بالدرجة الرابعة إلاَّ الأقوياء الفُحُول من الأولياء، الذين ملكوا التلوّن بالأطوار. يعني أطوار الحقيقة لأن صاحب أطوار الحقيقة يتطور مع كل واحد على طوره، كما قال بعضهم: وليّ الله الكامل يتطور بجميع الأطوار ليقضي سائر الأوطار.

[العلم يطلع مع العمل والعمل يطلع مع العلم]

وأيضاً: اعلم أنَّ العلم محالٌ أن يكون من غير عَمَلٍ، وكذلك العمل محالٍ أن يكون من غير علم. ما طلع العلم إلاَّ طلع العمل معه على قدره، وما طلع العمل إلاَّ طلع العلمُ معه على قَدْره. لا ترجيح بين العلم والعمل إلاَّ أنه تارة يكون الحكم للعلم والعمل تابع، وتارة يكون الحكم للعمل والعلم تابع. والذي يكون الحكم له في الوقت يصير كأنه ملكاً، والآخر مملوكاً. يعني المحكوم عليه الوقت الذي يكون فيه العلمُ ملكاً يظن الجاهل بالحكمة أن العمل لم يكن وهو ثمَّ إلاَّ أن الحكم لغيره. وكذلك الوقت الذي يكون فيه العمل مَلِكه يظنُّ أيضاً الجاهل أن العلم لم يكن، وهو ثمَّ، إلاَّ أن الحكم لغيره. والعارف بأحكام الحقيقة لا يشك أن الله تعالى ما أوجد شيئاً إلاَّ ويوجد ضِدّه معه على قدره. جاءت سنَّة الله بذلك، ولكن إذا ظَهَرَ الضِدّ يَبْطن ضدّهُ، وإذا بطن الضد يظهر ضده على كل حال.

[مَن مَلك التصرف بظواهر نفسه أو بواطنها]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل من ملك التصرف بظواهر نفسه، لا بد أن يملك التصرف بظواهر الوجود، وكل من ملك التصرف ببواطن نفسه، يعني بمغيباتها، لا بد أن يملك التصرف ببواطن الوجود وبمغيباته. صاحب الظواهر غرسه مع الحق يثمر له بالخلق وصاحب البواطن بالعكس، غرْسه مع الخلق يثمر له الحق. صاحب الظواهر غرسه بِجَمْعٍ، نفسه تثمر له بفرْقِ الوجود، وصاحب البواطن غرْسه بفَرْق الوجود، يثمر له بجمعِ نفسه، وشتَّان بين من غرس الفَرْق وجنى أثمار الجمع، وبين من غرس الجمع وجنى أثمار الفرق، الغرس خسران، والثمار ربحُهُ.

[الفَرْقُ فرقه والجمع جَمْعُه]

وأيضاً: اعلم أنك إذا طلبت الجمع لا تجده إلاَّ في الفَرْق، وكذلك إذا طلبت الفرق لا تجده إلاَّ في الجمع. وهذا ما يدُلك على أنَّ الفرق فرقه والجمع جمعه ولا ثمَّ إلاَّ هو. ولا شيء موجود سواه.

[ما تكمل به ولاية الوليّ]

وأيضاً: لا تكمل الولاية للمريد الذي يريد الخصوصية حتى يجمع بين ترْبِيَتَين، تربية الخاصة، وتربية العامَّة. الخصوصية يأخذها من عند أهلها، وهم الخاصة،

ونتائجها يأخذها من عند أهلها وهم العامة. الخصوصية لا تدرك إلاَّ باستدلال أهلها عليها. ونتائجها لا تُدرك إلا بالحكّ مع العامة. ولا شك أن الخصوصية ليست هي الاستدلال عليها، وإنما الخصوصية بنفسها هي النتائج التي تظهر لك، بل للخاصّ والعامّ. وإذاً لا يكون الاستدلال عليه بلا خصوصية ولا يكون الحلّ مع العامة بلا نتائج. لأجل هذا المعنى كانت طريق سيدي عبد القادر الجيلاني، نفعنا الله به، السياحة، فيها شرط من شروطها، قيل عشرة أعوام، وقيل أربعة عشر سنة. ولا شك أنّ المراد بالسياحة، والله أعلم، الحلّ مع عوامّ الناس كأن الاستدلال على الخصوصية علمٌ والنتائج عمل وإثبات الاستدلال عليها خبرٌ. ونتائجها: عِيَانٌ. والخبر بلا عِيانٍ، نُوَّار بلا أثمارٍ. والعيَان بلا خَبَرٍ أثمار من غير نُوَّار، والثمار من غير نوّار لم تجر عادة الله بها.

تربية العامة للمريد بمنزلة القالب للبِلْغة، أو الشاشية. وتربية أهل الخصوصية له بمنزلة الصّانِعين لتلك الشاشية، أو البِلْغة.

[الحَرْث خُسْران وثمارها الرِّبح]

وأيضاً: اعلم أن الحَرْث كلها خسْران، وثمارها كلها ربْحٌ. وكذلك جرت عادة الله في كلّ شيءٍ، الرّبح لا يخرج إلاَّ من الخسران، كما أنَّ الخسران لا يخرج إلاَّ من الـربـح ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يُونس: الآية 31] . الأشجار تخرج منها الأثمار، كما أن الثمار تخرج منها الأشجار. وشتّان بين من كان خسرانه فَرْقاً وربحه جمعاً وبين من كان خسرانه جمعاً وربحه فَرْقاً. الذي ربحه جمع جَمْعَهُ جَمْعُهُ على فَرْقِهِ، صار مجموعاً والذي ربحه فَرق فَرَقَهُ فَرْقُهُ عن جَمْعِهِ، صار مفروقاً. والذي كان ربحه جمعاً، قريب في بُعْده، والذي كان ربحه فرْقاً بعيد في قُرْبِهِ. الذي كان ربحه جمعاً شغل بالحقّ عن نفسه، والذي كان ربحه فَرْقاً شُغِل بنفسه عَنِ الحق، الذي كان ربحه جمعاً مستغرق في المشاهدة والعيان والذي كان ربحه فرْقاً مستغرق في مجاهدة نفسه والشيطان. الذي كان ربحه جمعاً جعله الله في مقام الإحسان، على منهج التحقيق والذي كان ربحه فرْقاً جعله الله في مقام الإيمان على منهج التصديق.

الذي كان ربحه جمعاً جعله الله خليفة في أرضه، والذي كان ربحه فَرْقاً جعله الله عبداً ممتثلاً لأمره. سبحان من قَسَمَ بينهما فَعَدَل، وخصّ بقربه من شاء منهما فتفضّل، سبحان المعطي بلا شيءٍ، المانع بلا شيءٍ. سبحان الحكيم العليم.

[أهْلُ المُلكِ وأهلُ المِلك والمُلك في الجمع]

وأيضاً: المنتسبون إلى الله على فرْقتين، فرقة أهل مُلكٍ، وفرقة أهْلِ مِلْكٍ، أهل المُلكِ هم الذين تجلّى لهم الحق في الجمع حتى عرفوه فيه، وأهل المِلْك هم الذين تجلّى لهم الحق في الفرق حتى جهلوه به وفيه.

الفرقة الأولى: وهم أهل الجمع، لمَّا عرفوه صاروا ملوكاً. والفرقة الثانية: وهم أهل الفَرْق، لما جهلوه صاروا ممالك.

صاحب الجمع تجلّى له الحق في نفسه، فصار فرقه مجموعاً، وصاحب الفرق تجلّى له الحق في جنسه صار جمعه مفروقاً. صاحب تجلي الفَرْق طلب مولاهُ في جمع نفسِهِ تجلّى له في فَرْقِ جنسه، وصاحب تجلّي الجمع طلب مولاه في فرْق جنسه، فتجلّى له في جمع نفسه. فكان ذلك سبب علمه به، والعلم نور، وإن صاحبه شيء من عملٍ، والعملُ ظلمة، وإن صاحبه شيء مِنَ العِلْمِ، لأجل هذا المعنى قالوا: اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً. والأدب هنا هو العلمُ.

[الفقير الكامل]

وسمعت الشيخ نفعنا الله به يقول: الفقير الكامل هو الذي يكون رأس ماله معاني. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية 28]، وإنما قلنا: إن العلم نور، والعمل ظلمة، مع أنَّ العلم لا يقوم من غير عمل كما أن العمل لا يقوم من غير علم. لكن النظر للغالب إذا كان العلم غالباً على العمل فذلك مقام أهل المشاهدة، وهم الملوك. وإذا كان العمل غالباً على العِلْم، فذلك مقام أهل المجاهدة، وهم العبيد. والمُلك لا يقوم من غير مِلْكٍ. وكذلك المَلِكُ لا يقوم من غير مُلْكٍ. سبحان من جعل الأشياء قائمة بأضدادها، كامنة بأضدادها، من أراد شيئاً عليه بالتمسك بضدِّه، كأن مفتاح الأشياء هي أضدادها. هذا للقياس لا يثق به إلاَّ من خاض بحر المعاني.

[مثال للجلال والجمال والشيخ المربي]

وأيضاً: مثل الجلال كالثوب الغليظ، يعني ثوب الصوف، ومثل الجمال كالثوب الرهيف. مثل الدِّيباج وما يشبهه. ومثل الشيخ المربي، كالمرأة التي تربّي الأطفال. من وصفها تتجرَّد من ثيابها الرهيفة، وتلبس ثياب الصوف، أو ما يشبهها، كأن تتوجه لتربية الأطفال ومباشرتهم. وكذلك الشيخ المربي للمريدين، من وصفه يتجرَّدُ من ثياب المُلكِ، وهي ثياب الجمالِ، ويطرحها حَوْلَهُ، ويلبس ثياب الصوف الغليظة، وهي

ثياب الجلالِ، ليتفرَّغ لتزبية المريدين. وكما أن المرأة أيضاً لا تربي أولادها في الثياب الرَّهيفة، وإنما تربيهم في الثياب الغليظة من الصوف أو ما يشبهها، وذلك هو الذي يناسب الأفراخ في حال الطفولية حتى إذا شبُّوا وكبر سنهم وصاروا رجالاً عقلاء، يفرقون بين الأشياء وأضدادها فحينئذ تلبّسهم أمهم أشرف ما عندها من الحلل. كذلك الشيخ المربي، لا يربّي المريدين إلاّ في الأثواب الغليظة، وذلك ما يناسبهم في حال البدايات، حتى إذا شبّوا وكبر سنهم، أي زادوا إلى المقام الذي بعده، وهو مقامٌ يشبه مقام بلوغ الأطفال إلى الصيام، وهو مقام الفناء، فحينئذ يلبسهم الشيخ ما يناسب ذلك المقام، مما هو أشرف من ثياب التربية، حتى إذا انتقلوا أيضاً للمقام الذي بعده، وهو مقام الكُهُولة، وصاروا رجالاً، وهو مقام البقاء بعد الفناء، فحينئذ يلبسون ثياب المَلك، من أنواع الذهب والفضة والدِّيباج. وما أشبه ذلك. وتُرفع على رؤوسهم التيجان، ويصيرون ملوكاً، أي خلائف الله في أرضه. قال في القوانين: مَنِ ادَّعى شهود الجمالِ، قبل تأدُّبه بالجلال أرْفُضْهُ فإنه دَجَّالٌ.

[أهل الله هم الذاكرون لله تعالى]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الله هم الذّاكرون الله تعالى، والذكرُ هو ما عقلت القلوب، وذكر الألسُن.

[أهل الفلوس وأهل النفوس]

وأيضاً: اعلم أن الخلق مقسُومون على قسمين: قسمة أهل فلوس، وقسمة أهل نفوسٍ. وأهل النفوس أيضاً ينقسمون إلى قسمين، وأهل الفلوس ينقسمون على قسمين أيضاً. القسمتان من أهل النفوس هما الملوك، ملوك الظاهر، وملوك الباطن، كأنهم أخَوَانِ، ولكن في أحكامهم: ملوك الظاهر ظلمانيّونَ لا يُشاهدون إلاّ نفوسهم وحظوظها، وملوك الباطن نورانيّون لا يشهدون إلاّ الله، ولا يعرفون شيئاً سواهُ. ملوكُ الظاهر سائرون بالحقائق العلوية ما دامت لهم فَهُمْ ملوك، ومهما تجلّى الحق بأضدادها، وهي الحقائق السفلية انكشفوا وافتضحوا لأنَّ ملكهم عار باطل، وهو يشبه الحق وليس بحقٍّ. وملوك الباطن يسيرون بالحقائق العلوية والسفلية. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: الآية 84] حازوا الخير بالأشياء وبأضدادها. من أجل ذلك دام سرورهم وأفراحهم لا ينقطعون أبداً من محبوبهم، عرفوا محبوبهم على كل حالٍ، في كل حالٍ، فبذلك صاروا ملوكاً حقاً، مُلْكاً لا يَحُولُ ولا يَزُولُ.

وأمّا القسمتانِ من أهل الفلوس فهما أهل الأجور: (الأسباب الدنيوية والأخروية): لأنهم كلهم أهل أعمال، وهم كأنهم عبيد لأهل النفوس خُدّام لهم، صار صاحب النفس ملِكاً، وصاحب الفِلْس مملوكاً، وإن كانوا في الأصل كلهم جنس آدم عليه السلام: المَلِك والمملوك، ولكن بينهما فرق عظيمٌ، لا يعرف الفَرْق الذي بينهما إلاّ صاحب المعرفة بالله.

[الفقير الصَّادق لا حقَّ له على غيره]

وأيضاً: الفقير الصادق في توجهه لله ما له بين الخلق حق ولا له على الخلق حق، بل للخلق كلهم عليه الحق، وما له عليهم حق، والفقير الصادق أيضاً، لا يرى نفسه مَظلوماً ولا ظالماً أبداً، لأنه لا يشهد إلاّ الله.

[الحقيقة والشريعة]

وأيضاً: اعلم أن الحقيقة هي التي لم يتعوَّدها الإنسان، والشريعة هي ما تعوَّدها الإنسان. لأجل هذا المعنى تجد العارفين رضي الله عنهم دأبهم التنقل أبداً، وذلك لأنهم وجدُوا عنصر الزيادة فيه، وتفهم من ذلك أيضاً أنَّ مُرَادهم من ذلك دوام الرّحلة ليستمرّ اضطرارهم. قيل: العارف بالله لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره.

[الملك على ثلاثة أقسام، وملك أهل الله بين الكاف والنون]

وأيضاً: اعلم أنَّ المُلك على ثلاثة أقسام: مُلك أهل الدنيا خوفاً وهيْبة. ومُلك أهل الآخرة شوقاً ومحبَّةً. ومُلك أهل الله بين الكَاف والنُونِ. يقولون بأمر الله للشيء كُنْ فيكون، فَمُلك أهل الدنيا بالخلق وللخلق ومع الخلق، ومُلك أهل الآخرة بالخلق لله، ومُلك أهل الله بالله، وإلى الله، وفي الله، وكل مَن قصد شيئاً فهجرته إلى ما هاجر إليه.

[التلوّن]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ رحمه الله ونفعنا به: قال لي: يا ولدي، جُلتُ في بلاد التوحيد فلم أجد فيها شيئاً أقرب وأوسع وأنفع وأسرع في السير من التلوّن. من خصائصه: إنه هو عنصر الزيادة كلها، وما دامت مناجاة العارفين مع مولاهم إلا بالتلوّن، كما أن نعيم الجنة ما دام لأهلها إلاّ بالتلوُّنِ. وزيادة المعاني لا تكون إلاّ بالتلون المعنوي. وكذلك زيادة الحسّ، لا تكون إلاّ بالتلوُّنِ الحسّي. ومن بعض كلام

الششتري رحمه الله قال: غايتي في الحبّ أن أتلوّن. وقيل في بعض الأشعار:

«تَـلَـوَّنْ فـإنَّ لـذَّة الـهـوى فـي الـتَّـلـوُّن»

ومما قال لي الشيخ في شأن المريض، نفعنا الله به، قال لي: إذا رأيت المريض يشتهي، فاعلم أنه بخير وإياك أن تَمْنَعَ المريض شهوتَهُ لأنَّ دواءه في شهوتهِ. وإن اشتهى ما يظهر لك ضَرَرُه فيه فأعْطِهِ منه ولو شيئاً قليلاً، ولا تمنعه شهوتَهُ.

[قول العامة والخاصة وخاصة الخاصة]

وأيضاً: اعلم أنَّ العامَّة يقولون: نحن أهل ظواهر، وهو لا إله إلاَّ الله. والخاصة يقولون: نحن وهو، ولا حول لنا ولا قوة إلاَّ به.

وخاصة الخاصَّة يقولون: هو نحن. ونحن هو. ولا إله إلاَّ هُوَ. ولا شيء موجود سواهُ. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. وقولهم هذا لمَّا تجلَّى لهم الحبيب بالمشاهدة والعيَانِ، حتى مُلِئت قلوبهم بنور الإيمان فحجبوا بذلك عن وجود الأكوان، ولم يجدوا في الوجود إلاَّ المَلِك الدّيان، لأنه من رأى الحقّ حُجِب عن نَفْسِهِ، ومَن رأى نَفْسه حُجِبَ عن الحق.

[فساد الاعتدال]

وأيضاً: اعلم أنَّ ما اعتدل الضِّدَّان في أحدٍ إلاَّ اختلَّ عقله، وفسد، واضمحلَّ بدنه. قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النّساء: الآية 129] يعني: أنَّ الاعتدال بين الضدّين غير ممكنٍ، ومهما اعتدلا في أحَدٍ ظهر فيه الفساد في الحين، في عقله وبدنِهِ. والإنسان قائم بالأضداد، في ظاهره وفي باطنه، ولكن إذا اعتدل فيه الأضداد، يَهْلك. وإذا كان أحد الأضداد ولم يكن معه ضِدّهُ فالإنسان يهلك أيضاً. وإذا اجتمع الضدّان في إنسان وكان أحدهما غالباً على الآخر فذلك هو كمال الإنسان في ذاته وعقله. وإذا أردت تحقيق هذا الأمر فانظر في الإنسان وتأمّله، فإنك تجده نسخة من الوجود، وانظر في الوجود أيضاً وتأمّله فإنك تجده حكمه حكم الإنسان من غير زيادة ولا نقصان. أما تنظر الوجود مهما اجتمع فيه الضدّان: الحرارة والبرودة في زمن الربيع، لا يكون فيه الاعتدال إلاَّ يوم واحد. ولكن قرب الاعتدال حكمه حكم الاعتدال، والإنسان خلقه الله تعالى من الوجود كما خلق الوجود من الإنسان، فلذلك صار الإنسان تتلوّن طبيعته ودَمُهُ بتلوّن هواء الفصول: فصل الربيع: الدَّمُ. وفصل الصيف ينقلب الدّم صفراء وزمن الخريف تنقلب الصفراء سوداء، وزمن الشتاء تنقلب السوداء بلغماً، وهكذا. كل فصل يتلوَّن الإنسان بتلوُّنِ هوائه. وهذه الأضداد التي ذكرنا في الإنسان كذلك هي في

الوجود. انظر زمن الصيف هو زمن الحرّ، ولكن البرد معه، ولو كان الحر من غير بَرْدٍ لمات الناس حرّاً. وانظر زمن الشتاء هو زمن البَرْدِ، ولكن الحرّ معه. ولو كان البرد من غير حرارة لمات الناس بَرْداً. ولكن الحكم للغالب في الوقت، وزمن الاعتدال مثل الربيع والخريف، ففيه يقع للناس كثرة الأمراض والموت أكثر من الفصول الأخرى لا محالة، وذلك من أجل الاعتدالات.

[التوحيد رأس الخير]

وأيضاً: اعلم أنَّ الشرك هو رأس الشّر كله، والتوحيد هو رأس الخير كله. هذا في العادة والعبادة، حالاً ومقالاً، حسّاً ومعنى. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمَان: الآية 13] والشرك معناه التخليط، والتخليط هو الفِسْق. والفسْق هو الفساد. قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني: وجَمْعَك صِلَهُ إنَّ فَرْقَكَ قاطِعُ.

[العبد المتوجه إلى ربّه يكون مع ربّه وهو مع نفسه]

وأيضاً: اعلم أن العبد المتوجِّه إلى ربه، تارة يكون مع ربِّه، وهو مع نفسه، وتارة يكون مع نفسه وهو مع ربِّه. هذان حالتان يتعاقبان على الإنسان لا بد له منهما.

الساعة التي يكون فيها مع ربه، وهو مع نفسه، فتلك ساعة نورانية روحانية، وأمّا الساعة التي يكون الإنسان مع نفسه، وهو مع ربِّه، فتلك ساعة بشرية ظلمانية، ولا يسير ويترقَّى حتى تمتزج هاتين الحالتين بعضهما في بعضٍ، وتصيران كأنهما واحدة.

[كل ما في نفسك وما في الوجود صواب
وكل منهما نسخة عن الآخر وحكمهما واحد]

وأيضاً: اعلم أن نفسك لو فتشتها وحققتها، لم تجد فيها مثقال حبّة من خَرْدَلٍ على غير صواب، وإنما تجدها في غاية الاتقان، كاملة من كل جهةٍ. كما أنك لو فتشت الوجود بأسره أيضاً لم تجد فيه قدر حبّة خردل على غير صواب، وإنما تجد الوجود كله في غاية الاتقان. والنفس نسخة من الوجود، كما أنَّ الوجود نسخة من النفس. حكم النفس، وحكم الوجود واحد، ولكن ما حصل على هذا العلم إلاَّ العارفون بالله رضي الله عنهم. فبذلك حصل التوفيق بينهم وبين نفوسهم وبين الخلق لما صاروا لم ينكروا على نفوسهم شيئاً، ولم ينكروا على الخلق شيئاً أقرَّ الخصم وارتفع النزاعُ، ولم يبق لهم إلاَّ الترقي في الأحوال والمقامات والتحلّي بلذيذ المناجاة،

وذلك لما صارت عندهم الذات هي عين الصفات، كما أن الصفات هي عين الذات، والدخول لهذا الفنّ لا يمكن إلاّ لمن حصَّل العلم بالله أو بصحبة العارف بالله.

والعلم بالله أيضاً، لا يمكن الظفر به إلاّ بصحبة أهل العلم بالله إن وجدوا، وقليل ما هُمْ.

[الأرواح روح واحدة، والذوات كذلك]

اعلم أنَّ الأرواح كلها روح واحدة، جمعاً وفَرْقاً، كما أن الذوات في الحقيقة كلها ذات واحدة فرْقاً وجمعاً. وحقيقة الحقيقة: أن الذوات من الأرواح، والأرواح من الذَّوات.

قال ابن الفارض في بعض كلامه: فأرواحنا خَمْرٌ، وأشباحنا كَرْمٌ. إذاً الخمر من الكرم، كما أن الكرْمَ من الخَمر. إذا نظرت في الفَرْقِ تجده فرقاً لا جمعاً. وإذا نظرت في الجمع تجده جمعاً لا فَرْقاً. وإذا كمل نظرك تنظر الجمع تجده هو عين الفرق. وتنظر الفرق تجده هو عين الجمع، فإذا حصلت هذه النظرة الكاملة واستقرَّت صار جمعك لا يحجبك عن فرْقك، وفرْقك لا يحجبك عن جمعك. وهذا هو عين المطلوب، وبالله التوفيق.

[نفسك من الأرض إذا لم تغرس فيها ما ينفع نبت فيها ما يضرُّ ولا ينفع]

وأيضاً: اعلم أن نَفْسَكَ من الأرض، والأرض لا بُدَّ لها من نَبَاتٍ، إذا لم تُغْرِس فيها ما ينفعُ ينبت فيها ما يَضُرُّ ولا ينفعُ. قال الششتري في بعض كلامه: غَرَسْت في حضرتي شجرة التوحيد، الأصل في قبضتي والفَرْع فيها يزيد. ولا يجني الثمرة إلاّ قاريء التوحيد.

وأيضاً: مما قال لي الشيخ سيدي العربي، قال: جاءني رجلٌ من أهل الدنيا وجعل يُنكِر عليَّ معرفة المساكين، ويقول لي: كيف بك يا سيدي أنت ممَّن يعرف فُلاناً وأمثاله، فأجابه سيدي العربي بأن قال له: يا فُلان، فاتتك في الدنيا لذّةٌ مثل معرفة رجل تعرفه ولو كان معَّاشاً أو سلطاناً، لو حصلت لكل هذه المَزِية لعرفت من عرفَتِ الرِجّالُ، ولكن مُنِعَت ذلك لحبّك للدنيا، الله يكون لنا ولك.

[الخير ممزوج بالشّر والشّر ممزوج بالخير]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى خلق هذا الوجود وجعل فيه الخير والشَّر. وجعل

الخير ممزوجاً بالشر والشر ممزوجاً بالخير.

صفاء ولا ماءٌ ولطفٌ ولا هوى ونورٌ ولا نارٌ ورُوحٌ لا جِسْمُ

[فضل الذِّكر والتدرج في الفضائل]

وأيضاً: اعلم أنه ممَّا مَنَّ الله به عليَّ في أول أمري أن تفضَّل عليَّ بالذِّكرِ، ثم استخرج لي من الذكر الحضور، ثم استخرج لي من الحضور العلم. أعني علم الإلهام ثم استخرج لي من العِلمِ الغيبة عما سوى الله، ثم استخرج لي من الغيبة عما سواه المعرفة بالله، ولا علينا إلاَّ فضل سادتنا الذين أيّدنا الله بهم، ورافقونا في هذه الأحوال كلها، جازاهم الله عنا خيراً، أرشدونا ونصرونا وأدّبونا وهذّبونا، ما علينا إلاَّ فضلهم. جعلنا الله من السالكين على منهجهم القويم وأماتنا على محبّتهم آمين، بفضله وإحسانه.

[الأشياء كلها حسية ومعنوية]

وأيضاً: اعلم أن مِن حِكْمة الله تعالى أن جعل الأشياء كلها حسّية ومعنوية، وجودها كامناً في عدمها، وعدمها كامناً في وجودها. هكذا في الأمور كلها، سواءٌ كانت وهبية أو كسبية، فالعارف مستمرٌ بهما، في الوهبية وفي الكسبية.

في الوهبية عارف بأحكامها، وفي الكسبية عارف بتصريفها على مَرَاتبها. مع أنَّ الوهبية لا تستقيم أفعالها ولا تَسْكن حتى تستقيم الكسبية وتسكن، بتصريفاتها وأفعالها. فعند ذلك على ظهر الكسبية تسْتقر الوهبية، وإذا لم تسْبق معرفة أحكام الكسبية لم تكن معرفة الوهبية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية 28] الآية.

وأما قولنا في أوَّل الكلام: الوجود كامِنٌ في العَدَم، والعَدَم كامن في الوجود، بذلك جرت سنّة الله في عبادهِ بحكمته وقُدْرَته. يرحم الله القائل: ودَاوِ بالّتي كانَتْ هِيَ الدَّاء.

سأل بعض الصالحين أبا يزيد البِسْطامي فقال له: يا سيدي، متى يكون دَاءُ النَّفْس دَوَاءها؟ قال له: نَعَمْ إذا تخالف هواها، يكون داؤُها دواءها. نفعنا الله بالسائل والمسؤول، وجعلنا وإياكم من السالكين على منهجهم القويم، آمين.

[أهل الظاهر لا نصيب لهم في سر القلوب]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل العلم الظاهري، وأهل العمل الظاهري، لا نصيب لهم في

سرِّ القلوب وما احتوت عليه من علوم الغيوب. وإنما نصيبهم في ظواهرهم فقط. إلا إذا كان صاحب الظاهر قاصداً به وجه الله صادقاً في دعوَاهُ مخلصاً فيها، فإنَّ هذا يصير له الظاهر منزلةً من المنازل ومقاماً مِنَ المقامات، لمَّا كان قاصِداً وجه الله لم يكن له مُسْتقرٌ في مقامٍ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: الآية 13] وعلامة أهل هذه المنزلة ما ذكرنا من الانتقال في المقامات والأحوالِ.

[من تَصْلح معرفته ومن لا تصلح]

وأيضاً: مَنْ لم تكن فيه أحد أربعة خِصَالٍ، لم تصلح مَعْرفته. إما أن يكون مِنْ أهلِ العِلم، أو مِنْ أهلِ العملِ، أو من أهل الرياسَة، أو من أهل الدُّنيا.

[الخير لا يقوم إلا بالاجتماع]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخير ما قام واستوى لأهله، إلاَّ بالاجتماع، صار كأن موضع الخير هو موضع الشر، وموضع الشر هو موضع الخير. ثم جعل لهما ثالثاً بحِكْمتِهِ، وهو التخليط: تخليط الخير مع الشر، وتخليط الشر مع الخير، وشُغل الخلق بِفَرْزِ ذلك أبداً إلى يوم القيامة. هذا من كمال حِكْمته.

[عادة الله في الوجود]

وأيضاً: اعلم أنك ما جُزْت على شيءٍ إلاَّ تحلب منه لُبابَ اللُّبَابِ، لأنَّ كل من قابلته بِجُورٍ يُقابلك بعَدْلٍ، كما أنَّ من قابلته بعدلٍ، يقابلك بجورٍ. هذا مع نفسك ومع جنسك، بل مع الوجود كله. هكذا جرت عادة الله بحكمته في الوجود. سبحان الحكيم العليم.

[للإنسان همتان مثل الجوارح؛ همة في القلب وهمة في الصُّور]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى، كما جعل لك من كُلِّ جارحةٍ اثنين، كذلك جعل لك همتيْن: هِمَّة في قلبك، وهمة في صورك. وجعل همَّة القلب فوْق هِمَّة الصُّوَرِ. همَّة القلب كأنها همَّة المَلِك، وهمَّة الصُّور كأنها همَّة المَمَالِكِ. وأيْنَ همَّة المَلِكِ من هِمَّة الممالِك؟.

والدَّليل على شَرَفِ القلب قوله ﷺ: «إنَّ في ابن آدَمَ مضغة، إذا صَلحتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه. وهي القلب»، الحديث. وقوله ﷺ في الحديث القدسي: «لن تَسَعَني أرضي ولا سَمَائي وإنما وسِعَني قلب عبدي المؤمن»

الحديث. وما أكرمه سبحانه وتعالى حيث قال على لسان نبيّه ﷺ: «إنَّ الله يَرْزق العَبْدَ على قَدْرِ هِمَّتِهِ» الحديث. إذا نزلت همَّتك على شيءٍ قليل، وهو المخلوق، ترزق على قَدْرِهِ، وإذا نزلت هِمَّتك على ما هو كبيرٌ، وهو الله تبارك وتعالى، تُرْزق على قدْرِه، ولا يعلم قدر العظيم إلاَّ العظيم. جعلنا الله وإيَّاكم والمسلمين جميعاً بِمَن تعلَّقت هِمَّتهم بمولاهم في السِّر والعلانية.

[المرءُ على دين خليله]

وأيضاً: «المَرْءُ على دينِ خَليله» الحديث. صار صاحب المَلِك مَلِكاً، وصاحب المَمْلوك مملوكاً، وما أكثرتُ من مجالسة أحَدٍ، إلاَّ لَبِسْتَ حليته واتَّصفت بأوصافِهِ. وانظر الحِرْباء، وهي تَاتَا، ما نَزَلتْ على شَيْءٍ إلاَّ تَلَوَّنَتْ بِلَوْنِهِ، وعلى لونه صارت، ما لها لونٌ، لَوْنُها هو لون من يليها، كذلك الإنسان، ما له لونٌ، لونه هو لون خليله الذي يليهِ ويجالسه. وهذه النِّسْبة حازَها الإنسان من امتزاجِهِ بالخَمْرةِ الرَّبانية لأنَّ الخمرة الربانية ما لها لون يختصّ بها، بل الألوانُ كلها ألوانها، ولكن لونها الذي يُحْكَم عليها به، هو اللون الذي تجده فيها في الوقت.

[وصف الخمرة الربانية]

قال ابن الفارض رحمه الله في وصْف الخَمْرة الرَّبانية:

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فأَنْتَ بِوَصْفِهَا خَبِيرٌ أَجَلْ عِنْدِي بأَوْصافِهَا عِلْمُ

صَفَاءٌ ولا مَاءٌ ولُطْفٌ ولا هَوَى ونُورٌ ولا نَارٌ ورُوحٌ ولا جِسْمُ

ولو تفرَّقوا، لبَطل خيْرهم.

وكذلك أهل الشَّر، ما قام شرُهم واستوى إلا بالاجتماع، ولو تفرَّقوا لبطل شرُهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عِمران: الآية 103]، وقال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية 46]. وقال ﷺ: «يَدُ الله مَعَ الجماعةِ». وقال الشيخ، سيدي عبد القادر الجيلاني، نفعنا الله به:

وجَمْعَكَ صِلْهُ إنَّ فَرْقَكَ قَاطِعُ

[فضل أهل الشريعة]

وأيضاً: اعلم أنَّه لا فضل علينا مثل فضْلِ سادتِنا أهل الشرائِع، إذ لولا ظواهر الشرائع لاضْمَحلَّ الدِّين وتلاشى وتَلِفَ.

مَثَلُ الشريعة في الحقيقة مَثَل اللّواءِ في وسَطِ الجيش. يعني الشريعة هي اللّواء، فحينئذ الحقيقة، ما دام اللواء مُستقّلاً في وسط الجُنْدِ والجند منصور، ومهما انكسر اللواء انكسر الجند صارت الشريعة هي روح الحقيقة.

يَرْحَمُ الله القائل في مدح النبيّ ﷺ:

يـــا زَيْـــن الـــخـــلائـــق   يـــا عَـــيْـــن الـــحـــقـــيـــقـــة

لأنّ الدّين ما استمرّ ودامَ إلاّ بظواهر الشريعة. كأنّ الشريعة هي رأس مالِنَا، والحقيقة هي ربحنا وفضْلُنا. قال الشاعر:

مَـــا يَـــعْـــدِمْ افْـــضَـــالْ   مَـــنِ ابْـــقَـــالُ رأس الـــمَـــالْ

ومن لا عِنده رأس مال، لا سبيل له للظفر بالرِّبْحِ، لأنّ باب الربح هو رأس المالِ، ومن سَدَّ الباب في وجهه فاته الربح.

[حكم الجسد على الرّوح]

وأيضاً: اعلم أنّ الله تعالى كما جعل في الدنيا حكم الجَسَد على الرّوح، كذلك جعل في الدنيا الحكم للشريعة على الحقيقة. وكما سيجعل في الآخرة الحكم للحقيقة على الشريعة. وهاتان الفرقتان أوجدهما الله تعالى في الدنيا باثنين، ويُوجدهما أيضاً في الآخرة باثنين. «يمُوت المَرْء على ما عاش عليه، ويُبْعث على ما ماتَ عليه» الحديث. أما الفرقة التي لها الحكم للجسد على الروح. والحكم للشريعة على الحقيقة فهم الذين في الدنيا بقلوبهم وأجسادهم. والفرقة التي لها الحكم للروح على الجسد والحكم للحقيقة على الشريعة، فهم الذين في الدنيا مع الخلق بأجسادهم، وعند الله بقلوبهم. كما قال بعضهم؛ وهو الشيخ سيدي قاسم الخصاصي نَفَعنا الله به: الجَسَد في الحانوتِ، والقلبُ في الملكوت. جعلنا الله من أهْلِ هذا المنهَجِ القويم.

[القبض والدفع]

وأيضاً: اعلم أنّ هذا الفقر مبْني على أحد حقيقتين: إما حقيقة علوية، وهي القبض. أو حقيقة سُفْلية، وهي الدّفْعُ. فمن ظفر بواحدة من هاتيْن الحقيقتين فهو فقيرٌ من أهل الخصوصية، وإلا فلا.

والقبْض، أعني به قبْض الدّراهم، أي يعرف ممّن قبضَها، ولمن يدفعها. (مِنَ الله بالله لله) والدفع دفعها. هاتان حقيقتانِ، هما أساس الخصوصية، ومن بَنَى من غير أساس فلا بُنْيَانَ له.

[الأدب والتعظيم]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الظاهر ما استقام ملكهم واستوى إلاَّ بالأدب والتعظيم للخلقِ، ومع الخلق. وكذلك أهل المُلك الباطني ما استقام ملكهم واستوى إلاَّ بالأدب والتعظيم للمَلِك الحق، صار حكمهما واحداً. ولكن هذا للخالق، وهذا للمخلوقين، «وما كان لله دَامَ واتَّصَل، وما كان لغَيْرِ الله انقطع وانفَصَل».

[الحسّ في الدنيا غالب على المعنى وفي الآخرة بالعكس]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان كما أنَّه اليوم مستقرٌ في عالم الحسِّ، والحس لا يقوم إلاَّ بالمَعْنَى، ولكن دخوله للمعاني كأنه عار. كذلك يكون في الآخرة مستقراً في عالم المعاني، ومعانيه لا تقوم إلاَّ بالحسِّ. ولكن دخوله للحسِّ كأنه عار. والحكم للغالب في الوقت. كما أنَّ في الدنيا الحكم للحسِّ على المعاني مع أنَّ المعاني لا تفارق الحسّ، والحس لا يقوم إلاَّ بها كذلك ينقلب الأمر في الآخرة. يكون الحكم للمعاني على الحسِّ مع أنَّ الحسَّ في الآخرة لا يفارق المعانِي، ولا تقوم المعاني في الآخرة إلاَّ بالحسِّ. سبحان من أتقن كل شيء بصُنعه وحِكمته، سبحان الحكيم العليم.

[مُلك الظاهر ضدّ مِلكِ الباطن]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهلَ ملك الظَّاهر ملوكٌ، وأهل مُلك الباطن ملوكٌ؛ وهما ضِدَّانِ لِيَغضِبهما بعضاً. ومهما التقيا على خير فخيرهما لا حدّ له ولا حَصْر. ومهما التقيا على شرّ، فشرُّهما لا حدَّ له ولا حصْر. وخيرهم في موافقتهم، وشرّهم في مخالفتهم، ومساعفتهُمْ لا تكون إلاَّ إذا خضع أحدهما للآخر. فبِمثل ذلك يحصل خيرهم وشرهم يحصل بعدم انقياد واحد للآخر. يعني إذا قال واحد هكذا. وقال الآخر هكذا بخلافه، فذلك هو الشرُّ بنفسِهِ. والعارف بالله من أهل الباطِنِ لا يترك أهل الظاهر ولا يتنافر معهم لئلاَّ يمْنع خيرهُمْ، ولا يدخل في أيديهم ولا يملكونه أبداً. إذا كان هكذا، يحصل له خيرهم، ويفوته شرّهم ولا يصيبه، ولا يوجد هذا الوصف إلاَّ في الأقوياء العارفين بالله، وقليلٌ ما هُمْ، لأنه ليس الشأن في ترْك النحْل لأجل لذْغِهِ وإنما الشأن فِيمَن مَلَكَ النَّحلَ وأكل شهده وفاته لذْغهُ.

وأيضاً: اعلم أن الخلق كُلُّهُمْ ملوك، كل واحد مالك على نَفْسِهِ بسُلطانِ عَقْلِه. من ملكهم حصل على خيرهم، ومن ملكوه حصل على شرهم، فمن جاءهم ملكوه مَنْ جاءوُه ملكهم، فمن عشقهم ملكوهُ، ومن عشقوه يملكهم. فمن طلبهم ملكوهُ، ومن

طلبُوهُ ملكَهُم. والحكيم العارف بالله لا يمتلكهم لئلاً يمْنَع خيرهُمْ، ولا يَدْخل في أيْديهم، لئلاً يملكوه، فيصيبَهُ شرُّهُمْ. بل حصَّل خَيْرهم ولم يجدوا سبيلاً لينالوه بشرِّهِم. وهذا الوصف لا يكون إلاً في الأقوياء الحكماء العارفين بالله، نفعنا الله بهم.

[بعض أوصاف العارف بالله]

وأيضاً: اعلم أنّني ما اشتغلْت باسْمِي إلاً حُجِبْت عَنْ ذَاتِي، وما اشتغلْتُ بِذَاتِي، إلاً حجِبْت عن اسمِي، لأنَّ اسْمِي من جملة صفاتي، ولا يَحجُبْني عن صفاتي إلاً ذاتي، ولا يحجبني عن ذاتي إلاً صفاتي، وشريعتي تحجبني عن حقيقتي، وحقيقتي تحجبني عن شريعتي، ولا تقوم شريعتي إلاً بحقيقتي، كما لا تقوم حقيقتي إلاً بشريعتي، واجتماعي يحجبني عن فرقتي، وفرقتي تحجبني عن اجتماعي ولا يقوم اجتماعي إلاً بفرقتي، كما لا تقوم فرقتي إلاً باجتماعي. وحسِّي يحجبني عن معناي ومعناي يحجبني عن حسيّ ولا يقوم حسّي إلا بمعنيتي ولا يقوم معناي إلا بحسّي وفقدي يحجبني عن وجدي، ووجدي يحجبني عن فقدي، ولا يقوم فقدي إلاً بوجدي، كما لا يقوم وجدي إلاً بفقدي. وقربي يحجبني عن بُعْدي، وبُعْدي يحجبني عن قربي. ولا يقوم قربي إلاً بِبُعدي، كما لا يقوم بُعْدي إلاً بِقُرْبي. وفقري يحجبني عن غنائي، وغنائي يحجبني عن فقري، ولا يقوم فقري إلاً بغنائي، كما لا يقوم غِنَائي إلاً بفقري. فافهم وتأمَّل واعرف، وهذه بعض أوصافي.

[دواء الضعف في الحسّ والمعنى]

وأيضاً: صاحب الحقائق السّفلية، إذا ضعفت مادّته من جِهَةِ الحسّ أو مِن جهة المعنى، وأراد تقويتها، فعليه بالهبوط إلى الحقائق السّفلية، فإنّه يتقوّى من حينه، حسّاً ومعْنىً. ولا يفيده شيئاً سوى الهبوط للسفليات. فإنَّ الزيادة تقع في الحين وصاحب الحقائق العلوية إذا ضعفت مادّته من جهة الحسّ أو من جهة المَعْنَى أيضاً، وأراد تقويتها، فعليه بالطلوع للحقائق العلوية، فإنَّ مادَّته تقوى وتقع الزيادة في الحسّ والمعنى. ولا يفيده شيء سوى الهُروب للعلويات. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: الآية 84] صار أهل العلويات مهما يصعدون يجدون الله، وأهل السفليات مهما ينحدرون يجدون الله، والذين وجدوا الله ما فقدوا شيئاً، والذين فقدوا الله ما وجدوا شيئاً.

[السَّير عند أهل الحقائق بالحضرة والهدرة]

قال لي الشيخ، نَفَعَنا الله به: اعلم أنَّ الأشياء لا تظهر نتائجها حتى تقارن مع

أضدادها، ومهما قُرنَت الأشياء بأضدادها، فإنَّ نتائجها تظهر وتلُوحُ مثل الشمس من زيادة عملها، وزيادة علمها قولاً وفعلاً، حسّاً ومعنىً، إنَّ زيادة الوجود كلها في مقارنة الأضداد، هكذا جَرَت عادة الله في مُلكه. سبحان الحكيم.

ومما قال لي الشيخ نفعنا الله به، قال لي: نحن قوم نسير بالحضرة ونزيد بالهذْرة، ولا نترك الحَضْرة ولا نترك الهدرة، إن وجدنا السَّيْر بالحضرة سِرْنا، وإن وجدنا السير بالهدرة سِرْنا. ونحن مع ما يبرُز من مَوْلانا وهبيّاً كان أو كسْبِيّاً، لأنَّ الكل به ومنه وإليه.

[أهل المُلك أربع فِرق]

اعلم أنَّ أهل المُلكِ على أربع فرقٍ، فِرْقتان ظاهريتان، وفرْقتان باطنيتان. الفرقتان الظاهريتان: الفرقة الأولى منهما لا يشهدون إلاَّ نفوسهم، ونتيجة مُلكهم التمتع في الدنيا، وهم ينقطعون على كل حالٍ.

والفرقة الثانية: مُلكهم من الله، نتائجهم شهود النِّعم من الله. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية 53] وهم لا ينقطعون، لشهودِ النعم من مَوْلاهم.

والفرقتان الباطنيتان: مُلْكهم أيضاً لله، نتائجهم شهود النِّعَمِ مِنَ الله.

والفرقة الرابعة: ملكهم بالله، نتائجهم فيه، النظر في وجه الله، لا يعرفون شيئاً سوى الله، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان.

فالفِرْقة الأولى حجبوا عن مولاهم بالتمتُّع، لمَّا وقفُوا معه. والفرقة الثانية: حُجِبوا بالنِّعَمِ عن المُنْعِم، لما وقفوا معها.

والفرقة الثالثة: حُجبوا عن مولاهم بباطن النِّعَم.

والفرقة الرابعة: لم يحجبهم عن مولاهم تمتع أهل الدنيا، ولم تحجبهم عن مولاهم لا ظواهر نِعَمِه ولا بواطنها، بل شغلهم النظر في الله عما سواه؛ والجمع عليه فلا يعرفون إلاَّ إيَّاهُ فَنُوا في ذاتِ الله وبقوا به، صاروا يشهدونه بغير واسِطةٍ. سبحان من خصَّهم وأعطاهم واجْتباهم وقرَّبهم وشرَّفهم بحضرته، وجعلهم أهل مناجاته، فضلاً منه عليهم لا بشيءٍ. سبحان من لا يتوقف فضله على شيءٍ، سبحان من كان قبل وجود كل شيءٍ، ويكون بَعْد عَدَمِ كل شيءٍ. سبحان من كان وليس معه شيءٌ، وهو الآن ليس معه شيءٌ.

[الوصول على قسمين: وصول العلم ووصول الجهل]

وأيضاً: الوصول على قسمين: وصول العِلْمِ، ووصول الجهل. وصول الجهل

عند عامة الناس، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿85﴾﴾ [الواقعة: الآية 85]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿21﴾﴾ [الذاريات: الآية 21].

ووصول العلم عند خاصة الناس. قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 9]. وفي الحِكَم: «وصُولُك إلى الله وصُولُكَ إلى العِلم». به صار العامي واصِلٌ جاهلٌ لوصوله، والعالم واصل عالم بوصوله. والجهل له عملٌ والعِلْمُ له عمل، إلا أنَّ الجاهل غلب عليه نور الجلال، والعَالِم غلب عليه نور الجَمَالِ. ولا يعرف الجهل إلاَّ بالعِلْم، كما لا يعرف العلم إلاَّ بواسطة الجهل. والجاهل جَهِل نفسه، وجَهِلَ جَهْلَهُ بها، والعالِم عَلِمَ نفسه، وعَلِمَ عِلْمَهُ بِها.

[بعض أدب المريد مع الشيخ]

وممَّا سمعت من الشيخ رحمه الله قال: ومن أدب المريد مع الشيخ، إن قال له شيخه: أرَدتك تخرج من عين التخبط، فلا يُردد عليه القول، وإنما يقول له نعم، من غير التفاتٍ ولا تردُدٍ.

وأيضاً: اشتكيت على الشيخ، فقلت له: يا سيدي، رأيت نفسي ضعيفاً من جهة القول، قوياً من جهة الفِعْلِ. وخفت أن يتعذَّر أمري من أجل ذلك. قال لي: احمد الله على ذلك واعرف منَّته عليك فيك. ولو جعل الله القوة التي جعل فيك في الفعل في القول لأهلكك العامَّة لأنك إذا سَلِمت من أهل الرياسة لا تسْلم من علماءِ الشرائع.

[كلام سيدي أحمد اليماني في موضوع إذاية الخلق له، وغيرة الله له]

وأيضاً: سمعت الشيخ سيدي العربي بن أحمد بن عبد الله، نفعنا الله بهما، يروي أنه سمع سيدي أحمد اليماني، نفعنا الله به، يتكلَّم مع والده سيدي أحمد المذكور، فقال له: إني لأصْبِر لإذاية من يؤذيني حتى تسيل دمعتي من إذاية أحدٍ أهلكه الله في الحين من غير عُطلة. هذه عادتي مع الله تعالى. فقال له سيدي أحمد: يا سيدي أنا جعلني الله بعكس ذلك، إنّي لأصْبِر على إذاية من يُؤذيني حتى إذا ضحكت من إذايته أهلكه الله في الحين، من غير عطلة. هذه عادتي مع الله تعالى. نَفَعَنا الله بهم أجمعين.

[مباشرة السفليات قبل مباشرة العلويات، صاحبها عارف]

وأيضاً: إذا رأيت الفقير المتوجِّه يُبَاشر الحقائق العُلويات، بعد مباشرته

للسُّفليات، فاعلم أنه عارف غير تالف. وذلك مما يَدُلك على أنه حصَّل على خيرياتها، وفاتته شرّياتها. وإذا رأيته ـ أي المتوجّه المذكور بعكس ذلك ـ يُباشر الحقائق العلوية قبل مُباشرته للحقائق السفلية، فاعلم أنه تالف غير عارف، حصل على شرياتها، وفاتته خيرياتها؛ وذلك دليلٌ على أنه مخْذُول مطرود عن جانب الحَضْرة والعياذ بالله، لأنّ نفوس الخلق جُبِلَت على مباشرة الحقائق العلوية، وإمام الطريقة الشاذلية، الشاذلي رحمه الله يقول: اللّهُمّ إنّ القوم قد حَكَمْت عليهم بالذّلّ حتّى عَزُّوا، وحكَمْت عليهم بالفقد حتى وجَدُوا. صار كل متوجه يدخل بلاد العز قبل دخوله للذلّ لا يكون حتماً دخوله إليها إلاّ بنفسه لا بربّه وبالعكس أيضاً، إذا رأيت أن المتوجّه دخل بلاد العزّ بعد دخوله للذلّ، فهذا لا يدخله حتماً إلاّ بربّه. وكل من دخل الأشياء بربه فهو حاصل على خيرياتها، مأمون من شرّها.

قال في الحِكَم: ما توقف مَطْلَب أنت طالبه بربِّك، ولا تيَسَّر مَطْلَبٌ أنت طالبُه بنفسك. والفقير المتوجّه حتماً لا يدخل جنة الوصول، وهي حضرة العزّ، حتى يَسْلك نار الذلّ. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: الآية 71].

[الجمع والفرق لكلّ منهما علوم ومناجاة]

وأيضاً: اعلم أن الجمع له علوم ومناجاة، كما أن الفرق له علوم ومناجاة، ومن حصَّل على لذيذ مناجاة الجمع، لا يستطيع مُباشرة الفرق وأهله إلاّ القليل. وكذلك من حصَّل على لذيذ مناجاة الفرق، لا يستطيع مباشرة الجمع وأهله إلاّ القليل كأنّ الأمر عظيمٌ. ولا تجتمع المناجاة إلاّ في الأقوياء من الرجال، كسيدي يوسف الفاسي وأمثاله، نفعنا الله بهم.

سمعت شيخنا سيدي العربي، عن أبيه سيدي أحمد، عن جده سيدي محمد بن عبد الله، نَفَعَنا الله به، يُقرِيءُ في مَجْلِسَيْن، مجلس الجمع ومجلس الفرق، كل يوم، وكل مجلس بأهله. وإذا جاء رجُلٌ من أهل الفَرْقِ فجلس بين يديه مع أهل الجمع، يقول له: قُمْ واجلس مع أصحابك حتى آتيكم إلى مَجْلِسِكُمْ. وإذا جاء رجل من أهل الجمع فجلس بين يديه مع أهل الفرق لا يدعه أيضاً، بل يقول له: قُم فاجلس مع أصحابك حتى آتي إليكم، لأن الجمع واصِل والفرق قاطعٌ. قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: الآية 12]. كان رضي الله عنه لا يحجبُه فَرْقه عن جَمْعِهِ، كما لا يَحجُبُه جَمْعه عن فَرْقِهِ.

وقيل: إنه أخذ القطبانية ثلاثاً وعشرين عاماً. رزقنا الله محبَّته وأفاض علينا من بركاته.

[المتوجهون إلى الله تعالى على فرقتين]

وأيضاً: اعلم أنَّ المتوجّهين إلى الله على فِرْقَتين: أهل أسْبَاب، وأهل تجريد. أي فرقة أهل أسباب، وفرقة أهل تجريد. أهل الأسباب أهل شرائع، وأهل التجريد أهل حقائق. أهل الشرائع ـ أعني الذين غَلَبَتْ عليهم الشرائع ـ وأهل الحقائق ـ أعني الذين غَلَبَت عليهم الحقائق.

أهل الأسباب مشتغلون بسببين، يتسبَّبون سبباً لقوت الأرواح وسببهم فيه هو الأذكار، ويتسبَّبُون سبباً آخر لقوت الأشباح، وربما كان سببهم فيه سبب أهل الدنيا.

وأهل التجريد تجرّدوا من كل شيءٍ، واشتغلوا بمشاهدة ذاتِ الحقّ وصفاته. فكفاهم مولاهم عمَّا سِواه، وتولَّى أمورهم سبحانه بنفسه، لما كان تلفُهُمْ فيه كان خَلَفهُم عليه.

وتجرَّدوا أيضاً من الأسباب، واشتغلوا بمناجاة المُسَبِّب، فكفاهم شأن الأسباب، وصار ينوب عنهم في أمورهم كلها. رزقنا الله محبَّتهم بفضله وإحسانه.

[تصرف الوجود سفلي وعلوي]

وأيضاً: اعلم أنَّ التصرف، في الوجود على قِسْمين: تصرّف سُفْلي باطني إلهامي، وتصرف علوي ظاهري بالجوارح. فالتصرف السفلي بالنفوس وبالهِمَمِ، والتصرف العلوي بالفلوسِ وبالجوارحِ.

صاحب التصرف السفلي زيادته بالهبوط، يزيد بهبوط القولِ ويزيد بهبوط الفِعْلِ ويزيد بهبُوطِ الدّنيا.

وصاحِبُ التصرف العُلْوي، زيادته بالطلوع. يزيد بطلوع القولِ، وبطلوع الفِعْلِ، ويزيد بطلوع الدِّين، ويزيد بطلوعِ الدّنيا.

صاحب التصرف العلوي سُلْطان ظاهري، وصاحب التصرف السفلي سلطانٌ باطِني. صاحب السّفليات سلطان، كان عالماً، أو مصاحباً لعَالم. أو كان جاهِلاً. لكن إذا كان عالِماً فإنه يكون بالله، أو لله، وما كان لله أو بالله دام واتَّصل. وكذلك إذا كان مصاحِباً لعالم حكمه حُكم من دَخَلَ بلاداً لا يعرفها، ولكن دخل مع الغير. فهذا يحصل على خَيْرها ويفوته شرّها، وإذا كان جاهِلاً فهذا دخل الأمر بنفسه، صار مُلْكه

مُلْكاً، ولكنّه يفنى ويتلاشى ويضمحلّ ويتخرَّب، لأنَّ الوصْل لغير الله، وما كان لغيرِ الله انقطع وانفصل.

وكذلك صاحب العلويات سُلْطان، كان عالماً أو مصاحباً لعالِم. أو جاهِلاً ساعده فيه وقته، لكنه إذا كان عالماً فإنه يكون بالله ولله. وما كان لله أو بالله دَامَ واتَّصَلَ. وكذلك أيضاً إذا كان مصاحِباً لعَالِم حكمه حكم من دخل بلاداً لا يعرفها، ولكنّه دخلها مع الغير فهذا أيضاً يحصل على خيْرها، ويفوته شرّها، وإذا كان جَاهِلاً فهذا دخل الأمر بنفسه، ساعده وقته، صار مُلكه مُلكاً لا يُنْكَرُ، ولكنه يَفْنَى ويتلاشَى ويضمحل ويصير خراباً، لأنَّ الأصْلَ لغير الله، وما كان لغير الله انقطع وانفَصَل.

صاحِبُ المُلك السّفلي بسُكوته يقتل ويحيي، ويُعزّ ويُذلّ، ويَرْفع ويَضعُ، ويُعْطي ويَمْنَع، ويَمْلك وينزع. كما أن صاحب الملك العلوي بكلامه يقتل ويحيي، ويعزّ ويذلّ، ويرفع ويضع، ويُعْطي ويمنَع، ويملك ويَنْزع، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسـراء: الآية 20] . وإذا اجتمع صاحب المُلك العلوي مع صاحب المُلك السّفلي، وكان اجتماعهم على خير، العلوي يصلح ملكه، ويزيد بِخَيْر السُّفلي، والسّفلي يصلح مُلْكه ويزيد بخير العلوي. ولكن السفلي تكون يده على الفوقي لا محالة لأن السفلي خيرُهُ أقوى من الفوقي. وإذا كان خَيْرُ السفلي أقوى من الفوقي فهو يَغْلِبُ. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القَصَص: الآية 5] .

وإذا كان أيضاً اجتماعهم على شرٍّ، العلوي يفسد مُلكه، وينقص بشرّ السفلي، والسفلي يفسد ملكه وينقص بشرّ الفوقي. ولكنه أيضاً، تكون يد السفلي على الفوقي لا محالة، لأنَّ السفلي أيضاً شرّهُ أقوى من الفوقي لأنَّ من كان قوياً في خيره لا بد أن يكون قوياً في شره، وبالعكس. وكان سيدي محمد بن عبد الله، نفعنا الله به يقول: إذا اقْتَرَنَ رِيح سُفلي وريح فَوْقِي فالسُّفْلِي يغلب على كل حالٍ.

[الحكمة ترد مثل الجبل فإذا تركت تضعف حتى تتلاشى نهائياً]

وأيضاً: سمعت الشيخ، نفعنا الله به، يقول: الحِكْمة تَرِد على صاحبها من حَضْرَة العزّ، فأوّل ما ترد عليه تظهر له مثل الجَبَل وهو مثل الصيَّاد، إذا ضربها فذاك، وإن لم يضربها واستهزأ بها ضَعُفَتْ حتى تصير مثل الثور، حتى تصير مثل الشاة، ثم تصير مثل الأرنب، ثم تصير مثل القط، ثم تصير مثل الحَمَام، ثم تصير مثل البراطيل، ثم تصير مثل الخيط، ما دام يستهزىء في ضَرْبِها، وهي تضعف، حتى يطلبها فلا يجد لها خَبَراً، فاز باللذّة الجَسُورُ.

[الرَّفع والوضع]

وأيضاً: اعلم أنَّ الرَّفع والوضع حقيقتانِ لهما تأثير عظيمٌ. الرَّفع يكون في الحسّ ويكون في المعنى، والوضع كذلك أيضاً، يكون في الحس ويكون في المعنى. صاحب الرفع تعظم مادَّته على قدر رفعِهِ وتضعف مادَّته على قدر ضعفه. وصاحب الوضع بالعكس، تعظم مادَّته على قدر وَضْعِهِ وتضعف على قدر رفعهِ. صاحب الرفع إذا جلس على كرسي تكون مادَّته أقوى من أن يكون جالساً على الأرض. وصاحب الوضع إذا جلس على الأرض تكون مادَّته أقوى من أن يكون جالساً على كرسي. صاحب الرفع ولو رُفِع مقدار عَرْضِ الأصبع حسّاً أو معنى تتسع مادَّته على قدر ذلك.

وصاحب الوضع، لو وُضع مقدار أُصْبُعٍ حسّاً أو معنىً، اتَّسَعت مادته على قدر ذلك. إلاَّ أن صاحب الرفع يضاف لجهة الفَرْقِ أكثر من جهة الجمع.

وصاحب الوضع يضاف لجهة الجمع أكثر من جهة الفرق. وصاحب الفرق مُقطوع وصاحب الجمع موصول، فلأجل هذا المعنى تجد هؤلاء المشايخ رضي الله عنهم يتبعُونَ سنَّة النبي ﷺ في الوضع ولا يدلون مُريدهُمْ إلاَّ عليه، لأنَّ النبي ﷺ كان مُرَبِّياً للإنس والجِنّ، وكانت سنّته فيهم كقوله: «اللَّهُم أحْيني مسكيناً، وأمِتْني مسكيناً، واحْشرني من زُمْرَة المساكين». أو كما قال، مع أنه غفر الله ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر. وأخبره الله تعالى بأنه أفضل ولد آدم، ومع هذا، كان ﷺ متواضِعاً لأنَّه كان مُرَبياً. فلهذا تجد هؤلاء المشايخ المربين لا يدلُّون أصحابهم إلاَّ على الوضع. كقول الشاذلي: واجعلنا عبيداً لك في جميع الحالات. وانظر قول الششتري:

غنائي في فقري وعِزّي في ذُلّي

وانظر قول ابن الفارض:

وأعْجَب شيءٍ كُلَّما زدتَ ذُلَّة إليهم أرَى قَدْرِي في النَّاس بهِمْ يَعْلُو

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القَصَص: الآية 5].

[ميراث الخصوصية]

وأيضاً: الخصوصية تُخصَر في ثلاثة أوجهٍ، تكون كسْبية، وتكون وهْبية، وتكون ميراثاً. سَمِعْتها من الشيخ، نفعنا الله به.

[تلوّن الولي]

وأيضاً: من الناس من تقابله بالجِدّ فيقابلك بالهَزْلِ، وإذا قابلته بالهزل قابلك

بالجدِّ. ومن الناس من هو بعكس هذا، إذا قابلته بالجدِّ قابلَكَ بهِ، وإذا قابلته بالهَزْلِ قابلكَ به. والعارف يتلوّن مع كل واحدٍ على لوْنِهِ. والتلوّن صفة من صفات الكُمَّل. نفعنا الله بهم. قال الششتري:

وغـــايــتــي فـــي الـــحـــبِّ أنْ أتـــلَـــوَّن

وقال بعض العارفين رضي الله عنهم: ولي الله الكامل يتطوَّر بجميع الأطْوارِ ليقضي سَائر الأطوار.

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الدّنيا لا يتم ظهوره ويمتاز قدره وشرفه من غيره، حتى يجد أهل فنهِ. وهكذا عزّ كل واحد بفنّه لا يظفر به حتى يجد أهل فَنِّهِ إذا انْطِخ في أهل محَبتي يعلمني جُملْ بِقُبتي، وإذا انطِخ في غَيْرْ أهْلْ مُحْبتي يعلمني خمار بقرْبْتي.

[الإنسان عريس الوجود]

وأيضاً: انظر يا أخي قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية 113] . مِنْ جُملة فضل الله وإحسانه على عبده الإنسان أن جعله عريس الوجود، سلطان المملكة الرَّبَّانية، والأكوان كلها عبيد له، متعلقة به، ذليلة بين يديه، عاشقة له، عند أمرهِ ونَهيه. ومن جملة مِنَّتِه عليه أيضاً: أن جعله يتقلَّب في النِّعَمِ دائماً، ظاهراً وباطِناً، حسّاً ومَعنىً. والنِّعَم الظاهرية لا تكمل له حتى تصير باطنيةً، والباطنية لا تكمل له حتى تصير ظاهرة. والنِعَم الحسية لا تكمل له حتى تصير معنوية. والمعنوية لا تكمل له حتى تصير حسية، وهكذا هو دائماً. وهذا المعنى عند عامة الناس من العجائب، كَوْن الظاهر يرجع باطِناً والباطن يصير ظاهراً. والمعنى تنقلب حسّاً والحسّ ينقلب معنىً. مع أن هذا، إذا هم يتقلبون فيه دائماً صباحاً ومساءً ولكن لا يعلمون. سبحان من خصَّ بما خصَّ، وعمّ بما عَمّ، سبحان الحكيم العليم، سبحان من شَرَّف أهل العلم بأنوار المعرفة. قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 9] ، وقال جلَّ من قائِلٍ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية 28] .

[صاحب الحقيقة منكور عند جميع الخلائق: موسى والخضر]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الحقيقة منكور عند جميع الخلائق، إلاَّ القليل من الناس. انظر نبيَّ الله موسى عليه السلام، وقد سمَّاه الله تعالى في كتابه «القويّ الأمينُ» وكلَّمه الله تعالى تكليماً منه إليه بغير واسطة، وأخبره الله تعالى أن عبده الخضر أعلم منه، ومع هذا، لما رأى أنوار شموس الحقيقة لاحَتْ في الخَضِر، لم يستطع الصَّبْر وأنكره أوّلاً وثانياً وثالثاً.

إذا كان سيدنا موسى بجلال قدره، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، لم يستطع الصَّبْر لما تبدَّتْ له أنوار الحقيقة فكيف بالضعفاء؟.

[ملوك الظاهر يتصرفون بالظاهر وملوك الباطن يتصرفون بالباطن]

وأيضاً: اعلم أن ملوك الظاهر هم الذين يتصرفون بالظاهر. وملوك الباطن هم الذين يتصرفون بالباطن. وكما أن أهل الظاهر لهم خلائقٍ وأعوان وشُرَط، كذلك أهل الباطن، لهم خلائق وأعوان وشُرَط. وأهل الظاهر لا يثبت ملكهم ولا يستقيم أمرهم إلا بموافقة أهل المُلكِ الباطني، وكذلك أهل الباطِن لايثبت ملكهم ولا يستقيم أمرهم إلاَّ بموافقة أهل الظاهر، وهكذا. وهذا الارتباط أصلي أزلي قديم. وهذا مما يدلك أن الملك لله وحده ولا في الوجود إلاَّ الله، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان.

[من وصل إلى حقيقة العبودية لا يحتاج لأحد من الخلق]

وأيضاً: اعلم أنَّ من وصل إلى حقيقة العبودية لا يحتاج لأحدٍ من الخلق أبداً، وهذه المرتبة حصولها يستلزم ضدها، وضدها مَن لم يحتج لجميع الخلائق، وكان مستغنياً بمولاه عنهم. ما بعد هذه المرتبة إلاَّ احتياج جميع الخلائق إليه، لأنَّ مَنْ لم تتوقف له حاجة عند الخلق تتوقف عنده حوائج جميع الخلق، لأنَّ الارتباط لا بد منه إما من جهته يكون طالباً للخَلْقِ، أو مِنْ جهة الخلقِ، يكونون طالبين له. الارتباط لا يخلو إما من جهته للخلق أو يكون من جِهَةِ الخلق له. ومن كانت فيه هذه المزية يكون إبراهمياً، لأنَّ سيّدنا إبراهيم لما قال له سيدنا جبريل: ألكَ حاجة؟ قال له: أما عندك فلا، وأمَّا عند الله بَلَى. فقال له: اطلبْه إذاً. فقال له: عِلمه بحالي يغنيني عن سؤالي. هذا وهو في المنجنيق، وفي أضيق حالة، ومع هذا، لم يَحْتَجْ إلاَّ لمولاه عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وحينئذ غيَّبَتْهُ حلاوة مشاهدة مولاه عن كل ما وقع به، ولم يُبَالِ بذلك، ولم يلتفت إلا لمولاه.

[علاج الضر]

وأيضاً: اعلم أنَّ الضرَّ كله حِسّي، أو معنوي، لا يعالج إلاَّ بقُرْبِ العهد. وأما إذا طال فيضعف عِلاجُهُ، حتى لا ينفع فيه علاج. الأضرار في نزولها مثل الأشجار أولاً تكون صغيرة تعالج ما لم تمدّ عروقها وتسْكن، وأمَّا إذا مدَّت عروقها وسكَنَتْ، واستقرت في الإنسان، فإن علاجها يصعب. قليلاً ما تعالجُ. هذا في الحسِّ وفي المعنى.

[المريد مع شيخه كالصبي مع أمه]

وأيضاً: المريد في ملاقاته مع الشيخ، مثل الصبي مع أُمِّهِ، بنفس ما تُنَزِّله في حُجْرها يتكوَّن اللَّبَنُ في ثَدْيِهَا. وسبب ذلك هو قربه منها، ولولا قربه منها لم تجد في ثديها لَبَناً. كذلك الشيخ، بسبب جلوس المُريد بين يديه يتكوَّن اللبن في ثَدْي الشيخ، ولولا قُرب المريدين من الشيخ ربما لم يكن ذلك.

[الفقير الذي يخاف من الخلق ليس بفقير]

وأيضاً: اعلم أن الفقير الذي يكون عنده خوف من الخلق، أو يخاف من شيءٍ يخوّفه مِنَ الخلق ليس بفقير، وإنما الفقير هو الذي يكون كما قال سيدي محمد بن عبد الله، نفعنا الله به، قال: الفقير هو الذي يكون مثل العَظم الراشي، لا يَجِدُ فيه الكلابِ رائحةَ الدَّمِ، وإنما ينظرون فيه من بعيدٍ ولا يقرّبُونه. والفقير حقاً لا ينكر شيئاً ولا يفزعه شيءٌ من عوائِدِ النُّفُوس التي تفزع من السفليات، وتحْذر الوقوع فيها. والفقير المخصوص هو الذي ريَّض نفسه على السفليات حتى لا تنكر نفسه شيئاً منها، كما ريَّض نفسه على العلويات حتى لا تنكر نفسه شيئاً منها. حتى صارت عنده السفليّات والعلويات كأنها شيء واحدٌ، مثله كَرَجُل يصطاد بالأسد، لا يبقى له في الغابة شيء يخاف منه. كما قال بعضهم:

والـلّـهِ لـو خُيِّرْتُ بَيْنَ الـجنَّة والـنَّار ... مـا اخْـتَـرْت واحـدة مِـنْـهُـمـا

[الذل والعز والفقد والوجد]

وأيضاً: اعلم أنَّه كما أنَّ الحديد لا يُخدم ولا يلين إلاَّ بالنار، كذلك القلوب لا تخدم ولا تلين إلاَّ بالنار المعنوية، وهي الذّلّ. قال الشاذلي رضي الله عنه: اللَّهُمَّ إنَّ القَوْم قد حكمت عليهم بالذّلّ حتَّى عَزُّوا، وحكَمْت عليهم بالفقدِ حتى وَجَدُوا. وقال الشاعر:

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الهَوَى سَهْلُ ... إذَا رَضِيَ المَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الوَصْلُ
تَـذَلَّـلْ لَـهُ تَـحْـظَ بـرُؤْيَـا جَـمَـالِـهِ ... فَفِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الفَرَائِضُ والنَّفْلُ

[أهل طريقتنا يعقدون بكلمة ويحلون بكلمة]

وأيضاً: طريقتنا هذه، أهلها ملوكٌ، يعقدون بكلمة، ويحلون بكلمة. ويرفعون بكلمة، ويضعون بكلمة، ويُولّون بكلمة، وينزعون بكلمةٍ، وذلك لأنهم أهل معانٍ، تصرفهم كله معانٍ.

[مفاتح الأشياء وأضدادها]

وأيضاً: حكمة أصلية، وهي: أن مفاتِح الأشياء هي أضدادها، إذا أرَدت أنْ تَمْلِك كبار الأشياء عليك بأصغرها، وإذا أردت أن تملك أصغر الأشياء عليك بأكبرها. أعلى شيء يوجد في أدنى شيء، وأدنى شيء يوجد في أعلى شيءٍ كأن الأمر مُرْتبط بعضه ببعضٍ.

[نفسك تعدل الوجود وما فيه يعدل نفسك]

وأيضاً: اعلم يا أخي، أنَّ نفسك تَعْدِل الوجود، وما فيه يعدل نفسك. صار الوجود مقابِلاً لنفسك، ونفسك مقابلة للوجودِ. قال سيدي عبد القادر الجيلاني في بعض كلامِهِ:

ونَفْسُك تَحْوِي بالحقيقةِ كُلَّها أشرت بجِدِّ القَولِ ما أنا خَادِعُ

وكُلُّ ما هو جمال لنفسِكَ، فهو جلال للوجود. وكل ما هو جلال لنفسك فهو جمال للوجود. وأنت أبداً راتِع بين عبوديتين: عبودية الله في الخلقِ، وعبودية الخلق منك إليه. عبودية الله في الخلق فِرْقَتين، وهي: عبودية الله في نفسك وعبودية الله في الوجود، وعبودية الخالق جَمْعٌ. إذا نظرت إلى الفرْقِ وجدته لا جمع فيه، وإذا نظرت إلى الجمع وجدته لا فَرْق فيه، وإذا حققت وجدت الفَرْق هو عين الجمع، والجمع هو عيْن الفرْقِ، ولا ثَمَّ إلاَّ المالكِ الحق.

العارفُ بالله يكون عبداً لله في هذه الثلاث وجوه من العبودية، والجاهل عبْد لنفسِهِ فيها بالثلاث.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية 257] .

[أقسام الذكر]

وأيضاً: اعلم أنَّ الذِّكرِ على قسمين: ذِكر باطني فِكْري، وذكر ظاهري جهري. الفِكري لا يطلقك إلا في الجهر، والذكر الجهري لا يطلقك إلاَّ في الذِّكر الفِكري. ولا شيء في الوجود أعلى وأشرف منهما باثنين. والخصوصية كلها: ظاهرية وباطنية إنما هي ذِكر الله. أهل الخصوصية الظاهرية أهل الذِّكر الجَهْري، وهو ذِكر اللسان، وأهل الخصوصية الباطنية أهل الذِّكر القلبي المعنوي، وهو الذِّكر الفِكْري. إلاَّ أن أهل ذِكر اللسان محجوبون بمشاهدة الاسم عن مشاهدة الذاتِ.

وأهل القلوب غابوا في مشاهدة الذَّاتِ عن مشاهدة الاسم. هذا هو الفرْق بين أهل الذِكر الباطني وأهل الذكر الظاهري.

صار أهل الذكر الظاهري محجوبين بالاسم عن مشاهدة الذَّاتِ، وأهل الذكر الباطني محجوبين عن الاسم بمشاهدة الذَّاتِ. والماءُ واحدٌ والزَّهْرُ ألْوَانٌ.

[لذيذ القرب]

وأيضاً: اعلم أنه لا شيء في الوجود أطيَب وأحْسَن من لذيذ القُرْبِ والبُعْد والجمع والفرْق، لا تحصل نغمات القرْب والبعد إلاَّ لصاحب المَعْرفة بالله، كأنَّ هذه المعاني هي أساس المعرفة بالله، وعليها تنشأ وتُبْنَى.

[المشتغل ببدنه أو بقلبه]

وأيضاً: اعلم أنَّ المشتغل ببدنه لا يشتغل بقلبه، كما أن المشتغل بقلبه لا يشتغل ببدنه، جَرَتْ سُنَّة الله بذلك. سواء كان شغل البدن خيْري أو شرّي، أو شغل القلب خيري أو شري، إذا توجَّهت إلى الحس سكَنت المعاني، وإذا توجَّهت إلى المعاني سكن الحسُّ. والإنسان مشتغل أبداً على الدوام إلا أنه تارة في الحسِّ، وتارة في المَعْنى، وتارة في الظاهر، وتارة في الباطِن، وتارة في اليقظة، وتارة في النَّوم، وتارةً مع نفسه، وتارة مع جِنْسِهِ، وتارة في الحيوانات، وتارة في الجماداتِ، وتارة في الدنيا، وتارة في الآخرة.

[أثمار العلم في النفوس]

وأيضاً: أثمارُ العلم في النُفُوس، تُقابلها أثمار الغرس في الوجود. وكل من رَيَّض نفسه على أكل ثمار المعاني وهو العالم اللَّدُني لا يَعْبأ بأثمار الحسِّ وهو ثمارُ الأغراس. وكذلك مَنْ رَيَّض نفسه على أكل ثِمارِ الحسِّ فإنَّه لا يعبأ بثمار المعاني.

مِنَ الناس من غَلَبَتْ عليه المعاني، فهم من أهْلِهَا، ومن الناس من غلَبَ عليه الحسُّ فهو من أهلِهِ. والناس كلهم محصورون في هذين الوصفين.

[نتائج التجريد]

وأيضاً: لمَّا أدخلني الشيخ، نفعنا الله به، بلاد الأفعال، أول ما أمرني به التجريد من الثياب، ثم بعد ذلك أمرني بالسعاية في الأسواق، ثم بعد ذلك أمرني أن أنفق من ذلك ليلتين بالمعروف، وأتصدق بما يَبْقَى، ولا أدَّخِرُ ليَوْمِي لِغَدٍ، ولا أَبِيتُ ومعي

دِرْهم أمْلكه على وجه الأرض. فلمَّا حصَّلْت على هذه الثلاثة منازل، واستقررت فيهنَّ، ما بقي لي بعدهنَّ إلاَّ النتائج. قد شَرِبْت ظاهراً وباطِناً حسّاً ومَعنىً. المِنَّة لكم ولسادتِنا الرجال، شرَّفنا الله بذِكْرِهم. آمين.

[أهل التجريد مُلوك وأهل السلوك مَمالِك]

وأيضاً: كما أنَّ أهل المخزن ملوك على العامَّة، والعامَّة رَعية لهم، كذلك أهل التجريد ملوكٌ على أهل السلوك، وأهل السلوك رعية لهم. أهل المخزن، ملوك العامَّةِ، وأهل التجريد ملوك الخاصَّةِ. أهلُ المخزن كانوا ملوكاً بحقيقة ظلمانية بشرية فَرْقِي. وأهل التجريد كانوا ملوكاً بحقيقة نورانية، جمع. صاحب التجريد كمن مَلِكَ بلاداً يَحْرثُها وهي على السَّقي، يحرث فيها أبداً ما شاء، وصاحب السلوك كمن يحرُث في بلاد البُعْل. لذلك كان صاحب التجريد مَلِكاً وصاحب السلوك مملوكاً. وكذلك المخزن، مثله كمن مَلَكَ بلاد السَّقي. والعامَّة كمن يحرثُ بلاد البَعْل، بذلك صار المخزن مَلِكاً والعامَّة مَمَالكَ، صار حكم صاحب المخزن وهو حكم صاحب التجريد، كلهم أهل حقائق إلاَّ أنَّ صاحبَ التجريد مُلكه بالله وصاحب المخزن ملكه بالمخلوقِ، وإن كان في الحقيقة الكل بالله ولله.

[ثمار خرق العادة]

وأيضاً: قال صاحب الحِكَم: كيف تُخْرق لك العوائد وأنت لَمْ تَخرِق من نفسك العوائد. هذا دليل على أنَّ خرْق العادة يكون من جهة العَبْدِ، ويكون من الحق. خرق العادة من العَبْد لا يكمل إلاَّ بالمشاهدة كما أنَّ المشاهدة لا تكمل إلاَّ بخرق العادة من جهة العبد. وذلك لأنَّ الشاغل والمشتغل به في الحقيقة واحدٌ، قائم بنفسه لنفسه في نفسه. قال بعض الشعراء:

لَيْسَ المحب محباً لِحَبِيبِهِ حتى تكون صفاته كَصِفَاتِهِ

فهناك يَعْلَمُ أنَّ روحهُ مِنْ رُوحِهِ، وذاتهُ من ذاتِهِ.

[من جاء يطلب الجدّ ألقه في ضده]

وأيضاً: مَنْ جَاءَكَ يطلب منك الجدَّ، أَلْقِهِ في المُزاحِ، ومن جاءَك يطلب منك الصلاح أَلْقه في الفسادِ، لأن الضِّد لا يخرج إلاَّ من ضِدِّهِ. ومن أراد أن يخرِّج الجد من الجدّ، أو الصلاح من الصلاح فهو تَالِف عن الطريق، جرت سُنَّة الله تعالى أن يخرج الحيَّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ. وهذا القياس لا يعرفه إلاَّ المحققون

من أرباب الفنّ، وهذه المعنى موجودة في العوائد كما هي في خَرْق العوائد كلها، لا يخرج صَلاَح إلاّ من فَسَادٍ، ولكنَّ الفساد على قسمين: فسادٌ يكون على نظر عارف حكيم، فهذا هو عيْن الصلاح الحقيقي. والفساد الآخر يحصل عن جَهْلٍ. فهذا هو الفساد الحقيقي.

الفساد الذي يكون على نَظَر الحكيم تجد الأشياء قبل أن يفسدها الحكيم، لها شرفٌ واحِدٌ وبعد أن يُفسدها الحكيمُ ربما يحصل لها بسبب إفساده لها ألْف شَرَفٍ. والفسَادُ الآخر بالعلم يكون لها شرف، وإذا أُفسِدَتْ عن جَهْلٍ يَذْهَب ذلك الشَّرَف ويَبْقى الفساد.

[العلم خبر بالفن والعمل هو الفنّ]

وأيضاً: العلم: إخبارٌ بالفَنِّ، والعمل هو الفَنُّ بِنَفْسِهِ. كأنَّ العِلم بمنزلة روح الإنسان والعمل بمنزلة الجسدِ. والجسد هو الإنسان بنفسه، مع أن الجسد بلا روح لا عبرة له، كذلك العمل بلا عِلم لا عِبْرَة به. صار الأمر إذا وجد العلم والعملُ قام وجود الفنّ وإذا لم يوجد العلم والعمل لا وجود للفَنِّ. كما أن الإنسان إذا وُجِد جَسَدٌ برُوحٍ وُجدِ الإنسان وإذا لم يُوجد الجسَد والرُّوح فلا إنسان ولا وجود.

[طريقتنا طريق التجريد من الدنيا والزهد فيها؛ وهي طريقة الرسول ﷺ]

وأيضاً: كنت جالساً مع الشيخ، نفعنا الله به، فسأله رجل فقال: يا سيدي، طريقتكم هذه ما سَمِعْنَا من قال بها مِنَ الناس، أخبرني أي طريق هي؟ فأجابه الشيخ، بأن قال له: طريقتنا هذه هي الطريق التي كان عليها النبيّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكافَّة الصحابة، رزقنا الله محبّتهم.

طريقتنا هذه طريق التجريد من الدنيا والزّهد فيها، والنبي ﷺ هو إمام الزّاهدين، وقدوة المحققين. ومن جملة ما قال له: والله يا ولدي، إنَّ طريقتنا هذه للبادىء المتوجه إلى الله كمن هو مقيد بِحبْل متين موثق به، وهذا الطريق كأنها سكين مطحنة تقطع بها تلك الأحبال كلها، ولا وجدنا طريقاً أسرع منها وأنفد وأقرب وأبلغ في الطرق كلها من الطريقة الشاذلية، التي تقوم عليها الساعة ولا تنقطع أبداً. نَفَعَنا الله برجالها، وجعلنا في زمرتهم في الدنيا والآخرة بفضله وإحسانه.

[الحرُّ من خرج عن الاختيار والعبد من وقف مع الاختيار]

وأيضاً: أنت حرٌّ من الأحرارِ ما لَمْ تُرِدْ وتختار، وكل من يختار ويُريد يجد نَفْسه

عبْداً من العَبِيدِ. من عادته تعالى مع عبده: ما اتصَفْتَ بأوصاف العبيدِ إلاَّ وجدت نفسك من الأحْرار، ولا اتَّصَفْتَ بأوصاف الأحرار إلاَّ وجدت نفسك من العبيد. كأنَّ الشيء كامِن في ضِدِّهِ.

[اجتماع الظاهر بافتراق الباطن وبالعكس]

وأيضاً: كل من يجتمع باطنُهُ لا بُدَّ أن يفترق ظاهره، وكلُّ من يجتمع ظاهره لا بد أن يفترق باطنه، لأنَّ الفَرْق لا يكون بلا جمع كما أن الجمع لا يكون بلا فَرْقٍ. هكذا جَرَتْ سنة الله في الوجود، والخير كله مجتمع في صحبة العبد مع نفسه، ولا يجد الإنسان السَّبيل لمُصاحبة نفسه إلاَّ بدوام القُرْب مع رؤسَاء أهل فنِّه، يعني بمصاحبتهم. اختَرْ لصحبتك من أطاع، إنَّ الطباعَ تَسْرِقُ الطباعَ.

[صاحب الجلال أو الجمال يملك الجلال]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الجَلالِ الكاملِ، يملك الوجود بأسره. وكذلك صاحب الجمال الكامل يملكُ الوجود بأسره، لأن الجليل هو الجميل والجميل هو الجليل، ولا يدخل الفساد على الإنسان إلاَّ مِنَ الفِسْقِ، والفسْق هو التخليط وكل وجهة وفَّيْت لها حَقَّها كامِلاً، توفيك حقك كاملاً، وكل وجهة لم توفِّ لها حقها كذلك هي لا توفِي لك حقَّك. الوجود كالمرآة بما تقابِلُهُ يُقَابِلك، لا زائد. إن قابلته بالكمال قابلك بهِ، وإن قابلته بالنقص قابلك به، من غير زيادة ولا نقصانٍ.

[عمل الظاهر والباطن والتصرف في الوجود]

وأيضاً: اعلم أنَّ الظاهر كله تسعة وتسعين قِسْمَة من العمل وقسْمة من العلم. والباطن بالعكس كأنه أخذ أيضاً تسعة وتسعين قسمة من العلمِ وقسمة من العمل. والتصرف ما هو إلاَّ عند أربعة فِرَق من الناس، فِرْقتان: أهل علمِ الظاهر، وأهل عمل الظاهر. وفِرْقتان: أهل علم الباطن وهو علم الأذواق، وفرْقة أهل عمل الباطن، وهم أهل التجريد. وإن شئت قلت: أهل حسّ الظاهر، وأهل معاني الظاهر، وأهل حس الباطن، وأهل معاني الباطن، هؤلاء الأربعة فِرق هُمْ أهل التصرف في الوجودِ، لا أحد سِوَاهُمْ.

[العارف استوت عنده الأشياء وأضدادها]

وأيضاً: العامَّة هم عوام المسلمين، مُنْهَمكون في الأشياء وفي أضدادها، بِجَهْلِ

وعدم المعرفة. والخاصّة هم الذين وقفوا مع ما حَلَّ لهم الشرع؛ وهو النبي ﷺ يحلّون الحلال ويفعلونه ويحرّمون الحرام ويجتنبونه ويتركونه. وخاصّة الخاصّة: هم الذين استوت عندهم الأشياء وأضدادها بعلم ومعرفة، ولا تقف هِمَمُهم مع شيءٍ سوى مولاهم أبداً، أقوالهم وأفعالهم كلها بالله، ولله، ومن الله، ولا يشهدون أبداً سِوَاهُ.

[وجوب خرق العوائد]

وأيضاً: اعلم أنه ما مِن نبيٍّ مُرسل ولا وليّ مُرَبّي، إلاَّ وأول ما يأمُر الذين اتّبعوه من الناس بخرق العوائد التي يجدهم عليها. وفي الأصل، الحقيقة كلها خرق عوائد وخرق العادة لا بد منه لكل موجودٍ، ولكن شتَّان بين من يأتيها عارفاً طائعاً وبين من يأتيها جاهلاً عاصياً. وكل من خرق العادة لأجل شيءٍ أو في طلب شيءٍ، يظفر به على كل حالٍ.

قال صاحب الحِكَمْ: كيف تُخرقُ لك العوائد وأنت لم تُخرِقْ من نفسك العوائد. وخَرْق العادة يكون بالقوة قهراً أو بالحكمة إرادة، والحِكمة والقدرة كلاهما وصف المولى، جلَّ ثناؤُهُ، الفرق من عيْن الحكم، والاكتساب من عيْن الحكمة، والكلّ من الله وإليه.

[مرصد التجليات]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان من جملة كماله أن جعله مَرْصداً لتجلياته. ومن جملة تجلياته، تجلّي الحسِّ وتجلّي المعاني، وهذه التجليات إنما هي تجليات واردات تترادف على الإنسان، متواترة شيئاً فشيئاً، وهي لا تدفع ولا ترتبط ولا تنحدر أبداً جارية على الإنسان كمياه النّهرِ، الماءُ الذي يأتي ينصرف ولا يعود أبداً ولا ينفد أبداً، رَاحِل قاطِن أبداً.

كذلك جعل الله التجليات، ترد على الإنسان وترحل أبداً، ولا تنفد أبداً، ومن أراد أن يقف معها أو أراد هو أن تقِفَ هي معه، فهو أراد أن يفعل شيئاً لم يخلقه الله تعالى، كمن جاء إلى نَهرٍ قويٍّ وأراد حَصْرَه فإنه لا يَقْدِرُ، ولو أعانه عليه جميع الخلق. قال صاحب الحِكَم: أوْرَد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً.

[من يقول للشيء كن فيكون]

وأيضاً: اعلم أنَّ لطالب هذه الطريقة الشاذلية منزلة يكون فيها بأمر الله. يقول للشيء كن فيكون.

أولاً يَصِلها بالحكمة ذُلاً، وثانياً: يصلها بالقدرة عِزاً. ونهايته يخرج عنها ذُلاً، ويخرج عنها عِزاً، ولا يبقى إلا بمولاه، ومع مولاه وفيما أقامه مولاه. فعند ذلك يحصِّل على الملك الباقي الذي لا يزول ولا يحول أبداً. إذا تكلَّم تكلَّم بالله وإذا تحرَّك تحرك بالله، ويشهد مولاه ويناجيه بلا واسطة. وبعد هذه المنزلة أيضاً يزيد إلى منزلة أرفع من هذه وهي منزلة الرجوع إلى عامة المسلمين. يا له من رجوع، رجوع بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. ومن هذا المقام يترقَّى وهو يَسْلك مقامات اليقين مقاماً مقاماً كسلوك الشمس في منازلها. نسأل الله تعالى أن يسقينا من ماء الاستقامة.

[من ادَّعى الجمع دون الفرق ادَّعى البطلان]

وأيضاً: من ادَّعى الجمع دون الفَرْق، فقد ادَّعى بطلان العبودية، وذلك محال. ومن ادعى الفَرْق دون الجمع فقد ادَّعى بطلان الرُّبوبية وهذا هو عين المحال. ومن ادَّعى الفرق عيْن الجمع والجمع عين الفرق فقد وجد مولاه وتحقق، وحصَّل على عين الكمال، هي الوحدانية والفردانية، لأنَّ الرُّبوبية لا بد لها من عبودية والعبودية لا بد لها من رُبوبية ولو كان غير هذا لدخل النقصُ. والنقص محالٌ، لأنَّ بين العبودية والرُّبوبية تحقُّق من تحقق وتفسَّق من تفَسَّق.

[الجوع والشبع في المعاني]

وأيضاً: اعلم أن صاحب المعاني المقتات بها يحصل له الجوع منها، كما يَحْصُل الجوع والشبع لصاحب الأكل والشرب. وكما أن الجوع والشبع يَحْصُل للصغير والكبير كذلك الجوع والشبع بالمعاني يحصل للصغير وهو المريد، ويحصل للكبير وهو الشيخ. ولأجل هذه المعاني تجد الشيخ يحتاج للمريد كما يحتاج المريد للشيخ أو أكثر، لأنَّ الشيخ تارة يُسْقى من آنية المريد، وهو ساعة جوع الشيخ، وتارة المريد يسْقي من آنية الشيخ، لأنها ساعة جوع المريد. وإذا اجتمع الشيخ مع المريد لا بد أن يكون الشيخ شبعاناً والمريد جيعاناً أو الشيخ جيعان والمريد شبعان، لا يخلو. ومهما تلاقيا: عالِمٌ ومُتَعَلِّم، تتنوَّر بصيرة الجيعان منهما من بصيرة الشبعان، فتصير نفسهما واحدة. وهذا الاختلاف لا بد منه.

[ما اتخذ المشايخ الأقدمون الزوايا
إلا لملاقات الرجال ومباشرتهم]

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118] ولأجل هذا المعنى اتخذ

المشايخ المتقدمون رضي الله عنهم هذه الزوايا وداوموا الجلوس فيها لملاقاة الرجال ومباشرتهم. ولولا هذا ما احتاجوا إلى شيء من ذلك. جعلنا الله من السالكين على مِنهجهم القويم بفضله وإحسانه، وكلامُنا هذا ليس على علم الكُتب، وإنما هو على علم القلوب، علم الأذواق والمعارف والأسرار. ويقال له علم الإلهام. جعلنا الله من أهله بفضله وإحسانه.

[المخزن ولمن لا يخاف منه]

وأيضاً: اعلم أنَّ المخزن كالأسد، يُبْهِتُ من لقِيَهُ من الخلقِ ويفجعُهُ ويتلفه عن عقله بنتنِ رائحته، إلاَّ الأقوياء من الرجال الذين لا يعبؤون بوجوده ولا بعدمِهِ. وإن كان أعلى من الجبل؛ وهم العارفون بالله رضي الله عنهم، وذلك لأنهم يشهدون مولاهم في كل حالٍ، ومولاهم هو العظيم. ومهما تجلّى لهم العظيم يَصْغر لديهم كل عظيم من الخلقِ، ويذهب ويتلاشى ولا يَبْقَى إلاَّ الحق.

[الحقائق كلها نشأت من حكمة وقدرة]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقائق كلها نشأت وتبدَّعَتْ مِن حِكمَةٍ وقُدْرَةٍ. القدرة للحقائق العلوية، والحِكمة للحقائق السّفلية. والكل من الله وإليه. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: الآية 84].

[الاختلاف في الأقوال والأفعال]

وأيضاً: اعلم أنَّ من جُمْلة إتقانِ صُنْعِ الله في الإنسان، أن جعله مختلفاً في أقواله، وفي أفعاله وأحواله، وفي ذاته وفي صفاتِهِ، وفي جدِّه وفي هَزْلِهِ، وفي خيْره وفي شرِّه، وفي خلْقه وفي خُلُقِهِ، وفي ظاهرِهِ وفي باطِنِهِ، وفي عُلوِّهِ وفي سُفلِهِ، وفي حسِّهِ وفي مَعْنَاهُ إلى ما ليس له حَصْرٌ. ومن ذلك الاختلاف، أن جعله تَرِد عليه أحوال مختلفة، الخير فيها يتلفه عن الخير، ويجمعه على الشر. وأحوال الشر فيها يتلفه عن الشر ويجمعه على الخير، وبالعكس، الخير فيها يتلفه عن الشر ويجمعه على الخير. وأحوال الشر فيها يتلفه عن الخير ويجمعه على الشرّ إلى ما لا نهاية له. وذلك ﴿لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطّلاق: الآية 12].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118] سبحان الحكيم العليم.

[أفضل المجالس مجالس الضعفاء]

وأيضاً: اعلم أنه لا شيء في الوجود أفضل من مجالسة الضعفاء الطالبين للزيادة

من أهل الظاهر، ومن أهل الباطن، لأن عادة الله في جميع خلقِهِ من طلب الزيادة طلبته الزيادة، ومن استغنى عنها استغنت عنه. قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ [مريَم: الآية 76]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبَة: الآية 60] لأنَّ القانع لا نصيب له في الزيادة، ومهما غابت الزيادة ظهر النقص.

[القناعة من الله حرمان]

القناعة من الله حرمان، قال الششتري رحمه الله في بعض كلامه: من لا هو في زيادة فهو في نقصانٍ. انظر قول النبي ﷺ: «كل المجلسيْن حسن، ولكن هؤلاء أُمِرْتُ أن أجلس معهم»، وجلس مع الفقراء. أو كما قال ﷺ.

وقوله أيضاً: «اللَّهم أحيِنِي مِسْكيناً وأمِتْنِي مِسْكيناً، واحْشُرْنِي في زُمْرَة المساكين»، أو كما قال ﷺ.

لأجل هذا المعنى تجد العارفين بالله لا ينكرون الأغنياء ويجالسون الضعفاء. ولا شك أنَّ أساس الطلوع هو النزول وعلى قدر النزول يكون الطلوع. كما أنَّ أساس النزول هو الطلوع وعلى قدر الطلوع يكون النزول، وهكذا.

[أفضل التذلل تذللك لنفسك]

وأيضاً: اعلم أنه لا شيء في الوجود أفضل من تذلُّلِكَ لنَفْسِك، ولا شيء في الوجود أيضاً أفضل لك من كثرة الطمع في نفسك، ولا تحصل لك نتيجة هذا المعنى حتى تحصل لك معرفة نَفْسِك. قال ﷺ: «من عَرَفَ نَفْسه عرَف ربَّهُ».

[أصل كل خير مجالسة العارفين]

وأيضاً: اعلم أنَّ مجالسة الرجال العارفين بالله هي أصل كل أصلٍ لأنك بالمجالسة يحصل لك العلم، وبالعمل تحصل لك المعرفة، وبالمعرفة يحصل لك التعظيم، وبالتعظيم يبطل الإنكار، وببطلان الإنكار يحصل لك الإقرار، وبالإقرار تحصل لك الألفة، وبالألفة يحصل لك أن تقول بأمْرِ الله تعالى للشيءِ كن فيكون. وما ذلك على الله بعزيز.

[مثل المخزن كالشجرة العظيمة]

وأيضاً: مثل المخزن كالشجرة العظيمة، لا يمكن للنجّار أن يظفر بها ويتصرف فيها إلاَّ إذا جاءها من أسفل، كذلك المخزن لا تظفر به وتتصرَّف فيه بمشيئتك إلاَّ إذا

جئته من أسفل. ولا شك أن الريح السّفلي يَغْلب الريح الفوقي على كل حال. وسمعت الشيخ نفعنا الله به يقول: المجذوب الحقيقي يَطْمَعُ في الخلق كلهم، وليس طمعه إلاَّ في مولاهُ. ويتذلل لجميع الخلق وليس تذلّله إلاَّ لمَوْلاه.

[ظهور القدرة بين وجود وعدم. والعارفون أبداً سائرون في مراد الله لا على مرادهم]

وأيضاً: اعلم أنَّ القدرة ما ظهرت بكمالها إلاَّ بين وجودٍ وعدَم، في جميع الحسيات والمعنويات، كأنَّ كمال الوجود نصف ظهورها، وكمال العَدمِ النصف الآخر. ومهما ظهر كمال الوجود وكمال العدم في شيءٍ فذلك هو كمال ظهور القدرة. ومهما ظهر الوجود لا يظهر بعده إلاَّ العدم. وكذلك ما ظهر العدم إلا ويظهر بعده الوجود. ولا يدري التصرف بالوجودِ والعدمِ إلاَّ من حصلت له المحبوبية وقليل ما هم؛ لأنَّ العرف عند المحققين هو أن الأشياء كلها لا تخرج إلاَّ من أضدادها لأنَّ أصل الأصول في الحقيقة هو تلوُّنها، لأجل هذا المعنى تجدهم رضي الله عنهم لا يستقرّون في حالةٍ واحدة، لا في أقوالهم ولا في أفعالهم، ولا في أحوالهم، لأنهم سائرون على مُرَادِ الحقّ فيهم لا على مرادِهِم، وذلك من كمال الأدب الذي حصل لهم بالمشاهدة التي لم يبق معها أثرٌ لشيءٍ. لا تراهم أبداً إلاَّ راحلين، قاطنين، غائبين، حاضرين ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: الآية 88].

[فضل ملاقات الرجال]

وأيضاً: من أراد أن يَمْلك الزيادة حتى تكون طوْعَ يده، أعني زيادة الحسيات وزيادة المعاني، فليعوّد نفسه ملاقاة الرجال خصوصاً وعموماً، لأنَّ الوجود كله زيادة محصورة في الحسّ والمعنى وعُنصُر الزيادة في المُلاقاتِ، من مَلَكَ الملاقاة لم يُمْنع الزيادة أبداً. ومن مَلَكَ الزيادة حتى تكون طوع يَده فقد ملكِ الحِكمة. قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية 269].

[من تواضع للوجود تواضع له الوجود]

وأيضاً: اعلم أنّك إذا تواضَعْتَ للوجود ومَلّكْتَهُ نفسك فإنَّ الوجود يتواضع إليك ويُمَلّكُكَ نفسه، فيكون طوع يديك، تفعل به ما تريد.

وإذا تعاظمت على الوجود وأردت أن تُمْلِكه، فإنَّ الوجود يتعاظم عليك ويُريد أن يملكك، فتكون طوْع يده يفعل بك ما أراد، صار مُلْك الإنسان في عبوديته،

وعبودية الإنسان في مُلكِهِ. قال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية 139] إنه حكيمٌ عليمٌ. انظر قول الشاذلي رحمه الله: واجْعلنا عبيداً لك في جميع الحالاتِ لأنَّ الجود يَتَلوَّن بِتَلوّنكَ كما تتلوّن المِرآة بِتَلوّنك إذا قابلتَهَا، وذلك لأنَّ الوجود منك وأنت منه، والوجود أنت وأنت الوجود.

سَمِعْت الشيخ، نفعنا الله به، يقول: ليس مِنَّا مَنْ لم يَتَلَوَّنْ.

[معالجة الحسّ والمعنى]

وأيضاً: ومن أسرع حكمة يعالج بها الحكيم، وأقواها وأنفدها، للإجابة، أن يعالج الحسّ بالمعنى، والمعنى بالحسِّ. والذات بالصفات والصفات بالذات. هكذا سمعت من الشيخ، نفعنا الله به، وجرَّبتها، فحصلت لي إجابتها وثمرتها.

[كُنْ فيكون وأفهم. وصاحب الملك الظاهري والإنكار والإقرار]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الظَّاهر إذا كمل ملْكه بكُنْ فيكُونُ، فإنَّه لا يَخْفَى على أحدٍ، وتخضع له جميع الرقاب، خصوصاً وعموماً، وكذلك صاحب الباطِن إذا كَمُلَ مُلْكه بِكُنْ فيكونُ فإنَّه لا يَخْفَى على أحدٍ، وتخضع له جميع الرقاب خصوصاً وعموماً. وذلك لأنَّ الله خلق الظلمة والنُّور وكما جعل التأثير للنور جعل التأثير للظلمة. أما صاحب الملك الظاهري فظلماني بنورٍ، وأما صاحب الملك الباطِني فنوراني بِظلمَةٍ. قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿20﴾﴾ [الإسراء: الآية 20] . ومن خصائص صاحب الظاهر أنَّ الجهل مصحوب معه لا يُفَارقه، لأنَّ الغالب عليه الظلمة والظلمة كأنها شجرة ثمارها الجهل، ولبّ الجهل النكران. ومن خصائص صاحب الباطن: أنَّ العِلمَ لا يفارقه لأنَّ الغالب عليه النور والنور أيضاً كأنه شجرة ثمارها العِلْم. ولبّ العلم: التَّسليم والإقرار، وهو عدمُ الإنكار. ما اتخذ الله من وليّ جاهل إلاَّ وعلَّمَهُ.

[على قدر الصدق يكون الظَّفرُ]

وأيضاً: اعلم إنه ما من مسألة يطلبها الإنسان، إلاَّ على قدر كمال صِدْق طلبِهِ إيَّاها، يكون كمال ظفره بها. قال في الحِكَم: مَنْ أشرقَتْ بِدَايته أشرقت نهايته.

[من غرق ولم يتخبط]

وأيضاً: سمعت الشيخ سيدي العربي يقول راوياً، أنَّه سَمِعَ والده يقول

لأصحابه: أنا ضامِن النجاة لِمَنْ غَرِقَ ولم يَتَخَبَّطْ. والمراد، والله أعلم، بعدم التخبُّط: عَدَم الانتصار للنفس، لأنَّ مَنْ لَمْ يَنْصُرْ نفسه يَنْصُرْهُ الله لا مَحَالَة.

[الحقائق الجلالية تثبت الباطن]

اعلم أنَّ الحقائق الجلالية تثبِّت الباطن، كما أنَّ الحقائق الجمالية تثبِّت الظَّاهر. الحقائق الجلالية ظاهرها جلال وباطنها جمال، كما أنَّ الحقائق الجمالية ظاهرها جمال وباطنها جلال، ولا يحصُل الكمال لطالب الكمال حتى يكمل فيه النقص. كما يكمل فيه الكمال. وكمال النقص، وكمال الكمال هو اقتران الجمال بالجلال، والجلال بالجمالِ. وهذه المعاني حاصلة لكل بشرٍ، ولكن شتَّان بين مَنْ يسلُكُها عَالِماً عَامِلاً، وبين مَنْ يَسْلكها جاهِلاً غافِلاً.

ولا يحصل لك الرّبحُ الكاملُ إلاَّ بعد الخسران الكامل وعلى قَدْرِ النُّقْصَان تكونُ الزّيادة.

[غيبة العامّة في شهوات نفوسهم؛ والخاصة في مشاهدة مولاهم]

وأيضاً: العامّة غابوا في طلب شهوات نفوسهم، والخاصّة غابُوا في طَلَبِ الخير ليجلبُونَهُ. وفي طلب الشر ليَدْفعونه، وخاصة الخاصة غابوا في مولاهم حتى لا يشهدوا سواه، حُجِبت عنهم الأكوان كلها، حتى أنفسهم وذلك لما أشرق عليهم نور المعرفة أو نوار العيان. نفعنا الله بذكرهم ورزقنا محبَّتهم آمين.

[كلُّ ما يثبته الظاهر فهو ثابت، وكل ما ينفيه الباطن فهو منفي]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل ما يثبته لك ظاهرك فهو ثابِتٌ، ولو نفاه عنك جميع الخلائق. كما أنَّ كل ما ينفيه عنك باطِنكَ فهو منفي ولو أثبته لك جميع الخلائق، وذلك لأنَّ باطنك علمٌ وأقوالٌ وظاهرك عملٌ وأفعالٌ. ولا شك أن الأفعال تَصْدق والأفعال تكذب. «أنتم شهداء الله في أرضه» الحديث، أو كما قال صار مَنْ يثبته لك الخلق فهو ثابت، وما يَنْفيه عنك الخلق لا إثبات فيه. والكلام على الجلِّ.

[أهل المُلك هم المجاذب]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل المُلكِ هُمُ المجاذِبُ في الظاهر وفي الباطِنِ، أهل الظاهر لهم مجاذب، وهم ملوكهم. كما أن أهل الباطن لهم مجاذبٌ وهم ملوكهم، مجاذب

العامة، وهم أهل الظاهر، هم أهل المُلك والرّياسة بالجَذْبِ حَصَلَ لهم الملك على العامَّة. والجذب: هو الخروج عن عوائد العامَّة، ولولا الخروج عن عوائد العامَّة ما حصل لهم الملك عليهم. ومجاذب الخاصَّة: وهم أهل الباطن، هم أهل التجريد والمُلك والرياسة على خاصَّة الناس، وهم الصَّالحون.

[التجريد في الخصوصية]

والتجريد في الخصوصية هو الخروج عن عوائد أهل الخصوصية، ولولا خروجهم عن عوائد الخصوص ما حصل لهم المُلك عليهم. صار ملوك العامة هم مجاذب العامة، وملوك الخاصة هم مجاذب الخاصَّة. وحقيقة الجذب: هو الخروج عن العوائد ولا بدَّ لك من شيخ يريك سُلُوكها، وبالله التوفيق.

[الحقائق الجلالية]

وأيضاً: ومما وقع لي مع الشيخ، نفعنا الله به، قلت: يا سيدي هذه الحقائق الجلالية رأينا بمباشرتها يثمر لنا شُغْلُنا ويثبُت، ورأيناك كثيراً ما تنهانا عَنِ الغِبْطة فيها. فأجابني بأن قال لي: يا ولدي، أنهاكُم عن الغِبْطة فيها شَفقةً عليكم لئلا ينكركم الخلق لأن الفقير الذي تكون له الحقائق الجلالية غالبة عليه يُنْكره عامة الناس على كل حالٍ، وأنا لا أنهاكم عنها ولكن نأمُرُكم إذا باشرتم حقيقة جلالية أن تقابلوها بحقيقة أخرى جمالية، لئلا تقطع عنكم مادَّة الحقِّ من الخلقِ وأفضل الأمور أوسطها.

[عبودية الله تنقسم إلى أربعة أقسام]

وأيضاً: عبودية الله تعالى تنقسِمُ إلى أرْبَعة أقسام، كل قسم يُسمَّى عبودية، وهي عبودية النَّفس وعبودية الفلس، وعبودية أهل الدنيا، وعبودية أهل الله تعالى. وبالجملة كل ما تطلبه فأنت عبد له. وكل ما يطلبك فهو عبد لك، يجب أن تكون عبداً لله فيه كما يجب عليك أن لا تَطْلُبَ إلاَّ لِمَن يجمعك على مولاك، إذا كان المقصود هكذا فأنت، وإن كنت عبد إله غيره، فأنت عبد لمولاك لا له، لأنَّ الحكم على القلوب والهِمَم، ما كان لله دامَ واتَّصل، وما كان لغَيْر الله انقطع وانفَصَل.

[من اجتنبه الخلق احتاجوا إليه]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل من يجتنبه الخلق لا بدَّ أن يحتاجوا إليه، وينحازوا إليه، أحبّوا أم كَرِهوا، كما أنَّ كل من يجتنِبُ الخلق لا بدَّ أن يحتاج إليهم وينحاز إليهم

أحبَّ أم كَرِهَ لأنه الوجود كله، كما أنه مفترق لا جمع فيه كذلك هو مجتمع لا فرق فيه. والأصل: الحق واحدٌ قائمٌ بنفسه، غَنِيٌّ عن نَفْسه بنفسه.

[الزّيادة والنقصان. وشيوخ التربية مع مريديهم]

وأيضاً: الناس على فرقتين: فرقة يقبلون الزيادة والنقصان، فهم أهل خَوْف مُزْعج، أو شوق مُقلقٍ. وعلامتهم: كل ما تجده يقبل النقصان يقبل الزيادة لا محالة، والذي لا يقبل النقصان لا يقبل الزّيادة. صارت هذه الفرْقة التي تقبل الزيادة والنقصان لها الحظ في التربية. وأما الفِرْقة التي لا تقبل زيادة ولا نقصاناً فلا حظ لها في التربية ولا نصيب، وربما يصل الضرر من صاحب هذا الوصف الذي لا يقبل زيادة ولا نقصاناً لشيخِهِ، إذا كان الشيخ ضعيفاً، وأما إذا كان متحيِّراً ما هو يمشي مع أهل الصِّدق ويتبع، كما ينبغي، ويمشي مع الآخرين على قدر ضعفهم، فلا ضرر ولا ضِرار، يحتفظ على نَفْسِهِ لئلاً يصيبَهُ شيءٌ مِنْ نَتنِهِمْ ولا يفوته خيرهم، ويَرْفق بهم حتى لا يُنَفِّرهم مِنَ الخير لأنَّ الذي لا يزيد ولا ينقص مسجونٌ، عبدٌ مملوك، وصاحب الشغل في الأحوال، حرّ مَلِكٌ، مطلوق سَرَاحُهُ، يرتفع حيث شاء. لأجل هذا المعنى، نجد الشيوخ رضي الله عنهم يُقدِّمون إليهم أقواماً من أصحابهم كثيرين ويدفعون آخرين، ولكن على قدر الحال. وذلك أن ما وجدوا فيه إقبالاً وصِدقاً في طلب فنونهم يقرّبونه إليهم ينتفع بهم وينتفعون به. ومن وجدوه أراد صحبتهم ولكن على قدر الحالِ يعرفونه على قدر حالِهِ، كل واحد ينزلونه على قدر منزلته.

[ورود الحسِّيات والمعنويات]

وأيضاً: إذا أردت وُرود الحسيات عليك أكثر من المعاني، وإذا أردت ورود المعاني عليك أكثر من الحسيات. فجرت عادة الله تعالى أن يخرج الأشياء من أضدادها ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [يونس: الآية 31] . ما كان سبب دخولي إلى المعاني في ابتداءِ أمري إلاَّ أنني أكثرت من أفعال الحسّ، ودمت عليها أكثر من ثلاث سنين، فما شعرت إلاَّ والمعاني أقبلت عليّ وأحاطتني من كل جانب حتى استغرقت فيها، ما زِلتُ كذلك إلى الآن، فوجدت نفسي في بحرٍ لا ساحل له، لا يعلم حدّه إلاَّ الله سبحانه الحكيم العليم.

ومما قال لي الشيخ نفعنا الله به، قال لي: يا ولدي، الفنون كلها كل من يَفْنَى في فنّه حتماً تخرق له العادة فيه، ومن لم يَفْنَ في فَنّهِ لا تخرق له عادة فيه أبداً، لأنَّ

الفناء مكتسب مكافأته من الله تعالى، هو خرق العادة فيه. قال صاحب الحكم: كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد. وإذا أردت أن ترى العَجَبَ في شيء، فافن فيه، تخرق لك العادة فيه. كل ما تباشره بالصدق لا يباشرك إلاَّ بالصدقِ، وكل ما تباشره بالكذب لا يباشرك إلاَّ بالكذبِ، والفناء هو بمعنى صدق الطَّلَبِ.

ومما قال لي أيضاً رحمه الله، قال لي: يا ولدي، كل من يُمْلي عليك بالظاهر قابِلْهُ بالباطن تغلبه وتملكه، وكل من يملي عليك بالباطنِ قابله بالظاهر تغلبه وتملكه، لأنه لا يستحق الضّدّ إلاَّ ضِدُّهُ، والكلام أنثى، والجواب ذكر.

[الحكمة من أعلى شيء إلى أدنى شيء]

وأيضاً: الحِكْمَة من أدنى شيء إلى أعلى شيءٍ، ما اجتمعت إرادة وفِعْل إلاَّ قامتِ الحكمة من غير عطلة. وذلك من نفسك أو من جنسك، نفسك مثل غيرك، وغيرك مثل نفسك، كلهم سواء في ذلك.

[النِّيَة على قسمين]

وأيضاً: النيّة على قسمين: نِيَة معنوية باطنية، وهي المعروفة عند جميع الخلق بالنية. ونية أخرى تقابلها، ظاهرية حسية؛ وهي الصحبة والمجالسَة. يعني دوام مجالسة الرجل لأهل فنهِ. الأولى تَجُرُّ الثانية. المعنوية تجرُّ الحسية. ويكون بالعكس الحسية تجرّ المعنوية. والإنسان إذا فاتته الحسية يتمسك بالمعنوية، وإذا فاتته المعنوية يتمسك بالحسية، وكل من توجّه لأمر ولم تكن له نية معنوية أو نيّة حسية لا سبيل له للدخول لذلك الأمر لأن هاتين النيتين هما مفتاح الأمور.

[الفناء فناءان]

وأيضاً: الفناء على قسمين: فناءٌ في الأشياء، وفناء عن الأشياء، والأشياء كلها حسيّة ومعنوية، ظاهرية وباطنية، علوية وسفلية، كل ما تفنى فيه عن غيره يفنى فيك عن غيرك، وكل ما تفنى في غيره عنه يفنى في غيرك عنك. الفناء مفتاح لكل شيءٍ وعدم الفناء حجاب عن كل شيءٍ. والفناء بمعنى خرْق العادة في طلب الشيءِ صارت الأشياء كلها، يكون قربها منك على قدر قرْبك منها، وبُعْدُها منك على قدر بعدك منها، وحبها إليك على قدر حبك إليها، وبغضها فيك على قدر بغضك فيها، لأجل هذا المعنى قالوا: الوجود كالمِرْآةِ الذي تقابله بِهِ يقابلك بِهِ لا زائِد.

[الصلاة حسية ومعنوية؛ الحسية بالجوارح والمعنوية بالقلب، والأخيرة مستمرة]

الصلاة على قسمين: صلاة شرعية حسّية، وهي صلاة عامة النَّاس، وصلاة حقيقية معنوية، لا يعرفها إلاَّ الخصوص، وقليل ما هم.

الصلاة الحسية: يدخل الإنسان إليها ويخرج منها، والصلاة المعنوية من دخل فيها لا يخرج منها أبداً، كما قيل لبعض العارفين بالله تعالى: يا سيدي أيسْجُد القلب؟ قال: نعم، ولكن إذا سجد ما رفع إلى الأبَدِ.

وأيضاً: كل من يقبل الزِّيادة يقبل النقصان، وكل من يقبل النقصان يقبل الزيادة. ومن لا يقبل زيادة لا يقبل نقصاناً، ومن لا يقبل نقصاناً لا يقبل زيادة، وهكذا.

[رؤساء الوقت هم الوقت]

وأيضاً: رؤساء الوقت هم الوقت، والوقت هو رؤساؤه. رؤساء الباطن هم الأولياء العارفون بالله وأتباعهم ورؤساء الظاهر هم الملوك وأتباعهم، ومهما اجتمع رجل من ملوك الباطن مع رجل من ملوك الظاهر يَبْقَى الوجود بين أيْدِيهم مثل قطعة من عجين، بين يدي خبَّاز، يصنع بها ما أراد. كذلك إذا اجتمع واحد من ملوك الظاهر وواحد من ملوك الباطِنِ وتوافقا يبقى الوجود بين أيديهما كالعجين يصنعون منه ما أرادا. وملوك الظاهر لا يقوم ملكهم ويكمل ويثبت إلاَّ بموافقة أهل الباطنِ. وكذلك ملوك الباطن لا يقوم ملكهم ويثبت ويكمل، إلاَّ بموافقة أهل الظاهر لأنَّ أهل الظاهر أهل فَرْق وأهل الباطن أهل جمعٍ ولا يقوم الشيء إلاَّ بضدِّهِ.

وأيضاً مادَّة الله لعباده على نَعْتِ ضَمَائِرِهم وأقوالهم وأفعالهم، لا زائد. قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: الآية 71]، وقال جل من قائل: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية 139] سمعت من الشيخ، قال لي: كان الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله، نفعنا الله بالجميع، يقول: ألْسُن الخلق إذا مالوا للخير أغنوا، وإذا مالُوا للشَّرِّ أخْلوا.

[رَجُل يعدل الحقيقة]

وأيضاً: اعلم أنَّ رجلاً واحداً يعدل الحقيقة كلها، ورجلاً إذا كان بنفسه مقامه في الحقيقة مقام ورقة من شجرة من الوجود، والذي بنفسه مع الذي بِرَبِّهِ هو أنَّ من نزَّل نفسه في موضع ودامت فيه لا يجد نفسه إلاَّ فيه، يحكم له به الله والعباد ونفسه، ومن

نزل نفسه بالله ودام على ذلك فهو بالله ومن نزل نفسه ودام فيها يجد نفسه بنفسه.

[العبدُ عبد في جميع الأحوال]

وأيضاً: إذا فهمت من نفسك الركون للعبادة، فاحذَرْ أن تبدّل عبودية الله بعبودية العبادِ، عبدُ الله حقاً هو العبد في جميع الأحوالِ وكل من ركنَت نفسه لحال دون حالٍ فهو عبد لذلك الحال.

وأيضاً: ما حاز أهل الخير الخير إلاَّ أنهم مالوا لأهل الخير شيئاً يسيراً وما حذر أهل الشر الشر إلا أنهم مالوا لأهل الشر شيئاً يسيراً، وهكذا. وكل من طلب شيئاً يستنشق أنواره ويجني ثمارهُ.

وأيضاً: كنتُ أخرُجُ من منزلي وأنا أُريد حاجةً من أمور الدنيا، فتشرق على قلبي ظلمة أعرفها من نفسي، فأسير مستغرقاً فيها حتى أصل تلك الحاجة، كأن الأمر موكولٌ بالاهتمام، ولا يفهم هذا إلا بصقل مرآة القَلب.

وأيضاً: عند أهل الفلوس جماعة تغني رجلاً، ورجل لا يغني جماعة. وعند أهل النفوس بالعكس، رجل يغني جماعة وجماعة لا تغني رجلاً.

[كل من تجلّت له الحقيقة فهو حرٌ مطلوق]

وأيضاً: كل من تجلّت له الحقيقة وخرقت له الحجب حتى عرفها، وتحقق بمعانيها، وأطلق عنانهُ في نواحيها، فهو حرٌ مسَرّح من قيود نَفْسِهِ، قد بلغَ مُنَاهُ، ومن لم يظفر بهذا الوصفِ فهو مسجون مُقَيّد، مزجور متعوب مملوك، لأنَّ هذه النفس جاءت من عالَمِ الحقيقة. وعليه تدور ولا تريح ولا تستريح، حتى ترجع إليه. إمَّا في الحياة قبل الموت، وإما بالموت بعد الحياة. لأجل هذا المعنى، تجد النفس كل ما تُعْطاه لا تقنعُ به، ولو أُعطيتِ الدنيا بأسْرها لأنها تدور على ما هو أقوى من ذلك، وهو عالم الحقيقة، الذي جاءت منه لا تبلغ مناها حتى تصل إليه.

[المتوجهون إلى الله]

وأيضاً: المتوجهين إلى الله على ثلاثة أقسام: فرْقة علوية لا تستطيع النزول أبداً، وفرقة سفلية لا تستطيع الطلوع أبداً. وفرقة جمعت بين الحالتين: تارةً علوية وتارة سفلية، لا يحجبُهُمْ علوي عن سفلي، ولا يحجبهم سُفلي عن علوي، وهذه الفرقة هي أفضلهم. قال صاحب الحِكَم: منهم مَن غَلَب سكره على صحوه، ومنهم من غلب صحوه على سكرِه، وأفضلهم من شرب فازداد صحواً وغاب فازداد حُضوراً. ومن

جملة أوصاف صاحب هذه المنزلة الثالثة أن تجده لا يستطيع القرار في حالة واحدةٍ أبداً ما تراه في حالٍ إلاَّ ويعقب ضده، كما أن صاحب العلويات لا يستطيع السفليات، وصاحب السفليات لا يستطيع العلويات، كذلك صاحب الجمع بينهما، لا يستطيع الاستقرار في العلويات ولا في السّفليات، ما رأيته في أعلى شيء إلاَّ وتَجِدُهُ في أدْنى شيءٍ، وما رأيته في أدْنَى شيءٍ إلا وتجده في أعلَى شَيْءٍ، هذا دأبه أبداً. . .

[السَّير مع العبودية وعدم الركون إلى حال أبداً]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ، نفعنا الله به، قال لي: يا ولدي، سِرْ مع العبودية ما كان جلالُها أقوى من جَمَالها، ومهما تقوّى جمالها على جلالها، ينقلب لها فتصير حظ النفس لا عبودية. انظر قول البُوصيري: وإن هي استَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ.

العارف مهما يرى العبودية صارت عادة، ويفهم من نفسه أنها ركنت لذلك، يعرفُ أن الجمال غَلَبَ على الجلالِ، فيرحِّل نفسه من ذلك الحال إلى ضِدِّهِ، «حُفَّتِ الجنَّة بالمكاره وحُفَّتِ النَّار بالشَّهَوَاتِ» الحديث. يرحم الله صاحب الحِكَم: ما أرادت همة سالِكٍ أن تقف عندما كُشف لها، إلاَّ نادته هواتف الحقيقة الذي تطلب أمَامك. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البَقَرَة: الآية 102]، لأنَّ طالب هذا الفنّ دائم على خرق العوائد، وطالب خَرْق العوائد لا يَرْكن إلى العوائِدِ لأنك لا تجِدُ نفسك إلاَّ في المكان الذي طرحتها فيه، إذا طرحتها في العوائد لا تجِدها إلاَّ في العوائِدِ، وإذا طرحتها في خَرْق العوائِدِ لا تجدها إلاَّ في خَرْق العوائد.

قال في الحِكَم: كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تُخْرِق من نفسك العوائِدَ، لأن من عادة النفس ما وجدتْ شيئاً إلاَّ قَنَعَتْ به، وتريد الوقوف معه، والقناعة من الله حرمان، من عادته تعالى أنه إذا ما أعطاك شيئاً وزهدت فيه ورجعت إلى عبوديته تعالى، إلاَّ أعْطاك ما هو أشرف منه وأحْسَن وأعْظم. وما أعْطاك شيئاً وقَنَعْتَ به، ووقَفْتَ معه إلاَّ أقرَّكَ فيه، وأمَرَك به ومنه. أنت تريد زهداً فيما أعطاك، وعطاؤه يَعْظم ويكبر ويتَّسِعُ. ولا نهاية حتى تقنع وتقف همتك. انظر ما أعظم هذا الربّ الكريم!.

[لباب الحكمة]

وأيضاً: ومن لُبَابِ الحِكمَة، إذا أرَدت الجمع، اربط نفسكَ في الفَرْقِ ودَاوِمْ على ذلك، فإنَّ الجمع يطلبك طلباً لا يَمْنعك من يَدهِ أحدٌ، وبالعكس. إذا أردت

الفَرْق اربط نفسك في الجمع، وداوم عليه، فإن الفَرْق يطلبك طلباً لا يقدر أن يمنعك من يده أحد، وسبب ذلك أن الجمع لا يسكن إلاَّ بالفَرْق كما أن الفرق لا يسكن إلاَّ بالجمع: «اللهم أعْطِ لكل منفق خلفاً، وأعْطِ لكلِّ ممسكٍ تلفاً» الحديث. أو كما قال ﷺ.

العارف بالله الحكيم: مهما يرى شيئاً تَعَذَّرَ، يَفْهَم العلَّة في ذلك، من أي شيء كان سبب فساده، ومن أي شيء يكون سبب صلاحِهِ، شتَّانَ بين من يَسْلك الأشياء عَارفاً بها وبأحكامِها، ومن يسلكها جاهلاً بها وبأحكامِها. الأول يسلكها فرحاً مُبَشراً مسروراً، حاز خيرها، وفاته شرها، والثاني يسلكها مضيقاً خائفاً مهموماً مزجوراً مسجوناً، حاصلاً على شرها فاته خيرها، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية 9].

[من صرح بالجمع أو بالفرق مع ما ينشأ عن ذلك]

وأيضاً: الجمع حق والفرْق حق. والفرق في الجمع، والجمع في الفرْقِ. من صرَّح بالجمع في حضرة الفرق يموت شرعاً موتة حسية. ومن صرَّح بالفَرْقِ في حضرة الجمع يموت حقيقة مَوْتَةً معنوية. والسلامة ظاهراً وباطناً فيما قاله الشيخ الشاذلي لتلميذه الصباغ، حين سأله عن حكاية الفرْق والجمع، فأجابه بأن قال له: يا ولدي، إذا أردتَ التي لا نَوْمَة فيها، فالجمع في سرك مشهود، والفرق في لسانك موجود. نفعنا الله بالجميع وجعلنا من السالكين على منهجهم القويم بفضله وإحسانه.

[لكل من الظاهر والباطن قاعدتان]

وأيضاً: اعلم أنه كما للظاهر قاعدتان: قاعدة دينية وقاعدة دنيوية، كذلك للباطن قاعدتان: قاعدة دينية وقاعدة دنيوية. حكم الباطن هو حكم الظاهر من غير زيادة ولا نقصان، ومادة الإنسان واحدة دائمة، أبدية أزلية سَرْمَدِية، ما لها وقوف ولا انحصار أبداً، إلا أنها تارة يكون فيضها في ظاهر الإنسان، وباطنه بطالٌ، وتارة بالعكس يكون فيضها في باطن الإنسان وظاهره بطال، وتارة تنقسم على الظاهر والباطن ولكن يكون الحكم للواحد على الآخر لا محالة. إذا كانت مادة الظاهر أقوى من مادة الباطن، الحكم للظاهر، وإذا كانت مادة الباطن أقوى من مادة الظاهر الحكم للباطن. وما زاد في مادة الباطن نقص من مادة الظاهر، وهكذا. لأجل هذا المعنى تجد أهل القلوب إذا أرادوا تقوية بطوانهم يخربُوا ظواهرهم مثله، كمن له قسمة ماءٍ وله قادوسَانِ، واحد يميناً والآخر شمالاً، إذا سدّ قادوس اليمين يرجع الماء لقادوس اليسار وإذا سُدَّ قادوس اليسار يرجع الماء لقادوس اليمين. رِزق واحد تارة يكون معاني وتارة ينقلب حسّيات،

الجاهل لا يشعر إلا بمادة الحس وصاحب البصيرة يعرف مادة الحس كما يعرف مادة المَعْنَى، ويعرف مادة المعنى كما يعرف مادة الحس، يعني يفهم ذلك من نفسه ويعرف ما زاد من ذلك وما نقص، ويعرف سبب زيادته وسبب نقصانه. وأهل هذا الفن قليلاً لا يسلك هذا البلاد إلاَّ من أخذ الله بيده بملاقاة أحدٍ من أهل هذا الفن، وقليل ما هم.

[العامة والخاصة وخاصة الخاصّة]

وأيضاً العامة يأتون الحقائق العلوية اختياراً ولا يردون الحقائق السفلية إلاَّ إذا وردوها قهراً، والخاصة أبداً يأتون الحقائق السفلية اختياراً ولا يردون الحقائق العلوية إلا إذا وردوها قهراً. وخاصة الخاصة أبداً شاخصون بقلوبهم لما يَبْرُز من الله يسترون عليه من غير تَبَرُّم ولا التفاتٍ سواءٍ كان علوياً أو سفلياً. قال جل من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: الآية 84].

[حقيقة عبودية الآدمي: عبوديته نسخة من عبودية الله لأنه خليفته]

وأيضاً: اعلم أنَّ عبودية هذا الآدمي، أعني المنسوب على الله هي نُسْخَة من عبودية الله، وذلك أن الآدمي خليفة الله في الأرض، صار من قام بعبودية الخليقة وهو الآدمي على كل حالٍ يقوم بحقوق عبودية الله. ومن لم يقم بحقوق عبودية الآدمي لا قيام له بحقوق عبودية الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية 10].

[كل ما تقابله بشيء قابلك به]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل ما تقابله من الوجود فإنه مِرآة لك، بما تقابله به يُقابلك من بني آدم أو من الأنعام، أو من الحيوانات، أو من الجمادات، في بني آدم يعرف هذا المعنى كل أحد، وفي الجمادات والحيوانات والنباتات وغيرها لا يعرف هذا المعنى إلاَّ ذو بصيرة نافذةٍ، وإنما ظهرت في بني آدم أقوى من غيره لأنه مختصر الحقيقة، مادته من النور الإلٰهي وإنه مادة الحقيقة بأجمعها مع صغر جرمه، واتساع الحقيقة. انظر ابن آدم إن قابلته بأدبٍ قابلك به، وإن قابلته بسوءِ أدَبٍ قابلك به، وإن قابلته بعبودية قابلك بها، وإن قابلته بحرية قابلك بها، وإن قابلته بعلوٍّ وتجبُّرٍ قابلك به، وإن قابلته بانخفاضٍ وتواضع قابلك به.

حاصله: بما تقابله يُقابلك ولو كنت أنت مملوكاً وهو مَلِك أو بالعكس.

[الفناء من حضرة العوام ومن حضرة أهل الدنيا]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفناء فناءان: فناء من حَضْرَة العوام إلى حضرة الخواص، وفناء من حضرة أهل الدنيا إلى حضرة أهل الآخرة. صاحب حضرة العموم هو في الوجود وصاحب حضرة الخصوص الوجود فيه. انظر كلام الششتري في تربية المريد حيث قال له: إذا شَعَرت بالوجود قد لاح في ذَاتِك هو سِرّ فلازم الجحود هذه صفاتك، واضربْ بِترسِ العقودِ وألقِ عصَاتك. وانظر قول ابن عطاءِ الله في لطائف المِنَن حيث قال: لا يُدْخل على الله إلاّ من بابين، باب الفناء الطبيعي، وهو الموت. وباب الفناء الذي تعْنيه هذه الطائفة، يعني الطائفة الشاذلية، وعلى قدر ما تتقوت ذات الإنسان وصفاته من ذات الوجود وصفاته في أيام حياته، عاماً أو عشرة أعوام أو مائة سنة، على قدر ما تتقوَّت ذات الوجود وصفاته من ذات الإنسان وصفاته، يعني بعد موته. وهذه الأمور كلها يطلق عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية 49] من حيث أن الإنسان لا يَبْرح حتى يصير روحاً وبالعكس.

[حكمة ألف كلمة تجتمع في كلمة]

وأيضاً: اعلم أنَّ حكمة كلمة تتفرق فتنقسم على ألف كلمة إذا كثر الكلام، وحكمة ألف كلمة تجتمع في كلمة إذا كثر الصمت، صار كثير الكلام في كثرته، هو القليل، وقليل الكلام في قلّته هو الكثير، يعني من الحِكمة. والكثير، يعني من الحكمة، وهذا القياس من جملة كل الأشياء التي جعلها الله تعالى كامنة في أضدادها بحكمته وقدرته، كأنه يقول: الصمت ربما يجمع لك ألف حكمة في كلمة، والكلام ربما يُفرّق لك حِكمة في ألف كلمةٍ، وهكذا.

[رزق الأرواح ورزق الأشباح]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى جعل لعبده رزقين: رزق الأرواح وهو معنوي، ورزق الأشباح وهو حسّي. وتكفل سبحانه لعبده بهما وأمره بالتسبب فيهما. فالتكفُّل حقيقة، والتسبب شريعة، العامة شُغلوا بالتسبب في الرزق الحسي، والبحث عنه ولم يعبؤوا بالرزق المعنوي ولا عرفوه، هل هو موجود معهم أو مفقود من شدَّة إعراضهم عنه، مع أنهم لو فقدوا الرزق المعنوي لهلكت أرواحهم. والخاصة شغلوا بالتسبب في الرزق المعنوي والبحث عنه ولم يعبؤوا بالرزق الحسّي ولا عرفوه، هل هو موجود معهم أو مفقود من شدّة إعراضهم عنه مع أنهم لو فقدوا الرزق الحسي لهلكت

أشباحهم. وخاصة الخاصة يتسببون في الرزق الحسي والمعنوي وليس هم مع إرادتهم في واحد منهما، وإنما هم أبداً مع إرادة مولاهم، واصلين أبداً، حيث دفعتهم إرادة سيدهم في الحس أو في المعنى من غير تبرُّم ولا التفاتٍ لغيره كما قال القائل:

أُرَانـي كـالآلاتِ وهـو مـحـركِـي أنـا قـلـمٌ والاقـدار أصـابِـعُ

[الرزق وحظ العامة والخاصة وخاصة الخاصة منه]

العامة قد حجبوا عن الله بإرادتهم للرزق الحسي حيث صار الرزق الحسي هو حظ النفوس، صاروا مع نفوسهم لا غير. والخاصة وجدوا الله في طلبهم للرزق المعنوي، لأن الرزق المعنوي هو حظّ الله لا حظ النفس، من أجل ذلك لما كانوا لله كان الله لهم.

[خاصّة الخاصّة وسائط بين العباد لأن إرادتهم امتحت من إرادة مولاهم]

وخاصة الخاصة ليسوا مع إرادتهم في شيءٍ بل هم بالله في الأحوالِ كلها بنفوسهم لا بنفوسهم، ولما كانوا بالله كان وجود الوجود قائماً بهم، لمّا عرفوا الله به وسائط صاروا بين الوجود وخالِق الوجود هم الوسائط، وهم الخلائق، امتُحت إرادتهم في إرادة الله فصارت إرادتهم إرادة الله تعالى، وفعلهم فِعله تعالى، وأمْرُهم بأمر الله، إن قالوا للشيء كن يكون، وكل بأمر الله يحكم بقدرته، وهذا المقام يقال له مقام التمكين بالتلوُّن. رزقنا الله محبة الجميع بفضله وإحسانه إنه على كل شيء قديرٌ.

[الروح في دار الدنيا مقطوعة غريبة وفي الآخرة بالعكس]

وأيضاً: اعلم أن الروح في دار الدنيا مقطوعة غريبة، والجسد موجود في أهله. من ذلك أكثر الناس في الدنيا أجسادهم حاكمة على أرواحهم، وسيكون في الآخرة الأمرُ بالعكس، الجسد يكون مقطوعاً غريباً والروح موصولة في أهلها، فسيكون في الآخر أكثر الناس أرواحهم حاكمة على أجسادهم، يعني من كان جسده حاكماً على روحه في الدنيا هو الذي يكون في الآخرة روحه حاكمة على جسده، وهؤلاء هم العامّة. وأما الخاصة فليس لأجسادهم حكم على أرواحهم في الدنيا وليس لأرواحهم حكم على أجسادهم في الآخرة. بل كما كان الحكم لله لا لأجسادهم ولا لأرواحهم في الدنيا كذلك يكون الحكم لله في الآخرة، لا لأرواحهم ولا لأجسادهم، يموت المرء على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه. من كان عبد شيءٍ في الدنيا فهو

عبده في الآخرة، يعني من الأكوان، ومن كان عبد الله مخلصاً إليه في الدنيا فهو عبد الله مخلصاً إليه في الآخرة.

ثم يقال لعبيد الأكوان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: الآية 98] ، ويدخل في زُمْرَة عبيد الأكوان عبد نفسه، وعبد الآدَمِي من جنسه، وعبد الدرهم والدينار. نسأل الله تعالى أن يعصمنا من رقية أنفسنا ومن رقية الأكوان وأن يجعلنا من فضله عبيداً مخلصين لله في جميع الحالات، وأن يوفقنا لذلك برحمته وجوده وكرمه.

[صاحب الدعوى بالله تعالى يعدل الحقيقة بأسرها]

وأيضاً: اعلم أن صاحب الدَّعوى إذا كان بالله أو كان موافقاً لشيخ، يكون بالله، فإنه يعدل الحقيقة بأسرها ولو كان مائة ألف رجل لا يقومون مقامه بل لا يقوم مقامه ملء الأرض من الرجال، وهو أرجح من الجميع، وإذا لم تكن الدعوى بالله أو بموافقة من يكون بالله فصاحبها مشرك. وانظر قول القائل:

إذَا كُنَّا بِهِ تِهْنَا دَلاَلَ ... عَلَى سَائِرِ الحَرَائِرِ والعَبِيدِ
وإنْ نَحْنُ حِدْنَا عن الدِّينِ ... يُشْبِهُ ذُلُّنَا ذلَّ اليَهُودِ

[تداخل المعاني في الحسيات وبالعكس]

وأيضاً: اعلم أنَّ الباطن كله مَعَانٍ، والظاهر كله حسيات. ولكن كأنَّ الباطن سَرَق للظاهر شيئاً من الحسيات وكأن الظاهر سرق للباطن شيئاً من المعاني، صارت حسيات البواطن مجازية لا أصلية، كما أن معاني الظاهر مجازية لا أصلية. وحِكمة الله تعالى في ذلك هو أنَّ الظاهر لا يقوم إلاَّ بين اثنينية الحس والمعنى كما أن الباطن لا يقوم إلاَّ بين اثنينية الحسّ والمعنى. كأن حقيقة الباطن المعنى وشريعته الحس وكأن حقيقة الظاهر الحس وشريعته المعنى، وهكذا.

[النَّفس والفِلس ووجود الحق بينهما]

وأيضاً: اعلم أن كل مَنْ عَرَفَ الحقَّ ووجدهُ، ما عرفه ووجده إلاَّ بين نفسه وفلسه. وكل من جهل الحق سبحانه وكفر به ما جهله وكَفر به إلاَّ بين نفسه وفلسه، فموضع الربح الكامل هو موضع الخسران الكامل. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: الآية 111] أهل الظاهر يفهمونها جنة الآخرة وأهل الباطن يفهمونها جنة الشهود والعيان في الدنيا والآخرة والكل صحيح. وجدت في لطائف المنن لابن عطاء الله قال: «إنَّ لله في الدنيا جنَّةً من دخلها

لم يشتق لجنَّة الآخرة، شتان بين طالب الدنيا والآخرة، وطالب خالق الدنيا والآخرة ماذا وجد من فَقَدَكَ وماذا الذي فقد من وجدك».

[مُشاهدة مَنْ يُشاهد المولى بمثابة مشاهدة المولى فافهم. . . تجلي الله للعبد الكامل]

وأيضاً: مشاهدتك للعبد الذي يشاهد المولى تقوم لك بمشاهدة المولى، وذلك لأنَّ العبد الذي يشاهد المولى ما له من العبودية ليتوه خيالها، وأما هو: فالحق شاهد نفسه بنفسه، ولا عبد، إذ محال أن يعرف الحق غير الحق أو يشهد الحق غير الحق، ولكن إذا أراد الحق جل ثناؤه أن يظهر لنفسه بنفسه في الوسائط، فإنه تعالى يكشف عن وجهه الحجاب فيتجلّى لمن اصطفى من أحبابه من عبادِهِ، فيفنى العبد عند ذلك حتى لا يبقى له أثر ويبقى الحق عند ذلك هو المشاهد لنفسه بنفسه في نفسه. وهو السميع لنفسه بنفسه في نفسه، وهو المتكلم لنفسه بنفسه في نفسه، فيبقى العوام عن ذلك يشاهدون من ذلك العبد خيال العبد لا العبد، لأن العبد قد فني وتلاشى واضمحلَّ، ولا يبقى إلاَّ الحق. وذلك الخيال الذي يشاهده العامة، أعني خيال العبودية، إنما هو في أعينهم لا في الوليّ، لأنَّ الوليّ كان عبداً قبل ظهور الحق له وأما بعد ظهوره له إليه ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: الآية 81] وأهل الحجاب لا يشعرون كأن العبودية هي حق هذا الصقاع. وإن كانت هي التي توصل أهله إليه، العبودية هي الحجاب الذي يَحْجِب عن هذا المقام وهي المفتاح الذي لا يُفْتَح هذا المقام إلاَّ به، بها وصل من وصل، وبها قُطِع من قطع، وهذا الخيال الذي تشهد له العامة هو كما قلنا في بصائر العامة لا في الوليّ. قد تُنْكِر العين ضوء الشمس من رَمَدٍ ويُنْكِر الفم طعم الماء من سَقَم. سبحان من جعل الحجاب هو عين الباب كما جعل الباب هو عين الحجاب. سبحان من يُعَذِّبُ بما يرحم به إن شاء ويرحم بما يعذب به إن شاء، سبحان القادر الحكيم.

[التصرف بالحكمة هو التصرف بالفرق]

وأيضاً: التصرف بالقدرة هو التصرف بالجمع، كما أنَّ التصرف بالحكمة هو التصرف بالفرق. صاحب الجمع يقول للشيء كن فيكون بالوحدانية، وصاحب الفرق يقول للشيء كن فيكون بالإثنينية. والتصرف بالحِكمة فقط عند العامة، والتصرف بالقدرة فقط عند الخاصة، والتصرف بهما معاً، بالحِكمة في وقتها وبالقدرة في وقتها، وبالقدرة في وقتها عند خاصة الخاصة، الحِكمة حكمته تعالى، خَلَقَ عبده الآدمي ووهبها له فضلاً منه عليه، والقدرة قدرته تعالى جعلها خاصة به تعالى، لم يملك

التصرف بها من عباده إلاّ لمن أدخله حضرته من الخاصة، أو من خاصّة الخاصة، وأما من لم يدخله الحضرة من العامة فليس له نصيب في التصرف بالقدرة، بل حسبهم التصرف بالحِكمة وإن كانت الحكمة حِكمته تعالى، والقدرة قدرته. سبحان من خَصّ الخصوص وعمّ العموم بالحكمة والقدرة.

[جمال الحقيقة في مقام النهايات]

وأيضاً: اعلم أن جمال الحقيقة في مقام النهايات هو جلال الشريعة في مقام البدايات. كما أن جلال الشريعة في مقام نهاية النهايات، أساسه هو جمال الحقيقة في مقام النهايات، أي على قدر ما يأخذ المريد من جلال الشريعة في البدايات يأخذ من جمال الحقيقة في النهايات، وعلى قدر ما يأخذ من جمال الحقيقة في النهايات يأخذ من جلال الشريعة في نهاية النهايات، ومن لا جلال له في بدايته لا جمال له في نهايته، كما أن من لا جمال له في نهايته لا جلال له في نهاية نهايته.

يقول صاحب القوانين في هذا المعنى: من ادّعى شهود الجمال قبل تأدّبه بالجلال ارفضه فهو دجّال. ثم قال رحمه الله: اعلم أنه من ضعفت له الزيادة من أهل العادة، أو من أهل خرق العادة، فعليه بخرق العادة في العادة، وذلك لأن الداء هو عين الدواء، والدواء هو عين الداء، هذا لمن كان لله أو بالله.

سأل رجل بعض العارفين فقال له: يا سيدي متى يكون داء النفس دواؤها؟ قال: يكون داء النفس دواؤها إذا خالفت هواها صار من أهل خرق العادة، أو في خرق العادة كما قلنا، فعليه بخرق العادة في العادة، أو في خرق العادة. يرحم الله القائل: وداوي بالتي هي الداء.

حاصله: من لم يخرق العوائد في العوائد، أو في خرق العوائد، فلا نصيب له في خرق العوائد.

[فناء الخاصة وفناء العامة]

ثم قال رحمه الله: اعلم أن الفناء على وجهين، فناء وجودي قهري، وهو فناء العامة. وفناء نفساني اختياري، وهو فناء الخاصة. فناء العامة الوجود يفنيهم قهراً عليهم، ويلتقمهم في جوفه. وفناء الخاصة هم يفنون الوجود قهراً عليه ويلتقمونه في أجوافهم. الوجود مقابل لك وأنت مقابل له، وهو لا يخلو إما تفنيه بالله اختياراً منه وجبراً عليه، فإن لم تفعل أفناك هو اختياراً وجبراً عليك. من لم يجب داعي الإحسان مع الخاصة، أجاب داعي السلطان في زمرة العامة. وشتان بين من يساق بالامتنان، ومن يساق بسلاسل الامتحان.

يقول الشيخ الششتري في بعض أزجاله لبعض تلاميده:

فإن شعرت بالوجود قد لاح في ذاته   هوْدس ولازم الجحود هذك صفاتك

واضرب بترصّك العقود والي عصاتك

[ثمار مقامي الظاهر والباطن]

ولا فرق بين العامة والخاصة إلاّ أن الخاصة كانوا عبيداً لله، ملكوا الوجود بالله، حتى صار الوجود مملوكاً لهم، يتصرفون فيه بما شاؤوا. والعامة بالعكس، كانوا عبيداً للوجود، ملكهم الوجود، حتى صار الوجود مالكاً لهم، يتصرّف فيهم بما شاء. يرحم الله ابن الفارض حيث يقول:

أنت القتيل بأي من أحببته   فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فانظر عبودية الأكوان، وانظر عبودية المكوّن وتأمل.

ثم قال رحمه الله: اعلم أن الظاهر والباطن ليسوا طرقاً، وإنما هما مقامان، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾، من أراد خرق العوائد في الأفعال، فعليه بارتكاب الشرائع الظاهرية. غرس الشرائع الظاهرية يثمر بالأفعال، وذلك أن الأفعال ظلمة، والظلمة عنصرها الفرق، كما أن من أراد خرق العوائد في العلوم، علوم الخبر، وعلوم العيان، فعليه بارتكاب الحقائق الباطنية، غرس الحقائق الباطنية يثمر بالعلوم، وذلك لأن العلم نور والنور عنصر الجمع، والعارف بالله لا غناء له عن أثمار أفعال الفرق، كما لا غناء له عن ثمار علوم الجمع وهو دائماً ليس مع جمع ولا مع فرق وإنما هو مع الحق، والذي يكون مع الحق حقاً، صفته يكون موجوداً مع الموجودين، ومفقوداً مع المفقودين، حيّاً مع الحيّين، ميّتاً مع الميّتين. بل كل حال في الوجود أو ضده، فهو مع ذلك الحال أو مع أهل ضده؛ وذلك لأن الحق تعالى غطّى وصفه بوصفه، ونعته بنعته تعالى. ومن أوصافه ونعوته تعالى أن يكون ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن، الآية: 29] وكذلك العبد الذي يتغطى وصفه بوصف سيده يكون كل يوم هو في شأن، فكما أن أوصاف الحق ليس لها انتهاء، فكذلك أوصاف العبد الذي يكون بالله ليس لها انتهاء، والأمر فوق ما تصفه الألسن فتقصر العبارة وتكلّ ولا يفهم هذا الأمر على حقيقته حتى يوجد. وبالله التوفيق.

[فض ثمار الأفعال والأقوال]

ثم قال رحمه الله: وجود ثمار الأفعال هي الموجبة لفض ثمار الأقوال، وكذلك وجود ثمار الأقوال هي الواجب لفض ثمار الأفعال، وذلك لأن المادة واحدة، لكن

تارة تظهر حسيّة، وتارة تتلوّن فتظهر أنوار ومعاني. فالثمار مواهب، أعني مواهب العلم ومواهب العمل التي ترد على أهل الخصوصية من حضرة الغيوب، من عنصر المشاهدة والعيان، أي هي التي ترد كما قلنا، تارة ترد عليهم أقوالاً وعلوماً، وتارة ترد عليهم أفعالاً وأعمالاً. وهذا التلوُّن من كمال حسنها وبهائها. قال الشاعر:

وغـايـتـي فـي الـحـب أنْ أتَـلـوّن

وهي التي تسمى بالواردات، وتسمى أيضاً بالمعارف، وتسمى أيضاً بالأذواق. وهي لا توجد إلاَّ بتخليص التوحيد من عين اليقين، أو من حق اليقين. أهل عين اليقين بالله، وأهل حق اليقين لله، ولا زائد.

[من أوصاف العارف الكامل]

ثم قال رحمه الله: من أوصاف العارف بالله الكامل، أن يكون يتصرّف في الوجود في جميع أحواله، إذا كان في حال الجمع يتصرّف بالجمع، قدره كالذي يضرب بالشاقور، ويقطع به كل ما يليه، ولا يلتفت إلى المفاصل، وإذا كان حال الفرق يتصرّف بالفرق، حكمته كالموسى الماضي في يد الحجام، يذهب بالشعر من الرأس وصاحب الرأس نائم ولا يشعر به، وإذا لم يكن العارف تصرفه بالحكمة كتصريفه بالقدرة، وتصريفه بالقدرة كتصرفه بالحكمة، فهو ناقص بالحكمة ذلاً وعبودية، وبالقدرة عزّاً وحرية، وهكذا رأينا.

كان أشياخنا، وسمعنا منهم إنهم كانوا هكذا أشياخ أشياخنا رضي الله عنهم، وفي هذا المعنى قال سيدي عبد الرحمٰن المجذوب رضي الله عنه:

أفـقـيـر وأُغـنّـي وأمـدح ولانـي فـي الـحـال بـرانـي

يُـمـنـي وعُـسـري مُـسـرح نـضـرب بْـهَـذي وَهَـذِي

وأيضاً: صاحب المُلك هو الذي مَلَك في التصرّف الخلق بأجمعهم، عموماً وخصوصاً، وأما إذا كان يتصرّف في بعض دون بعض فلا يسمى ملك، والملك أيضاً كله واحد سواء ملك صاحب التصرّف في أهل وقته بعلويات، وهو العزّ. وملك التصرُّف فيهم بالسفليات، وهو الذلّ. الملك يكون بالعز ويكون بالذلّ، وكله واحد.

وقيل: إن الملك الذي ملك الخلق بالذلّ أقوى من الملك الذي ملك الخلق بالعزّ. والدليل على ذلك هو أنه إذا تلاقى ملك الذلّ وملك العز واقترنوا، فإنه على كل حال الحكم لصاحب الذلّ على صاحب العزّ، لا لصاحب العزّ على صاحب الذلّ، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص، الآية: 5]. ملك الذلّ خيره أقوى من خير ملك

العز، وشرّه كذلك أقوى من شرّه. والحق أن ملكهم ملك واحد، كما أن للعزّ ملك وسطوة لا شك، كذلك للذلّ ملك وسطوة لا شك. إلاَّ أن ملك العز جاء للملك من الأعلى، وملك الذلّ جاء للملك من الأسفل، والحق أن الذي ملك أسفل هو الذي ملك فوق، والذي ملك فوق هو الذي ملك أسفل، قال جلّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف، الآية: 84] صدق الله العظيم.

[أهل الوسائط النفسية وأهل الوسائط الجنسية]

وأيضاً: اعلم أن الوسائط إلى الله على فرقتين، فرقة يقال لها أهل الوسائط النفسية، وفرقة يقال لها أهل الوسائط الجنسية. الوسائط الجنسية أخذ بها الخاصة، والوسائط النفسية أخذ بها خاصة الخاصة، وشاركهم فيها العوام. أما العوام فوقفوا مع الوسائط النفسية بجهل وظلمة، فحجبوا عن شهود الحق ولم يهدوا غلا أنفسهم، وخاصة الخاصة، أخذوا بالوسائط النفسية بعلم ومعرفة ونور وذلك لما فقدوا الوسائط الجنسية اضطروا إلى الوسائط النفسية، ومع هذا لم يقفوا معها إلاَّ قدر ملادها لأن الشيء يلد ضده، كما أن الوسائط النفسية والجنسية تلد النفسية، يعني بذلك للعموم، وكذلك خاصة الخاصة وسائطهم النفسية تلد الوسائط الجنسية، والجنسية تلد النفسية، لأن مقام خاصة الخاصة كمقام العامة لا يفرّق بينهما إلاَّ العارف وأما الجاهل فلا يفرق بينهما بل يظهر له أنهما واحد، وما دام الإنسان مع وسائط نفسه فهو عامي، ومهما انتقل إلى الوسائط الجنسية وكان شغله قولاً وفعلاً، فإنه ينتقل إلى مقام الخاصة.

انظر الشيخ الشاذلي لما كان مع وسائط نفسه من تدبير واختيار وغيرهما، وجاء لمولانا عبد السلام نفعنا الله بالجميع، وقال: اللهمَّ إني اغتسلت من علمي وعملي، وكان ذلك منه قولاً وفعلاً، انتقل إلى الوسائط الجنسية فعند ذلك فتح له وانتقل من العمومية إلى الخصوصية.

[باب الخصوصية]

وأيضاً: اعلم أن باب الخصوصية الذي لا محيد لطالب الخصوصية عنه، هو: اللهمَّ إني اغتسلت من علمي ومن عملي، إلاَّ ما يرد عليّ من هذا الشيخ. تركها أبو الحسن الشاذلي رحمه الله سنّة لمن يأتي بعده يطلب الخصوصية. والله ما وجدنا في علم الظاهر وعلوم الباطن باباً أسرع وأقصر من هذا الباب للدخول للخصوصية، لأن الانتقال من تقليد نفسك على تقليد جنسك هو الخصوصية بنفسها، وما دام الإنسان في تقليد نفسه فهو عامي، إلاَّ من رجع من تقليد نفسه على تقليد جنسه، فهو راجع بالحق للحق، وهذا الرجوع له مقام خاصة الخاصة. يا له من رجوع، رجوع بالإذن

والتمكين، والرسوخ في اليقين، وهذا مقام بين مقام العامة إلاّ أن مقام العامة ظلماني بالنفس، وهذا المقام نوراني بالله ولا يعرف هذا المقام إلاّ العارف الذي سلك بلاد المعاني، وأما الجاهل فيلتبسان عليه حتى يظن هذا هو عين هذا؛ ويظن هذا هو عين هذا.

[جمال الحقيقة في مقام النهايات]

وأيضاً: اعلم أن جمال الحقيقة في مقام النهايات هو جلال الشريعة في مقام البدايات. كما أنَّ جلال الشريعة في مقام نهاية النهايات أساسه هو جمال الحقيقة في مقام البدايات.

[توليد الفن هو حياته]

وأيضاً: اعلم أن توليد الفنّ هو حياته وزيادته، وعدم توليده هو موته ونقصه. لأنَّ من لم يكن في زيادة فهو في نقصان. ومن جملة توليد الفنّ مواصلة أهل الفن بالنفس وبالفِلْسِ.

مِنَ التوليد بالنفس: كثرة الكلام مع أهل فنك وكثرة السمع لحديثهم، وكثرة النظر إليهم، وكثرة الشَمِّ لروائحهم، وكثرة الجلوس معهم، والسَّير بالأقدام إليهم على الدوام. ومن التوليد أيضاً: التشبه بهم، والتزين بزيهم وأحوالهم.

ومن توليد الفنّ بالنفس أيضاً: كثرة الجولانِ في البلدان، وكثرة الملاقاة للخلق، خصوصاً وعموماً، حتى لا يعرف عن أحدٍ ممَّن لاقاه من الخلق فقيراً أو عامياً، غنياً أو مفلساً، أو من أهل المخزن أو من أقوياء الناس، أو من ضعفائهم. الضعفاء لا يولد فنّهم إلا مع أهل فنّهم. وأما الأقوياء فيولد فنهم مع أهل فنّهم ومع غير أهل فنّهم. من أراد توليد فنّه من أهل الخصوصية أولاً يلد من بني آدم ثم مع الحيوانات ثم يلد مع الجمادات ثم مع الهوائيات ثم مع العلويات ثم مع السفليات ثم مع نفسه بنفسه لنفسه، حتى لا يجد في الوجود إلاّ نفسه.

وأما توليد الفن بالفِلْسِ فبسخاوته به، وإنفاقه على أهل الفن، كما قيل: المحبّة من غير إنفاق نفاق. وكما قال الشاعر:

أَنْفِقْ على المحبوب روحكَ مع مالكْ ... واشرِ له مرْكوبْ من طيب رأس مالِكْ

كَيْ تَصِلَ المرغوبْ وتبلغ آمالكْ

ومن جملة فضله تعالى عليك أن جعل لك الوصول إليه بهذين البابين: باب نفسك، وباب فِلْسك. سبحان المعطي.

[الوجود أصله مُلك]

وأيضاً: اعلم أن الوجود أصله مُلك، وفروعه مُلك، وثماره مُلك، وكله دائر

على المُلكِ، مُلكه فيه منه، عليه به إليه. المملكة فرق، والملكُوتُ جمع، والفَرْق هو عين الجمع، والجمع هو عين الفرق. ولا ثم إلاَّ الحق والحقيقة أيضاً. إنَّ الأذنُ تزق الروح بالسمع نفعاً وضرّاً كما يزق الفم الجسد بالأكل والشرب نفعاً وضرّاً. السمع معنىً يزق المعنى، وهي الروح، والأكل والشرب حس يزق الحس، وهو الجسد، وأنت قائم بينهما، أي بين حسّ ومعنى. معناك قائم بحسك وحسك قائم بمعناك، ولو بطل حسك لبطل معناك، ولو بطل معناك لبطل حسك، ولكن بوجودهما معاً كنت أنت موجوداً معدوماً أبداً، حيّاً ميّتاً أبداً، مَلِكاً عبداً أبداً، عزيزاً جليلاً أبَداً، قادراً عاجزاً أبداً، قوياً ضعيفاً أبداً، علويّاً سفلياً أبداً، قريباً بعيداً أبداً، مقطوعاً موصولاً أبداً، ظاهراً باطناً أبداً، إلى ما ليس له حصر من الأضداد التي جمع فيك الحق تعالى بحكمته، سبحان الحكيم العليم، يرحم الله شيخ شيوخنا حيث قال:

القَلْبُ سُلطانٌ في دارْ والعينْ مفتاح باب
والأذن سمّاعَةُ العَازْ هي والروح ثياب

[الفتح على قدر تشوير همّة صاحبه]

وأيضاً: الفتح يكون على قدر تشوير همَّة صاحبه، إن كبيرة فكبيرة، وإن صغيرة فصغيرة، وإن عظمت فعظيمة، وإن حقرت فحقيرة، وأما ظهور نتائج الفتح فمجموعة في اتباع شهاوي النفس وتصريفها في مأموراتها من غير اتهامٍ لها فيه، لأنَّ النفس جاءت من حضرة الحق لا تشير إلاَّ للحقّ.

العارف مهما صحَّ تشويره للحق بحيث يعرف ذلك من نفسه، أو يُعرّفه أحد ممن يثق به من أهل فنّه، يصير اتِّهام نفسه عليه حرام، وكلامنا هذا مع أهله لا مع جملة الناس. وهذا التحريم بإجماع أهل المعرفة بالله الماهرين في علوم النفس، شرّفنا الله بذكرهم وجعلنا وإيَّاكم من المحسوبين على جملتهم.

وقولنا: مع أهله، يعني المحققين لدقائق العلم بالله، ولا شك أن مخالفة النفس تجمع أهلها على الله تعالى، واتباع النفس أيضاً يجمع أهله على الله، لكن لكل مقام مقالٌ كأن تشويرَ النفس لمولاه هو إسلامها، وعدم تشويرها لله هو كفرها، من كانت نفسه كافرة لا يجمعه على الله إلاَّ مخالفتها، ومن كانت نفسه مسلمة لا يجمعه على الله إلاَّ اتباعها، وكل واحد مطالب بما يليق بمقامه.

[ثمار أشجار الظاهر والباطن وأثرهما]

وأيضاً: أشجار الظاهر لا تقرُّ عين غارسها حتى تظهر له الأثمار، وثمار أشجار الظاهر هي البواطن، الثمار تزيد ظهوراً وهو يزيد راحة وتنعماً حتى تكمل ثماره وتنتهي عند ذلك تكمل راحته ونعمته وتنتهي. وكذلك من غرس أشجار الباطن لا تقرّ عينه

حتى تظهر له النتائج وهي الثمار، وثمار أشجار الباطن هي الظواهر. صاحب الباطن، ثمار الظاهر تزيد له ظهوراً، وهو يزيد راحة وتنعماً، حتى تكمل ثماره وتنتهي عند ذلك تكمل نعمته وراحته وتنتهي. صارت ثمار الظواهر هي البواطِنِ وبالعكس، وثمار البواطن هي الظواهر، نتائجها البواطن كما أنَّ البواطن نتائجها الظواهر، وهذا القياس ظاهر في أغراس الأرض بحيث تجد الأشجار تصير ثماراً وكذلك الثمار تصير أشجاراً وهكذا.

[الحياة كامنة في الموت والموت كامن في الحياة]

وأيضاً: عبارتان صحيحتان عن النفس مأخوذتان من بلاد الخصوصية في عالم النفس وكل واحدة فيها منهج صار عليه بعض الخاصَّة. الأولى: أهلها نظروا أن حياةَ الإنسان هي روحه، وموته هو جسده، وهو الآن في الدنيا حياته كامنة في موته، ولما كانت الحياة كامنة في الموت صار الحكم للموت على الحياة، من أجل ذلك لم تكن للإنسان راحة في الدنيا، وسيكون ضدّ هذا في الآخرة وهو أنه سينقلب حكم ذلك. كما كانت حياته، وهي روحه، كامنة في موته وهو جسده، سيكون في الآخرة موته، وهو جسده، كامن في حياته وهي روحه، فيصير الحكم للحياة على الموت فيحصل للإنسان من أجل ذلك الراحة.

لمَّا كان الحكم للموت كان متعوباً، ولما صار الحكم للحياة صار مستريحاً. وأهل العبارة الأولى: نظروا عكس هذا الأمر ونظرهم في ذلك هو أنه ظهر لهم أن الإنسان في الدنيا موته كامن في حياته، وسيكون في الآخرة حياته كامنة في موته. وذلك لأنَّ جسده ميّت، وهو الآن حي بحياة روحه وسيكون في الآخرة عكس ذلك، وهو أن روحه حية وستكون ميتة، أي يموت الجسد كما كان في الدنيا، الحكم للحياة على الموت سيكون في الآخرة الحكم لموته على حياته. وهاتان العبارتان كلاهما يدلّ على أن الإنسان حيّ ميّت، وسيكون في الآخرة ميت حي، صار موته لا يفارق حياته، وحياته لا تفارق موته، سواء كان في الدنيا أو في الآخرة، إلا أن عادة الله جَرَت في خلقه أن جعل سبحانه من كل شيءٍ اثنين، ولكن الحكم للواحد على الآخر في الوقت، ويعقب ذلك الوقت وقتاً آخر، يصير المحكوم عليه هو الحاكم والذي كان حاكماً هو المحكوم عليه. هذا في الإنسان وفي الوجود.

[قف على كلام المجذوب وتأمله]

وأيضاً: انظر يا أخي هذه الأبيات وتأملها التي قالها شيخ شيوخنا سيدي المجذوب نفعنا الله به تجد فيها والله دواء ما يقع لك من جفاء الأحبة، الذين لم تكن تظنُّ صدور ذلك منهم ولكن أين تجد أحبَّ الأحباب إليك تجد أعدى الأعداء إليك.

موضع الخير: القوّة والكمال والصِّدْق. وموضع الشرّ: القوة والنقص والكذب. ما طلع شيء وظهر إلاّ وتجد ضده طالعاً معه مقروناً فيه، طلوعه على قدر طلوعه. قال المجذوب هذه الأبيات المشار إليها:

وَنَضْبَرْ لِكَلْمَةِ القَدْر بالمَسْكَنة نأخُذْ الثّارْ
وَنَرقُدْ لَه إجْفَانِي ونَضْبَرْ لا تْعَوَّجْ الأيَّام
حتى يواتِيني ازْمَانِي

وقال أيضاً:

نَرْقُدْ على شَوْكَة الطلخ ونضْحَكْ في وجهْ مَنْ نْعَادِ
ونَرْمِي كَعْبتِي في الطرف ونَجْرِي حتَّى انْفَادِ

[بقاء الإنسان وصلاحه في الاختلاف]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحِكمة التي قام بها الوجود قام بها الإنسان، هي الاختلافات. صلاح الإنسان وفناؤه جعله الله بالاختلافات، وفساد الإنسان وفناؤه بالوقوف مع حال دون حالٍ، وكذلك الوجود حكمه وحكم الإنسان واحد، هكذا في الحسيات، وهكذا في المعنويات، لأنَّ الله تعالى حكيم جميل، وكل ما خلقه الله فهو في غاية الحكمة ونهاية الجمال، وكل ما أوجد فيك وفي الوجود فأنت فيه في غاية الاحتياج. لكن قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118] صار الاختلاف شَرْط في بقاءِ الإنسان وبقاء الوجود وعدم الاختلاف شرط في فناء الإنسان وفناء الوجود. لأجل هذا المعنى تجد الإنسان وكذلك الوجود ما دام مختلفاً في أكله أو في كلامه أو في سمعه أو في بصره أو في شمِّه أو في مشيه أو في جلوسه أو تحريك يده أو سكونها أو تحريك وجهه أو سكونه وهو زائد في صحته من جهة الحس أو المعنى، ومهما يقف مع شيء دون ضدِّهِ يدخل عليه الفسادعلى قدر وقوفه حتى لو تمادَى الوقوف لاضمحلَّ الإنسان وتلاشى وكلها يقول: يليق كذا، ولا يليق كذا، فهو جاهل بحكمة الله تعالى في نفسه وفي غيره. وهذه الحكمة جمعَت بين طِبِّ الأشباح وطبِّ الأرواح وطب الوجود، وكذلك الزيادة كلها ما هي إلاّ مع وجود الخِلاف والنَّقص كله ما هو إلاّ مع عدم الاختلاف في الوجود وفي الإنسان.

[الائتلاف جَمْعٌ والاختلاف فَرْق. . . تجلى الله في الإنسان]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإئتلاف جمعٌ، وهو المُلك والاختلاف فَرْق وهو المِلْك.

وهذا المُلك والمِلك حالتان دائمتان يتعاقبان على الإنسان أبداً، لا يخلو الإنسان، إمّا مَلِكٌ مجموع أو مملوك مفروق لا زائد. وهذا التقلّب به استمرّ وجود الإنسان، إذ لو كان المُلك دون المِلْك لكان بطلاناً. وكذلك لو كان المَلِك من غير مُلكٍ لكان نقصاناً، ولكن بالجمع بينهما قام الملك والسلطان. سبحان من جعل مُلكه في مِلكه، كما جعل مِلكه في مُلكِه على قدر ما يعظم المُلك يعظم المِلك وعلى قدر ما يعظم المِلك يعظم الملك. وجعل هذه الأمور العظمى كلها مجموعة في الإنسان تجلّى به بكمال الظهور واختفى فيه بكمال البطونِ، إذا نظرت للإنسان في حال تجلّي الحق فيه وجدته مَلكاً حقاً، وإذا نظرت إليه في حال تجلّي بطون الحق فيه وجدته عبداً حقاً. ويعض هذا الأمر هو الذي حَمَل الششتري رحمه الله على قوله: أنا المحبّ والحبيب ما ثَمّ ثاني. سبحان من خصّ هذا الإنسان بهذا الأمر العظيم.

ومن ذلك أيضاً: أنك تجد الإنسان على قدر طلوعِهِ في المُلكِ يكون نزوله في المِلك. وعلى قدر نزوله في المِلك يكون طلوعه في المُلك. لو وُزِنَ طلوعه مع نزوله لوجد معتدلاً إذا كان النزول اختياري يكون الطلوع على قدره قهري، وإذا كان الطلوع اختياري يكون النزول على قدره قهري. هكذا جرت عادة الله في خلقِهِ سبحان الحكيم العليم.

[المُلْك والمِلْك]

وأيضاً: اعلم أنَّ المُلكية والمِلكية حالتان يتعاقبان على كل بشَرٍ، واحدة تطرْد الأخرى كما يطرد الصيف الشتاء، وكما يطرد الشتاء الصيف. وكل من أراد دوام المُلكِ دون المِلْك أو دوام المِلك دون المُلكِ فهو كمن أراد أن يكون الصيف بلا شتاءٍ أو الشتاء بلا صيفٍ، لكن الخصوص سلكوا المِلكَ اختياراً، وهي العبودية حتى فاجأهم المُلك قهراً فصاروا ملوكاً أحْراراً، أحبّوا أم كَرِهُوا، والعوام بخلاف ذلك، سلكوا المُلك اختياراً وهو الحرية، حتى فاجأتهم العبودية قهراً وهي المِلك فصاروا عبيداً ممالك أحبُوا أم كَرِهُوا، جرت عادة الله سبحانه بأن تكون الأشياء كامنة في أضدادها. قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: الآية 62].

[المربي والمتربي]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان كله لا يخلو إما أن يكون مُرَبِّياً أو يكون متربّياً، لا زائد. مهما تنتهي تربية نفسه يشرع هو في تربية غيره. هاتان حالتان لا ثالثة لهما، ومن أراد الثالثة فهو البطلان والوقوف. والبطلان والوقوف شيء لم يخلقه الله تعالى، ومن

أراده فقد أراد مصارعة القدرة الأزلية الأبدية. ولا شك من أراد مصارعة القدرة يصرع على كل حال.

[مفاتح الأشياء التمسك بأضدادها]

وأيضاً: سمعت الشيخ نفعنا الله به يقول: مَفَاتِحُ الأشياء كلها هو التمسك بأضدادها على الدوام، بموافقة أهل الفنّ والقرب إليهم.

[حصول التعظيم]

وأيضاً: شتَّان بين مَن عَرَفَ الله تعالى في كل شيءٍ، وبين مَنْ عَرَفه في شيءٍ دون شيءٍ. يعبر عن هذا المعنى بحصول التعظيم، لأقوام في كل شيء بكل شيء لكلّ شيء، وهم العارفون، وآخرون حصل لهم التعظيم في شيء دون شيء، أو في شيء دون أشياء. صار التعظيم به تكون البدايات وإليه تكون النهايات. والناس فيه على مراتب ومقامات، كل واحدٍ أخذ منه على قدر ما فتح له وإلاَّ فما هو المعَظِم للتعظيم؟ وما الذي يعظم؟ وما الذي لا يعظمه أحد، لكن أهل مكة أعرف بشعابِها. والكلام مع أهله.

[ما يستدل به على الخصوصية]

وأيضاً: أسْرع ما يستدل به على خصوصية الإنسان أمران: علمه بالحقيقة أو عمله بها. وأما إذا لم يكن عِلم ولا عمل فلا خصوصية. وهذا العلم في الحقيقة على قسمين، وكذلك العمل بها أيضاً على قسمين: العلم بمغيبات الوجود، والعلم بمغيبات النفوس يدلأن على الخصوصية، وكذلك العمل بالوجود، والعمل بالنُّفوس يدلأن على الخصوصية، لأنَّ مَنْ مَلك العلم بمغيبات النفوس حتماً يملك العمل بالوجود. يكفيك في ذلك: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ».

[الإنسان حي ميت]

وأيضاً: سُبحان مَن حكم في عباده بين أرواحهم وأجسادهم فعدَل كما حكم في الزّمان بين البرد والحرارة فعدل، جعل الأجساد سطوة وزماناً في الإنسان مع وجود الأرواح كما جعل للبرد سطوة وزماناً في الوجود مع وجود الحرارة. ويعقب على ذلك الحال ضده فينعكس الأمر فيجعل سبحانه بحكمته للأرواح سطوة أيضاً وزماناً في الإنسان مع وجود الأجساد، وكما ينعكس الأمر في الإنسان كذلك ينعكس في

الوجود، فيكون الحكم للبَرْدِ، فينقلب الأمرُ فيجعل سبحانه للحرارة سطوة وزماناً في الوجود مع وجود البَرْدِ، كأنَّ زَمَن الأجساد من الإنسان وهو زمن الدنيا بمنزلة الشتاء من الوجود. وكذلك زمن الأرواح من الإنسان وهو زمن الآخرة بمنزلة الصَّيف من الوجود. يرحم الله القائل:

غَداً تُجزى النفوس بما صَنَعُوا ويَحْصِدُ الزَّارِعُونَ ما زَرَعُوا

صار الإنسان على هذا القياس ميّتاً في الدنيا والآخرة، ومن قال حيٌّ فقد صَدَقَ لأنه حيّ في الدنيا والآخرة، ولكن في الدنيا الحكم لموته على حياته، وفي الآخرة بالعكس، الحكم لحياته على موته مع أنه في الدنيا مَوْته ما قام إلاَّ بحياته وفي الآخرة حياته ما قامت إلاَّ بموتِهِ. ولكن الحكم للغالب في الوقت، وإنما قِسْنَا الإنسان بالوجود لأنَّ الإنسان نسخةٌ من الوجود. وقيل: إن الوجود نسخة من الإنسان والكل صحيح. يقول سيدنا عبد القادر الجيلاني رحمه الله ونَفَعَنا الله به في بعض قصائدِهِ:

ونفسُكَ تَحْوِي بالحقيقة كُلَّها أشَرْتُ بِجِلِّ القَوْلِ ما أنا خَادِعُ

[ما نقص في الحِسّ زاد في المعنى]

وأيضاً: ما نقص في الحسيات زاد في المعاني، وما نقص من المعاني زاد في الحسيات. والإنسان بينهما، العارف إذا أراد المعاني يخرب الحس فتتقوى المعاني، وإذا أراد الحسّ يخرب المعاني فيتقوّى الحس، وهو برزخ بينهما. كأن الحس والمعنى عبدان له وهو زائد عليهما. والجاهل بالعكس كأن الحس والمعنى مَلِكان، وهو مملوك لهما، وهما يتزاحمان عليه، الذي ظفر منهما يفعل به ما شاء قهراً عليه صار العَالِمُ مَلِكاً والجاهل مملوكاً.

[الحكمة لا تشفق من أحد]

وأيضاً: اعلم أنَّ حكمة الله تعالى لا تشفق من أحدٍ، ولا تبالي بأحدٍ، مهما توفَّرَت شروطها تظهر على كل حالٍ، سواء توفَّرت شروطها عن علم مَن عَلِمها أو عن جهل من جهلها، وحكمة الله تعالى في الأمور كلها هي العبودية، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: الآية 269] . وقولنا: مهما توفرت شروطها تظهر ثمرتها وثمرة أوصاف العبودية هي ظهور أوصاف الربوبية ما ظهرت أوصاف العبودية إلا ظهرت أوصاف الربوبية بلحقها. قال في الحِكَم: تحقق بأوصافك يحققك بأوصافه. وقال أيضاً: إن كنت لا تصل إليه إلاَّ بعد محقك لأوصافك فلا تصل إليه

أبداً، ولكن إذا أراد أن يوصِّلك إليه غطّى وصفك بوصفِهِ ونعْتك بِنَعْتِهِ، فوصَّلك إليه بما مِنه إليك، لا بما منك إليه. انظر كيف قدر الشيخ، نفعنا الله به، تغطية أوصاف العبودية بأوصاف الرّبوبية.

والعبودية على قسمين، عبودية قبل الفناءِ: وهي عبودية المريدين لمشايخ أهل الطريقة وهي شرط في الأحوال للطريقة، فإذا بَطلت بطل الدخول. وعبودية أخرى بعد الفناء، وهي التي تسمَّى بالبقاء، ويقال لها: عبودية أهل النهايات، وهي مرتبة المُلْك. عبودية أهل البدايات، أدب مع مشايخ أهل الطريقة. وعبودية أهل النهايات أدبٌ مع الحق في حضرة الشهود على بِسَاطِ التحقيق. العبودية بها يكون المبتدأ وإليها يكون المنتهى، وعلى قدر تقويتها في البدايات يكون تقويتها في النهايات.

قال في الحِكم: البدايات مَجْلَى النهايات. وقال أيضاً: مَن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، وما بين البدايات والنهايات هو مقام الفناء، وهو مقام ارتحال العَبْدِ من عَالَم نفسه إلى عالم ربِّه. عبودية البدايات، هي مفتاح الفناء. من لا عبودية له في البدايات لا نصيب له في الفناء، فضلاً عمَّا بعده كما أنَّ عبودية النهايات هي مفتاح البقاء. من لا عبودية له في النهايات لا نصيب له في البقاءِ. فضلاً عما بعد البقاء، ومن المبتدئين من تختلف عليه عبودية البدايات ويظن أنه قد حصَّل على عبودية النهايات، ويقف معها، فتزلّ قدمه فيحل له من ذلك الوقوف الرضى على النفس، ورؤية التعظيم لنفسه على عباد الله، وحب الرياسة، وحب الدنيا، وحب الجاه والفرح بإقبال الخلق عليه، والحزن عند إدبارهم عنه، إلى ما ليس له حصر من الخصال الرديئة، التي تُنَاقِض له عبوديته، فإذا انتقضت له عبوديته غلق الباب في وجهه وطرد عن باب مولاه، أعاذنا الله من ذلك، وهذه أعظم المصائب، وهي لا يصاب بها الكثير من أهل البدايات إلاَّ من دخل الطريقة من غير رفقة المشايخ الماهرين العارفين بدسائس النفوس وشعبها. وسياستها في ذلك، كما قيل: ما أفلح من أفلح إلاَّ بصحبة من أفلَحَ.

وقال في الحِكم: إنما حُرِموا الوصول لتضييعهم الأصول. وما بين عبودية المبتديء وعبودية المنتهي ما بين الحيّ والميت. يقول في هذا المعنى أبو المواهب: تشبه الجهال، هيهات هيهات، ليس الحال كالحالِ، الفناء مَهْد الولاية ومن لا مهد له لا ولاية له، ومن لا عبودية له لا فناء له، العبودية هي مفتاح الفتوحات كلها غيباً وحاضراً.

[من تصدّر لتربية المريدين قبل البقاء]

وكل مَنْ تصدَّر لتربية المريدين قبل ورود مقام البقاء فهو ضالّ لنفسه ولمن تبعه،

وذلك لأنَّ صاحب مقام البقاء قد فَرغَ من تربية نفسه وتهذيبها ومن فرغ من تهذيب نفسه لا بأس به إذا تصدَّر لإرشاد غيره، بخلاف صاحب مقام الفناء.

[صاحب الفناء لا يربي غيره]

مثل صاحب الفَنَاءِ، كالأجورة الملقية في بيت النَّار تطبخ، لا تدري أن تخرج منه صحيحة أو معيبة، فصاحب الفناء بمنزلة ابن العشرين سنة، وصاحب مقام البقاءِ بمنزلة الأربعين سنة، وما قبل العشرين إلى العشرين تشوير للفناءِ، كما أن ما بين العشرين إلى الأربعين تشوير للبقاءِ.

والعبودية كما قلنا: هي مفتاح الجميع في الأحوال كلها. اللَّهم اجعلنا عبيداً لك في جميع الحالات، وعلِّمنا من لدنك علماً نصير به كاملين في المحيا والممات.

أنظر يا أخي هذه العبودية ما أشرفها وما أعظمها، التي اختارها المصطفى ﷺ عن كل ما خيَّره الله تبارك وتعالى فيه، فاختار أن يكون نبيّاً عبداً، يجوع يوماً ويشبع يوماً، ولو وجد شيئاً أفضل منها لاختاره في كل ما خيَّره فيه مولاه سبحانه. والنبيّ ﷺ هو إمام العارفين لم يَجِد شيئاً أفضل منها فاختارها لنفسه وأمر بها كافة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وتابع التابعين ومن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، رضي الله عنهم.

[العزّ يثمر بالذّل وبالعكس]

وأيضاً: الكلام شجرة العِزِّ، وهي لا تثمر إلاَّ بالذلِّ لمن غرسها. والصَّمْت شجرة الذلِّ، وهي لا تثمر إلاَّ بالعزِّ لمن غرسها. وهكذا جرت سنَّة الله في الوجود بأسره، غيباً وحاضراً، حساً ومعنىً. وإن حققت تجد هذا الوصف في كل الأشياء، لا تجد الأشياء إلاَّ في أضدادها: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [يونس: الآية 31].

والكلام حقيقتان: ما في الإنسان شيء أقوى منهما وأمضى منهما، وقولنا: شجرة الكلام عِزّ وثمارها ذلّ، يكون الكلام في أول النطق به عِزّاً، ثم به ينقلِبُ من حينه فيصير ذلاً على صاحبه. شجرة أغراس الحس تثمر بعد حينٍ وشجرة المعاني تغرس من حينها تثمر فلا تجد ما بين غرسها وثمرها ما بين الاهتمام والفعل به.

[السكر والصحو ومناجاة الحق وعالم الخلق وعالم الحق]

وأيضاً: الوليّ تارة يناجي ربَّه من نفسه بنفسه في نفسه، وتارة يناجي جنسه في نفسه بنفسه من نفسه، ساعة مناجاة الحق سكر، وساعة مناجاة الخلق صحوٌ، وهو دائم بين سكر وصحو، صارت نفسه كأنها برزخٌ بين عالمَيْن: عالم الحق وعالم الخلق.

وإن شئت قلت: عالم الشرائع، وهو عالم الخلق. وعالَم الحقائق وهو عالم الحق، كما قيل: من تشرَّع ولم يتحقق فقد تفسَّق، ومن تحقق ولم يتشرَّع فقد تزندق، ومن جمع بين الحالتين فقد تحقق.

[إظهار شرف الصفات]

وأيضاً: اعلم أنه لا يظهر شرف الصفات إلاّ إذا وُجدت عقب وجود الذّاتِ، عند ذلك يظهر شرفها، ويرفع قدرها، مثل الكلام بعد الصمت، والطعام بعد الجوع، أو الرخاء بعد الشدّة، أو العطاء بعد المنع، أو الراحة بعد التعب، أو السَّعة بعد الضيق. وأما إذا وجدت الصفات بلا ذات فتُهان، ويُهَان من أتى بها، ولا يُدرى لها قدر ويُزدرى بها، كما يُزدرى بكثرة الكلام دون صمتٍ، والطعام دون الاحتياج إليه والرخاء دون الشّدة، وكثرة العطاء دون المنع، والراحة دون التعب، والسعة دون الضيق. الأشياء لا يعرف قدرها إلاّ بوجودها مع أضدادها وإلاّ فتُهان، ويُهان من أتى بها.

[ذُلّ الأفعال هو عِزّ الأقوال]

وأيضاً: صاحب الفناء ذلّ أفعاله هو سبب عِزّ أقواله، بذلك تجده مملوكاً في مِلكه، عزّ الفناء مؤسس على ذل الأفعال، كما أن عزَّ الفناءِ مؤسس على ذلّ الأقوال. والفاني بلا ذلٍّ في أفعاله لا عِزّ له في أقواله كما أن الباقي بلا ذلّ في أقواله لا عِزّ له في أفعاله. ومن ثبت فناؤه ثبت بقاؤه ومن لم يثبت فناؤه لم يثبت بقاؤه، وعِزّ الأقوال لا يكون حتماً إلاّ مع ذُلّ الأفعال. كما أنَّ عِزَّ الأفعال لا يكون حتماً إلاّ مع ذلّ الأقوال، وعِزُّ الأقوال مع عزّ الأفعال، اجتماعهما محالٌ، وذلك لأنَّ الاختلاف لا بد منه، به قامت بنية الإنسان. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118] ولو عدم الاختلاف في بنية الإنسان لهَلِك من حينه واضمحَلَّ وتلاشى سبحان من خلق الإنسان في أحْسَن تقويم، وجعله مختلفاً من جميع جهاته، أقواله قولٌ خِلاف قَوْلٍ، وأفعاله فِعل خلاف فعلٍ، وذاته عضوٌ خلاف عضوٍ، وصفاته صِفة خلاف صفة وأحواله حال خِلاف حالٍ، ومقاماته مقام خِلاف مقامٍ، وأوقاته وقت خِلاف وقْتٍ، وطعامه طعام خِلاف طعام، وإرادته إرادة خِلاف إرادة، إلى ما لا يَعلم حدَّه من الاختلافات التي احتوى عليها إلاّ من خَلَقها فيه بحكمته وقدرته سبحانه.

[لا يخبر عن الحرب إلاّ المُستشرف عليها]

وأيضاً: اعلم أنه لا يأتي بأخبار الحَرْبِ إلاّ المستشرف على معركته. وأمّا

المقاتل، فقد شغل بأفعال الحَرْب عن أخبار الحرب. الخبرُ علمٌ، والأفعال عمل، والعلم محله البواطن، والعمل محلهِ الظواهر، والإنسان لا يشغل ظاهراً وباطناً أبداً: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية 4] جرت سنَّة الله تعالى في عبده الإنسان أنه إذا شغل ظاهره بالعمل بطل عِلْمُ باطنِهِ، وإذا شغل باطنه بالعلم بطل عمل ظاهره، والجمع بين العلم والعمل في الإنسان في لحظة واحدة محال. ومن قال باجتماعهما فهو جاهل بنفسه ولا شك أن الجاهل بنفسه هو الجاهل بربِّه. والنَّاس على فِرْقَتين: عامَّة وخاصَّة، والعامَّة على فِرْقتين أيضاً: أهل الأفعال، وهم الملوك منهم، وأهل الأقوال، وهم الممالك لهم.

وكذلك الخاصَّة على فرقتين أيضاً: أهل الأفعال، وهم الملوك منهم. وأهل الأقوال، وهو الممالك لهم. ولو كان أهل الأفعال من العامة هم الملوك على العامة، وأهل الأفعال من الخاصة هم الملوك على الخاصة، لما كان لهم ذلك، وذلك لأنَّ صاحب العلم عُلْوِي وصاحب العمل سُفْلِي. والسفلي لا تكون يده إلاَّ على العلوي على كل حالٍ. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القَصص: الآيتان 5،6] .

[صاحب البقاء وصاحب الفناء]

انظر، إن كنت صاحب علم بالطريقة ولك فيها نصيب بالتحقيق والتدقيق، انظر أهل مقام الفناء لماذا ينكرهم الناس جميعاً؛ وذلك لأنَّ مقامهم مقامُ علوٍّ وعزٍّ، وعظمة وارتفاع، ومُلك في بواطنهم. فلذلك أنكرهم الخلق كلهم في الظواهر. وانظر أهل مقام البقاء لماذا تجد الناس كلهم يخضعون إليهم عبيداً لهم عند أمرهم ونهيهم، وذلك لأن مقامهم مقام عبودية وذُلّ وضعف وخفضٍ ومِلك في بواطنهم. فلذلك آواهم الخلق جميعاً حتى صاروا ملوكاً على ظواهر الوجود بأسره، لكن لا بقاء إلاَّ بعد الفناء. كل باقٍ فانٍ وليس كل فانٍ باقٍ، وكل من ادَّعى البقاء قبل الفناءِ مغرور مخدوع، لعبت به نفسه وكذبت عليه مثله كالذي بنى قصراً من غير أساس ولا يفرق بين الباقي قبل الفناء والباقي بعد الفناء إلاَّ من حصل له الفناء بمقام الفناء وحصل له البقاء بمقام البقاءِ، بعد ورود مقام الفناءِ. صاحب مقام الفناء لما تعزَّز على الوجود بأسره تعزز عليه الوجود بأسره، وصاحب مقام البقاءِ لما تذلّل للوجود بأسره تذلّل له الوجود بأسره. صاحب مقام الفناءِ جماله لنفسه وجلاله للوجود، فلذلك صار منكوراً منفرداً في الوجودِ بأسرهِ. وصاحب مقام البقاءِ جلالهُ لنفسهِ وجماله للوجود، فلذلك صار معروفاً محبوباً مَلِكاً

مؤيّداً على الوجود بأسره. الفناء مفتاح المُلك وبابه، والبقاء تمكين الملك وقراره. وبالله التوفيق.

[الجمع بالأقوال، والفرق بالأفعال: الذكر والفكر]

وأيضاً: إذا أردت أن تَمْلِك الجمع، عليك بالأقوال. وإذا أردت أن تملك الفَرْق عليك بالأفعال. والأقوال قول الباطن وهو الفكر، وقول الظاهر وهو الذِّكر.

إذا تمسَّكت بالذِكر، وهو قول الظاهر، فإنه يوجد لك قول الباطن، وهو الفكر، وإذا تمسَّكت بالفكر وهو قول الباطن فإنه يوجد لك قول الظاهر، وهو الذِّكر. ومهما اجتمع فيك الذكر والفكر فإن شموس الجمع تشرق عليك وتلوح من بينهما، لأنَّ الجمع معنىً والأقوال كلها معاني، كأن الفِكرة أُنثى والذِّكر ذَكَر، فإذا تناكحا ازداد لهما ولد اسمه الجمع. كما قال الششتري رحمه الله: لا تنظر للأواني، وخض بَحْرَ المعاني لعلك تَرَاني. والرؤيا إذا خرجت من الأقوال فلا عجب، لأنَّ النظر معنى والأقوال معاني. وكذلك الأفعال، فعل الظاهر وهو العوائد، وفعل الباطن وهو خرق العوائد. ومفتاح خرق العوائد هو العوائد، كما أن مفتاح العوائد هو خرق العوائد. ومهما اجتمعت العوائد وخرْق العوائِدِ فإنَّ شموس الفَرْقِ تلوح من بينهما، لأنَّ الأفعال كلها حسيات، والفرق كله حس. العوائد أُنثى، وخرْق العوائد ذكر، فإذا تناكحا ازداد لهما ولد اسمه الفرْق، وإذا أردت النتائج اجمع قولك الظاهري والباطني يصير ذكراً، وفعلك الظاهري والباطني يصير أنثى وزوجاً للذَّكَرِ.

[نتائج الحسّ والمعنى تلد عارفاً يتصرف في الوجود بأسره بكلمة كن بأمر الله وإرادته قدمه على قدم النبي ﷺ]

فإذا وقع التناكح بينهما، فإنما يلدانِ لك ولداً تخضع له رقاب أهل السماوات السبع، والأرضين السبع بأمر الله تعالى. صفاته: العلم والعمل به. وذاته: النور. واسمه: خليفة الله تعالى في أرضه. وأقواله: كُنْ، بأمر الله فيكون. وأفعاله: الوجود يُقَلِّبه في يده كَكُرةٍ. وإرادته: كلما ترى يبرز في الوجود بأسره لا يَبْرُز إلاَّ عن مشاهدته وإرادته. قدمه على قَدَمِ النبي ﷺ وأخلاقه على أخلاقه، لأنه جليس النبي ﷺ، ووديده وحبيبه، في حضرة الإحسان، بين يدي المَلِك الدّيّانِ.

[أوصاف الربوبية كلها جمع]

وأيضاً: اعلم أنَّ أوصاف الربوبية كلها جمع حتماً، لا يخرج منها إلاَّ الفَرْق، كما

أنَّ أوصاف العبودية كلها فَرْق، والفَرْق حتماً لا يخرج منه إلا الجمع، ومن أراد أن يفترق عن كل شيءٍ وبكل شيءٍ وربما يفترق حتى عن نفسه، فعليه بالتخلُّق بأوصاف الحرية. ومن أراد أن يجتمع بكلِّ شيء وفي كل شيء وعلى كل شيء وربما يجتمع حتى بنفسه، فعليه بالتخلُّق بأوصاف العبودية.

وأوصاف الحرية مثل العزِّ والكِبْرياء والقدرة والغنَاءِ والقوة والسمع والبصر والكلام، هذه أوصاف الحرية وهي كلها جَمْع، من تخلَّق بشيء منها افترقت أموره أحَب أم كره. والعبودية مثل الذّلّ والتواضع والعجز والفقر والضعف والصمت وغضّ البصر وعدم السمع. هذه بعض أوصاف العبودية، فإن أموره تجتمع كلها، أحَبَّ أم كره، حتى ربما يؤدّيه ذلك لاجتماع قلبه على ربِّه وبربِّه وهذا هو المطلوب. قال بعض الفقراء: والله ما وجدنا العِزَّ حقاً إلاَّ في الذلّ. قال في الحِكَم: تحقق بأوصافك، يمدّك بأوصافه. من أراد أن تُفتح الأبواب كلها في وجهه فعليه بالتخلق بأخلاق الحرية.

[الرزق الحسي والرزق المعنوي]

وأيضاً: إنَّ الله تعالى جعل للعبد رزقين: رزقاً حِسيّاً وهو رزق البدن، ورزقاً معنوياً هو رزق الروح. وقلب الإنسان لا تدخل فيه همّتان، وإنما يحمل همَّة واحدة فقط. إما همَّة الرزق الحسي أو همَّة الرزق المعنوي فقط. من طلب الرزق الحسي طلبه الرزق المعنوي ومن طلب الرزق المعنوي طلبه الرزق الحسي. المشتغل بالرزق الحسي متعوب في بَدَنِهِ، جاهل بنفسه، جاهل بربِّه. والمشتغل بالرزق المعنوي مستريح في بدنه، عارف بنفسه، عالم بربه. صاحب الرزق الحسّي ظلماني القلب، وإن كانت نورانيته في ظاهره وصاحب الرزق المعنوي نوراني في القلب، وإن كانت ظلمانيته في ظاهره. صاحب الرزق الحسّي ظلمة الحس تتلفه عن المعاني، وإذا فقد المعاني يصير جاهلاً بنفسه، وإذا كان جاهلاً بنفسه، فهو جاهل بربه. وصاحب الرزق المعنوي نور المعنى، وهي الروح، يهديه إلى الاشتغال بالمعاني، وباشتغاله بالمعاني يصير عارفاً بنفسه، وإذا كان عارفاً بنفسه فهو عارف بربِّه. يقول الشيخ الششتري في هذه المعاني: لا تنظُرْ للأواني وخُضْ بحر المعاني، لعلك أن تراني.

الزُّهد في الرزق الحسي، يثبت وجود المعاني، ووجود المعاني يثبت معرفة النفس. ومعرفة النفس تثبت معرفة الله، والرغبة في الرزق الحسّي تثبت عدم وجود المعاني. وعدم وجود المعاني يثبت الجهل بالنَّفس. ووجود الجهل بالنفس يثبت الجهل بالله.

[قول الشاذلي في الذّل الظاهر]

وأيضاً: قال الشيخ الشاذلي رحمه الله: اللَّهُمَّ إنَّ القوم قد حكَمْتَ عليهم بالذلّ حتى عزُّوا. يعني الذلّ الظاهري فعلاً معاينته، لا باطني قولاً واهتماماً. قال تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: الآية 105] بخلاف ما عليه كثير من الفقراء اليوم، أتلفهم حبُّ الجاهِ وحبّ الدنيا وحب الظهور وحب الرياسة، وظنُّوا أن الذلّ الباطني قوة واهتماماً هو المطلوب منهم، ووقفوا معه، والأمر بعكس ذلك. لما عظم عليهم الأمر لغلبة نفوسهم فلم يستطيعوا ترحيلها عن عوالم مألوفاتها وطبعها، شفقة عليها، وخوفاً من أن تسقط مروءتهم عند الناس، حملهم ذلك على قلب حقائق العلم، أن جعلوا الذل المطلوب منهم ظاهراً جلياً، باطناً خفيّاً، واستعانوا بذلك على إقبال الخلق عليهم وتعظيم الجاه والمروءة، وجمع الدنيا والدرهم بعضه على بعضٍ، فضلُّوا بذلك نفوسهم عن طريق الرشاد، وأضلُّوا من تبعهم من العوام. لم يعلموا أن الإقبال على الخلق إعراض وإدبار عن الحق، وبالعكس.

يرحم الله أبو المواهب حيث قال في قوانينه: الوليّ كلما عَلاَ به المقام صغرت رؤيته في أعيُنِ العوام، وإلاّ فكما أن حكم العمومية على ظاهره كذلك حكم الخصوصية على ظاهره. والذلّ في هذا المعنى هو العبودية. ولا شك أن العبودية هي مفتاح كنوز الربوبية صار من غرس العبودية، وهي الذلّ لله، ولعباد الله، ظاهراً عياناً، فإن غرْسَهُ يثمر بالعزّ لله ظاهراً عياناً على رؤوس الأشهاد، وهذا هو المطلوب. فيكون ممَّن دخل في قول الشيخ: اللَّهُمَّ إنَّ القوم قد حكمت عليهم بالذُلّ حتى عَزُّوا. وأما إذا غرس العِزّ في ظاهره عياناً حتماً يثمر له بالذلّ الظاهري عياناً. وأي خذلانٍ يكون مثل الذي يتزَيَّا بزَيِّ المنتسبين على الله، وهو يريد بذلك إقبال الخلق عليه والجاه والرياسة عليهم وجمع الدنيا وتشييع الصوت ورفع القدر عند الولاة وعند رؤساءِ أهل الدنيا، وقنع بذلك ورضي به بدلاً من العزّ بالله وبه عما سواه. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآيتان 103، 104].

يرحم الله سيدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش، حيث قال في مناجاتِهِ: اللَّهُمَّ إن أقواماً سألوك تسخير الخلق إليهم فرضُوا منك بذلك، وأنا أعُوذ بك من ذلك. حتى قال: وأنا أسألك اعوجاج الخلق عليَّ حتى لا يكون لي ملجأ ولا مَنْجَى إلاّ إليك.

الخصوصية هي الزهد في عزّ الظواهر، ومن لم يزهد في الظواهر فلا خصوصية له: «أُمِرْتُ أن أحكم بالظواهر والله يتولى السَّرائر» الحديث.

[خليفة الله في أرضه المتصرّف في جميع شؤون الخلق]

وأيضاً: اعلم يا أخي أنَّ من صحَّت نسبته للحقيقة، حتى لا يجد بينه وبينها انفصال هو الذي حاز ملك الدنيا والآخرة، مُلكاً أبدياً سرمدياً، صاحب هذا المقام هو خليفة الله في أرضه على جميع خَلْقِهِ، صاحب هذا المقام هو المتصرف في الحقيقة بأسرها على يده تنقسم أرزاق الخلائق بأسرها، وثمارها وأوبارها ولحومها وشحومها وهِمَمها وإرادتها وتدبيراتها واختيارها كل ذلك لا يحصل لهم إلاَّ على يده، حتى الأجنَّة في بُطُون الأمهات؛ تصويرها على يديه، ولو نادته حوتة في قَعْرِ البحر المُظْلم في رَغْدِ الليالي وظلمة آخر الشهر، لسَمِعَ صوتها في الحين وأجابها وأعطاها ما سألت. أو ناداه مَلَكاً عند ساقِ العرش أو تحت الأرض السابعة السُّفلى لأجابه، أو نملة أو بعوضة لأجابها وأعطاها ما سألت. الوجود عنده بأسره بمنزلة أعضائه، يسكن بسكونه ويتحرك بتحركه، ويقول بقوله، ويفعل بفعله، ويهتم باهتمامه، ويريد بإرادته.

[حَصِّل وسلِّم للرجال]

وعلامة صاحب هذه المرتبة العُظمى، أنك تجده شفعه مطوي في وترِهِ، ووتره مطوي في شَفْعِهِ، وهو هو وذاته مطوية في صفاته، وصفاته مطوية في ذاته، وهو هو، وشريعته مطوية في حقيقته، وحقيقته مطوية في شريعته، وهو هو، وعلوياته مطوية في سُفلياته، وقُرْبه مطويٌّ في بُعْدِهِ، وبُعده مطوي في قُرْبه، وهو هُوَ. وعطاؤهُ مطويّ في مَنْعِهِ، ومنعه مطوي في عطائه، وخيره مطوي في شرِّه، وشره مطوي في خيره، وهو هُوَ. ورضاؤه مطوي في غضبه وغضبه مطوي في رضاه، وهو هُوَ. وذلّه مطويّ في عزِّه وعِزّه مطوي في ذلّه، وهُو هُوَ. وفَرْقُهُ مطوي في جَمْعِهِ، وجمعه مطوي في فرقه، وهو هو. وحياته مطوية في مماته ومماته مطوية في حياته، وهو هُوَ. وغناؤه مطوي في فقره وفقره مطوي في غنائِهِ، وهُو هُوَ. وكِبَرُهُ مطوي في صغرهِ وصغره مطوي في كِبَره، وهو هُوَ. هذه بعض أوصافه. وصاحب هذه المرتبة الخلق كلهم محجوبون عنه إلاَّ أهل الزُّهْدِ في النفس، والزهد في الفلس، وهو وسط الخلق وهم لا يرونه لشدَّة النُّور الذي خُصَّ به من كل جانب، غاب عن الخَلْق، ظهوره في بطونه، كما حضر لهم بطونه في ظهوره، فلم يجدوا له خبراً وهم يصافحونه صباحاً ومساءً، ويسمعون كلامه ويتكلمون معه، ويرونه ولا يعرفونه. سبحان من أظهره في بطونه حتى لم يُخْفِهِ عن أحد، وأخفاهُ في ظهوره حتى لم يجده أحدٌ. سبحان الحكيم العليم.

[الدّواء بالزيت واللبن]

وأيضاً: رأيت الشيخ، نفعنا الله به، كثيراً ما يداوي نفسه والناس، يُداوي جُلّ علل ظواهر الجسد بالزَّيْت، وبواطن الجسد باللَّبَن، أو الكُسْكس مع اللبن. وكنا نرى لهذين الدّواءين، الزيت واللبن، سراً عظيماً في الشفاء، حين يأمر بهما وكنا نشك أن الشفاء في نطقه لا في الزيت واللبن. وكان يستند رضي الله عنه، في التداوي بالزيت لدعاءِ النبي ﷺ: «بارك الله في الزَّيت أكْلاً ودُهْناً ونوراً في البيت»[1]، أو كما قال. وباللَّبَن على أنَّ والده كان كثيراً ما يداوي المرضى به، فيشفيهم الله تعالى، وهو كان يتأسَّى بسُنَّة أبيه في ذلك.

[حكاية حسنة]

وأيضاً: سمعت الشيخ، نفعنا الله به، يحدث، قال: كان بعض الشيوخ عارفاً بالله تعالى يقرّيء عصابة من تلامذتِهِ عِلم الحِكمة، نحواً من أربعين سنة، وهو لا يقرأ معهم إلاَّ في فروعها. وبعد الأربعين سنة طلبه التلامذة أن يدلهم على حقيقة الحِكمة وحثوا عليه في ذلك، فأجابهم لذلك، وقال: غداً إن شاء الله أدلكم على ما طلبتم خبراً وعياناً. فلمّا أصبح النهار، جاءوه لذلك، ودقّوا عليه الباب، فخرج عليهم وفي يده ولد له صغير، فطلبوا منه إنجاز ما وعدهم به فقال لهم: نعم، انظروا ولدي هذا، حتى نظروا إليه، فقال لهم: هو ما طلبتم مني معرفته. فعند ذلك منهم من فتح عليه في تلك الساعة، يعني من فَهِم كلام الشيخ، ومَن لم يعرف مقالة الشيخ ازداد بقوله تلفاً.

[الذَّات عين الجلال والصفات عين الجمال]

وأيضاً: الذات هي عين الجلال، والصفات هي عين الجمال، وما ظهر على الذات من جمال إنما أصابها من صحبتها للصفات. كما أنَّ ما ظهر على الصفاتِ من جلالٍ إنما أصابها من صحبتها للذّاتِ. وإذا أردت تحقيق ذلك فانظر الذّات حين تفترق عنها الصفات بالموْتِ، تجدها جلالاً مَحْضاً، وكذلك الصفات حين تفترق عن الذّات تصير جمالاً محضاً، وفي حال اجتماعها ظهر حكم وصف الذات على الصفات، كما

---

(1) هذا اللفظ لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع إنما ورد معناه بألفاظ أخرى منها ما رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب: «قال: قال رسول الله ﷺ: كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» مسند الترمذي، باب ما جاء في أكل الزيت، حديث رقم (1851).

ظهر حكم وصف الصفات على الذَّات، مع أنَّ الصفات هي عين الذات في افتراقها واجتماعها، كما أنَّ الذات هي عين الصفات في اجتماعها وافتراقها. والاجتماع كذلك هو عين الافتراق، كما أن الافتراق هو عين الاجتماع. من أجل ذلك صارت الذات توصف ببعض أوصاف الصفات، وهو الجمال. كما صارت الصفات توصف ببعض أوصاف الذات وهو الجلال. هذا من عجائب الحقيقة، إنك تجدها مفترقة أبداً، مجتمعة أبداً، موصولة أبداً، مقطوعة أبداً، معطية أبداً، مانِعة أبداً، كبيرة أبداً، صغيرة أبداً، قريبة أبداً، بعيدة أبداً، ظاهرة أبداً، خفية أبداً، جمالية أبداً، جلالية أبداً، حية أبداً، ميتة أبداً، معروفة أبداً، منكرة أبداً. لو كان البحر مداداً والعشب أقلاماً تكتب اختلافات الحقيقة وتكوينها وعجائبها، لم يحصوا أوصافها. وما اجتمعت أوصافها إلاَّ في الإنسان فقط.

قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني في بعض كلامه في هذا المعنى: ونَفْسُك تحوي بالحقيقة كلها، أشرت بجدٍّ القول ما أنا خادِعُ. من أجل هذا المعنى الذي ذكرت صرنا نقول: العبودية كلها ذات، مع أنها مشتملة على ذاتٍ وصفاتٍ. وذلك لأنَّ العبودية كلها جلال، والجلال في الأصل كله ذات، وكذلك أيضاً صرنا نقول: الحرية كلها صفات، مع أنها مشتملة على صفات وذات، وذلك أيضاً لأنَّ الحرية كلها جمال والجمال في الأصل كله صفات. صِرْنا كل ما وجدنا جلالاً نسَمِّيه ذاتاً، وكل ما وجدنا جمالاً نسميه صفاتاً، سواء كان صفاتاً أو ذاتاً، لأنَّ وصف الصفات بالجلال كأنه عَارِض لا حقيقي، وأهل الحقيقة لا يسمّون الشيء بالاسم العارض وإنما يسمونه باسمه الحقيقي الأصلي، لأنَّ اللحن في القول يثبت اللحن في الفعل، وهم ليسوا مع قولٍ ولا مع فعلٍ، وإنما هم مع ما يُصْلح قلوبهم ويجمعها على الحق.

قال أبو المواهب في هذا المعنى: من ادَّعى شهود الجمال قبل تأدّبه بالجلال ارْفُضْه فإنَّه دجّال. أي اتركه فإنه كذَّابٌ. ولما كانت العبودية كلها جلالاً فهي كلها ذات في الأصل، ولما كانت الحرية كلها جمالاً، فهي كلها صفات في الأصل. قال الشاعر:

مَـنْ لَـمْ يَـذُقْ ذُلَّ الـتَّـعـلـم سَـاعَـةً ... تـجـرَّع كـأس الـجَـهْـل طول حَـيـاتِـهِ

وعالم الوجود كله ما فيه إلاَّ ذات وصِفات، كما أنَّ عالم الإنسان بأسره ما فيه إلاَّ ذات وصفات، لأنَّ عالم الوجود نسخة من الإنسان، كما أنَّ عالم الإنسان نسخة من الوجود، ما ظهر في عالم الإنسان ظهر في عالم الوجود، وما ظهر في عالم الوجود ظهر في عالم الإنسان، والوجود والإنسان مَرْتبتانِ متقابلتين أبداً.

[من أراد أن يملك الوجود عليه بعبودية النفس لله تعالى]

وأيضاً: اعلم أنَّ من أراد أن يملك الوجود بأسره حتى يكون الوجود وما فيه عَبْداً له، فعليه بعبودية النفس لله، وعبودية الفلس لله، انظر النبي ﷺ لما أراد الله تعالى أن يمكّنه من مفاتح الوجود بأسره يتصرف فيه تصرّف السيد في عبده، أَلْهَمَه الله العبودية، فاختار ﷺ أن يكون نبيّاً عبداً يجوع يوماً ويشبع يوماً، اليوم الذي يجوع فيه يسأل فيه مولاهُ واليوم الذي يشبع فيه يحمد فيه مولاه سبحانه. وذلك بتوفيق الله تعالى له ﷺ. ولولا أنَّ العبودية هي أشرف المقامات كلها وأعلاها، ما اختارها النبي ﷺ بعد أن خيَّره الله تبارك وتعالى أن يكون ملكاً أو يكون نبيّاً عَبْداً، فاختار العبودية على المُلك، صار المَلِك حقاً هو العبودية، لا المَلِك. فيجب على كل مسلم فضلاً عمَّن يطلب حرية الخصوصية من باب أوْلى وأحرى أن يتأسى بسُنَّته ﷺ في هذا المقام الشريف، وهو مقام العبودية لله، ويجاهد نفسه بالترييض عليها، حتى يأخذ حظه من الإرث، يعني إرث النبوّة الذي أخبرنا به الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «العلماء ورثة الأنبياء»، أو كما قال. ويكون ذلك التَّرْييض بصحبة العارفين بالله ومجالستهم لأنه ما أفلح من أفلح إلاَّ بصحبة من أفلح.

قال قطب العارفين، سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: واجعلنا عبيداً لك في جميع الحالات وعلّمنا من لدُنْكَ عِلْماً نصير به كاملين في المحيا والممات. انظر كيف قَرَن رضي الله عنه العلم بالله مع العبودية، ولا شك أنه إذا فُتِحت مواهب العلم حتماً يُفْتح مواهب العمل بإثرها، لأنَّ عطية الكامل لا تكون إلاَّ كاملة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية 28]. جعلنا الله وإياكم من العلماء العاملين بفضله وإحسانه إنه على كل شيء قديرٌ.

[العبودية كلها ذُلّ]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى، وهو أحْكَم الحاكمين، جعل العبودية كلها ذُلاً، كما جعل الحرية كلها عِزاً، وجعل النفوس تميل للحرية وتحبها، كما جعلها تَفِرُّ من العبودية وتبغضها. من كان عارفاً أو ملَّكَ نفسه لعارف، لا تجده راتِعاً إلاَّ في العبودية، ومن كان جاهلاً أو ملَّكَ نفسه لجاهِلٍ لا تجده رَاتِعاً إلاَّ في الحرية. وصاحب العارف عارف، وصاحب الجاهل جاهل.

[العارفون ملوك خلائف الله في أرضه]

والعارفون ملوك خلائف الله في أرضه، والجاهلون ممالك الأنعام، بل هم

أصلٌ. ولا شك أن العِباد خلقهم الله تعالى كرامة للعارفين به، تحمل لهم أثقالهم ويستريحون على ظهورهم، ولهم فيهم منافع كثيرة ما لها حَصْرٌ. كما جعل سبحانه الأنعام ممالك لبني آدم، يستريحون على ظهورها، وينتفعون بها أعظم النفع، كذلك جعل سبحانه الجاهلين من بني آدم، ممالك للعارفين من بني آدم، يستريحون على ظهورهم، وينتفعون بهم أعظم النفع. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية 114] وقال جل من قائل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: الآية 28]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 9] والله ما فات أهل المعرفة بالله تعالى الجاهلين به إلاّ أنهم عبيد الله في الوجود بأسرِهِ وجدوا الوجود بأسره عبداً لهم، يفعلون به ما أرادوا. ولا فات الجاهلون به العارفين إلاّ أنهم تجبّروا وتكبّروا عن عبودية الله تعالى في الوجود، وأنكروا ذلك، فحينئذ وجدوا نفوسهم عبيداً للوجود بأسره والوجود مَلكاً عليهم، يفعل بهم ما أراد إذ لم يعرفوا أنه ما في الوجود إلاّ خالق الوجود كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 31] فافهم.

[الإنسان من الوجود والوجود من الإنسان]

وأيضاً: اعلم أنك من الوجود والوجود منك، ومهما كنت عبد الله في الوجود كان الوجود عبداً لك. ومهما أردت أن يكون الوجود عبداً لك تجد نفسك عبداً للوجودِ. كأنَّ العبودية في الحرية والحرية في العبودية. ولا شك أن العبودية كلها جلال كما أنَّ الحرية كلها جمال. يعني في الأصل. والجمال على قسمين، منه ما هو ضعيف ومنه ما هو قوي. وكذلك الجلال على قسمين: منه ما هو قوي ومنه ما هو ضعيف. ومن كان في مَرْتبة لا يصلح به إلاّ طعمها كأنَّ مرتبة العبودية، وهي مرتبة الجلال، يحرم عليه الجمال إلاّ عند الاضطرار يباح له ارتكاب الجمال الضعيف فقط، وهذه الإباحة كإباحة جُرْعة الخمر عند الغصَّة. لكل مقام مِثال، الدنيا جمال، والزهد فيها من الجَلالِ.

رأيت في بعض تآليف الشيخ زروق، نَفَعنا الله به، قال: الدّنيا كَنَهْرِ طالوت لا ينجو منها شارب: «إلاّ من اغْتَرَفَ غَرْفَةً بِيدِهِ».

[الفناء الحسي والمعنوي]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفناء فناءان: فناء حسّي بالذاتِ، وفناء معنوي بالصفات. ولا يقوم واحد إلاّ بالآخر. من المريدين من حصل على علم الفناءِ بالذات ولم يحصل له

الفناء بالصفات. ومنهم من حصل على الفناء بالصفات ولم يحصل له الفناء بالذّات. والمتمكّن هو الذي جمع بين الفناءَيْن: الفناء بالذات والفناء بالصفات. الفناء بالصفات قول، والفناء بالذّات فِعل. وإن شئت قلت: فناء الصفات للنفس وفناء الذات للجِنْس. وإن شئت قلت: فناء الصفات في حَضْرَة المكوِّن، وفناء الذات في حضرة الأكوان بالمُكَوِّن. وإن شئت قلت: فناء الصفات جمالياً، وفناء الذات جلالياً. وإن شئت قلت: فناء الصفات جمع وفناء الذّات فَرْق. وإن شئت قلت: فناء الصفات بالملكوتِ وفناء الذّات بالمُلْكِ. وإن شئت قلت: فناء الصفات بالرحموت وفناء الذات بالجبروتِ. وإن شئت قُلت: فناء الصفات في الأرواح وفناء الذات في الأشباح. وإن شئت قلت: فناء الصفات في العطاء وفناء الذات في المنع. وإن شئت قلت: فناء الصفات بسْط وفناء الذات قَبْضٌ. وإن شئت قلت: فناء الصفات عُمْران وفناء الذّات تخريبٌ. وإن شئت قلت: فناء الصفات رجَاءٌ وفناء الذات خوْف. وإن شئت قلت: فناء الصفاتِ قُرْبٌ وفناء الذّات بُعْدٌ. وإن شئت قلت: فناء الصفات حياة وفناء الذّاتِ مَوْت. وإن شئت قلت: فناء الصفات وجود وفناء الذّات عَدَمٌ. وإن شئت قلت: فناء الصفات عِزّ وفناء الذّات ذُلٌّ. وإن شئت قلت: فناء الصفات وَجْدٌ وفناء الذّات فَقْدٌ. وإن شئت قلت: فناء الصفات غناء وفناء الذّات فقرٌ. وإن شئت قلت: فناء الصفات قُدْرة وفناء الذّات عَجْزٌ. وإن شئت قلت: فناء الصفات قوة وفناء الذّات ضَعْف. وإن شئت قلت: فناء الصفات حقيقة وفناء الذّات شريعة. وإن شئت قلت: فناء الصفات عِلْمٌ وفناء الذّات عمل. وإن شئت قلت: فناء الصفات جَذْبٌ وفناء الذات سلوك. وإن شئت قلت: فناء الصفات فِعْلٌ وفناء الذّات عَدْلٌ. وإن شئت قلت: فناء الصفات صفات وفناء الذّات ذَاتٌ.

وهذا الفناء الذي عبّرْنا عنه بفناءَيْن مقام، وهو يدفع صاحبه للذي بعدَهُ، وهو مقام البقاءِ؛ وهو بعكس ما سُطِّر أعلاه وضدّه. وفيه هو أيضاً بقاءان: بقاء معنوي بالصفات وبقاء حسِّي بالذات. الفناء مفتاح المُلك وبابُهُ والبقاء تمكين المُلك وقرارهُ. وبعد مقام البقاء مقام فناء الفناءِ في عين بقاءِ البقاءِ، وبقاء البقاء في عين فناءِ الفناءِ، وبعد هذا يترتّبُ السَّيْر في المقامات بالأحوال بلا مقام في مقام الحالِ، ومنتهى السَّيْر إلى ربك المتعال. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: الآية 13].

[غرس النفوس]

وأيضاً: اعلم أن غرْسَ النفوس على أربعة، وثمارها على قدر النيات. غرس

تغرسه في حقيقة نَفْسِكَ يثمرُ لك بشريعة نفسك إن نَوَيْتَهَا. وغرس آخر تغرسه في حقيقة نفسك يثمر لك بشريعة الوجود إن نويتها. وغرس آخر تغرسه في شريعة نفسك يثمر لك بحقيقة الوجود إن نويتها، لأن الإنسان من الوجود بمنزلة القلب من الإنسان. يرحم الله الششتري حيث قال:

لَقَدْ آنا شَيْءٌ عجيبٌ لِمَنْ رَآنِي ... أنا المُحِبّ والحبيبُ ما ثَمَّ ثَانِ

يا قاصداً عَيْن الخَيْر غطاء أينك ... الخَبَر فيك والخير والسرّ عندك

ارجع لذاتِك واعتبر ما ثمَّ غَيْرَك ... وأنت مِرآة النَّظر، قُطْبُ الزمان

وفيك انطوى ما انتشر من الأواني

[العامّة والخاصة وخاصة الخاصة]

وأيضاً: اعلم أنَّ الجلال تَملك به الرقاب إذا صادف وقته كما تملك بالجمال إذا صادف وقته. هذا القياس، يعني في الظواهر، وإذا أردت أن ترى حكمة الله في هذا المعنى، كل ما تقابله بالجمال ولم يفتح عليك اقلب الأمر ترى العجب. يعني اقلب جمالك جلالاً ترى سِر الله واضحاً وكذلك إن قابلته بالجلال ولم يفتح لك اقلب جلالك جمالاً فإنك تظفَرُ به سواء كان ذلك الذي قابلت جَمَاداً أو بشراً، مَلِكاً أو مملوكاً، ومفتاح الكَمالِ في الأمور كلها هو الجلال الظاهر بالبدايات. يعني حُسْناً في البدايات مع نفسك ومع الخلق كلهم، بل مع الوجود بأسره، لأنَّ البدايات ضد النهايات، وكل ما تكون في بدايته جلالاً لا يكون في نهايته إلاَّ جمالاً، وبالعكس. وعلى قدر ما يعظم الجلال في البدايات يعظم الجمال في النهايات. من أشرقت بدايته أشرقت نهايته، وهذا معنى الجلال في البدايات. ولا يوجد إلاَّ عند فرقتين من الناس: العامة، وخاصة الخاصَّة. وأما الخاصة فلا نصيب لهم فيه. العامة يردُّونه عن جهل، وعباراتهم عنه قولهم: لا صحبتها إلاَّ بعد حَرَكَة. وأما خاصة الخاصة يردّونه عن علم ومعرفة وحِكمة بالغة. وأما الخاصة فعندهم خلاف ذلك في طريقتهم، وهو الجمال الظاهر في البدايات. ولا يَليق بهم إلاَّ هو والعلة في اختلاف هذه الثلاثة فِرق هو أن خاصة الخاصة راتِعُون في مقام العزِّ، والعامة يشيرون لمقام العز، وهم لا يعرفونه. لكن لما كانت نفوسهم جاءت من حَضْرة العزّ قبل دخولها لأجسامهم، بقيت محلاة بتلك الحلية، وهي حلية العزِّ بعد الدخول. ولما كانت لم يؤثر فيها أدب الشرائع بعد الدخول بل صارت غالبة على أهلها، حاكمة فيها، فاتهم أدب الشرائع، فصاروا عواماً من جهلهم وغيبتهم في شهود المخلوق عن شهود الخالق. صارت نفوسهم أصدق

منهم لأنها على فطرة الله التي فطرها عليها. ولما كانت حاكمة فيهم صاروا لا يشيرون إلاَّ للحضرة التي جاءت نفوسهم منها، وهي حضرة الحق. ولما كان أجسامهم يحضره الباطل وهو المخلوق، ولما كان الحكم لها عليهم أُشركوا مع خاصة الخاصة في المقام. لكن ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 9] .

العامّة جَاهِلون بما يفعل بهم، تالفون في نفوسهم عن أنفسهم بنفوسهم، بخلاف خاصة الخاصة، فإنهم عالمون عاملون بعلمهم، عارفون بقربهم ومشاهدتهم في حضرة حَبيبهم. وأما الخاصة فلا نصيب لهم في العزّ لأنهم مؤدَّبون بأدب ذلّ العبودية لأنفسهم، بدلائل الشريعة وبراهينها، بهذا المعنى استعْلُوا فوق العامة، الخاصة في سفليات الذلّ لله، بذلك صاروا خصوصاً، وخاصَّة الخاصة في علويات العِزّ بالله بذلك صاروا خصوص الخصوص. والعامة مُذَبذبُون بين ذلك، نفوسهم تشير للعزّ بالرُّبوبية وأجسامهم تشير للذلّ بالعبودية. بقوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. فبذلك صاروا عموماً. سبحان من خصَّ بما خصَّ، وعمَّ بما عَمَّ، واختار من خَلْقِهِ من اصطفاه لحضرة العِزّ والقِدَم، سبحان الحكيم العليم.

[الحكمة شريعة والقدرة حقيقة]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل ما هو حِكمة اختياراً، فهو شريعة. وكل ما هو قدرة قهراً، فهو حقيقة. وكل ما تغرسه شريعة اختياراً لا يثمر لك إلا حقيقة قهراً مثله أنك إذا غرَسْت الذُلَّ اختياراً في ظاهر الشريعة، فإن ثماره يكون غيراً حقيقة قَهْراً. وإذا غرست العزَّ في ظاهرك اختياراً شريعة، فإن ثماره تكون ذُلاً حقيقة قهْراً، فإن ثماره تكون ذلاً حقيقة قهراً. لأن أفعال العبد كلها شرائع اختياراً. وأفعال المولى كلها حقائق قهراً مع أنه في الحقيقة الكل فعله تعالى لكن من فضله تعالى خلق الفعل ونَسَبه إليك، وجعل فعلك يُوجد فِعْله، إن غَرَسْتها حسنة ينبتها هو لك حسنة، وإن غرستها سيئة ينبتها هو لك سيئة. وحكم على نفسه بقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34] جعل غرس الخير والشر بيدك لتكون حجتك عليك.

[حقيقة الفقر]

وأيضاً: اعلم أن حقيقة الفقر هو الفناء في الله والفناء بالله. ولا يتميز الفقير من العاصي إلا بالدعوى. إما بلسانِ الحال أو بلسانِ المقالِ. أهل لسان الحال هم المتكلمون بالحالِ وأهل لسان المقال هم الضعفاء المستشرفون على شهود الجمال. ومن لا دعوى له لا نصيب له في الفقر. أهل لسان المقال في مقام العبودية مستشرفون

على مقام البقاء بالله. أهل لسان المقال قولهم يُنبىء بأخبارهم، وأهل لسان الحال فعلهم ينبىء بأحوالهم. المستشرف على مقام الفناء يقول، والمستشرف على مقام البقاء يَفْعل ولا يقول. كما وقع للحسين بن منصور الحلاَّج، لما استشرف على مقام الفناء قال: ولو فعل ما قال. لأنَّ من قال ما فعل كما أنَّ من فعل ما قال.

[مشهد الجمال له جنتان]

وأيضاً: صاحب مشهد الجمال له جنتَّانِ، جنة الذات وجنة الصفات. وهو راتِعٌ فيهما أبداً، إلاَّ أنه تارة في هذه وتارة في هذه. جنَّة الذات في غَيْب الغيوب وجنة الصفات في ظواهر الحجب. جنَّة الذات جنة العيَانِ، وجنة الصفات هي جنة العِرفانِ. جنة الذات جنة القرب والتحقق وجنَّة الصفات جنة البعد والتعشق، جنة الذات جنة الفناء بالصفات، والبقاء بالذات في الذات، وجنة الصفات جنة الفناء بالذات، والبقاء بالصفات في الصفات.

[من لا عمل له بالفن ليس هو من أهل الفنّ]

وأيضاً: اعلم أنَّ العلم معرفةٌ بالفنِّ، وليس هو الفنّ. والعمل هو الفَنّ بنفسه، من لا عِلم له بالفنّ فهو جاهل بالفنِّ، ومن لا عَمَل له بالفنِّ ليس هو من أهل الفنِّ، ولو كان عالماً بالفنّ.

[الهمم أصول والأفعال فروع]

وأيضاً: الهِمَم أصول والأفعال فروع. وعلى قدر ما تعظم الأصول تعظم الفروع، وعلى قدر ما تضعف الأصول تضعف الفروع. الأصول تُجْبِر الفروع إن قطعت والفروع لا تُجْبِر الأصول. لولا الأصول ما وجدت الفروع، ولولا الفروع ما عُرِفَت الأصول.

[عبودية الذات تفتح كنوز الصفات]

وأيضاً صاحب الظاهر عبوديته بالذات إن دام فيها فُتِحت له بها كنوز الصفات. وصاحب الباطن بالعكس، عبوديته بالصفات إن دام فيها فتحت له بها باب كنوز الذات. صاحب عبودية الذات باق مشرف على فناءٍ، وصاحب عبودية الصفات فانٍ مشرف على بقاءٍ. صاحب عبودية الذات قوله الفناء وفعله الفناء لأنه لو قال ما فعل. وصاحب عبودية الصفات قوله البقاء وفعله الفناء لأنه لو فعل ما قال. والفناء والبقاء

مقامان يتزاحمان عليك، واحد يطرد الآخر أبداً، لا ثالث لهما. وإن شئت قلت: مقامان موجودان في الإنسان أبداً لا تقوم ذاته إلاَّ بهما جميعاً إلاَّ أنه تارة يكون الفناء مَلِكاً والبقاء مملوكاً فيكون حينئذ الحكم للمَلِك وهو المُلْك، لا المملوك، وهو البقاء. فيسمى صاحب هذا الوصف بالفناء في بقائه، وتارة بالعكس. يكون البقاء مَلِكاً والفَنَاء مملوكاً فيكون حينئذ الحكم للمَلِكِ وهو البقاء لا للمملوكِ وهو الفناء. فيسمَّى صاحب هذا الوصف بالباقي في فنائه الأول، وهو الباقي في فنائه، فناؤه في ظواهره وبقاؤه في بواطنه لأنَّ الحكم للذي ظهر عليه في الوقت، وهو الفناء، لا للذي بَطنَ وهو البقاء. والثاني وهو الباقي في فنائه، بقاؤه في ظهواهره وفناؤه في بواطنه، لأنَّ الحكم أيضاً للذي ظهر عليه في الوقت، وهو البقاء، لا للذي بَطَنَ، وهو الفناء. والفناء ذُلّ وهو موت، والبقاء عزٌ وهو حياة. وهما كما قلنا: مجموعان في الإنسان أبداً لا محيد للإنسان عنهما إن كان فناؤه في ظاهره وهو ذُلُّهُ وموته يكون حتماً بقاء في باطنِهِ وهو عِزّهُ وحياته. وإن كان بقاؤه في ظاهره وهو عزّه وحياته حتماً يكون فناؤه في باطِنِهِ، وهو ذلّهُ وموته. هكذا جرت سنة الله في خلقه ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: الآية 43].

[حقيقة الفناء في الله:
ومقارنة بين الموت الحسي والموت المعنوي]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الفناء الذي يترجَّم أهل هذه الطريقة الشاذلية مثله كالموتِ، من غير زيادة ولا نقصان، ما فات الفاني بالله الميّت إلاَّ بالنفس التي تخرج من فيه وتدخل. لا زائد؛ لأنه كما أنَّ الميت ذات بلا صفات كذلك الفاني في الله ذات بلا صفات. وكما أنَّ الموت باب لا يدخل الإنسان لجنَّة الرضوان إلا عليه كذلك الفناء باب لا يدخل الإنسان إلاَّ عليه لحَضرة الشهود والعيانِ. وكما أنَّ الميّت لا يحس بألم المَوْت إلاَّ قبل الموت، وأما إذا مات فلا ألم، كذلك الفاني لا يُحسّ بألَم الفناءِ إلاَّ قبل الفناء، يعني بقربه، وأما إذا فَنِي فلا ألَم. وكما أنَّ الميّت لا يترجَّم بأخبار المَوْتِ إلاَّ قبل الموت وأما إذا مات بالفعل ينتقض القول كذلك الفاني، لا يترجَّم بأخبار الفناءِ إلا قبل الفناء، يعني عند الاستشراف، وأما إذا فني بالفعل يَنفضُ القول. وكما أن الميت ما دام فيه أثر الحياة مع الخلق والناس يبرّون به فإذا مات أنكره الناس جميعاً، القريب والبعيد، ولا يأويه إلاَّ المَوْتى مثله، كذلك الفاني، ما دام فيه أثر البقاء مع أهل الدنيا والناس يبرُّون به فإذا فني أنكره الناس جميعاً: القريب والبعيد. ولا يأويه إلاَّ أهل

الفناءِ مثله. وكما أنَّ الميت يتجرّد من ماله ومن أولاده ومن ثيابه ومن نفسه إلاّ ما يستر عورته كذلك الفاني يتجرّد من ماله ومن أولاده ومن ثيابه ومن نفسه إلاّ ما يستر عَوْرته. وكما أنَّ الميّت ما له رفقة مع أهل الدنيا، كذلك الفاني ما له رفقة مع أهل الدنيا. وكما أنَّ الميت لا يغضب لشيء ولا يفرح لشيءٍ كذلك الفاني لا يغضب لشيء ولا يفرح لشيء. وكما أنَّ الميت لا يُدَبِّر شيئاً ولا يختار شيئاً ولا يتأوّه من شيءٍ ولا يَعْبأ بشيء كذلك الفاني. وكما أن الميت، الناس عنده كلهم سواء: عدوّاً أو صديقاً، بعيداً أو قريباً، كبيراً أو صغيراً، قويّاً أو ضعيفاً، غنياً أو فقيراً، مَلِكاً أو مملوكاً، فاعل الخير أو فاعل الشرّ كذلك الفاني. وكما أن الميت لا ينوب عن نفسه ولا ينتصر لها كذلك الفاني لا ينوب عن نفسه ولا ينتصر لها.

حاصله: الفاني مستغرق في عين الوحدانية، كما قال الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به: «وأغرِقْني في عيْنِ بَحْرِ الوَحدةِ حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجِدَ ولا أُحِسَّ إلاّ بها»، ثم أشار إلى البقاء فقال: «واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي، وروحه سِرَّ حقيقتي».

[الظاهر ينفي الباطن والباطن ينفي الظاهر]

وأيضاً: وجود أهل العلم والعمل الظاهري سبب فقدانِ مواهب العلم والعمل الباطني. وبالعكس، يعني وجود الظاهر هو سبب فَقْدِ الباطن وفقد الظاهر هو سبب وجود الباطن واجتماعهما معاً في القلب محال، وظاهرك هو المثبِتُ لباطِنك، وظاهرك هو المبطل لباطنك أيضاً. وكذلك باطنك هو المثبت لظاهِرِك، وباطنك أيضاً هو المُبْطل لظاهرك، وظاهرك يُتلفك على باطنك، وظاهرك أيضاً يجمعك على باطنك، وباطنك يُتلفك عن ظاهرك، وباطِنُك أيضاً يجمعك بظاهرك، كأنَّ موضع الربح هو موضع الخسْرَان.

عظم الربح وعظمت العناية، ثم عظم الخسران، وعظمت الرزاية. فإن أردت باطنك خَرِّب ظاهرك، تجد باطنك طوع يديك، وإذا أردت فقد باطنك صحح ظاهرك يظهر باطنك، حتى لا تجد له خبراً ولا رائحة كأنه لم يكن. يقول الششتري رحمه الله في هذا المعنى:

عـــنــدي مـــحــبــوبــي إنـــمـــا هـــو غـــيـــور
تـــراه يُـطَـلِـلْ فـي قـلـبـي كـــطـــيـــر حـــزور
إن رأى شـيـئـاً فـي قـلـبـي امـــتـــنـــع أن يـــزور

وخلاء القلب من كل واحد منهما محال، إمَّا عامر بالظاهر أو عامرٌ بالباطن، ليس إلاَّ. وساعة دخول واحد على الآخر يفقد الوجود ويوجد المفقود فيثبت الدَّاخل وينفي الخارج.

[الذّل هو العز والعِزّ هو الذّل]

وأيضاً: اعلم أن كل ذلٍّ فهو عزّ، وكل عزّ فهو ذلّ. وكل ليل فهو نهارٌ وكل نهار فهو ليْل. افهم وحقق هذه العبارات إن حققتها تجدها في الأمور كلها، في الوجود، وفي الإنسان، في الذّات وفي الصفات، في أعلى شيءٍ وفي أدنى شيءٍ، مثاله في الذوات كالصمت فهو ذلّ وهو عِزّ في حينه. ومثاله في الصفات كالكلام، هو عِزّ وهو ذلّ من حينه. وهذا القياس لا يفهمه إلاّ صاحب تحقيق وتدْقيق، وقليل ما هم؛ لأنّ أغراس الحس تغرس وترجى حتى تنبت وتثمر بعد حينٍ، وأغراس المعاني حين تُغرس تَنْبتُ وتثمر مَن حينها من غير أجَلٍ.

أغراس الحس، أغراس أهل الفلوس، وأغراس المعاني، أغراس أرباب النفوس. غرس النفس ينبت في الحين، كن فيكون، وغرس الفلس ينبت ويثمر بعد حين، وذلك لأنَّ الفِلْس جعله الله عبداً للنفس. عالَم الفِلس: عالم العبودية، وعالم النفس: عالم سِرّ الرّبوبية. مَنْ كانت هِمَّته راتعة في عوالم النفس فهو مَلِكٌ من الملوك، ومن كانت همته راتِعة في عوالم الفِلْسِ فهو مملوك للملوكِ. وهذا الذلّ الذي عبَّرنا عليه هنا إشارة للعبودية. والعزّ إشارة للمُلكِ. والأشياء كامنة في أضدادها، تغرس العبودية وهي الذّل تجد نفسك جرّاً مَلِكاً من حينك، وبالعكس، تغرس الحرية وهي العزّ تجد نفسك عبداً مملوكاً من حينك، لا زائداً. ومن كمالِ كَرَمِهِ تعالى عليك أن جعل مفتاح الأمور كلها بيدك: ثمار ما قد غَرَسْتَ تَجْنِي.

منك تخرج الأمور، وعليك تكون خيرياتها وشرياتها، والجهل هو سبب البُعْد والحِرْمان.

[مفتاح العلم هو مجالسة العارفين. . . القضاة وعلماء الدنيا يحشرون مع الولاة]

والعلم هو سبب القرْب، والمَلِك على سائر الأكوانِ. ومفتاح العلم، هو مجالسة العارفين بالله كما أنّ مفتاح الجَهْلِ هو مجالسة الجُهَّال التَّالِفين عن الله. قال جل من قائِلٍ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية 28].

وقع لبعض العارفين من رجال الحلية، أنّ رجلاً ناداه: يا عالماً، فقال له: يا

فقيهاً، فإن العَالِم هو من يخشى الله تعالى. وقال سهل بن عبد الله: العِلم يهتف بالعمَلِ، فإن أجابه وإلاً ارتحل. ومن كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكّي قال: وقد روِّينا في خَبرٍ، قيل: يا رسول الله كيف نصنع إذا جاءنا أمر لم نجد في كتاب الله عزَّ وجل ولا في سنّة رسول الله ﷺ؟ فقال ﷺ: «اسألوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم، ولا تقضوا فيه أمراً دونَهُمْ»[1]. ومنه أيضاً، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أقرب الناس مِنْ درجة النُّبُوَّة أهل العلم، ثم أهل الجهاد. أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام، وبينوه لهم. وأمّا الجهاد فجاهدوا بأسيافهم وبذلوا أرواحهم على ما جاءت به الرسل. وعلماء الدنيا يحشرون مع الولاة والسلاطين»[2]. وقال بعض السَّلف: العلماء يُحشرون في زُمْرة الأنبياء عليهم السلام، والقضاة يُحشرون في زُمْرة السلاطين.

[فضيحة عورة العوام مع فضيحة الفقراء]

وأيضاً: اعلم أنَّ فضيحة العامّي: كشف سَوْءَة بدنِهِ من ثياب أهل الدُّنيا، وفضيحة عورة الفقير كشف سوءَة قلبه بمجالسته أهل الدنيا.

الفقير وإن زَنَى وإن شَرِب الخمر لا تسقط مروءته، ولا تكشف عورته، ولا تُسقط مروءته مثل البخل بالدنيا، أو مزاحمته مع كلاب الدنيا، بالتناهش عليها، وكلاب الدنيا مع أبنائها وأحبائها، لأنَّ الإنسان ما حال بينه وبين مولاه شيء إلاّ الدنيا الفانية، الخوف في الفناء يحجبك عن البقاء كما أنَّ الخوف في البقاء يحجبك عن الفناءِ. والفاني هو نَفْسُك والوجود. والباقي هو اسم مولاك، وذاته وصفاته الجاه والمروءة من قِبَل النفس، وهما الدُّنيا والخلق والفِلس من قبل الوجود وهما الدنيا، والدنيا ظلمة والحق نورٌ والنور لا يجتمع مع الظلمة في القلب أبداً، ومهما امتلأ القلب بالنُّورِ يفيض نوره على الجوارحِ كلها. وكذلك إذا امتلأ القلب بالظُّلمة تنجرّ الظلمة وتظهر وتلوح من الجوارح كلها، كما قيل: ما فيك، خرج على فيك، ولا تنطق الأواني إلاّ بما سكن فيها.

[الوجود مرآة نفسك ونفسك مرآة الوجود]

وأيضاً: اعلم أنَّ من رأى الناس كلهم على خطأ، فإن الرائي هو الذي على خطأ. ومن رأى الناس كلهم على صواب فالرائي على صواب. ومن رأى الناس تارة على صواب وتارة على خطأ فهو تارة على صواب وتارة على خطأ. وذلك لأنَّ الوجود

---

(1) و(2) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

مرآة نفسك، ونفسك مِرآة الوجود. صِفاتك تظهر لك في مرآة الوجود كما أنَّ صفات الوجود تظهر لك في مِرآتك. يعني ما ظهر لك في الوجود فهو في نفسك، وما ظهر لك في نفسك فهو في الوجود ولا زائد. قال بعض الفقراء في هذا المعنى:

قُل لـلـذيـن رأوا مـا يُـنـكـرونَ فِـيـنَـا لِـصـفـاءِ شـربِـنَـا رَأوْا صِـفَـاتـهـم فـيـنَـا

[الوجود يقابلك بضدّ ما قابلته]

وأيضاً: اعلم إنك إذا قابلت الوجود بالذات بظواهرك فإن الوجود يُقابلك بضدّ الذّات، وهي الصفات. فيظهر أثر صفات الوجود عليك كما يظهر أثر ذاتك على الوجود لأن مِرآة الوجود تشرق فيك، كما أن مِرآتك تشرق في الوجود، لأنَّ الله تعالى بحكمته وقدرته جعل الإنسان في الوجود كما جعل الوجود في الإنسان، وجعل مِرآة الوجود مقابلةً لمرآة الإنسان كما جعل مرآة الإنسان مقابلةً لمرآة الوجود. ما كان في واحدة من المِرآتين يشرق في الأخرى على كل حالٍ، وكذلك إذا قَابلت الوجود بالصفات بظواهِرك. فإنَّ الوجود يقابلك بضدّ الصفات، وهي الذّات فيظهر أثر ذات الوجود عليك كما يظهر عليك أثر صفاتك على الوجود، وذاتك وذات الوجود كأنها كلها جلالٌ، كما أنَّ صفاتك وصفات الوجود كأنها كلها جمال، وجلالك مع نفسك تقابل به الوجود جمالاً كما أنَّ جلالك مع الوجود تقابل به نفسك جمالاً. يعني بظاهرك وظاهر الوجود وكذلك جمالك مع نفسك تقابل به الوجود جلالاً كما أن جمالك مع الوجود تقابل به نفسك جلالاً لأنه حتماً ما كانت ظواهرك جمالاً مع الخلق. إلاَّ كانت بواطنك جلالاً مع نفسك، ولا كانت ظواهرك جلالاً مع الخلق إلاَّ كانت بواطنك جمالاً مع نفسِكَ.

[تنافس العوام مع تنافس الخصوص]

تنافس العوام، وتنافس الخصوص، تنافس العوام، كل واحد منهم يقول لصاحبه بلسانِ حالِهِ، وبلسان مقالِهِ، أنا خير منك وأنا سيدك وأعظم منك. وذلك لأنَّ نفوسهم حية، بذلك صاروا عواماً. وتنافس الخصوص خلاف، وهو أنَّ كل واحدٍ منهم يقول لصاحبه بلسان حاله، وبلسان مقاله: أنت خَيْر مني، وأنت سيدي، وأنا عبدك، وذلك لأنَّ نفوسهم ميتة بذلك صاروا خصوصاً. وحياة النفس لا تكون إلاَّ مع موت القلب، وحياة القلب لا تكون إلاَّ مع موت النفس. كما قيل:

الـمـحـبـة عـروس، ومـهـرهـا الـنـفـوس مـا تـحـيـا الـقـلـوب إلاَّ بـمَـوْتِ الـنـفـوس

العوام لما تزاحموا على العزّ صاروا كلهم عبيداً، والعبودية هي الذلّ بنَفْسِهِ.

والخصوص لما تزاحموا على الذلّ صاروا كلهم موالي أحراراً، والحرية هي العزّ بنفسِهِ، العوام غرسوا العزّ اختياراً أثمر لهم بالعزّ القهري وعادة الله في خلقه أنَّ كل من تتعَزَّزُ عليه يتعزّز عليك، وكل من تتذلل له يتذلّل لك، كان ملكاً أو مملوكاً، عظيماً أو حقيراً، من أخيار الخلق أو من أشرارهم.

[الحكم لصاحب السفليات]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقائق منها السفليات ومنها العلويات. وإذا اقترن صاحب العلويات وصاحب السفليات، فالحكم لصاحب السفليات لا لصاحب العلويات. الريح السفلي يغلب الريح الفوقي على كل حال. والأقوال منها ما هو سفلي ومنها ما هو علوي. وإذا اقترن صاحب القول السفلي وصاحب القول العلوي فالحكم لصاحب القول السّفلي لا للعلوي. وكذلك الأفعال، منها ما هو سفلي ومنها ما هو علوي. وإذا اقترن صاحب الفعل السفلي وصاحب الفعل العلوي فالحكم لصاحب الفعل السّفلي لا للعلوي، والأقوال أيضاً كلها علوية، والأفعال كلها سفلية. وإذا اقترن صاحب الأقوال وصاحب الأفعال فالحكم لصاحب الفعل لا لصاحب القول. القول من أوصاف أهل بدايات الأمور كلها، والفعل من أوصاف أهل نهايات الفنون كلّها. الأقوال من أوصاف المبتدئين الضعفاء والأفعال من أوصاف الأقوياء الماهرين الخلفاء، الأقوال أنوار تحتمل وجود الأثمار وتحتمل عدمها والأفعال أثمار العيان، أُبطل ريبها واحتمالها، ويدلك على شرف السفليات على العلويات قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: الآيتان 5، 6] وكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على ذلك.

[جمالي الباطن جلالي الظاهر وجمالي الظاهر جلالي الباطن وصاحب الأفعال الباطنية بالعكس]

وأيضاً: ذكر بعض أوصاف نفوس الفقير من أهل الظاهر والباطن. أوّلهم صاحب الأفعال الظاهرية، كثير الصمت، وإذا تكلم يتكلم بكلام جلالي مظلم. كما أن صاحب الأقوال الظاهرية قليل الفعل وإذا فعل يفعل فعْلاً جمالياً مُنَوَّراً.

وصاحب الأفعال الباطنية كثير الصمت، وإذا تكلم يتكلم بكلام جمالي منوَّر، كما أن صاحب الأقوال الباطنية قليل الفعل، وإذا فعل يفعل فعلاً جلَالياً مظلماً كأنَّ

صاحب الأفعال الظاهرية جمالي الظاهر جلالي القلب، وكأنَّ صاحب الأفعال الباطنية بالعكس، جلالي الظاهر جمالي القلب، لأنَّ الاختلاف لا بد منه. أقوال أهل الباطن خلاف أهل الظاهر وأفعال أهل الظاهر خلاف أفعال أهل الباطن. والباطن خلاف الظاهر، والظاهر خلاف الباطِنِ. والذات خلاف الصفات، والصفات خلاف الذاتِ. وألوان الظاهر خِلاف ألوان الباطن، وألوان الباطن خلاف ألوان الظاهر. والأقوال مختلفة بعضها خِلاف بعض. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118]، وقال جل من قائلٍ: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرُّوم: الآية 22].

[قف على قدر الإنسان وكن أنت صاحب هذا القدر بالطاعة لمولاك]

سُبْحان مَنْ خَلَقَ الإنسان وفضّله على كثير من الأكوانِ، وجعله هو قطبُ المملكة الرّبانية وعليه تدور، مما أودع فيه من الأنوار والأسرار. خلق الأشياء كُلَّها من أجله وجعله أميراً عليها، لمَّا خصّه بخلافته وبمناجاته ظهر فيه بكمال الظهور حتى لم يخف على أحدٍ من أوليائه وأحِبّائه كما خفي فيه بكمال البطون حتى لم يظهر لأحدٍ من طغاته وأعدائِهِ. سبحان من حكم فعَدَلَ وأعطى فتفضّل، سبحان الحكيم العليم.

[حسن الظنّ بالمتسببين]

وأيضاً: اعلم أنَّ حسن الظنّ في المنتسبين وهو مُخْطِيءٌ، أفضل من سوءِ الظنّ فيهم وهو مصيبٌ. لأنَّ الخلق مثل الأرض أينما حَفَرْت تجد الماءَ إلاَّ أن بعض المواضع الماء فيها قريبٌ وبعضها الماء فيها بعيد. كذلك سرّ الرّبوبية في كل مخلوق، أطلبه فيمن والاك منهم تجده إلاَّ أنَّ أقواماً تجده فيهم ظاهرا جليّاً وأقواماً تجده فيهم باطناً خفياً. والحق تعالى هو الظاهر الذي ظهر في أهل الظواهر، وهو الباطن الذي بَطُن في أهل البواطن. وعلى هذا القياس صار صاحب سوء الظن محروم بسوءِ ظنِّهِ لما ظنّ السوء وجد السوءِ، وصاحب حسن الظنّ مكْرُوم بحُسْنِ ظنِّهِ، لمَّا ظنّ الجميل وجد الجميل: «أنا عِند ظنّ عَبْدِي بي»[1] الحديث. أو كما قال. فافهم. وقال ﷺ:

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ويحذركم الله نفسه، حديث رقم (7405). ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب الحث على ذكر الله، حديث رقم (2/ 2675) ولفظه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

«خِصْلَتانِ ليسَ فوقهُمَا شيء من الخَيْر: حسْن الظنّ بالله وحسن الظنّ بعِبَادِ الله. وخِصْلتان ليس فوقهما شيء من الشرّ سوء الظنّ بالله وسُوء الظن بعبادِ الله»[1] الحديث. أو كما قال ﷺ. أعاذنا الله من سوءِ الظنّ في عامّة الناس فضلاً عن خاصّتهم، وهم المنتسبون إلى الله تعالى. نسأل الله تعالى أن يرزقنا محبّتهم حتى نكونوا عبيداً لعبيدهم، بفضله وإحسانه آمين.

[الاهتمام بالله تعالى أو بغيره]

وأيضاً: رجل بالله اهتمامه يعدل اهتمام أهل العالمَيْن بأسرِهما، وقوله يُعادل أقوال أهل العالمين بأسرهما وأفعالهما كذلك. حاصله: رجل بالله يُعادل الحقيقة كلها، وإنما ذكرنا الاهتمام والأقوال والأفعال، لأنّ لها تأثيراً عظيماً من الإنسان للوجود، ومن الوجود للإنسان. الاهتمام باطن، والأفعال ظاهر. والأقوال ترجمان بين الظاهر والباطن. ومن عادته تعالى في خلقه أن يرزقهم على قدر هممهم وأقوالهم وأفعالهم. من ظنّ خيراً أو قال خيراً، أو فعل خيراً، وجد خيراً. ومن ظنّ شراً أو قال شراً أو فعل شراً وجد شرّاً. ومن ظنّ كثيراً أو قال كثيراً أو فعل كثيراً وجد كثيراً. ومن ظنّ قليلاً أو قال قليلاً أو فعل قليلاً وجد قليلاً. وعلى قدر قرْب العبد من ربه تعظم هِمّته. وعلى قدر عِظَم همّته يعظم كلامه، ويعظم فعله، وبالعكس. يعني على قدر بعد العبد من ربّه تصغر همّته، وعلى قدر صغر همّته يصغر كلامه، ويصغر فعله، صارت الهمّة على هذا القياس لها وجهان: وجه باطِنٌ وهو الاهتمام، ووجه ظاهر وهو الفعل. والكلام صِلَة بين الظاهر والباطن، وهو الاهتمام بالفعل. ومهما توفرت شروط الهمة تظهر مادة الحق تعالى، على قدر ارتفاعها وكبرها، ووضعها وصغرها في الحين «إن الله يرزق العبد على قَدْرِ همّتِهِ» الحديث. سؤال العبد لمولاه الذي لا يُردّ؛ هو سؤال الهِمَّة. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ [إبراهيم: الآية 34] وسؤال الهمة هو الذي يكون اهتماماً وقولاً وفِعْلاً، إذا كان هكذا ما بعده إلاّ كن فيكون.

وسمعت الشيخ رحمه الله يقول: المُنْتَسِب إلى الله إذا رأيته أراد أن يَنْزع كل شيء، فاعلم أنه أراد أن يعطيك شيئاً أعظم منه، لأنّ الربح الكامل لا يكون إلا بعد الخسارة الكاملة.

(1) هذا الحديث لم أجده بهذا اللفظ فيما لدي من مصادر ومراجع.

[من لم يدخل على الله تعالى من نفسه لا يدخل أبداً]

وأيضاً: اعلم أنَّ الأبواب كلها مغلقة بين الله وعبده، إلاَّ باب نفسه. مَنْ لم يدخل على مولاه من باب نفسه لا يدخل أبداً. من عادى نفسه فاز بإقبال الخلق عليه، ومن صادق نفسه فاز بإقبال مولاه عليه. لكن مصادقة النَّفس هذه التي ذكرْنا لا تكون إلاَّ بصحبة عارف بالله، إن وُجِدَ. وأمَّا قبل وجوده فإنما عادى الإنسان نفسه فلا بأس به لأنَّ هذه النفس خيرها ما له حَصْرٌ. لا يعلم قدره إلاَّ الله، مَنِ استشرفَ على خَيْرِها هام فيه، وفاته شرها، ومن استشرف على شَرِّها هَامَ فيه وفاته خيرها. يرحم الله القائل: وسمعت الخطاب من ذاتي، من مكان قريب. والله ما دخل على مولاه من دَخَلَ إلاَّ من باب نفسه، ويكفيك في النفس شرفاً قوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نفسه عرف ربَّهُ»[1].

ومن كلام شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب نَفعَنا الله بالجميع: أَمَّنِينْ جِيتْ يَاذَا الرُّوحْ هَيْمَا، السَّاكْنَا في بْسَاطْ العِزْ واخولْهَا رَبَّانِيًا رَاعِي مِنَ النَّفْس جُهْدَكْ مِسِّي وصَبِّحْ عليها، لعلَّها اتخذ بِيَدَّكْ وتَضطَادْ بِهَا.

صار الأمر كما قُلنا: عداوة النفس تمكنك من نَيْل الخلق، أنت تريد عداوة من نفسك والخلق يريدون إقبالاً عليك. وأنت تزيد بُعْداً من مولاك ومصاحبة نفسك تجمع بينك وبين مولاك تزيد وداً ومحبَّة مع نفسك، وأنت تزيد قرباً من مولاك وإقبالاً منه عليك. أنت تزيد قرباً من مولاك وأنت تزيد بُعْدا مِنَ الخلق. وذلك إذا قربت من مولاك يشم الخلق فيك رائحة لا يعرفونها فيحصل الإنكار منهم إليك، لأنَّ من جَهِل شيئاً عاداهُ. جرت عادة الله تعالى أنَّ الدَّاخِل إلى الله منكور والخارج إلى الله مبرور. قال الشاعر:

ومَنْ يَخْطُب الحسْنَاء يصبر على البَذْلِ

أو قال: على الذلِّ.

[قُرْب العامَّة وبعدهم وقرب الخاصة وبعدهم]

وأيضاً: العامة، قرْبهم إلى الله من جهة أفعالهم، وبُعدهم منه من جهة هِمَمِهم. والخاصة، بعدهم منه من جهة أفعالهم. وخاصة الخاصة، بُعْدهم في قرْبهم وقرْبهم في

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور (1/ 787) وقال: قال النووي: غير ثابت، وقال ابن السمعاني: هو من كلام يحيى بن معاذ، وأورده غيره.

بُعْدهم، وجَمعهم في فرْقهم، وفَرْقهم في جمعهم، وفناؤهم في بقائهم، وبقاؤهم في فنائهم. الأمر عندهم واحد في الأحوال وفي أضدادها. رضي الله عن الجميع.

[الخير هو الاجتماع على الله تعالى]

وأيضاً: اعلم أنَّ الاجتماع مطلقاً سواء كان خيرياً أو شريّاً، الخير هو الذي يكون لله والشر هو الذي يكون لغير الله. وهو لا يخلو إما أن يكون الاجتماع على فعل حسي أو على فعل معنوي. ودون الحسي أو المعنوي لا يصحّ الاجتماع. إلاّ أن الاجتماع يكون على الحسّ ما شاء الله ثم ينقلب حكمه فيصير الحسّ معنىً، ويكون الاجتماع أيضاً على المعاني ما شاء الله، ثم ينقلب المعنى حسّاً، وأما بغير الحسّ والمعنى فلا.

[الإنسان نسخة من الوجود والوجود نسخة منه]

وأيضاً: اشتملت ذات الإنسان على سبعة جوارح، كل جارحة لها حقيقتان: حقيقة علوية وحقيقة سُفلية. أربعة في الرأس: اللسان والعَيْن والأنف والأذن. وثلاثة في البَدَنِ: اليد والرجل والفَرْجُ. الحقائق العلوية: الكلام والنظر والسمع والشَّمُّ والسَّيْر بالرجلين والنكاح بالفَرْجِ والإمساك باليَدَيْنِ. هذه سبعة. والحقائق السُّفلية: الصمت وغضّ البَصَر وغضّ الأذن عن السمع وغض الأنف عن الشَّمّ وكثرة الجلوس والسخاء بما في اليد وعدم النكاح. هؤلاء سبعة. وكما أن للسبعة السفلية تأثير عظيم في الوجود كذلك للإنسان الكامل له عليها تأثير عظيمٌ. ومن أين للإنسان من هذا الأمر العظيم إلاّ أن الله تعالى فضّله على سائر الأكوان وجعله مكمولاً من كل جهة، ومن إكماله له أن جعله نسخة من الوجود والوجود نسخة منه، من أعلى عليين إلى أسفل سافلين. الوجود بأسره مطوق بحكمة الحق تعالى في الإنسان. لأجل هذا المعنى تجد الإنسان مشتملاً على أعلى شيء وأشرف شيء وأكبر شيء، وتجده أيضاً مشتملاً على أسفل شيءٍ وأحْقر شيءٍ وأصغر شيء. إن وصفته بالشرف لا تدرك نهاية شرفه ورفعته، وإن وصفته بالدّناءة والخساسة والوضع لا يُدْرك نهاية دناءته ووضْعِهِ.

العارفون بهذا المعنى استدلوا على كماله وعلوّ منزلته، والجاهلون بهذا المعنى أيضاً، استدلوا على نَقْصِهِ ووضع منزلتِهِ. وكل واحد ينعت فيه ما رأى. وبين الطلوع والنزول تخبَّلَتِ الغزُول، أفنى من لم يبق وأبقى من لم يَزل. وكيف يتصور في العقل الإحاطة بمعرفة الإنسان وقد جاء في الصحيح عنه ﷺ: «من عَرَف نَفسه عرف ربَّهُ»[1].

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

وقال جلّ من قائل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: الآيتان 4،5] كل من وصف الإنسان بشيءٍ فقد صدق، إن وصفه بأعلى شيءٍ فهو ذاك، وإن وصفه بأسفل شيءٍ فهو ذاك.

[بعض أوصاف العارف بالله تعالى]

وأيضاً: من أوصاف العارف بالله أن تجد أفعاله وأحواله كأحوال ضُعَفاء عامة المسلمين، يعني في ظاهره من جهة المعنى لأنَّ الظاهر له حسّ ومعنى، والباطن له حسّ ومعنى. الظاهر تنبِّئك به الأحوال والأفعال، والباطن يُنَبِّئك بأخباره اللسان. صار العارف بالله إما في أحواله وأفعاله، يكون كما ذكرنا في ظاهره، وأما أقواله التي تنبيء عن باطِنِهِ فإنه تجده لا ينكر على أحدٍ حالاً من أحواله، لا من عامة الناس ولا من خاصَّتهم. لأنَّ مرتبة المعرفة بالله لا تحصل لأحدٍ حتى يكون عبداً لله في جميع الحالات، وإذا كان عبداً لله في جميع الحالات، كيف ينكر على الخلق شيئاً من أحوالهم، بل يَبْطل إنكاره لأنَّ سبب الإنكار الجهل، وإذا حصلت المعرفة حصل العلم، ومهما حصل العلم انتفى الجهل على كل حالٍ. لأجل هذه المعاني كثيراً ما تجد العارفين بالله، رضي الله عنهم، يسيرون على سَيْر الضعفاء.

قيل: إنه كان من أوصافه ﷺ ما اجتمع له أمران إلاَّ اختار أيسرهما[1]. وهو ﷺ إمام العارفين، وكلهم غرفوا من بحر أنواره. نسأل الله تعالى أن يجعل لنا معهم الحظ والنصيب بفضله وإحسانه وجوده وكرَمِهِ.

[فعل الحقيقة]

وأيضاً: أربعة فعلهم شريعة وتركهم حقيقة: الاحتيال والترتيب والتدبير والاختيار. هذه أصول، من فعلها فعل شريعة ومن تركها فعل حقيقة. كأن هذه الأربعة فعلها حِكْمة وتركها قدرة. وما أعرضت عن الحكمة إلاَّ وجدتَ القدرة في يديك، وما أعرضت عن القدرة إلاَّ وجدت الحِكمة في يديك والإنسان أبداً لا يخلو من واحدة منهما.

---

(1) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم والبخاري وغيرهما عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه. (صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام. . .، حديث رقم [77ـ (2327)].

[طريق الشاذلية أهلها يوتى إليهم وهم لا يأتون لأحد]

وأيضاً: صاحب طريقتنا هذه، يؤتى إليه ولا يأتي هو إلى أحدٍ. ويُحتاج إليه ولا يحتاج هو إلى أحدٍ. ودائماً معشوقاً عند كل أحدٍ ولا يعشق هو أحداً سوى الأحد الفرد الصَّمَدِ. ومهما صدر منه شيء من هذه النقائص التي لا تليق بأحواله فذلك قدح في همَّته يجب عليه التطهر منها كتطهره من الجنابة. يعني يتطهر من جنابة المعاني بالمعاني كتطهره من الجنابة الحسية بالحسِّ.

[للعين حقيقتان]

وأيضاً: العين لها حقيقتان: حقيقة علوية وهي النظر، وحقيقة سُفلية وهي الغَضُّ. ولا رأيت شيئاً أقوى منهما وأنفع منهما للإنسان، وأسرع منهما وأقرب منهما للظفر بالمراد. وكما أن النظر يخرق العوائد كذلك الغضّ. إلاَّ أن النظر يعرف حكمتَهُ جميع الناس لأنَّه علوي وذلك منزلة العوام، والغضّ لا يعرف حكمته إلاَّ الخصوص الذين خاضُوا في علم السفليات كما خاضوا في علم العلويات. قال الششتري رحمه الله: بين الطلوع والنزول تخبَّلَت الغزول، أفْنَى مَنْ لَمْ يَبْق وأبْقَى مَنْ لَمْ يَزلْ.

[الأقوال أنوار والأفعال أثمار]

وأيضاً: اعلم أنَّ مَنْ لم يجد شيئاً من الفعل لا يُحسب من أهل الفنِّ، ولو بلغ في العلم ما بلغ لأن العلم أخبارٌ، والأفعال تُنْفي أو تُثْبِت. العلم أنوار، والفعل أثمارٌ. وماذا يُصنع بأنوار إذا لم تكُنْ ثماراً. من حاز شيئاً من أفعال الفنّ فهو من أهله، ومن لم يَحُزْ شيئاً من أفعاله فليس هو من أهله، أحبَّ أم كَرِهَ.

والعلم تغرسه عِلماً وتحصيه وتعتني به وتربّيه حتى يكمل نباته، وتأتيك نتيجته فيثمر لك بأفعال ليس لها حَصْرٌ ولا حدّ ولا نهاية. لا يعرف قدر ثمارِ العلم إلاَّ أهل الفن الراسخون فيه، وقليل ما هم.

[حكمة الاختلاف]

وأيضاً: قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118] الحقائق كلها في جملة اختلافها، كل حقيقة لها وجهان: وجه علوي ووجه سُفْلي. ووجه من جهة النَّفْس ووجه من جهة الوجود وما حوى. يعني الخلق.

إذا كان الذي من جهة النفس علوي يكون الذي من جهة الخلق سُفْلي، وإذا كان

الذي من جهة النفس سُفْلي، يكون الذي من جهة الخلق عُلْوِي. مهما حصل الضيق من جهة النَّفس حصل التوسيع من جهة الخلْقِ، ومهما حصل التوسيع من جهة النَّفس، حصل الضيق من جهة الجنس على كل حالٍ.

[العارف هو الذي ملك نفسه وملك]

العارف هو الذي ملَكَ نفسه في الوجود وملك الوجود بنفسِهِ، إن شاء عَقَدَ نفسه بالوجود وإن شاء حلَّهَا، وإن شاء عَقَد الوجود بنفسه وإن شاء حَلَّهُ. والجاهل ملكته نَفْسُه بالوجود إن شاءت عقدته وإن شاءت حلَّتْهُ وملَّكَتْه الوجود بنفسِهِ إن شاء عقده وإن شاء حلَّهُ. شتَّان ما بين العارف والجاهل. العارف مَلِك يتصرَّف في مُلْكِهِ بما شاء، والجاهل مملوك يتصرف فيه مَالِكهُ بما شاء.

[معرفة الأجاويد]

وأيضاً: قال لي الشيخ: يا ولدي، والله ما ظفرنا بكمية النفس حتى عُرِضت علينا كمية الفلس فأبيناها. يعني كمية الذَّهب، وسمعته يقول: معرفة الأجاويد فيها رأس مالٍ.

[كنز النفس]

وأربعة من مفاتح كنز النَّفس: كثرة الصمت، وغضّ البصر عن النظر إلى الخلق، وسخاء اليد، وكثرة الجلوس... هؤلاء حقائق ظواهر جلالية، وهي من مفاتح الجمال الباطني، ولا شك أن مفتاح الجمال الباطني هو الجلال الظاهري، كما أنَّ مفتاح الجلال الباطني هو الجمال الظاهري، كل ما زيد في ظاهرك جلال، يزداد في باطنك على قَدْرِهِ جلال. هكذا جرت عادة الله في خلقه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية 62].

[الأمر واحد لا ثاني له]

وأيضاً: إذا ضَعُفَتْ مواصلة الذات، قويت مواصلة الصفات، وبالعكس، إذا قويت مواصلة الذات ضعفت مواصلة الصفات، لأن كل اثنين لا يجتمعان ويأتلفان إذا كان الحكم الواحد منهما على الآخر وإن لم يكن ذلك فيفترقان على كل حال. والحِكمة في ذلك: هو أن الأمور كلها كل أمر لا تكون فيه الوحدانية قولاً وفعلاً فهو باطلٌ لا يقوم أبداً، سواء كان أمراً دينياً أو دنيوياً أو أخروياً. وبعدما يكونان اثنين يكون

واحدٌ منهما حاكماً على الآخر، يأتلفان بذلك مع بعضهما، ومع هذا يخرج الثالث بينهما على كل حالٍ. فذلك نتيجة اجتماعِهما، وعلى قدر تقوية وحدانية الاثنين تتقوّى نتائجهما وتثبت، وعلى قدر ضُعْفهما تَضْعف. ومهما انقطعت وحدانية الاثنين يفترق الشمل في الحين على كل حالٍ. ولا خصوصية للاثنين في ذلك، بل ولو كان مائة ألفٍ، ووحَّدُوا واحداً منهم وصاروا على سرِّهِ ونظره يُقوم أمرهم، وتظهر نتائجهم، سواء كان ذلك الواحِد صدِّيقاً أو زِنديقاً، وهذا كله مما يدلّ على أنَّ الأمر واحدٌ لا ثاني له. ومقصدنا في الخوض في هذا الفنّ، زيادة قُرْبٍ وانحياش لبَحْرِ عَيْنِ الوَحْدة، جعلنا الله من المُسْتغرقين فيها بفضله وإحسانه.

[كل ما يصيب الإنسان من نفسه خيراً كان أو شرّاً]

وأيضاً: مسألة السّرِّ لا تكون إلاَّ بالسّرِّ، مع أهل السّر، ومهما يظهر فيها الجهر تَفْسُدُ. ومسألة الجَهْر لا تكون إلاَّ بالجهر، مع أهل الجهر، ومهما يظهر فيها السِّرّ تَفْسُدُ. وهكذا. والإنسان كل ما يُصيبه من نفسه، لا خير له إلاَّ من نَفْسه، ولا شرٌّ له إلاَّ من نَفْسه. وذلك أن الإنسان لا يُقابل الوجود إلاَّ بما في نفسه خيراً كان أو شرّاً، حرفاً حرفاً من غير زيادة ولا نقصانٍ. كما أنَّ الوجود مقابل للإنسان كالمِرْآةِ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: الآية 70] . ولو اجتمعت أهل السماوات وأهل الأرض على أن يصيبوك بِشرٍّ وأنت في طَوِيتكَ خير، لا يقدرون على ذلك. ولو اجتمعوا أيضاً على أن يصيبوك بخير وكنت مُنْطوي في نفسك على شرٍّ لا يقدرون على ذلك. قال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية 139] . لأجل هذا المعنى قلنا: كل ما يلقى الإنسان ما صدر له إلاَّ من نفسه خيراً كان أو شرّاً.

[سيف العِزّ وسَيف الذّل]

وأيضاً: سَيْفُ القَهْرِ والغَلَبةِ سيفان: سيفُ قَهْر فوقي، وهو سيْفُ العِزّ. وسيف قهر سُفلي، وهو سيف الذُّلّ؛ وهما على حدٍّ سواء في التصرف قبل أن يمحي بعضهما بعضاً. سيف الذل في سرادقة مُلكه يتصرف بما شاء، كن فيكون، وإذا تلاقيا وكانت ملاقاتهما على خير واتَّفقا عليه معاً، خيرهما لا نهاية له. وخير السُّفلي أقوى من خير الفوقي. وإذا تلاقيا أيضاً وكانت ملاقاتهما على شرٍّ اتفقا عليه معاً، شرهما لا نهاية له، وشرُّ السُّفلي أقوى من شرّ الفوقي، وإذا تلاقيا أيضاً، وكان الفوقي إرادته شرٌّ والسفلي إرادته خيرٌ، السفلي يغلب خيره على شر الفوقي. وإذا تلاقيا وكان السفلي إرادته شرّ والفوقي أرادته خيرٌ، السفلي يغلب شرّه على خير الفوقي.

سمعت من الشيخ سيدي العربي أنه سمع من أبيه سيدي أحمد، قال: كان أبوه سيدي محمد بن عبد الله، نفعنا الله بهم، يقول: إذا اجتمع الريح السفلي والريح الفوقي في وقتٍ واحدٍ فالريح السفلي يغلب على كل حال. قال جلَّ من قائلٍ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝﴾ [القَصَص: الآيتان 5، 6] . مُلك العزِّ أخذه العوام ومُلك الذلِّ أخَذَهُ الخصوص. ولو كان مُلك العزِّ قوياً من مُلك الذلِّ، ما ترك الخصوص العِزَّ للعوام، وتمسَّكوا بالذلِّ.

انظر قول الشاذلي رضي الله عنه ونفعنا به: اللهمَّ إنَّ القوم قد حَكَمْتَ عليهم بالذّلِّ حتى عَزُّوا وحَكَمْتَ عليهم بالفَقْدِ حتّى وجدُوا. أدخلنا الله في زُمْرَةِ هؤلاء القوم، الذين حكم عليهم الحق سبحانه بالذلِّ حتى عزُّوا، بفضله وإحسانه وأحيانا وأماتنا على محبَّتهم، آمين.

[الخلق كلهم من عنصر واحد يقولون بأمر الله كن فيكون]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخلق كلهم، أي بأسرهم، يقولون بأمر الله تعالى للشيء كن فيكون، إلاَّ أنهم تارة يأخذون الأشياء بحِكمة الله تعالى وتارة بقدرته. وكل واحدٍ مِنَ الخلق أمدَّه الله تعالى منهما على مقدار علوِّ همَّتِهِ. وهذا العلم من الناس من هو سائر فيه على علم وبصيرة، ومنهم من هو سائرٌ فيه على جَهْلٍ وظلمَة وتَلَف: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 9] . صاحب المعرفة كأنه سائر في شمس الضحى، بصير بما زاد وما نَقَصَ، وصاحب الجهل كأنَّه سائر في ظلمةِ الليل لا يدري أين يطرحُ رِجْله، أيصيبه حجراً أو يسقط.

[الشريعة والحقيقة ضدان يجتمعان بالجمع ويفترقان بالفرق]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقيقة والشريعة كأنهما ضِدَّانِ لبعضهما بعضاً، يجتمعان بالجمع، ويفترقان بالفَرْقِ، وكُلُّ ما تعقِدُهُ الحقيقة تحله الشريعة. وكل ما تعقده الشريعة تحله الحقيقة. وزيادة الوجود كلها بين ذلك العقد وذلك الحلّ. وإن شئت قلت: كل ما توجده الشريعة تفقده الحقيقة وكل ما تفقده الشريعة توجده الحقيقة. وزيادة الوجود كلها بين ذلك الفقد وذلك الوجود. وإن شئت قلت: كل ما تصلحه الحقيقة تفسده الشريعة، وكل ما تصلحه الشريعة تفسده الحقيقة. وزيادة الوجود كلها بين يدي ذلك الإصلاح وذلك الفساد، وإن شئت قلت: كل ما تعزّه هذه تذله الأخرى وبالعكس، وزيادة الوجود كلها بين ذلك العزِّ والذل. وإن شئت قلت: كل ما ترفعه

هذه تَضَعُهُ هذه، وبالعكس. وزيادة الوجود كلها بين ذلك الرفع وذلك الوضع. إلى ما لا نهاية له من اختلاف الحقيقة مع الشريعة. وزيادة الوجود بأسرها: علوي وسُفْلي، كلها منبعها بين تلك الاختلافات. يرحم الله الشيخ الششتري حيث يقول: بين الطلوع والنزول تخبَّلت الغزول. أفنى مَنْ لَمْ يَبْقَ، وأبْقَى مَنْ لَمْ يَزُلْ (. . .).

[القلب بيت الرَّب منه تبرز تصرفات العوالم كلها]

وأيضاً: القلب بيْت الله، منه تَبْرز تصرفات العوالم كلها: خيرياتها وشرياتها. إذا ظهر في قلبك وصف الجلال فإن ظاهر الوجود يقابلك جمالاً، وإذا ظهر في قلبك وصف الجمال، فإن ظاهر الوجود يقابلك جلالاً، وظاهرك يُقابلك جلالاً. وباطن الوجود يقابلك جلالاً. وذلك لأنَّ الاختلاف لا بد منه، ولكن ترتيب الاختلاف بقدرة الله تعالى تابع للقلب. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118] . والمراد بالقلب: قَلْب ابن آدَمَ، كما أنَّ قَلبَكَ في باطنك مقابله هو ظواهر الوجود، قلبك جمع، وظاهر الوجود فرقه. كذلك صار ظاهره، مقابله هو باطن الوجود. باطن الوجود جَمْعٌ وظاهرك فرقه، لكن جمعك وفرْق الوجود وجمع الوجود وفرْقك حكم الجميع موقوف على واحد منهم، وهو جَمْعك، يعني قلبك، لقوله ﷺ في الحديث القدسي: «لن تَسَعْنِي أرْضِي ولا سَمَائي، ويَسَعني قلب عبدي المؤمن»[1]. من أجل ذلك صار هو عنصر التصرفات كلها.

[الحقيقة كلها جمال]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقيقة كلها في الباطن جمال جَمْعٍ، وفي الظاهر جلال فَرْقٍ. والشريعة بالعكس، أي كلها في الظواهر جمال جمعٍ، وفي الباطن جمال فَرْقٍ. وإن تحقَّقت الأمر تجد كل شريعة أصلها حقيقة وكل حقيقة أصلها شريعة. والعامة يُبادِرون إلى الشريعة ويُهْمِلون الحقيقة، والخاصة يبادرون إلى الحقيقة ويُهْمِلون الشريعة. العامة لاشتغالهم بظواهر الأمور والخاصة لاشتغالهم ببواطن الأمور. وخاصة الخاصة يُبادرون إلى الحقّ ويُهملون الباطل، يتبعون الحق أينما وجدوه وكيفما وجدوه، ولما تعلقت هِمَمُهُمْ به تعالى لم يجدوا شيئاً سواه حجبوا عن الأكوان كلها حتى على نفوسِهِم. كما قال الشيخ ابن عطاء الله في حِكَمِهِ: لو أشرق نُورُ الإيمان لغطَّى وجود الأكوان، ولوقع العيَان على فقد الأعيان.

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2254).

[مصيبة الرضى عن النَّفس]

وأيضاً: عجبت ممَّن يقول: بأنَّ من عَرَف الحق حق معرفته أنَّه لا يرضى عَنْ نفسه أو يهين أحداً من مصنوعات ربِّه، حاشا وكلا ومعاذ الله، وعجبت ممَّن يقول: بأن الراضي عن نفسه يُحصِّل على شيء من رضى ربه، ومن فاته رضاءه فهو الواقع في سخطه. قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: الآية 7] ، سبحان مَن لم يجعل بين الجنة والسعير منزلة، إما نزول في الجنة أو نزول في السعير. يرحم الله الشيخ ابن عطاء الله حيث يقول: أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرِّضَى عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضى عنها. أيُّ عِلم لِعَالِم يَرْضَى عن نفسه، وأيُّ جَهْلٍ لجاهل لا يرضى عن نفسه. والمراد بالعلم هنا: علْم العيَان، فهو أقوى وأبلغ من علم الخبر لأنه ليس الخبر كالعيانِ.

[الآدمي يمدّ الوجود]

وأيضاً: باطنك يمدّ ظاهر الوجود، كما أن ظاهرك يمدُّ باطِن الوجود. صار الوجود كأنه أفْرَاعك وأنت أصله، أو كأن الوجود جسدُكَ وأنت قلبه أو روحه. ومن جملة الاختلاف الذي جعل الله في الإنسان، أن جعل ظاهر الإنسان مخالفاً لباطِنِهِ، كما جعل باطن الوجود مخالفاً لظاهره. وجعل ظاهر الوجود أيضاً بعضه مخالفاً لبعضٍ، كما جعل باطنه بعضه مخالفاً لبعضٍ. وكذلك الإنسان بعض ظاهره مخالف لبعضه، وبعض باطنه مخالف لبعضه.

[الكرم في الباطن بُخْلٌ في الظاهر والعكس]

وأيضاً: وصف الكَرَم في ظاهر الإنسان يستوجب وصف البخل في باطنه، وهذا وصف أهل الظاهر، وكذلك وصف البخل في الظاهر يستوجب وصف الكَرَم في الباطن، وهذا هو وصف أرْباب القلوب من أهل البواطِنِ.

والتلوُّن: تارة بخلاً أو كرَماً في الظاهر، وتارة كرماً أو بُخْلاً في الباطن. هذا وصف الكُمَّل من أربابِ التمكين والرسوخ في مقامات اليقين. وكل من توجه إلى الله من طريق فرق الظواهر فإن فرْق الظواهر يرفعه لجمع البواطن. وكذلك من توجَّه إلى الله من طريق جمع البواطن فإن جمع البواطن يرفعه لِفَرْقِ الظواهر، وهذا حتماً لا محيد عنه. قال تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: الآية 43] .

[الباطن يجمعك على الحق]

وأيضاً: اعلم أنَّ الباطن يجمعك على الحق، ويفرقك عن الخلق. كما أن الظاهر يجمعك على الخلق ويفرقك عن الحق. ومن عرف الحق في الباطن وجهله في الظاهر فهذا متمسك بالحقيقة دون الشريعة. ومن عرف الحق في الظاهر وجهله في الباطن فهذا متمسك بالشريعة دون الحقيقة. ومن عرف الحق في الظاهر وعرفه في الباطن فهذا من أولياء الله السائرين على منهج النبيّ ﷺ وأصحابه، أئمّة الهُدَى. كما قيل: من شرَّع ولم يتحقق فقد تَفسَّق ومن تحقق ولم يتشرَّع فقد تَزَنْدَق. ومن جمع بينهما فقد تحقق. مثل من تحقق ولم يتشرَّع كمن بنى أساس دارٍ من غير دارٍ، ومثل من تشرَّع ولم يتحقق كمن بَنَى داراً بغير أساسٍ. ومثل العارف بالله الذي تحقق وتشرَّع، أو تشرَّع وتحقق، كمن بنى أساس الدار في باطِنِ الأرض حتى فرغ منه ثم بنى جدار الدار فوق ظاهر الأرض. وأما من بنى أساس الدار من غير دارٍ، فإنما يَبْني أساس الخراب، وكذلك من بنى الدار من غير أساسٍ فإنما بَنَى الخراب. والإشارة للدار إلى الإسلام قولاً وفِعْلاً.

[تنوير الظاهر والعكس]

اعلم أنَّ تنوير الظاهر ضامن لإيجاد مواهب العمل، وهو سبب في تظليم البواطن، وكذلك العكس، تنوير البواطن ضامِن لإيجاد مواهب العلم، وهو السبب في تظليم الظواهر. وإلا فتنوير الظواهر حتماً لا يكون إلاَّ على قدر تظليم البواطِنِ. وكذلك العكس، تنوير البواطن حتماً لا يكون إلاَّ على قدر تظليم الظواهر. وهذا القياس يُحكم به على أهل البدايات.

[أهل النهايات الذين صار كل شيء فيهم بالله أقوالهم أقواله]

وأما أهل النهايات الذين استوى نفعهم بالظلمة والنور، وهم الذين صاروا عبيداً لله في جميع الحالات حقاً، فهؤلاء لا ينكرون ظلمة ولا نوراً، ولا يفرحون لنور، ولا يحزنون لظُلْمةٍ، وإنما فرحهم أبداً يخالف النور والظلمة، قد امتحَت نفوسهم بشهود مولاهم بحيث صارت إرادتهم هي إرادة مولاهم، وأفعالهم هي أفعال مولاهم، وأقوالهم هي أقوال مولاهم. إذا قاموا قاموا بالله، وإذا قعدوا قعدوا بالله، وإذا تحركوا تحركوا بالله، ومفتاح هذه المنزلة العُظْمى هي كثرة المُرَافقة لأهل الله، وكثرة النظر إليهم والتخلّق بأخلاقهم، ذلك استعمالاً حتى يصير حقيقة.

[الفناء في أهل الله ثم الفناء في الله]

أوّلاً: تَفْنَى فيهم عن نفسك، ثم بعد ذلك تَفْنَى في مولاهم عنهم وعن أنفسهم. ومن لا فناء له في أولياء الله لا فناء له في الله. جرت عادة الله في خلقه أنه ما أفلح من أفلح إلاّ بصحبة من أفلح.

[مفتاح الأشياء شرائعها]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل فنّ إذا أردت التوجُّه للدخول إليه، انظر شريعته، فإنه لا سبيل لك للدخول إليه إلاّ منها. جرت عادة الله أن أبواب الأشياء هي شرائعها، ولولا أنَّ الشرائع هي مفتاح الأشياء ما دعا النبي ﷺ إليها وحضَّهُم عليها، مع أنه ﷺ هو إمام الحكماءِ، وقدوة العارفين. وكلهم من رسول الله مُلْتمِس غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيَم.

يقول الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله في لطائف المِنن: قوْم حجبُوا بالشريعة عن الحقيقة، وقوم حجبوا بالحقيقة عن الشريعة، وقوم جعلوا الشريعة باباً، والحقيقة أبواباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجَادلة: الآية 22]. انظر كيف قرر الشيخ رضي الله عنه الشريعة باباً، فكل فنّ زريعته هي شريعته، وكل من أتى فناً من غير باب شريعة فإنه مردود، لا نصيب له في حقيقته. ولو ظهر عليه ما ظهر. قال تعالى: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية 189]. العلوم نتائج البواطن والأفعال نتائج الظواهر. مَنْ أراد ثمار العلوم فعليه بشرائع البواطن، كما أنَّ من أراد ثمار الأفعال فعليه بشرائع الظواهر.

[فنون الظواهر والبواطن]

وأيضاً: فنون الظواهر ليس لها حَصْرٌ وكذلك فنون البواطن ليس لها حصر، وكل فن من فنون ظواهر الأفعال أو من فنون بواطن العلوم لا يُدخل عليه إلاّ من الشريعة، لأن الشريعة تعددت على قدر تعدد الحقائق، وكل من طلب فنّاً أثمرت في وجهه، فهو مطرود عن ذلك الفنّ، لا نصيب له في تحقيقه. وقول الشيخ نفعنا الله به: قوم حجبوا بالشريعة عن الحقيقة وقومٌ حجبوا بالحقيقة عن الشريعة. أي فِرْقة وقفت هِمَمُهم في طلبهم لله مع الشريعة فصارت لهم حجاباً لما وقفوا عندها، وفرقة أخرى وقفت هممهم في طلبهم لله مع الحقيقة فصارت لهم حجاباً لما وقفوا هممهم عندها. وقوم جعلوا الشريعة باباً والحقيقة أبواباً أي لم تقف هِمَمُهُمْ في طلبهم لله لا مع شريعة ولا مع

حقيقة، بل صارت هممهم قاصدة إلى الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية 22] وذلك لأنَّ الزيادة تُعطى للإنسان على قَدْرِ علوِّ هِمَّتِهِ، ونهاية علوِّ الهِمَم إلى ربك المنتهى. «إن الله يرزق العبد على قدر هِمَتِهِ» الحديث.

[متى يرشد الولي؟.. موت الإنسان المعنوية]

وأيضاً: لا يرْشِدُ الوليُّ نفسه حتى يموت ويحيا، ثم يموت ويحيا. المَوْتة الأولى: للفناء الظاهري، والحياة التي بعدها البقاء الباطني. والموتة الثانية: الفناء الباطني، والحياة التي بعدَها البقاء الظاهري. الفناء الظاهري هو سبب الفناء الباطني، والبقاء الباطني هو سببُ الفناء الباطني، والفناء الباطني هو سبب البقاء الظاهري، للفناء الأول الظاهري بُعْدٌ مِنَ الخَلْقِ وتوجّهٌ إلى الحقِّ. والبقاء الباطني وصول إلى الحق وتوجه إلى الخلق بالحق. والفناء الباطني جَمْع بين حضرة الحق وحضرة الخلق، والبقاء الظاهري جمع الجمع بالحق، للحق في الحق عند الحق، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

[ملوك الحقيقة وهم العارفون بالله]

وأيضاً: اعلم أنَّ ملوك الحقيقة حقاً، هم العارفون بالله، كما أنَّ ملوك الشريعة الدنيوية هم العاملون بالمخلوقِ. وإن كان الكل في الحقيقة بالله، ولكن العارفون بالله أطلق عليهم العارفون بالله لأنَّهم لا حجاب بينهم وبين الحق، فنيتْ نفوسهم بشهودِ الحق، فلم يبق لأنفسهم نسْبة في أقوالهم ولا في أفعالهم ولا في إرادتهم. ولما فقدت نسبة المخلوق فقدت أوصافه، وثبتت نسبة الله وأوصافه، فلذلك قيل في ملوك الحقيقة: العارفون بالله، ولم يقل في ملوك الشريعة الدنيوية: العالمون بالله. وإنما قيل فيهم: العاملون بالمخلوق، وذلك لأنهم محجوبون بظلمة الأفعال، فهي التي حجبتهم عن مشاهدة الحقِّ. ولما حجبوا عن الحق لم يجدوا في أيديهم إلاَّ المخلوق فلذلك لم يبق للحق نسبة في أقوالهم ولا في أفعالهم ولا في إرادتهم. ولما فقدت نِسْبة الحق منهم فقدت أوصافه، وثبتت نسبة المخلوق، وهو العبد. وثبتت أوصافه. فلذلك قيل في ملوك الشريعة الدنيوية: العالمون بالمخلوق، وملوك الشريعة هؤلاء الذين ذكرناهم أهل الرياسة الدنيوية لا أهل علوم الشريعة الدينية، وملوك الحقيقة الذين ذكرنا أيضاً هم أهل العلم بالله، الأغنياء بالله، لا الفقراء الجاهلون بالله. أهل علوم الشريعة أهل ظاهر مجازي لا حقيقي. كما أن الفقراء الفاعلين بلا عِلم، أهل باطِنٍ مجازي لا حقيقي. وأهلُ الباطن الحقيقي هم ملوك الحقيقة المذكورون أولاً. كما أن أهل الظاهر الحقيقي هم ملوك الدنيا المذكورون أوّلاً أيضاً. وما بقي من الخلق فهم ممالك لأحد الأربعة

فِرَقٍ. منهم من هو مملوك مُلوك الحقيقة، وهم العارفون بالله، ومنهم من هو مملوك لأهل علم الشريعة الدنيوية، وهم أهل الرياسة الظاهرية، ومنهم من هو مملوك لأهل علم الشريعة الدِّينية وهم أهل علم الظاهر. ومنهم من هو مملوك للفقراء العاملين بلا علمٍ وهم الجاهلون بالله. ولا زائد، وهذه الفِرقة الرابعة، وهم الفقراء، من كان منهم غيرَ راضٍ تابع لأثر العارفين من غير إنكارٍ على أحدٍ من أهل الله ولا من غيرهم، يُرْجى له أن يدخل في زُمْرة العارفين بالله إذا دام على ما ذكرنا. ومن كان منهم راضٍ على نفسه مستكفياً بمأمورات هواها، منكراً على أهل نِسْبة الله أو على غيرهم فهو أضلّ من العوام بمائة ألف ضِعفٍ، بل أكثر وأكثر من ذلك. وجدت عند الشيخ زروق في بعض شروحاته على الحِكَم، نفعنا الله به، قال: أوصى عارف بعض أصحابه، قال له: يا ولدي، احذَرْ صحبة ثلاثة أصناف من الناس أولهم: الجبابرة الغافلون، ثانيهم: القرّاء المُداهِنُون. وثالثهم: المتصوفة الجاهلون. وأنا عندي المتصوفة الجاهلون أقبح من الفِرْقتين الأوليتين، لأنَّ الفِرْقتين الأولَيَيْن إذايتهما للخلق كالسمّ القاتل بعد حين، والمتصوفة الجاهلون بمنزلة السُّمّ القاتل من ساعته.

[الفقير المحقق]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفقير المحقق هو الذي لم يكن بينه وبين أهل الشرائع وداد مخذول مأخوذ. والمراد بالشرائع: أهل الشرائع الدنيوية وهم أهل الرياسة. وأهل الشرائع الدينية وهم أهل العلم الظاهري. الفقير الذي لم يلتئم مع أحد هذين الفريقين، أو معهما معاً مخذول، وذلك أنَّ الفقر كله حقيقة، والحقيقة حتماً لا يستقيم أمرها إلاَّ بمرافقة أهلها لأهل الشرائع. كما أن ما دُونَ الفقر كله شرائع، ولا يستقيم أمر أهل الشرائع إلاَّ بمرافقتهم لأهل الحقيقة لأنه إذا اجتمعتِ الحقيقة والشريعة، في مائة ألفِ ألفٍ، فإنَّ الحق يظهر فيهم على كل حالٍ. وكذلك إذا اجتمعَتْ في ألفٍ وكذلك إذا اجتمعت في عشرة، وكذلك أيضاً إذا اجتمعت الحقيقة والشريعة في رجل واحدٍ، فإنَّ الحق يظهر فيه على كل حالٍ. الوجود كله إذا اجتمعت فيه شريعة وحقيقة ظهر فيه الحق بكامل الظهور، ويَعْدِل الوجود رجل تجتمع فيه الحقيقة والشريعة، يظهر فيه الحق بكامل الظهور كما ظهر في الوجود بأسْرِهِ، يظهر فيه وحدَهُ. من أجل ذلك كان رجل يعدل الوجود والوجود يعدل رجلاً واحداً. وإذا كان مائة ألف ولم تجتمع فيه شريعة وحقيقة، أرجح منهم وأشرف، وأقوى وأغْنَى، وأعزُّ منهم رجل جَمَعُهُمَا. ويحكى عن النبي ﷺ كان بين يديه رجُلان، قال في أحدهما: هذا أفضل من ملءِ الأرض من هذا، أو كما قال ﷺ: ما ظهرت رجال الحقيقة وعرف مقدار هذا إلاَّ

برجال الشرائع، ولا ظهرت رجال الشرائع واستقرَّت في رتبتها إلاَّ برجال الحقيقة، نفعنا الله بالجميع.

[من ذل الظاهر]

وأيضاً: ومن ذلّ الظاهر: العُزْلة والصمت. ومنه قِلَّة الالتفات بالبَصَر إلى الخلق. ومنه قلّة الخروج إلى الأسواق، ومنه قِلّة الاحتياج إلى الخلقِ، وقلة الاعتماد عليهم وعلى نفسك لأنها من الخلق إلاَّ ما تزداد به إقبالاً على ربّك، فتلك مثل ملوك أهل الحقيقة أو ملوك أهل الدّنيا. مُلوك أهل الحقيقة يدلّونك على الله، وتدلهم عليه، ومُلوك أهل الدنيا تدخُلُهم بالله، وتخرج منهم بالله، إذا عرفت كيف تُرافقهم بالله وإلاَّ فالبعد منهم أولى. وحسبك مرافقة ملوك الحقيقة إن وجدتهم وقليل ما هم، لأنَّه لا يباشر ملوك الدنيا من الفقراءِ إلاَّ من كَمُلَ تهذيبه، ولا يكمل تهذيب الفقير إلاَّ إذا كان بالله لا بنفسه. كما قال ابن الفارض رحمه الله: ومَنْ لَمْ يفقهِ الهوَى فهو في جَهْلِ؛ لأنَّ الذي يكون بالله يأكل من الأشياء ولا تأكل منه الأشياء، ويأخذ الأشياء ولا تأخذه الأشياء، ويتصرف في الأشياء ولا تتصرف فيه الأشياء. والذي يكون بنفسِهِ ربما يكون بعكس هذا مع أن ملوك أهل الدنيا هم رأس الأشياء، فلذلك قلنا: لا يُبَاشرهم من الفقراء إلاَّ من يَعْلم من نفسه أنه بالله، فإذا كان هكذا فيأخذهم ولا يأخذونه. فقد يُباح له ذلك وربمًا يجب عليه وجوباً لأجل مصلحة المسلمين، وإن لم يكن كما وصفنا وقدَّم نفسه لمعرفتهم فهو مخذولٍ مخدوعٌ، خَدَعته نفسه، لأنَّ ملوك أهل الدنيا أهل علوٍّ وارتفاعٍ، وأهل الله أهل الدّنوّ والانخفاض. والنفوس المظلمة تعشق الارتفاع وتؤثره على الانخفاض بخلاف النفس التي تكون بالله فالعلوُّ والانخفاض عندها على حدٍّ سواء فلذلك كانت أمور ملوك الدنيا لا تقوم إلاَّ بموافقة أهل الله، والسفلي يده على العلوي بلا شك.

وأيضاً: العارف بالله الكامل عنده جلسة واحدة في بساط المخزن أفضل من ألفِ رجلٍ من العوام يخدمونه بنفوسهم وبأموالهم بل أفضل من عشرة آلافٍ. سبحان الحكِيم الذي جعل مصائب قوم عند قوم فوائد.

[لباب الحكم]

وأيضاً: اعلم أنه لا شيء ينفع الفقير، يتزوَّد به، مثل الصَّمْت، وذلك لأنه من لباب الحِكم النفسانية، وهو أعظم فروع العبودية وأشرفها.

[كثرة الحقيقة من غير شريعة]

وأيضاً: اعلم أن كثرة الحقيقة من غير شريعة إن دامت على صاحبها تدمِّره على

كل حالٍ، كثرة الحقيقة مع عدَمِ الشريعة تدمِّر لصاحبها ظاهره وجسده، وماله وأولاده حتى تصيِّره من أهل البقاءِ بلا فناءٍ، أي من أهل الآخرة.

[الاعتدال بين الشريعة والحقيقة]

قف وتأمّل في الجمع بين الحقيقة والشريعة، ما فيه أبداً. وعَدَم الجمع ما فيه أبداً. كَثْرَة الحقيقة حياة لا موت بعدها، وكثرة الشريعة تدمِّر لصاحبها باطنه وروحه وعِلْمه وفهمه، حتى تصيره من أهل الفناء بلا بقاء، أي من الهشيم الفاني، وهم أهل الدنيا. فحينئذ موت لا حياة بعده، هذا إذا كانت الشريعة من غير حقيقة. وأما إذا كان الاعتدال بين الشريعة والحقيقة فذلك صفة الأنبياء والمُرْسلين والشهداء والصالحين، وجميع الأولياء العارفين بالله الراسخين «أفضل الأمور أوسطها»[1] الحديث. وصفة الاعتدال هي أن تكون ظواهر الإنسان مملوءةً شرائع، وبواطنه مملوءة حقائق ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فَاطِر: الآية 12] . انظر الأمم الذين أهلكهم الله تعالى بالصيحة وبالغرَقِ وبِخَسْف الأرض، وبكثير من أنواع العذاب، إن حقَّقت أمورهم لا تجدهم هلكوا إلاً بسبب تمسُّكهم بالشريعة دون الحقيقة أو بالحقيقة دون الشريعة، جرت عادة الله في خلقه أنَّ من تمسَّك بالشريعة دون الحقيقة أو بالحقيقة دون الشريعة فهو هالِكٌ. ولا ينجو إلاً من تمسَّك بهما معاً لأنَّ الشريعة هي حياة الجسد والحقيقة هي حياة الروح. ومن فاته حياة جسده فروحه لا تقوم بلا جسده، وكذلك من فاتته حياة روحه فجسده لا يقوم بلا روح. ومن اجتمعت فيه شريعة وحقيقة، فقد اجتمعت حياة جسده وحياة روحه. فعند ذلك يصير قائماً موجوداً بينهما، فإذا كان الإنسان هكذا بشراً وحْده يعدل الحقيقة بأسرها، فعند ذلك تصحُّ خلافته بحيث يصير هو خليفة الله في أرضه. يقول سيدنا عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به: ونَفْسُك تَحْوي بالحقيقة كُلَّها. أشَرْتُ بِجِدِّ القولِ ما أنا خادِعُ. وحقّ الله هو أنَّ الحق لا يظهر إلاً بين شريعة وحقيقة، كما قال صاحب النظم في بعض كلامه:

إذَا تَتَبَّعْتَ الطَّرِيقَةْ ... تَظْفَرْ بِسُرُورٍ ومَعَانِي
بَيْنَ الشَّرْعِ والحَقِيقَةْ ... تُشَاهِدْ مَنْ لا لَهُ ثَانِي

---

(1) رواه البيهقي في سننه الكبرى عن كنانة، بلفظ: «خير الأمور أوساطها». باب ما ورد من التشديد في لبس الخز، حديث رقم (5897)، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن مطرف بن الشخير، حديث رقم (35128).

[تصوير مكَّة في الكاغيد]

وأيضاً: اعلم أن هذه النُّعوت التي وصفنا وكتبنا في شأن الخصوصية كلها مثلها في الخصوصية كالذي يصوِّر مكَّة في الكاغيد ولم يرها، أي يصوّر مثلها في ورقة من كاغيد، ويصور طريقها، وما يسرع فيه طلابها السَّير إليها من أخبار طرقها ومياهها، وبأخبار مَن وصل إليها كيف كان سبب وصوله ومن انقطع عنها وتعوَّق عن الوصول إليها، كيف كان سبب انقطاعه وتعطيله، ليزداد النَّاس يقيناً وشوقاً وعشقاً ورغبةً في طَلَبِها.

[المراد بمكة هنا الحضرة القدسية]

والمُراد بمكة هنا: الحضرة القدسية الإلٰهية. قال الشيخ ابن الفارض رحمه الله:

ولولا شَذَاها ما اهتدَيْنَا لِحَانِها ولولا سَنَاها ما تَصوَّرها الوَهْمُ

وقال بعض أهل الحكمة: ما فيك خَرَجَ مِن فِيكَ. وقال آخر: وكلّ إنَاءٍ بالذِي فيه يَرْشَحُ.

[عادة الوليّ مع العامّ]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ رضي الله عنه ونفعنا به، قال لي: إذا عقدت مع أحدٍ فاعقد معه العقدة الصحيحة، واجعل نفسك معه كأنك تُمَازِحه، وذلك لأن جِدَّنا هَزْل، وهَزْلنا جِدّ، ولا تكن ممَّن يربط عُنقه بالحبل ويدفع طرف الحبل ليد غيره، يكون حرّاً مِلِكاً، فيُصَيِّر نفسه عبداً للخلق مملوكاً، بل كن من الحكماء الذين يتصرفون بالحكمة في حال الفَرْقِ وبالقدرة في حال الجمع.

[من هو مع الله ومن هو مع الأحوال، وحال الشريعة عبودية وحال الحقيقة حرية]

وأيضاً: حال الشريعة عبودية، وحال الحقيقة حرية، وهاتان الحالتان يتعاقبان على الإنسان أبداً كتعاقب الشتاء أو الصيف، أو الليل والنهار، من عرفهما سار على بصيرة وعلم من غير مشقة، ومن جهلهما سار فيهما مجبوراً عليه بمشقة وهمّ وتعبٍ. قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 9] . الذين استراحوا في هذه الأحوال هم الذين عرفوا الحق في مرارة العبودية، كما عرفوه في حلاوة الحرية. فهؤلاء استوى عندهم حلوّه ومُرّهُ، بنظرهم لله فيهما «واجعلنا عبيداً لك في جميع الحالات» بخلاف من لم يشاهد الحق فيَ هاتين الحالتين، وهما حالة العبودية وحالة

الحرية، فإنه مع الأحوال لا مع الله، من أجل ذلك كان عبد الأحوال لا عبد الله. ولا شك أنَّ من كان في الله تلفهُ كان على الله خَلفهُ، وعبد الأحوال تالِف في الأحوال، حال الحرية يُتلفه بحلاوتِهِ، وحال العبودية يتلفه بمرارته. صار متعوباً فيهما أبداً وسبب تعبه وعذابه وجود حجابه: «يا دُنيا أَخْدُمني من خَدَمني واتعبي من خدمك» الحديث. ولو زال الحجاب لظهر الحق ولو ظهر الحق لفقد الباطل. ولو جاء الحقُّ وزهق الباطل لزال التعب والفناء، وحصل النَّعيم والهناء. ومهما ظهر الحبيب غاب عن كل واشٍ ورقيب، وذهبت كل شقاوة وتعذيب.

[الجمع نور والفرقة ظلمة]

وأيضاً: اعلم أنَّ خرق العوائد هو الفرق، كما أنَّ العوائد هي الجمع، لأنَّ خرق العوائد جلال في الظاهر، جمال في الباطن، وهما مفروقان في كل إنسان كافتراق الروح بالجسد. لكن إذا كان الفرق في ظواهر الإنسان، وهو خرق العوائد حتماً، يكون الجمع في باطنه وهو العوائد. وإذا كان الجمع في ظواهر الإنسان وهو العوائد حتماً، يكون الفرق في بواطنه لكن شتَّان بين الفقير المتوجّه الذي يكون فرقه في ظواهره وجمعه في بواطنه والذي يكون جمعه في ظواهره وفرقه في بواطنه هو المعتبر، وذلك لأن شهود الحق محله القلوب لا الظواهر، والفرق ظلمة والجمع نور، وكيف يُشاهد الحقَّ القلبُ المُظلِم المفترق. يرحم الله سيدي عبد القادر حيث يقول: وجَمْعُكَ صِلَةٌ إنَّ فَرْقَكَ قَاطِعٌ.

[الحق نور لا يشاهده إلا من امتلأ قلبه بالنور]

وأيضاً: الحق نور لا يشاهده إلاَّ من امتلأ قلبه بالنور، والنور جمع، ومهما كان الجمع في القلب حتماً يكون الفرق في الظواهر على كل حالٍ. فعند ذلك يحصل لصاحب هذه المرتبة الاجتماع بالحق، والافتراق مع الخلق، وهؤلاء هم أهل الفناء. وأما إذا كان الفرق في القلب، وهو الظلمة، فحتماً يكون الجمع في الظاهر وهو النور على كل حال. فعند ذلك أيضاً يحصل لصاحب هذه المرتبة الائتلاف مع الخلق والافتراق مع الحق، وذلك لأن الشهود كما قلنا: لا يشرق إلاَّ من القلب، والقلبُ مظلمٌ، وظلمة القلب هي الحجاب بنفسه.

[المقامات والفناء والبقاء فيها]

وأما إذا تنوَّر القلب وزال الحجاب وفُتح الباب، يعني باب الفناء، فما وراء مقام الفناء إلاَّ مقام البقاء، وهو مقام المُلكِ.

مقام الفناءِ، مقام التّخلّي، ومقام البقاء: مقام التحلي. الفناء: التخلي عن تدنيس البشرية. والبقاء: التحلّي بحلية عرائس الحضرة الربّانية.

صاحب مقام البقاء جامع بين فضل الحضرتين: حضرة الحق وحضرة الخلق. يُعْطي لكل ذي حق حقَّه، ويوفي كل ذي قسْط قسْطهُ. برزخ بين بحرين، بحر الشريعة وبحر الحقيقة، لا يُنكر شيئاً ولا يُنْكِرهُ شيء، بخلاف صاحب الفناء.

العارفون بالله يأويهم ويأوونَهُ، ويُقرّهم ويقرُّونه، والجاهلون بالله يفرّ منهم ويفرّون منه، وينكرهم وينكرونه، هم ينكرونه بجهلهم بالحقيقة وهو ينكرهم بجهله بالشريعة.

وأما صاحب البقاء فقد استوى فيه البحران ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: الآية 12].

قال جلّ من قائلٍ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿20﴾﴾ [الإسراء: الآية 20].

[الظاهر في الباطن والباطن في الظاهر]

وأيضاً: اعلم أن أهل الظواهر، ظواهرهم في بواطنهم، كما أنَّ أهل البواطن بواطنهم في ظواهرهم. كأنَّ أهل الظواهر هم أهل البواطن، وكأن أهل البواطن هم أهل الظواهر. جرت عادة الله أنَّ الأشياء كامنة في أضدادها، من أجل ذلك تخالف التعبير ربما يعبّر أهل البواطن بالظواهر على بواطنهم، وربما يعبر أهل الظواهر بالبواطن عن ظهورهم.

[كتم العلم بالله]

وأيضاً: اعلم أنَّ هذا العلم، أعني العلم بالله، يجب على صاحبه ألاَّ يطّلع عليه أحداً من غير أهل فنِّهِ، وقليل ما هم. غيره، لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوا الحِكمة أهلها فتظلموهم. أو كما قال.

[أهل الشهود على ثلاثة فرق]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الشهود على ثلاثة فِرَق: فرقة يشهدون الفعل من نفوسهم، وهذه مرتبة العوامّ. وفرقة يشهدون الفعل للقدرة، وهي مرتبة الإيمان بالغيب. وفرقة أخرى يشهدون القادر فعله به منه إليه ولا ثمّ سِوَاه، وهذه هي مرتبة أهل الله

المستغرقين في شهود مولاهم، إذا تكلموا تكلموا بمولاهم لا غير وإذا نظروا نظروا بمولاهم لمولاهم لا غير، وإذا سمعوا سمعوا بمولاهم لمولاهم لا غير، وإذا تحركوا تحركوا بمولاهم لمولاهم لا غير. سقطَتِ العِلل ولم يبق إلاَّ المُتعال. أهل المقام الأول حجبُوا بنفوسهم عمَّن خلقها. وأهل المقام الثاني حجبُوا بالقدرة عن القادر. وأهل المقام الثالث فنوا عما سواه حتى عن نفوسهم ولم يشهدوا إلا إيَّاه حتى في نفوسهم. بطلت الوساوس وزالت الحجب وانحَل العقال ولم يبق إلاَّ الواحد المتعال.

[صاحب الحقيقة لا يُمَكِّنُ أحداً من كلامه ولا من نظره إلاَّ أهل فنه]

وأيضاً: اعلم أن صاحب هذه الطريق لا يمتّع أحداً من غير أهل فنِّه، من كلامه ولا من نظره، ولا من سمعه، ولايتقلَّق من مشيه. وصاحب هذه الطريق أيضاً، إذا رأى أهل الدنيا غابطين في دنياهم قد شمَّروا للاجتهاد فيها، حصل له السكون والاطمئنان ولا يترك من موضه يميناً ولا شمالاً، فإن كان قائماً جلسَ، وإن كان جالساً قام. هم يزيدون اضطراباً في دنياهم، وهو يزيد سكوناً وتنزّهاً عمَّا هم فيه، لأنَّ الدنيا مثل الجيفة، وأهلها كالكلاب يتناهشون عليها.

والخصوصية كلها مجموعة في التنزه عنها، ورفع الهمَّة عما فيه أهلها، حتى الكلام فيها نَجِسٌ، والاستماع لكلام أهلها نجِسٌ، حتى الجلوس معهم نَجِسٌ، حتى النظر فيهم نجِسٌ، حتى شمّ رائحتهم نجِس.

[الدَّوابّ والطيور كبني آدم]

اعلم أنَّ كل حيوانٍ هو في ظاهر الوجود كبني آدم وما يماثله، إنما هو حسيات في عالم المعاني. وكل حيوان هو في باطن الوجود مثل الحيتان وما يشبهها، إنما هو معاني في عالم الحسّ، أي غلبت عليه المعاني لأنها حسّ ومعاني. لكن معناها غالب على حسّها. سبحان من أحيا الحسيات في عالمِ المعاني بحكمته، كما أحيا المعاني في عالم الحسيات بحكمته. وسبحان من جعل الحسيات بلا معاني جوامد، وجعل المعاني بلا حسيات جوامد، وجعل الوجود قائماً بينهما. سبحان الحكيم العليم.

[أهل الشريعة ينكرون على أهل الحقيقة، وأهل الحقيقة لا ينكرون عليهم شيئاً]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الشرائع إن ردّوا على أهل الحقائق، فقد صدقوا وأصابوا،

وأهل الحقائق إن ردوا على أهل الشرائع فقد كذبوا وأخطأوا. وذلك لأن أهل الشرائع بوّابون على دار المَلِكِ، والبوّاب من عادته يردّ صديق الملك وعدُوه، ولا يلام على ذلك لأنه لا يعرف الصديق من العدوّ، وإنما عصاه في يده يردّ بها كل أحدٍ ولا يقول: هذا صديق الملك، إلاّ إذا سَمِعَ النداء من الملك، منه إليه مشافهة، أو بواسطة رجل يثق به، فعند ذلك يتركه ويردُّ ما عداه. وصاحب الحقيقة حقاً هو الذي بطل إنكاره، حتى أنه يعذر الخلق بأجمعهم، ويعذر حتى من ينكر عليه. وذلك لفنائه عما سوى الحق واستغراقه في مشاهدة مولاه. وصاحب الشريعة حقاً هو الذي صح إنكاره في الحق على الخاص والعام والأخ والصديق والقريب والبعيد حتى نفسه، ولا تأخذه في الله لومة لائم، متمسكاً بأمر سيّده، لا يزيد حَرْفاً ولا ينقص حرفاً عما أمره مولاه كأن أهل الحقيقةَ جلساء المَلك وأهل الشريعة بوّابون على دار الملك. وهل جليس المَلِك يصح أن يسيء الأدب على بوّاب حضرة سيّده، وهو يعرف مرْتبة البوّاب عند الأمير، ويعرف أيضاً جلالة الملك وسطوته وعظمته وكبرياءه وإحاطة علمه، مع أن أقرب الناس إلى المَلِك هو أشدهم تعظيماً له وبحضرتِهِ، ومن عادة الخدام أنَّ الخديم الصادق إذا وجد البوّاب يجاهد أحداً أن يُعينه علىَ تعظيم الحرْمة.

[بخل النَّفس وبخل الفِلْس]

اعلم أنَّ طريقتنا هذه خسارتها كلها اجتمعت في بُخْل النفس وبخل الفلس. إذا أردت مولاك أترك نفسك ومالك تجده أقرب إليك من نفسك ومالك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: الآية 111] .

[السالك لهذه الطريقة له ثلاثة منازل]

وأيضاً: سالك هذه الطريق لا بد له من ثلاثة منازل، أولها: ظاهر العمومية، ثم باطن الخصوصية، ثم ظاهر خاصة الخاصة. فإذا حصلت له هذه المنازل الثلاثة فذلك الحُلم، فعند ذلك يجري عليه القلم ويعمه ما يعم الرجال. وأما قبل حصول هذه الثلاثة منازل فهو بمنزلة الصبي الذي لم يَبْلُغ الحلم فلا تفارق ركبته ركبة والديه لأنه باق يحتاج للتربية، لا يربط ولا يحل إلاّ بموافقة والديه، وإلاّ فإن والداه أيضاً لا يدفعون له الأمانة، إلاّ إذا رأوا عليه آثار الرّشاد لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: الآية 5] . وأما إذا لم يظهر فيه ذلك فهو محجورٌ لا يربط ولا يحلُّ.

[إثبات الظاهر]

وأيضاً: إذا ثبت الظاهر فإنه يخرج منه عجب العجائب، سواء كان بباطن أو بغير باطِنٍ. رأس الخير ونهاية الظفر، هو ثبوت الظاهر ومن ثبت ظاهره ثبت خيرهُ، وثبتت نتيجته وغنيمته. ومن لم يثبت ظاهره لا ظفر له ولا نتيجة له، انظر قول الشيخ المجذوب نفعنا الله به: لا مُحبٌّ إلا بوصول. إشارة للوصول الحسي الظاهري، كأنه يقول: لا ثبوت للمحبّة إلاّ بالوصول الظاهر بالذاتِ. وأما الوصول المعنوي بالقلب فلا ثبوت للمحبة به. «أُمِرْتُ أن أحكم بالظواهر والله يتولّى السّرائر» الحديث.

[مصلحة نَفْسِك]

وأيضاً: ما اشتغلت بمصلحة نفسِكَ، إلاّ فاتتك مصلحة نَفْسِكَ. وذلك لأنَّ الفساد لا يُفارق أخاه وهو الصلاح. كما أن الصلاح لا يفارق أخاه وهو الفساد. إذا توجَّهت لصلاح نفسك ظهر الفسادُ مِن قِبلِ جنسِكَ، وإذا توجَّهت لصَلاَحِ جِنْسِكَ ظَهر الفساد من قِبَل نفسك، والأمور كلها بأجمعها ما قامت في الباطِنِ وهي جمع مؤتلفة، ومهما خرجت للظاهر صارت فرقاً مختلفة والجمع لا يصح بعدم الائتلاف كما أنَّ الفرق لا يصح بعدم الاختلاف، ما دامت الأمور في الغَيْبِ، وهي واحدٌ. ومهما ظهرت تفرَّقت. سبحان من جعل الظاهر فرقاً ليس فيه جمعاً كما جعل الباطن جمعاً ليس فيه فرقاً، وجعل الظاهر هو عين الباطن، كما جعل الباطن هو عين الظاهر، وجعل الفرق هو عين الجمع كما جعل الجمع هو عين الفرق. سبحان الحكيم العليم، سبحان من جعل الائتلاف هو عين الاختلاف كما جعل الاختلاف هو عين الائتلاف. سبحان مَن فَرَّق بين الأضداد حتى لم تجتمع، كما جمع بين الأضداد حتى لم تفترق، سبحان الحكيم العليم.

[من غلبت عليه الذّات أو الصفات]

وأيضاً: اعلم أن العامة غلَبَتْ عليهم مباشرة الذات، والخاصة غلبت عليهم مباشرة الصفات. وإنما كانت العمومية في مباشرة الذات لأن الذات جهرية ظاهرية وكانت الخصوصية في مباشرة الصفات لأنَّ الصفات سرية باطنية. انظر العوامّ تجدهم أهل ذاتٍ، متعشقين لصفاتٍ، وانظر الخصوص تجِدهم أهل صفات متعشقين لذاتٍ. فبذلك صاروا كلهم راحلين قاطنين أبداً. والوجود قائم بين تقلباتهم، بين ذاتٍ وصفاتٍ، كما أن الصفات لا تقوم بغير ذاتٍ، ولكن لا بد أن يكون الغُلب للذّات على

الصفات، أو للصفات على الذات. الحكم للغالِبِ، مَنْ غلَبَت عليه الذات فهو مِنْ أهلها، ومن غلبت عليه الصفات فهو من أهلها.

[من يشاهد الحق]

وأيضاً: شهود الحق على وصفين: أن تشاهد الحق، وإن لم تجد سبيلاً لذلك فتشاهد من يشاهد الحق. حكم هذا كحكم هذا، يعني الشهود الأول والشهود الثاني. وكل من يشاهد من عرف الحق لا بد أن يُشاهد الحق، وكل من يشاهد الحق لا بد أن يشاهد من أراد أن يشاهد الحق، لأنَّ الأب لا بد له من ولدٍ، والولد لا بد له من أبٍ، والولد لا يستغني عن أبيه والأب لا يستغني عن ولدِهِ، وكلهم واحد، أو كالمعلم والمتعلم، يحسبان أهل صفةٍ واحدة وإن كان المعلم في مرتبته والمتعلم في مرتبته. كذلك من يشاهد الحق مع الذي يشاهد من يشاهد الحق كلاهما أهل فنٍّ واحد، وإن كان كل واحد في مرتبته.

[من غَرَسَ الجمع نبت له الفرق]

وأيضاً: أهل الظاهر غرسوا الجمع، فنبت لهم الفرق. وأهل الباطن غرسوا الفرق فنبت لهم الجمع. وهكذا جرت سنة الله تعالى في خَلْقه ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: الآية 31] . مَنْ عَرَفَ عَرَفَ ومَنْ جَهِلَ جَهِلَ، ومن أحبَّ أحبَّ، ومن كرِه كرِه. سبحان الحكيم العليم.

[وصول النَّفس ووصول الجِنْس]

وأيضاً: قال شيخ شيوخنا، سيدي عبد الرحمٰن المجذوب نفعنا الله به: «لا محبّ إلاَّ بوصول ولا وصول إلاَّ غَالي، ولا شراب إلاَّ مختومْ. ولا مقام إلا عالي». قلت: هذا الوصول على قسمين: وصول النفس ووصول الجنس. وصول الجنس: هو مداومة الوصول لأهل فنِّك بالأقدامِ، وهذا هو الأصل والأساس، عليه تُبنى الطريقة. كل من يواصل أهل الفن بالدوام حتماً يظهر بذلك الفن، ومن لم يواصل أهل فنه بالأقدام لا نصيب له في الفنّ. وأما وصول النفس، فهو فرع عن هذا الأصل الذي ذكرنا، وهو أن تتزيًا بزيّ أهل فنِّك حتى يكون كل من رآك يذكر في نفسه أنك من أهل ذلك الفنّ حتى تصير معروفاً بالفنِّ والفن معروف بك، لا خبر، وليس الخبر كالعيان، ولا العيان كالخبر. إذا كان الإنسان هكذا فقد كملت له الأصول وما بعد الأصول إلاَّ الوصول على كل حالٍ بغير شك، كما قال صاحب الحِكَم: إنما حُرِموا الوصول

لتضييعهم الأصول. ومهما تكمّل الأصول يحصل الوصول على كل حال بغير شك.

[القول مثل النار، والفعل مثل الثلج]

وأيضاً: القول مثل النار، والفعل مثل الثلج. الفعل يطفي القول كما يطفىء الثلج النار، والقول يذوّب الفعل ويُحلّه كما النار يطفيها الثلج. وصاحب التجريد إذا لم يملك التصرف بالأضداد حتى يكون يسخِّن البارد بالسخون، ويبرّد السخون بالبارد، ما زال متعلماً.

وأيضاً: سمعت الشيخ نفعنا الله به يقول: من لا يجالسك ولا تجالسه ما يُصيب، ينسب عليك، وما تُصيب تنسب عليه. يعني بالدوام.

[الولي الكامل لا يضره المال بل ينفعه]

وأيضاً: سمعته يقول: صاحب طريقتنا هذه إذا ظفر بها واطمّأن قلبه بها، ولو مَلَكَ ألف ألفِ دينار لا تضرهُ بل تنفعه، هذا للكامل فيها. وأما المبتدي فلا يليق به إلاّ التخفيف من الدنيا والإعراض عنها في بدايته وعن أهلها، حتى تكون عنده الدنيا كالميتة لا يأخذها إلا عند الاضطرار.

[الداخل للحضرة بنفسه والداخل بربّه]

وأيضاً: شتان بين الداخل من حضرة نفسه إلى الفناء، والراحل من الفناء إلى البقاء. الأول راحِل من عالم الفرْق إلى عالم الجمع ومن عالم الحس إلى عالم المعنى، والثاني بالعكس، راحِلٌ من عالم الجمع إلى عالم الفرق، ومن عالم المعنى إلى عالم الحسّ. الأول راحِل من عالم نفسه إلى عالم ربِّه، والثاني راحل من عالم ربِّه إلى عالم نفسه بربه. الأول مكسي بكِسْوة نفسه، والثاني مكسي بكِسْوة ربه، داخل لحضرة نفسه بِرَبِّه. الأول راحل من عالَم الشرائع قاصداً لعالَم الحقائق. والثاني راحِل من عالَم الحقائق قاصداً لعالَم الشرائع. الأول راتع في عوالَم الخلق قاصداً لمعرفة الحق. والثاني راتعٌ في عالَم الحق، قاصداً لمعرفة الخلق بالحق. يرحم الله شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب نفعنا الله به حيث يقول: مَنْ شاهد الكَوْن بالكون عِزّه في عمى البصيرهْ، ومن شاهد الكون بالمكوِّن صادف علاج السَّريرة.

[الجمعُ حق والفرق حق]

وأيضاً: اعلم أنَّ التفكر على وجهين: يكون بالجمع ويكون بالفرْقِ. بالجَمْعِ

بالحقِّ للحق في الحق، وبالفرق: بالخلقِ للخلق في الخلق. والجمع حق، والفرق حق، ولا ثمَّ إلاَّ الحق. كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

[هذه الطريقة لا يثمر فيها إلا الشجعان]

وأيضاً: طالب طريقتنا هذه إذا لم يكن شجاعاً جَسُوراً زعيما الربح والخسران عنده سواء فلا نصيب له، فهو كمن يصطاد بالمدفع، مهما يظهر له الصيد يضربه ولا يُبالي، قاسه أم لا، إن قاسه فذلك المطلوب، وإن لم يُصبه يحصل له بذلك زيادة تعلّم وزعامة ومعرفة. إن فاتك ذَهَبُهُ لم يفتك أدبُهُ، صاحب الخوف لا نصيب له فيها، وكذلك صاحب الحيَاءِ، وصاحِب الكِبْرِ. قال الششتري في بعض كلامه: أغلبها بالرجلى والتيارة، تعد تخاف منك يا زَعيمُ. . .

[الموجودات كلها بين جمع وفرق]

وأيضاً: اعلم أنَّ نملةً من أصْغَر النَّمْل، تفصيلها تفصيل الوجود، وحكمها حكم الوجود. من جملة تفاصيل الوجود أنه قائم بين جمع وفرق. وما من حيوان يمشي في الأرض ولا طائر يطير في الهواءِ، والإنسان والنباتات كلها، إلاَّ وتجد ذلك الحيوان أو الإنسان أو الطائر أو النبات قائماً بين جمع وفرق. والفرق والجمع في النملة في صغرها وضعفها، والجمع والفرق في الوجود مع اتساعه وكبره وعظمه، وهو الجمع الأكبر. والفرق الأكبر الذي احتوى على كل جمع وعلى كل فرق. يرحم الله القائل:

يا عجباً كيف يُعْصَى الإله أم كيف يَجْحده الجاحِدُ

وفي كل شيء لَهُ آية تدلُّ على أنَّهُ الواحِدُ

[الباطن مقسوم على مئة قسمة]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الباطن ملكهم مقسوم على مئة قسمة، تسعة وتسعون قسمة في الغَيْبِ وقسمة واحدة في الخلق. إن كانت قسمة أهل الباطن في الخلق قد حازوا فيها ملوك الظاهر، فإنَّ ملكهم يكمل ويلوح مثل الشمس، لأنَّ ملكهُمْ صار حقيقة جامعاً بين باطنٍ وظاهر. الباطن ملكهم الأصلي أخذوه من غير وسائط، والظاهر أخذوه بملكية رؤسائه، لأنَّ من ملك الملوك أولى وأحرى أن يملك الخادم. العبد وما ملكه لسيده، وإن كان ملوك الباطن قد حازوا في تلك القسمة أطراف الناس وضعفاءهم فإن مُلكهم لا يكمل، بل يصير ضعيفاً لا تظهر نتائجه. وكذلك مُلْك أهل الظاهر مقسوم على مئة قسمة، منها تسعة وتسعون قسمة في الخلق وواحدة في الغيْب، فإن

كانت تلك القسمة في أهل الغيب، لأهل الظاهر، وقد حازوا فيها أهل ملك الباطن، فإن ملك أهل الظاهر يكمل ويلوح كما تلوح الشمس لأن ملكهم صار جامعاً بين ظاهر وباطنٍ. الظاهر هو ملكهم الأصلي والباطن حازوه بملكية رؤسائه، وإن كان أهل الظاهر قد حازوا أطراف أهل الباطن في القسمة التي خرجت لهم في الباطن، يعني بالأطراف، ضعفاء أهل الباطن، فإن ملكهم لا يكمل بل يكون ناقصاً ضعيفاً لا تظهر نتائجه كأنه ليس بملكٍ. وذلك لأنَّ الضِدَّ لا يقوم إلاَّ بِضِدِّهِ، كما أن الشتاء لا يقوم إلاَّ بالصيف، والصيف لا يقوم إلاَّ بالشتاء. كذلك مُلك الظاهر لا يقوم إلاَّ بمُلكِ الباطن، كما أن مُلك الباطن لا يقوم إلاَّ بملك الظاهر.

[أنوار تجلي الذات تغطي أنوار تجلي الصفات]

وأيضاً: إذا تجلَّتِ الذَّات فإنَّ أنوارها تغطِّي أنوار الصفات حتى لا يظهر للصفات أثرٌ، وبالعكس. إذا تجلَّتِ الصفات فإن أنوارها تغطي أنوار الذات حتى لا يظهر للذات أثرٌ. تجلّي الذَّات تُظهِرُ الحسيات، وتغيّب المعاني. وتجلِّي الصفات تظهر المعاني وتغيب الحسيات. هاتان الحالتان تتعاقبان على كل إنسان، أهل العلم عالمون بهما، وأهل الجَهْل جاهلون بهما. والحِكمة تظهر ولا تعبأ بأحدٍ.

وأيضاً: سألت الشيخ نفعنا الله به عمَّن يعقد الوجود ويحله بنفسه، ويعقد نفسه ويحلها بالوجود، فقال لي: هذه من رؤوس نتائج هذا الفنِّ.

[من تشبَّه بقوم فهو منهم]

وأيضاً: اعلم أنَّ كُلَّ مَن يتشبَّه بأهل الفنِّ فهو منهم، كان منهم أو لم يكن منهم. ومن لم يتشبَّه بأهل الفنِّ فليس هو من أهله، كان من أهله أو لم يكن. من حاز التشبّه بالفنِّ حاز الفنّ، ومن لم يحز التشبّه بالفنِّ ما له نصيب في الفنِّ، كان من أهله أو من غير أهله. هذه حكمة الله في الفنون كلها.

والتشبيه ينقسم على قسمين: حسّي ومعنوي:

التشبّه الحسّي: هو لباس ثياب أهل الفن والجلوس معهم على الدوام.

والتشبّه المعنوي: المذاكرة بحديث الفنِّ مع أهل الفنِّ. ما توفرت هذه الشروط في طالب فنٍّ إلاَّ حاز ما طلب، أَحَبَّ أم كرِهَ. وما عدِمت هذه الشروط بين صاحب فنٍّ إلاَّ خرج من ذلك الفن، أحبَّ أم كره. صاحب التشبه للفنِّ ليس من أهل الفن حقيقة، كأن هذه الأوصاف شرط في الفنون ومهما بطل الشرط بطل المشروط.

[أهل الظاهر أهل أقوال، وأهل الباطن أهل أفعال]

وأيضاً: كان أهل الظاهر أهل أقوال، لكثرة أقوالهم، وضعف أفعالهم. وكان أهل الباطن أهل أفعالٍ، لكثرة أفعالهم وضعف أقوالهم. وكأنَّ تلك الأقوال تطلق على الظواهر كلها، وكأن الأفعال تطلق على البواطن كلها. مع أنَّ الظواهر لها أقوال وأفعال، ولكن الحكم فيها للأقوال لا للأفعال.

والبواطن لها أقوال وأفعال، ولكن الحكم فيها للأفعال لا للأقوال لأجل هذا المعنى تجد الظاهر قَطْعَهُ بعد حين تقطع الأقوال، وتجد الباطن قطعه في الحين. وتأمل قطع الأفعال العاجلة للظاهر والعاجلة للباطِن.

[أهل الظاهر يكتمون أفعالهم ويجهرون بأقوالهم، وأهل الباطن بالعكس]

وأيضاً: أهل الظاهر يكتمُونَ أفعالهم خشية الفساد، ويجهرون أقوالهم لقصد الصلاح، وأهل الباطن يكتمون أقوالهم خشية الفساد ويجهرون أفعالهم لقصد الصلاح، كأنَّ أهل الظاهر شرائعهم الأقوال وحقائقهم الأفعال، وأهل الباطن شرائعهم الأفعال وحقائقهم الأقوال. والحقائق لا بد أن تكتم والشرائع لا بد أن تظهر. أهل الظاهر حِرْفتهم حقائق الأفعال صارت الأقوال عندهم كالماء البَاردِ للعطشانِ، كما أن أهل الباطن حرفتهم حقائق الأقوال صارت الأفعال عندهم كالمَاءِ البارِدِ للعطشان.

أهل الظاهر لا يستريحون إلاَّ في الأقوال، كما أن أهل الباطن لا يستريحون إلاَّ في الأفعال. وكلُّ من يكتم ما يجهر، أو يجهر ما يكتم، فذلك هو التخليط، والتخليط فسق. ما بعد السّر إذا اجهارَ إلاَّ خلاء الدَّار. سمعت هذا الكلام من الشيخ نفعنا الله به.

[لا يظفر بالشيء إلا من اشتهر فيه]

وأيضاً: طالب الخير الكامل، وطالب الشر الكامل، لا يظفر به حتى يعرفه جميع الناس، بتشويره لفنِّه الذي طلب، من لم يعرفه بالعين عرفه بالاسم، ومن أراد غير هذا كمن أراد أن يكون مَلِكاً عند قوم وهم لا يعرفونه، هل هو موجود في الدنيا أم لا، ولم يسمعوا عنه.

[صاحب الباطن لا يصلحه إلا الفعل وصاحب الظاهر لا يصلحه إلا القول]

وأيضاً: صاحب الباطن لو كانت عنده تسعة وتسعون قسمة من الفعل لاحتاج

لأكثر من ذلك، وقسمة واحدة من القول لوسِعَته تلك القسمة. وصاحب الظاهر بالعكس لو كانت عنده تسعة وتسعون قسمة من القول لاحتاج لأكثر من ذلك. وقسمة واحدة من الفعل لوسعته تلك القسْمَة. والقول هنا بمعنى العِلْم والفعل بمعنى العمل. وهذا دليل على أنَّ صاحب الظاهر محتاج إلى العلم كثيراً وصاحب الباطن محتاج إلى العمل كثيراً لأنهم كلهم دائرون على الكمال. العمل عند صاحب الباطن شريعة، والعلم عند صاحب الظاهر شريعة، وكلٌ من تحفظ على شريعته ولازم التمسك بها يَبْلغ بها كل ما يريد في حقيقته ولا تقف زيادته حتى تملكه حقيقته، فإذا ملكته فهو مقطوع، يعني تقف زيادته، كأن الشرائع رأس مالٍ والحقائق ربح. قال الشاعر:

مـا يَـعْـدَمْ فَـضَـلْ مَـنِ بْـقَـالُـو رَأس الـمَـالْ

وما احتاج صاحب الظاهر على قسْمة من الفعل، وصاحب الباطن على قسْمة من القول إلاَّ أنَّ الأشياء لا تقوم إلاَّ بأضدادها.

[العبد إذا تمكَّن من سيِّده حقَّره]

وأيضاً: العبيدُ إذا تمكنوا من سيدهم حقروه وأهانوه، وإذا بقوا تحت قهرهِ عظّموه واسترحموه. لا يمكِّن عبيده من نفسه إلاَّ الجاهل بسياسة مُلْكِهِ، يعني رعيته: أهل مِلك النفس. وأهل ملكِ الجنس العارفون من أهل النفس عقولهم مالكة لذواتهم وجوارحهم، والجهال جوارحهم مالكة لهم، وكذلك العارفون من أهل مُلك الخلق، عقولهم مالكة لرعيتهم بسياستهم غلبوها وقهروها حتى صارت عند أمْرِهم ونَهْيهم، والجهَّال رعيتهم مالكة لهم لعدَمِ سياستهم وعدم معرفتهم برياضة الملك. وكل من يملك نفسه يَمْلك الوجود وما حوى ومن لم يملك نفسه لا سبيل له لملك الوجود، وبالله التوفيق.

[المَلِكُ والمملوك]

وأيضاً: ما اجتمع اثنان إلاَّ كان أحدهما ملكاً والآخر مملوكاً. المَلِك هو المعشوق والمملوك هو العاشق. المَالِك هو المطلوب، والمملوك هو الطالب. وكل من نزَّل نفسه منزلة المَلِك ولزمها فهو مَلِك، وكل من نزَّلَ نفسه منزلة الملوك ولزِمَها فهو مملوك.

[الطلب بقيراط والقلادة بمئة ألف]

وأيضاً: الحِكمة ليست في الفقير، وإنما هي في نسبة الله تعالى التي لبسها كما

أن المخزن ليست الحِكمة فيه، وإنما هي في نسبة المُلك الذي لبِس. لو عُدِمَت نسبة الله من الفقير لم يصلح لشيءٍ لم يعبأ به أحدٌ، الكَلْبُ بقيراطٍ، والقِلادَة بمئةِ ألف، وما مئة ألف في نسبة الله تعالى.

[الفضل على قدر رأس المال]

وأيضاً: من كان رأس ماله علويات، فضله سفليات. ومن كان رأس ماله سُفليات فضله علويات. والفضل على قدر رأس المال. مَنِ اتسع رأس ماله يتسع فضله على قدره، ومن ضاق رأس ماله يضعف فضله على قدره. «ما ازْكَبْ عَوذْ باخلاسُو إلاَّ مَنْ خَانُ أذراعُ، ولِّي ابْغَ صُحْبة النَّاسْ، يَخْسَرْ عَلَيْهَا امْتَاعُ.

العارف يشتغل بتقوية رأس المال، بقدر ما يعظم يعظم الفضل ويثبت، جرت عادة الله. طالب الله ما أعطى شيئاً زهد فيه وقصد مولاه إلاَّ أعطاه الله تعالى ما هو أعظم من ذلك. لا تقف الزيادة حتى تقف الهِمَّة. وعلامة وقوف الهِمَّة: القناعة بما يرد.

[التحرك في الدنيا]

وأيضاً: الفقير المتوجه مثله إذا تكلَّم على الدنيا، كالذي يحرك نجاسة في مَلاٍ من النَّاس، أو كالذي يكشف عورته في وسط السوق والناس ينظرون.

الفَقِير رُشْده: حمقه في الله تعالى وسَفَاهتهُ: الكلام على الدّنيا فضلاً عن التحرك فيها بالفعل. وهو أسفَه وأسفَه وأسفَهُ.

[الشيء يضعف بعظم مقابله]

وأيضاً: لا يكون المَلك مَلِكاً حتى يكون جلاله في ظاهره أقوى من جماله بمئة ضعفٍ أو أكثر لمُلك الظاهر ولِمُلكِ الباطن لأنه إذا كان جلاله في ظاهره أقوى من جماله حتماً لا يكون جماله في باطنِهِ، لأنَّ الشيء يَعْظُمُ بضعفِ مقابِلهِ، ويضعف بعظمة مقابله. ما زاد في هذا نَقَصَ من هذا، وما نَقَصَ من هذا زاد في هذا. صار الجلال في الظاهر شرطاً في طلب المُلك لا محيد عنه، جرت سنة الله بذلك. ومن جهة الفهم أيضاً: الأشياء لا تطلب إلاَّ بأضدادها، الجمال لا يطلب إلاَّ بالجلالِ، كما أن الجلال لا يطلب إلاَّ بالجمالِ. طالب العِزِّ لا يكون إلاَّ ذليلاً كما أنَّ طالب الذّلِّ لا يكون إلاَّ عزيزاً. حَكَمْتَ عليهم بالذّلِّ حتَّى عَزُّوا.

[حكم واحد كحكم الوجود]

وأيضاً: المُلك في العُزلة من أحبَّ أحبَّ، ومن كره كَرِهَ، من أراد أن يملك الوجود فليعتزل نفسه سواء كان مُلكاً ظاهرياً أو باطنياً، حكمهما واحد، كما أن حكم الوجود كله كحكم رجُلٍ وحُكم رجل كحكم الوجود، من غير زيادة ولا نقصان. قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: الآية 32].

[مَنْ مَلَك شيئاً أهانه]

وأيضاً: من عوائِدِ النفوس أنها ما ظَفِرَتْ بشيءٍ إلاَّ حَقَّرَتْهُ وأهانته، ولا مَنَعت شيئاً إلاَّ عشقته واشتقات إليه. وسبب إهانتها لما ظَفِرتْ به واشتياقها لما منعته، أنها جاءت من بساطِ الحق وعليه تدورُ، صارت ما ظفرت بشيءٍ ولم تشاهد الحق فيه إلاَّ أهانته وحَقَّرَته، هذا سبب إهانتها لما ظفرت به. وسبب عشقها لما منعته واشتياقها إليه، أنها ما رأت شيئاً أو سمعت به إلاَّ ظنَّت أنها تشاهد الحق فيه، فإذا منَعته تقوى ظنها حتى يكاد أن يصير يقينها فتَزِيدُ عِشقاً وشوقاً لذلك الشيء، وهي لا تسكن ولا تستريح ولا تقرُّ عينها حتى تشاهد الحق حقاً حقيقاً، إما بالحياة أو بالموت. وهذا القياس لا يعرفه إلاَّ عارف بالله، بسياسة مِلك النفس ومِلك الجِنْس لأنَّ سياسة ملك النفس وسياسة ملك الجنس واحِدٌ، يعني سياسة نفس واحدة كسياسة الوجود وما حوى، كأنَّ النفس نسخة من الوجود أو الوجود نسخة من النفس، لأجل هذا المعنى قالوا: حُبُّ الله أولاً يكون شبيهاً بالجنون وبعده تحصل الفنون وآخره سكُون. وما يحصل السكون حتى يحصل الاجتماع على الحق بشهود الحق بالحق.

[صحبة الكبار والقرب منهم]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ نفعنا الله به قال لي: يا ولدي، عليك بصحبة الناس الكِبار والقرب إليهم. قلت له: يا سيدي، مَن هم الناس الكبار؟ قال لي: رؤساء الظَّاهر ورؤساء الباطن، مهما حقرت شيئاً إلاَّ وقفت عليه.

[الوجود كله واحد]

وأيضاً: اعلم أن الوجود كله واحدٌ، وكل مسألة في الوجود حقرتها ولم تعمل يدك معها حتماً يلجئك الحال إليها. الله تبارك وتعالى حكيمٌ، ما خَلَقَ لك شيئاً في

الوجودِ من الذَّرة حتى إلى أعلى شيء إلاَّ وأنت إليه في غاية الاحتياج، ما لم تَحْتَج إليه اليوم تحتَجْ إليه غداً. فيجب على العاقل ألاَّ يحقر شيئاً ولا يهمل شيئاً من الوجود، وهكذا.

[الشُّغل المشرف]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ نفعنا الله به، قال لي: شغلنا هذا مثل الذَّهب، وهو يَنْحَلّ وهو يزيد شرفاً. وقال لي أيضاً: شغل الناس كلهم مهما اعوجَّ فَسَدَ، وشغلنا لا يصلح حتى يعوجَّ.

[الموت فيه حياتي وفي حياتي قتلي]

وقال لي أيضاً: الحيوانات كلها مهما غابَتْ في الماءِ ماتت والحوت مهما يخرج من الماء يموت، كذلك نحن في طريقتنا هذه، كل ما يموت به الخلق نحيا به نحنُ، وكل ما يضرّ الخلق ننتفع به نحن: الموت فيه حياتي، وفي حياتي قتلِي.

[التهمة بالله]

وأيضاً: أهل الله حقاً هم الذين اتَّهمهم الخلق بنسبة الله تعالى، وهو واحد من المتهومين بالله، قرْبه من الله على قدْر تقوية النسبة وإفشائها في الخلق، وبُعده من الله على قدر ضعف النسبة وإخفائها في الخلق. وذلك لأن سر الله لا يخفى في أهله عن الخلق ولو كانوا تحت الأرض لخرقت رائحتهم الجبال والثَّرى، من أراد أن يعرف الوليّ فهو الذي يذكره جلّ العامة بالولاية. وجلّ العوام هم المخزن، وأتباعهم رؤساء العوام. الولاية لمَن أثبتها له العوامُ ومن لم يثبت له العامة الولاية فليس بوليّ.

[مقابلة الخير بالشَّر]

وأيضاً: إذا قابلوك بالشر وقابلتهم بالخير، فشرهم كامل، وخيرك كامل. حتماً تغلب بخيرك شرُهُمْ، لأنَّ خيرَك سُفْلي وشرهم علوي. وإذا تقابل العلوي والسفلي فالسّفلي يغلب على كل حالٍ. وإذا قابلوك بشرٍّ وقابلتهم بشرٍّ أقوى منه شرك يغلب شرهم، القوي يغلب الضعيف على كل حالٍ. وإذا قابلوك بشرٍّ كامل وقابلتهم بخير أقوى من شرّهم أنت تغلب من غير شكٍّ لأنَّ القويَّ يغلب الضعيف، والعارف الكامل يغلب من قابله بالشرّ على كل حالٍ، إما بشرٍّ أقوى من شرِّهِ أو بخيرٍ أقوى من شره. والمدار كله على الغالبِ بالخير أو بالشرّ، يُمْني وعسْري فسرح، نَضْرِب بْهَذِي وهَذِي.

أيا ربّةَ القِرط التي تَلَفَتْ نُسْكي على أيّ حَالَةٍ فلا بُدَّ لي مِنكِ
فإمّا بِذُلٍّ وهو أَلْيَقُ بالهَوَى وإمّا بِعِزٍّ وهو أَلْيَقُ بالمُلْكِ

[الخصوصية في إفشاء النسبة]

وأيضاً: حقيقة الخصوصية اجتمعت في تشييع النِّسبة لله وإفشائها عند الخاصّ والعام. وكذلك حقيقة العمومية، اجتمعت في تشييع النسبة للمخلوق وإفشائها عند الخاص والعام. هذا هو الفرق بين الوليّ الصالح والعامّي الطَّالِح. من عرف بنسبة الله فهو بالله ولله، ومن عرف بنسبة المخلوق فهو للمخلوق وبالمخلوق يوجد في المخلوق، وهكذا.

[خصوصية الجمع والفرق]

وأيضاً: الخصوصية على قسمين: خصوصية الفرق وخصوصية الجمع. خصوصية الفَرْق: خصوصية من الخلق. وخصوصية الجمع خصوصية الملك الحق. صاحب الفرق حازَ مِلك الخلق، وصاحب الجمع حاز ملك الحق بالحق. صاحب الفرق ملكه بالظواهِرِ وصاحب الجمع مُلكه بالاهتمام بالخواطِرِ. صاحب الفرْق مُلْكه للناس وصاحب الجمع ملكُه مُلك رب الناس. صاحب الفرق محتاج إلى الناس وصاحب الجمع يحتاج إليه الناس. صاحب الفَرْق فقيرٌ لله، وصاحب الجمع غَنِيّ بالله.

[الشرائع حكمة والحقائق قدرة]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقائق قدرة، والشرائع حكمة. والخواص غلب عليهم شهود القدرة، والعوام غلب عليهم شهود الحِكمة. الخصوص مالوا للقدرة لأنها منسوبة إلى الله، صاروا بالله، والعوام مالوا للحِكمة لأنها منسوبة لنفوسهم، صاروا بنفوسهم. القدرة والحِكمة كلاهما أصحاب الحق جلَّ ثناؤه، وشتّان بين من كان بالله ومن كان بنفسه. ماذا وجد من فقدكَ، وما الذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ. صاحب القدرة مَلك وصاحب الحِكمة مملوكٌ. صاحب القدرة معشوق وصاحب الحِكمة عاشقٌ. صاحب القدرة، وإن كانت قدرته لا تقوم إلاّ بالحكمة ولكن حكمته لطيفة كأنها لم تكن. وصاحب الحِكمة وإن كانت حِكمته لا تقوم إلاّ بالقدرة ولكن قدرته لطيفة كأنها لم تكن. صار الحكم للغالب، مَنْ غَلَبَت عليه القدرة فهو مَلِكٌ، ومن غَلَبَتْ عليه الحِكمة فهو مملوكٌ.

مِن جُملة لطافة صاحب القدرة هي قوله للشيءِ كُنْ فكان. كُنْ حِكْمَة، وكان

قُدْرة. ومن ذا الذي يعرف بأن صاحب الحِكمة صاحب القدرة في كُن، لا يفهمها إلاَّ صاحب فَنّه. أهل مكة أعرف بِشعابِها. وقدرة صاحب الحكمة هي في إيجادِهِ لما طلب بعد التعب والمشقة، حكمة صاحب القدرة هي تعبه فيها كما أن قدرة صاحب الحِكمة هي راحته فيها. صاحب الحِكمة متعوب أبداً وراحته ضعيفة، كأنها لم تكن، صاحب القدرة مَلِك وأي تعب عند المَلِك وإن كان فهو ضعيفٌ. وصاحب الحِكمة مملوك، وأي راحة عند المملوك، وإن كانت فهي ضعيفة. والحِكمة بمعنى التدبير والترتيب والاختيار، والقدرة بمعنى التوجه للغيب والانقطاع إلى الله بعدم التدبير والاختيار.

[الذات تتألم بألم الصفات وبالعكس]

وأيضاً: اعلم أنَّ الذَّات تتألّم بألم الصفات، كما أنَّ الصفات تتألّم بألم الذَّاتِ. والصفات تستريح براحة الذَّات، كما أنَّ الذات تستريح براحة الصفات. وهذا دليل على أنَّ الذات هي عين الصفات، والصفات هي عين الذات.

[الفقير برزخ بين بحرين]

وأيضاً: نحن عندنا الفقير الذي لم يكن برزخاً بين بَحْرَيْنِ ليس بفقيرٍ، يعني بحر الشرائع وبحر الحقائق. فإن كان هكذا صار يغترف من كل بحر ما يليق به منه، وليس له قرار في واحدٍ منهما دون الآخر. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: الآية 13] . ومما يتصف به العارف بالله الكامل أن تجده لا مقام له ولا قرار له أبداً سرمداً كأنه ملك سيَّارٌ كسَير الشمس في بروجها، راحل قاطِنٌ، غائب بايِنٌ.

[البخيل كلامه مرٌ ولو كان حقاً]

وأيضاً: البخيل كلامه مُرٌ ولو كان حقاً، والكريم كلامه حلوٌ ولو كان باطِلاً.

وأيضاً: سمعته، نفعنا الله به، يقول: السَّماع يتفاوت بِحسب السَّامعين حَرامٌ مكروهٌ، حلالٌ واجب، لأهل كل مقام مقال.

[الوسائط بوابون على الحضرة]

وأيضاً: اعلم أنَّ منزلة تسمَّى باسمين، تسمَّى بمنزلة التكذيب وتسمَّى بمنزلة التَّشْبيه؛ هي الحجاب بين الخلق كلهم وبين الحق، إلاَّ القليل من الناس الذين أخذ الله بيَدهم وساقهم لحضرتِهِ لمَّا وفَّقهم لمُلاقاة الوسائط حتى سلكوا بهم هذه المنزلة العظمى التي حالت الناس دون قطوعها، كما قال بعض الصالحين وهو يغنّي على

شيخِهِ، أظنه سيدي محمد الحاج، مع شيخه سيدي بوشتا، نفعنا الله بالجميع، وهذا هو قوله:

سـيِّـدي إمـام الـطـريـقـهْ الـمُـصْـطـفـى هـو إمـامُ

سَـلِّـكْـنِـي بَـحْـرَ الـحـقـيـقـهْ وانْـشُـرْ عَـلَـيَّ إعْـلامَ

هذه المنزلة التي ذكرنا هي بحر من نور بين العبد وربه، من خاض فيه بغير دليل يحترق من حينه، ومن جمعه الله بمن أخذ بيده حتى سَلكَ هذه المنزلة فما بعدها إلاّ قوله له: ها أنت ورَبّكَ.

الوسائط كأنهم بوّابون على حضرة الحق، من كان عبداً للبوَّاب أدخله على الحقّ، ومن كان عبد الحق من غير بوَّابٍ لا يدخل على الحق أبداً. وكثيراً ما تجِد العارف بالله مهما يأتيه مريد صادق فأول ما يسلك به يشبهه بالقوم ثم بعد التشبيه ينقله لمنزلة الكمال. نسأل الله تعالى أن يجعل لنا نصيباً معه.

[ماء الحقيقة يسقى به كل شيء]

وأيضاً: سمعت الشيخ، نفعنا الله به، يقول: طريقتنا هذه مثل الماء يسقَى به الحلو وينبُت ويصلح، ويسقى به المرّ وينبتُ ويَصْلحُ. الزّراريع كلها إن سقيتها به تَنْبُت سواء كان زرعاً حلوّاً أو مرّاً.

[صاحب الحقائق يحتاج إلى صاحب الشرائع وبالعكس]

وأيضاً: صاحب الشرائع لو بلغ فهمه ما بلغ محتاج لصاحب الحقائق لا يقوم أمره إلاّ به، أحبَّ أم كَره، وكذلك صاحب الحقائق ولو بلغ فيها ما بلغ محتاج لصاحب الشرائع لا يقوم أمره إلاّ به، أحبَّ أم كَرِهَ، هكذا جرت سنَّة الله في خلقه. وذلك لتعلموا أن الله واحد لا ثاني له ولا ضِدَّ ولا شبيه له. كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

[الخلق من الأرض ومثلها]

اعلم أنَّ الخلق من الأرض ومثل الأرض وحكمهم حكم الأرض، كما أنَّ الأرض كالذي تغرس فيها، هو الذي تجنيه منها، كذلك الخلق، الذي تغرس فيهم هو الذي تجنيه منهم من غير زيادة ولا نقصانٍ. الزيادة منك والزيادة منهم والنقص منك والنقص منهم.

[لا تنتج المعاني إلا بتخريب الحسّ]

وأيضاً: اعلم أنَّ المعاني لا تُنتج وتقوم إلاَّ بتخريب الحسّ، وكذلك الحسُّ لا يقوم لطالبه وينتج إلاَّ بتخريب المعاني. ولا يحسب طالب المعاني من أهل المعاني حتى يكون يجلب ويدفع، ويضرّ وينفع، يتصرف بالمعاني كما يتصرف أهل الحسِّ بالحسِّ، لأن كن فيكون جعلها الله في الحسِّ كما جعلها في المعاني، وجعلها في المعاني كما جعلها في الحسِّ.

والحس له أهل يتصرفون به، والمعنى لها أهل يتصرفون بها. وكما أنَّ أهل الحِسّ دُرَج ومراتب كذلك أهل المعاني دُرَج ومراتب. وكما لا نهاية للحسِّ كذلك لا نهاية للمعاني، وكما لا قناعة لصاحب الحسّ كذلك لا قناعة لصاحب المعاني. كما قالوا: طالب علم وطالب دنيا لا يشتبهان أبداً. يعني طالب علم، طالب معانٍ، وطالب دُنيا، طالب حسٍّ، لأنَّ القناعة من الله حِرْمان عند الفريقين.

[الأشياء إذا استقامت تقضي حاجة، وإذا اعوجت تقضي ألف حاجة]

ومما قال لي الشيخ، نفعنا الله به: يا ولدي، النّاس عندهم الأشياء إذا استقامت تُقْضَى الحاجة، وإذا اعوجت لا تقضى لهم حاجة، ونحن عندنا في طريقتنا هذه الأشياء إذا استقامت تُقْضَى لنا حاجة وإذا اعوجت تُقضى لنا بها ألف حاجة. لأجل ذلك تجدنا نؤثر خَرْق العوائد على العوائد.

[نتيجة الباطن بسقي الظاهر ونتيجة الظاهر بسقي الباطن]

وأيضاً: ومما سمعت من الشيخ نفعنا الله به، قال لي: يا ولدي إذا أردت نتيجة الظاهر فاسقِهِ بالباطن فإنه يقوم، وإذا أردت نتيجة الباطن فاسقه بالظاهر فإنه يقوم لأنَّ الأشياء كلها لا تقوم إلاَّ بأضدادها، والظاهر بلا باطن لا يقوم أبداً، وإذا قام لا يكون إلاَّ ناقصاً.

[سر الخصوصية فضل يوجد في الحقير ولا يوجد في الكبير]

وأيضاً: سمعت منه: أنه سمع من أبيه سيدي أحمد، نفعنا الله بالجميع، قال لي: سرّ الخصوصية يوجد في الولدِ ولا يوجد في أبيه، ويوجد في الأبِ ولا يوجد في ولده. ويوجد في العبد ولا يوجد في سيّدهِ ويوجد في أذني ما في الناس مثل الفرانِ

وبائع اللحم ونقال الغنم ولا يوجد في أشراف الناس وأكابر الوقت. ويوجد أيضاً عند العامّي الذي لا يكتب ولا يوجد عند أكابر العلماء. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝﴾ [القَصَص: الآيتان 5،6] .

[فضل التلوين]

وسمعت منه أيضاً قال لي: يا ولدي، أفضل العمل الذي يحضر ويغيب، ولو كان يظهر للناس أنه قبيحٌ. واتركِ العمل الذي تدوم فيه ولو يظهر لك وللناس أنه مليحٌ. انظر الإنسان لو كانت بنيته تقوم بالشبع دون الجوع ما عرّضه مولاه للجوع أبداً كما أن الجوع يظهر للناس أنه أقبح القبائح. ولو كانت بِنية الإنسان أيضاً تقوم بالطاعة دون المعصية ما عرّضه مولاه للمعصية مع أنه هو الذي أمر بالطاعة وشكرها، ونهى عن المعصية وذمّها. صار كل ما في الوجود من الأشياء لا يقوم إلاّ بضدِّهِ أحبَّ أم كَرِهَ. ودوامك على الشيء حتماً يجمعك بضدّه أحببت أم كرهت، لأنَّ الإنسان ما دام في فعل خير إلاّ انقلب ذلك الخير شراً، ولا دام أيضاً في فعل شرٍّ إلا انقلب ذلك الشرّ خيراً لأنَّ الاختلاف لا بد منه. ومن أراد أن يكون على حالٍ واحدٍ لا يجد ذلك لأنه أراد شيئاً لم يخلقه الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118] وقال جلَّ من قائلٍ: ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرُّوم: الآية 22] . ولكن شتّان بين أهل الاختلاف القهري وأهل الاختلاف الاكتسابي.

[بحر الظاهر والباطن]

وأيضاً: سمعت من رجلٍ من أهل الله تعالى، أعرفه كما أعرف نفسي، قال: خُضت بحرَيْنِ من العلم: بحر الظاهر وبحر الباطن، بحر الظاهر علمه وعَمَله وبحر الباطن علمه وعمله، فاستخرجت منهما خصلتان لم أجد لهما نظيراً، الأولى: إني وجدت أقرب الخلق إلى الله هو أبعد الخلق من الله في قربه. والثانية: وجدت أبعد الخلق من الله هو أقرب الخلق إلى الله في بُعْدِهِ. فافهم إن كنت ذا فَهم. وذلك بحسب تنوّر ظاهره وكثافة فَرْقهِ لأنك ما توجّهت للظاهر إلاّ أُبعِد عنك الباطِنَ، وهو ما يُدْخل به على الله الباطن، وهو الجمعُ.

[الإنسان منه ظلمة ومنه نور وصاحب النُّور نسخة من الوجود]

اعلم أنَّ من جملة ما أكرم الله به هذا الإنسان، أن جعله كاملاً من كل جهةٍ،

حتى جعله نسخة من الوجود، والوجود نسخة منه. وكما جعل في الوجود ظلمة ونوراً كذلك جعل في الإنسان ظلمة ونوراً. الوجود إذا ظهرت ظلمته بطن نوره، وإذا ظهر نوره بطنت ظلمته. وكذلك الإنسان، إذا تنوّرت ظواهره تظلّمت بواطنه، ومهما تظلّمت ظواهره تنوّرت بواطنه. وهذا التفصيل لا يعرف معناه إلاّ عالِمٌ بعلم النفس وقليل ما هم. لا يوجد عِلمُ النفس إلاّ عند العارفين بالله لأنَّ من عَرَفَ نفسه عرف ربَّه، ومن حكم بأن نورانية الظاهر تقتضي نورانية الباطن فهو جاهل، أو ظلمانية الظاهر تقتضي ظلمانية الباطن أيضاً فهو جاهل لا يفقه شيئاً من علوم النَّفس. وعلم النفس هو العلم بالله، فمن عرفه أو عرف من عرفه فهو على بيِّنة.

سمعت من شيخي عن أبيه قال: سمع من سيدي عبد الرحمٰن الفاسي، نفعنا الله بالجميع، قال: كنت أحفظ أربعة عشر علماً قبل أن أقرأ العلم بالله، فلمَّا اشتغلت بقراءة العلم بالله ذهب لي اثنا عشر علماً وبقي لي علمَانِ أتأنس بهما مع أصحابنا: علم الحديث وعلم المنطق.

[فضل الكرم]

وأيضاً: سمعت من الشيخ نفعنا الله به، أنه قال: مثل صاحب الكرَمِ في الناس كمن طَلاَ نفسه بالعسل، الناس كلهم يشتهونه ويحبّونه لأنَّ الكريم محبوبٌ عند الله، ومَن أحبَّه الله حتماً يحبّه الخلق كلهم على كل حالٍ. والبخيل مبغوض عند الله حتماً يبغضه الخلق كلهُمْ. والسخاوة على قسمين: سخاوة النفس وسخاوة الفلس. صاحب سخاوة الفِلْس يملك ظواهر الوجود بأسره، وصاحب سخاوة النفس يملك بواطن الوجود بأسره، وبواطن المغيبات.

صاحب الفِلْس تَصَرُّفه حاضر بالظواهر، وصاحب النفس تَصَرُّفه حاضر في الظواهر، كما يتصرّف بالباطن في غيْبِ المغيبات.

[الأضداد في الإنسان]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان في ذاته عَلَمَيْن، علم ظاهره وعلم باطنه. سبحان من صنعه وأتقن صُنْعَهُ وجعله مولاه مختلفاً من كل جهته. ومن جملة ذلك الاختلاف أنَّ كل ما ترى في ظاهره ففي باطنه ضدّ ذلك. وكل ما ترى في بواطنِهِ ففي ظواهره ضدّ ذلك. ولا يظهر فيه حال إلاّ ويتبعه ضِدُّه. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هُود: الآية 118] .

[الحق ظاهر في الأحوال وفي أضدادها]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخلق كلهم محجوبون، وكلهم ليسوا بمحجوبين. والعارف بالله الكامل هو الذي عرف مولاه في جميع الحالات لأن كل من تجلَّت له حالة لا بد أن تحجبه عما سواها. والحق ظاهر في الأحوال وفي أضدادها كما هو باطن في الأحوال وفي أضدادها. ظهر حتى لم يخْفَ، وخفي حتى لم يظهر، سبحانه وتعالى.

[الإنسان فانياً باقياً]

وأيضاً: اعلم أنَّ من جملة ما خصَّ الله تبارك وتعالى به الإنسان أن جعله فانياً باقياً أبداً، إذا بقي في الجمع فَنى في الفرق. وإذا فَنى في الجمع بقي في الفَرْقِ. هذا دأبه دائماً، الضعيف المغلوب إذا أشرف على الفرق حُجب عن الجمع وإذا أشرف على الجمع حُجب عن الفَرْقِ. والعارف بالله الكَامل اصطحب مع عبودية مولاه في الأحوال كلها حتى صار بين فرقه وجَمْعِهِ، كَلَمْح البصر، كأنَّ جمعه لا يحجبُهُ عن فَرْقِهِ، وفرقه لا يحجبه عن جمعه. وكأن بقاءهُ لا يحجبه عن فنائِهِ، وفناءَهُ لا يحجبه عن بقائِهِ وذلك من شدَّة سرعة التقلب في الأحوالِ، وهذا الوصف لا يحصل إلاَّ بكثرة الممارسة في الفَنِّ. والارتباط في أهلِهِ وقليلاً ما هم. قال صاحب الحِكم: منهم من غَلَبَ صحوه على سكره، ومنهم من غلب سكره على صَحْوِهِ، وأفضلهُمْ من شَرِب فازداد صحواً وغاب فازداد حضوراً.

[الاختلاف]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ رحمه الله، قال لي: يا ولدي، الإنسان كما هو محتاج لصلاح الأرواح محتاج لصلاح الأشباح. الإنسان لا تقوم ذاته ولا صفاته إلاَّ بالاختلافات. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118].

[أقوات الذات والروح]

الروح لا تقوم إلاَّ بصحة الجِسْم، والجسم لا يقوم إلاَّ بصحة الرُّوح. الذَّات تصلح من أقوالها وتفسد من أقواتها، والرَوح تصلح من أقواتها وتفسد من أقوالِهَا.

أقوات الذَّات: الأكل والشرب. فساد الذات في أكل طعام واحدٍ على الدوام، وصلاحها في أكل كل ساعة طعام غير الذي كان قبله.

وأقوات الرُّوح: الكلام والشمّ والنظر والسمع والبَصَر ولمس اليد وسَيْر الرجلين

وجماع الفرْج، هذه سبعة جوارح، إذا اختلفت أقوات الروح بها فذلك صحتها، وإذا استمرّت على حال واحدٍ فذلك فسادها.

[تجريد الحسّ بحر المعنى]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان ما تجرَّد من الحسِّ إلاَّ واجهته المعْنَى، ولا تجرَّد من المعْنَى إلاَّ واجَهَتْه الحسيات، أحبَّ أم كره، عَلِم أو جَهِلَ. سواء كان تجرّده قهراً أو اكتساباً إلاَّ أنَّ من تجرَّد وهو عالم، أو إذن عَالِم، يحصِّلُ على خير تجريده ويفوته شرّهُ. ومن تجرَّد وهو جاهل حُكْمَ تجرُّدِهِ إذا أصابه خيرُهُ تلف، وإذا أصابه شرّه تَلِفَ فيه. هذا حكم الظاهر. وأما حكم الباطن، فهو إذا طَلَبْتَ الحسيّات طلبتكَ المعاني، وإذا طَلَبْتَ المعاني طلبتك الحسيات.

[زَوّل ما اطلع، وافرَق ما اجتمع]

وأيضاً: سمعت الشيخ نفعنا الله به، يقول: قول أهْل الجنَّات في زبيبِ الدَّوَالي، زِوّلْ ما اطْلَعْ، وافرق ما اجْتَمَع. ونحن نقول كذلك في جنات نفوسنا لأنهم هم أهل جنات الفلوس، ونحن أهل جنات النفوس، وحكم النفس في عَوَالِمِها كحكم الفلس في عوالِمِهِ.

[المعروف والمنكر]

وأيضاً: العامَّة عندهم كل ما هو مليح فهو معروف، وكل ما هو قبيح فهو مُنكَرٌ. والخاصة عندهم كل ما يجمعهم على الله فهو معروف ولو ظهر للناس أنه مُنْكَرٌ. وكل ما يشغلهم عن الله فهو مُنكَرٌ ولو ظهر للناس أنه معروف ولا مُنكَر. وذلك لأنهم عرفوا الله في كل حالٍ، فصاروا لا ينكرونه في جميع الأحوالِ.

[سخي النفس أفضل من سخي الفِلس]

ومما قال لي الشيخ رحمه الله: عندي واحد من أولادي، سخي النفس، وعندي آخر سخيّ الفلس. وأردت أن أجعلهما عندي سواء فلم أجد سبيلاً لذلك ولا وجدت سخي النفس عندي إلاَّ أعَزّ وأكرم وأقرب وأرفع وأنفع من سخيّ الفلس كأنَّ سخي النفس عزيز عندي وليس بيني وبينه حجاب، وسخي الفلس وإن كان عزيزاً عندي مثل الآخر وأعظم ولكن كأن بيني وبينه حجاباً، والذي بيني وبينه الحجاب غائب عني والذي ما بيني وبينه الحجاب حاضرٌ معي. وكيف يتمثل الحاضر مع الغائب. قال الشاعر:

رأيْتُ الهلال ووَجْهَ الحَبِيبْ ... فكَانَ هلالَيْنِ عِنْدَ النَّظَرْ
فذاكَ يغيب وذَا لا يغيبْ ... وهَلْ مَنْ يغيبُ كما مَنْ حَضَرْ

[خير العامة والخاصة وخاصة الخاصة]

وأيضاً: اعلم أنَّ العامة إذا فَعَلْتَ معهم خيراً يُجازوكَ عليه بشرٍّ وإذافعلت معهم شرّاً يجازوك عليه بخيرٍ، وذلك لضعفهم وغلبة الحقيقة عليهم. والخاصّة إذا فعلت معهم خيراً يفعلون معك خيراً وإذا فعلت معهم شراً يفعلون معك شرّاً وذلك لأنَّ الشرائع غالبة عليهم. وخاصّة الخاصة إذا فعلت معهم خيراً فعلوا معك خَيْراً وإذا فعلت معهم شرّاً فعلوا معك خَيْراً وذلك لغيبتهم في الحقّ عند خيرك وشرّك حتى صار الكل عندهم خيراً. ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ [النّحل: الآية 30] وهذا وصف أخذوه من أوصاف النبي ﷺ لأنه كان يُجازي السيئة بالحسنة.

[مدد الحق من كل جهة]

وأيضاً: اعلم أيُّها الإنسان أنَّ مادة الله تبارك وتعالى لا تنقطع على عَبْده أبداً لأنها أزلية أبدية، إلاَّ أنه تعالى يأتيك بها من حيث أراد، وكيف أراد، لا كيف تريد. تارة يأتيك بها من جهة الحسِّ، وتارة من جهة المعنى، وتارة من جهة الظاهر، وتارة من جهة الباطِنِ، وتارة من جهة الذّات، وتارة من جهة الصفات، وتارة من الغيب، وتارة من الحُضور، إلى ما لا يدرك ولا يُحْصَى من تلوّن الأبواب. أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلاَّ من حيث لا يحتسِبُ، أو كما قال في الحديث: «إنَّ الله كمال قادر أن يرزق عبيده الزَّرع من غير شِتاءٍ، والشبع في بطونِ خلقهِ من غيْر طعام». إذا كانت هذه بعض أوصاف قدرته تعالى فكيف يتهَمُ في الرزق، وهو قَسَمه وفَرَغَ منه في سابق أزلِهِ قبل أن يخلق الكون وما فيه. نسأل الله تعالى أن يكفينا هَمَّهُ بفضلِهِ.

[الخير والشر في النفع والضر... كن عبداً لله يكون الخير والشر عبدين لك]

وأيضاً: اعلم أنَّ بعض الناس يظهر لهم أنَّ الخير فيه النفع والشرّ فيه الضُّرّ، وهو ليس كذلك. بل الخير فيه النفع والشرر والشر فيه النفع والضرر، لأنَّ الخير والشرّ حكمهما واحدٌ. انظر قوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35] ولو تأمَّلت لوجدت كثيراً من يعذبه الله تعالى بالخير وكثيراً من يرحمه بالشرّ. لأجل هذا المعنى تَرَكَ أهل العقول الخير والشر واشتغلوا بخالقِ الخير والشر فكفَاهم شأن الخير والشر. لمَّا كانوا عبيداً له كان الخير والشرُّ عَبْدينْ لهم.

والمتوجهون إلى الله تعالى في هذا المعنى على قسمين: مبتدىء صديق، وكامل محقق.

المبتدىء في توجّهه إلى الله تعالى كما يضره الاشتغال بالشريات كذلك يضره الاشتغال بالخيريات. والعارف المنتهي في توجهه بخلاف ذلك وهو أنه كما ينفعه الاشتغال بالخيريات ينفعه الاشتغال بالشريات. لأنَّ الأول وهو المبتدىء، باقٍ مع الخيريات والشريات. لأجل ذلك صار يُطالبُ بالإعراض عن الخيريات والشّريات والاشتغال بالله. والمنتهي بخلاف ذلك، بل هو بالله في الخيريات والشريّات، صار لما عرف مولاه في الخيريات والشريّات هو بالخيريات والشريات وليس هو في الخيريات ولا في الشريّات، بل هو مع مولاه. إذاً لما عرف الحق في جميع الحالات كان به في جميع الحالات، ولا شكَّ أنَّ العبد إذا كان بمولاه في كل حال يصير يزيد بكل حالٍ، وينتفع بكل حالٍ ولا يضرّه حالٌ.

[الخروج عن الخير والشر والاشتغال بالله]

وأيضاً: اعلم أنك لا تفعل مع أهل الدنيا خيراً حتى تتهيَّأ لمقاماتِ الشَّرّ الذي يكافئونك به، ولا تفعل معهم شراً أيضاً حتى تتهيَّأ للخير الذي يكافئونك به. جرت عادة الله تعالى في عامة خلقِهِ: ما فعلت معهم خيراً إلاَّ جازوك بالشرّ، ولا فعلت معهم شرّاً إلاَّ جازوك بالخير. والصواب هو الإعراض عنهم حتى لا تفعل معهم خيراً ولا شرّاً ولا تشتغل إلاَّ بمولاك، لأنَّ إقبالك عليهم كان لخير أو لشرٍّ، هو إدبارك عن مولاك.

قال في الحِكَم: إقبالك على الخلق إدبارك عن الحق لأنَّ الخلقَ ليسوا محتاجين لخيرك ولا لشرك. أترك الخلق لمن خلقهم حتى نفسك، واشتغل به فذلك عين النجاة والفلاح. وحقيقة هذا الأمر أنَّ كل ما يشغلك عن مولاك فهو صَنَمٌ لأنَّ الاشتغال بالمخلوق دون الخالق هو الشرك الخفِي. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية 56]، وقال جل من قائِل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: الآية 132] وجلُّ الناس خُذِلوا من جهة هَمّ الرزق، نسأل الله السَّلامة.

[الناس أربع مقامات]

وأيضاً: الناس أربع مقامات: الأول: غافل عن الله مطرود منه. الثاني: متوجه إلى الله محجوب عنه. الثالث: غائب في الله فانٍ عن الخلق فيه. الرابع: عَارِفٌ بالله راجع إلى الخلق بِهِ.

هذه المقامات الأربع، واحدة فوق الأخرى، وبعد حصول المعرفة بالله، وهو المقام الرابع، يترتَّب السَّير في المقامات والأحوال إلى الأبد. سبحان من أعطى أقواماً ومنع أقواماً وقرَّب من أراد قُرْبَهُ وبَعَّدَ من أراد بُعْدَهُ. سبحان من لا يتوقف فضله على عِلَّةٍ، المعطي بلا شيءٍ، والمانع بلا شيءٍ، سبحان مَن أبدع الوجود بحكمتِهِ فضلاً منه، سبحانه من إلٰه كريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المتّقين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

[من أقرَّ العادة وجد العادة]

وأيضاً: اعلم أنَّ من أقرَّ العادة وجدَ العادة، ومن أنكر العادة أنكرته العادة، ومَن أقرَّ خرق العادة وجد خرق العادة، ومن أنكر خرق العادة أنكره خرق العادة. وذلك لأنَّ المولى الكريم ما توجَّهت لشيءٍ إلاَّ أمدَّك به وفيه، ورزقك من يرافقك فيه، حتى تبلغ فيه منتهى همَّتك، الهمَّة تزيد منك، والمدد يزيد من مولاكَ، ولا ينقطع المدد من مولاك حتى تقف همَّتك. هذا القياس جَرَت عادة الله به في الأمور كلها ومهما توجَّهت همَّتك لأمرٍ انقطعت عما سواه. وسير الهمَّة لا نهاية له، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: الآية 42] . وقال ﷺ: «إنَّ الله يَرْزقُ العَبْد على قَدرِ هِمَّتِهِ». العموم انعقدت هِمَّتُهُمْ على العوائد، فلم يجدوا إلاَّ العوائد. والخصوص انعقدت هِمَّتهُمْ على خرق العوائد فلم يجدوا إلاَّ خَرْق العوائد، ثِمار ما قد غرست تَجْني» وهذه عادة الزمان. هذا هو الفرق بين من ظهرت على يده خرق العادة من أهل الخصوصية وبين من لم تظهر عليه إلا العادة من أهل العمومية. وخرق العادة هو ما عند العامة عجبٌ والعادة عند الخاصة عجبٌ، قوم يتعجَّبون من سعادة المرءِ وقوم يتعجبون من شقاوته، سبحان المعطي المانع، سبحان الحكيم العليم، لا إلٰه إلاَّ هو ولا موجود في الوجود سواهُ.

[العلم لا يؤخذ إلاَّ من صدور الرجال]

اعلم أنَّ شجرة العلم لا تؤخذ إلاَّ من صدور الرجال، المنتهي يأخذها من داخل نفسه، والمبتديء يأخذها من صَدْرِ غيره. قيل: إنَّ أرباب القلوب يستفتون أنفسهم ويأخذون جواهر العلم عنها. قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العَاديَات: الآية 10] ، وإن فتشت وجدت العلم لا يخرج إلاَّ من العمل كما أنَّ العمل لا يخرج إلاَّ من العلم، كأن العلم كامن في العمل والعمل كامن في العلم.

[الحق يتجلى للعارفين والجاهلين]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحق جل ثناؤه كما تجلى وتعرَّف وظهر لعباده العارفين، كذلك ظهر وتعرّف للجاهلين. إلاّ أن العارفين لما ظهر عرفوه في كل حالٍ وأقرّوا بوحدانيته فصار يتعرَّف لهم في كل حينٍ بتعرّف خلاف ما كان قبله وأقوى مما كان قبله، والجاهلون لما ظهرلهم جهلوه وأنكره، فلذلك حصل لهم الإنكار على الخلق حتى أنكروا نفوسهم. ولو أقرُّوا بنفوسهم لأقرّوا بربِّهم، ولو أقرّوا بربِّهم لأقرُّوا بنفوسهم لأنَّ من عرف نفسه عرف ربّه، ومن جهل ربّه جهل نفسه.

[علامة الإجابة]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإجابة على شرطين: الحَيْرة الصادقة، والنيَّة الصادقة في الطلب، وفي حسْن الظن في عباد الله. هاتان الخصلتان على قدر قوتهما في طالب الحاجة تسْرع له الإجابة وعلى قدر ضعفهما فيه أيضاً تضعف.

قيل: إن رجلاً من الصالحين كان جالساً بقرب نهر يتحدث مع أصحابه، وإذا بامرأة تغسل صوفاً على شاطىء النهر ولها صبي صغير يلعب بقربها. فإذا به سقط في النهر وغاب عن عينها، فلما رأت ذلك، فزعت إلى الشيخ وأصحابه، وهي تصيح وتضرب رأسها، وتقول: يا سيدي، ولدي ذهب به الماء. فأجابها أصحاب الشيخ وقالوا لها: ما فينا من يحْسن العَوْم. فاشتغلت تزيد وتبكي وتصيح، فقال لها الشيخ: اصبري واحْتسِبِي. فقالت له: يا سيدي نَفَذَ صبري. فأعاد عليها القول: فقالت له: يا سيدي والله ما وجدت صبراً. فقال لها الشيخ: إن كنت صادقة فيما تقولين فانظري في شاطىء الواد تجدين ولدك قد خرج من الواد سالماً. فصارت إلى شاطىء الوادِ فوجدت ولدها حيّاً سالماً.

انظر هذا الشيخ رحمه الله تعالى كيف حكم عليها بخروج ولدها لما رأى اضطرارها من شدّة الحيْرة التي نزلت لها وصدق طلبها لولدها، وحسنِ ظنها في الشيخ، فكان الأمر كذلك. قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: الآية 62]، انظر مولانا جلَّ ثناؤه كيف قرن الإجابة بالاضطرار. يرحم الله القائل:

لكن سرّ اللّه في صدق الطّلبِ كم أمير[1] في أصْحابه من العجب

(1) وفي نسخة [أمي].

[من استقر في حالة ولم يتخلق بضدها فهو محجوب عن مولاه]

وأيضاً: قياس صحيح، اعلم أن كل من تراه استقرَّ في حالة ولم يتخلق بضدِّها فهو محجوب عن مولاه فيها، وعلامات الكمال هو التطور به للمقامات والأحوال ومن كانت همَّته بالله أو في الله حتماً لا يستقر في حالة واحدة، وإنما يكون وصفه وصْفَ مولاه، ومن أوصاف مولاه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرّحمٰن: الآية 29] ، طيب الماء من طيب الرَّمْلِ، وطيب العبد من طيب الموالِي.

[بيع الصفات بالصفات]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى كريم لا يُعادل كرمه شيءٌ. ومن ذلك أن ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: الآية 8] . ثم بعدما أوجدك فضلاً منه ورحمة، قال لك: يا عبدي قد وهبْت لك وجودك فضلاً مني ورحمة، فهو لك والآن أشتريه منك. قلت له: وما ذاك يا ربّ؟ قال: أشتري منك صفاتك بصفاتي، وأبيع لك صفاتي بصفاتِك، وأشتري منك نفسك بنفسي، وأبيع لك نَفْسِي بنفسك. فكان الأمر كذلك. ومن رضي فله الرِضَى ومن سخط فله السخط.

ومما أوصاني به الشيخ رحمه الله، قال لي: يا ولدي الفقير هو الذي يكون مَخزن المخزن. يعني: رئيساً على الرؤساء.

وسمعته أيضاً يقول: ذكر الصفاء في الجفاءِ صفاءٌ، وذكر الجفاءِ في الجَفَاءِ صفَاءٌ.

وسمعته أيضاً يحكي: أنَّ الشيخ أبا الحسن الشاذلي، ذهب يستشفع لأحدٍ من الملوك في حاجة أحدٍ من الناس. الشاذلي استشفع ثمانية عشر مرَّة، وفي كل مرة يستشفع له فيها فلم يَقْضِها له، ويرجع. حتى أكمل ثمانية عشر مرَّةً، فقضاها له.

وسمعته أيضاً يقول لأحدٍ من أصحابِنَا: يا ولدي إذا رأيت طالب هذا الطريق، يَعْني الخصوصية، فاختبِرهُ في العهد والمعاد. إن وجدته صادِقاً في عهده وافياً في معادِه فاعلم أنَّ طلبه صادق، وإلاَّ فهو كاذِبٌ (. . .).

[معرفة الشريعة والحقيقة في الإنسان]

وأيضاً: اعلم أنَّ من غلب جهله على علمِهِ فهو شريعة. ومن غلب علمه على جهله فهو حقيقة. والعامَّة إنما هم شريعة خرجت من حقيقة، والخاصة إنما هم حقيقة أُخرجت من شريعة. ومن الخاصة من هو ظاهره حقيقة وباطنه شريعة. ومنهم من هو في ظاهره شريعة وفي باطنه حقيقة. وهم خاصة الخاصة. وهؤلاء هم أعلاهم مَزِية وأشرفهم. ولا خصوصية للعلم دون العملِ. أعوذ بالله من علم لا ينفع. أو كما قال

الصادق المصدوق ﷺ، وشرَّف وكرَّمَ، ومجَّدَ وعَظَّمَ. وكلامنا هذا في شرائع الخاصة لا شرائع العامة، لأنَّ الخاصة عندهم كل شيء له شريعة وحقيقة، والعامَّة لا يفهمون إلاَّ شريعة واحدةً، ولا يعرفون إلاَّ هي.

[العامة مع الخاصة]

وأيضاً: اعلم أن العامة إنما هم أنوار أُخرجت من البطون إلى الظهور، ومن الآخرية إلى الأوَّلية. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية 3] صار الكُلّ به وعنده ومنه وإليه.

[الخاصة أموات أحياء والعامة أحياء أموات]

وأيضاً: إنَّ الخاصة أموات أحياء، والعامة أحياء أموات. كما قال القائل: «والله لو كُشِف الغطاءُ ما ازددتُ يقيناً».

[التجريد حقيقة الحقائق]

وأيضاً: اعلم أنَّ التجريد بحر لا ساحل له وهو لا يقوم إلاَّ على وجهين: باطني وظاهري. أما من جهة الباطن فما له إلاَّ حقيقة واحدة وهي تسمَّى بحقيقة الحقائق، وأما من جهة الظاهر فحقائقه على عدد الحَصَى، من حاز منه ـ أي من التجريد حقيقة باطنية وحقيقة ظاهرية واستمرّ عليها ـ حتى حصل له ثمارها فإنه يملك الوجود بأسره حتى يكون يتصرّف في الملكِ العلوي والسفلي يكون بأمر مولاه يقول للشيء كن فيكون.

قال بعض العارفين خطاباً للحق تعالى:

وَمَنْ يَكُنْ عنده نسك ... يصير في الخَلْق كالعَلَمِ

[التجريد ظاهر وباطن]

وأيضاً: كان شيخ شيوخنا، سيدي أحمد اليماني، نفعنا الله به، من أهل التجريد ظاهراً وباطناً. أما الباطن فلا إشكال. وأما الظاهر فكانت حقيقته في يديه.

وشيخنا سيدي العربي نفعنا الله به كان من أهل التجريد أيضاً، ظاهراً وباطناً. أما باطناً فلا إشكال، وأما ظاهراً فكانت حقيقته في لسانه. وأنا عبد الله، مَنَّ الله عليَّ مِنْ بركة معرفة هؤلاء الرجال سادتِنا أهل الحقيقة شرَّفنا الله بذكرِهِم.

ولكن سيدي منهم وسندي وأُستاذي هو سيدي العربي ابن العارف بالله سيدي

أحمد بن عبد الله نفعنا الله بالجميع. أخذت عنه التجريد ظاهراً وباطناً. أما باطناً فلا إشكال، وأما ظاهراً ففي أربعة جوارح: في لساني وفي رأسي وفي رِجْلي وفي ظَهْري. هذه أربعة حقائق.

ومع رجل آخر، أخي في الشيخ، أخذ على شيخنا سيدي العربي التجريد، ظاهراً وباطناً. باطناً فلا إشكال فكانت حقيقته، وظاهراً منه حقيقة في عينه. وهو يتصرّف الآن. والتجريد باطنه علم، وظاهره عملٌ. وكثيراً ما رأيت فقراء وقتنا يأخذون التجريد عملاً من غير علم ظاهرٍ، ومن غير علم باطِنٍ. وذلك أنهم رأوا أشياخهم يفعلون شيئاً يفعلوه اقتداءً بأشياخهم وهم لا يدرون مقاصد أشياخهم في ذلك الفعل. والله تبارك وتعالى لا يُعْبَد إلاّ بالعلم ولا يحلّ لامْرِىءٍ أن يقدم على أمرٍ حتى يعلم حكم الله فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية 28] . وإذا قدم على شيء بصحبة العارفين فذلك الفنّ، فلا بأس به لأنه صار كمن سافر في بلاد لا يعرفها مع الخبير الذي يعرفها فلا بأس به.

[الحجاب: الاشتغال بالمخلوق]

وأيضاً: اعلم أن كُلَّ من حِيلَ بينه وبين مولاه ما حجبه عنه إلاّ الاشتغال بالمخلوق، وكثرة الخوض فيه. يرحم الله القائل:

هِمْ فـي هَـوَى الـمَـحْـبُـوبِ ولا تُـبَـالِـي

وأصدق بيت قاله لبيد:

ألا كـل شـيء مـا خَـلاَ الـلّـه بـاطـل[1]

وقال صاحب الحِكَم: إقبالك على الخلقِ إدبارك عن الحق.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91] . وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العَنكبوت: الآية 45] ، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يُونس: الآية 32] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 185] .

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ

(1) حديث شريف نصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل». صحيح البخاري، باب أيام الجاهلية، حديث رقم (3628) [ج 3 ص 1359]. ورواه مسلم، كتاب الشعر، حديث رقم (2256) ورواه غيرهما.

ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: الآية 33] : فلا تشغلنكم الدنيا بكثرة الخوضِ فيها عن الله. وقيل: من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه، لأنَّ الحجاب الأول هو الدنيا وكل من استعْذَبَ لذيذ الخوض فيها ووقف معها فهو مغرور مخذول محجوب.

[للذِّكر ثلاثة أحوال]

وأيضاً: اعلم أن الذِّكر له ثلاثة أوجه: ذكر بالظاهر دون الباطن، وصاحبه لم يحصل على شيء، ولكنه يرجى خيره إن استمرَّ على ذكره.

وذكر بالظاهر والباطن، وهو المطلوب، وصاحبه حصل على العروة الوثقى.

وذِكر بالباطن دون الظاهر، وهذا هو المستغرق في المشاهدة والعيانِ. كما قال بعضهم: بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه، فلا يشهد إلاَّ إيَّاه، وهذا حال الأقوياء من الرجال. جعلنا الله وإياكم من التابعين لمنهجه القويم بفضله وإحسانه إنه على كل شيء قدير.

[قف على النحلة والزنبور لتمثيل أهل الله وأهل المخلوقات في الاشتغال بهما]

وأيضاً: اعلم أنه كما أن أهل الله سائرون لا مقام لهم، كذلك أهل المخلوق سائرون لا مقام لهم. إلاَّ أنَّ مثل أهل الله وأهل المخلوق في اجتهادهم كاجتهاد النحلة وشغلها، واجتهاد الزُّنبور وشغله. ولكن انظر نتيجة النحلة ونتيجة الزنبور، ولأن رب النور هو رب الظلمة وعبد الله نوراني، وعبد المخلوق ظلماني، وكما أن صاحب النور زائد في نورانيته، كذلك صاحب الظلمة زائد في ظلمانيته. وكما لا وقوف لصاحب النور كذلك لا وقوف لصاحب الظلمة.

[الفقير المستغني بالله]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفقير المُستغني بالله هو الذي ترك الدنيا للخلقِ، حتى لا يكون له فيها حق معهم إلاَّ ما فضل عليهم من بعد اضطراره واحتياجِهِ إليه. ويترك أيضاً الآخرة لمولاه حتى لا يكون له فيها حق إلاَّ النظر في وجه الله. ويترك أيضاً نَفْسَه حتى لا يكون له فيها حق إلاَّ حق مولاه، ولا إرادة إلاَّ ما أراد مولاه. ويكون كالغُصْنِ الرَّطِب أين ما مالت به الريح يلين ويميل معها ولا ينكر على الخلق حالاً من أحوالهم.

[صاحب القشر محجوب عن اللّب]

وأيضاً: ومن ذلك أن الله تعالى جعل هذه الحقيقة لها قِشرٌ ولبٌّ ولُبّ اللبِّ، من

وقف مع القشر يحجبه بحسنه وجماله ولذته عن اللبِّ، ومن خَرَقَ حِجاب القِشر وزادت همَّته إلى اللبِّ فإنه يجده أحسن وأفضل من القِشرِ بأضعافٍ كثيرة. فَضْل اللّبِّ على القشر كفضل نعيم الجنة على نعيم الدنيا. فإن وقف معه حُجِب عن لُبِّ اللُّبِّ، وإن خَرَقَ حجاب القشر وحجاب اللب وزادت همَّتِه إلى لبِّ اللُّب، فإنه يحصل على نهاية الخير. وفضل لبِّ اللبِّ على اللبِّ وعلى القِشر كفضل النظر في وجه الله تعالى على نعيم الجنة وعلى نعيم الدنيا. والإنسان مع ما طلب. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34]، «إن الله يرزق العبد على قدر هِمَّتِهِ»[1] الحديث.

[الاسم الأعظم في الإنسان]

وأيضاً: اعلم أنَّ اسم الله العظيم الأعظم في الإنسان، به فضَّله الله تبارك وتعالى على كلِّ ما خَلَقَ. وذهب جمهور الحكماء العارفين بالله العالمين بأحكام علم النفس إلى أنَّ الله تعالى جعل هذا الاسم الشريف في الإنسان مكتوباً بقلم القدرة عنده في التوجه، لأجل ذلك صار التوجه سؤالاً لا يردُّ. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34] والسؤال الحقيقي هو السؤال بالفعل. وأما السؤال بالقول فيصحّ إن صاحبه الفعل، بخلاف سؤال الفعل، فيصحُّ، صاحَبَهُ القول أم لا، ولكن القول مثل النوار، يرجى له الإثمار، لأجل ذلك قبل ولم ينكر. كما قال القائل:

لكن سرّ الله في صدق الطَّلَبْ كم أُمي في أصحابه من العجبْ

والصّدق في الطلب هو الفعل بصدقِ القولِ. والفعل: هو التوجه بالذّات لا السّعي فيما طلب الإنسان.

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان إذا صفا نظره وكَمُل فإنه يصير حقاً، وإذا صار حقاً: «فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال». ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾ [الإخلاص: الآيات 1-4]، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

[من تكلم ومن سكت]

وأيضاً: اعلم أنَّ من تكلم مُلِكَ بكلامه، ومن مُلِكَ، ذلَّ وأُهِينَ وحُقِّرَ. ومن سَكَت مَلِكَ بسكوتِهِ، ومن مَلِكَ أُعِزَّ وعُظِّمَ وشكر، إلاَّ المتكلم بالله. والمتكلم بالله

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (ج 10 ص 73).

هو الذي استوى سكوته وكلامه، إذا تكلم غلب وملَكَ، وإذا سكت غلب وملكَ، لأنّه بالله، وما كان بالله يغلب أبداً، لا في أقواله ولا في أفعاله، كما قال صاحب الحِكَم: ما توقَّفَ مَطْلَبٌ أنت طالِبُهُ بِربِّكَ ولا تيسّر مطلبٌ أنت طالبه بِنفْسِكَ.

[ما نزلت هِمّتك في منزلة إلاّ وجدتَّ روحك فيها]

وأيضاً: اعلم أنَّ منازل الرجال افترقت في النظر، كل واحدٍ مرتبته على قَدْرِ نظره. يعني كل من وقفت هِمَّته في منزلةٍ لا يجد نفسه إلاّ فيها، ولا يلبسه مولاه إلاّ حِليتها. وذلك من كرمه تعالى. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34] . «إن الله يرزق العبد على قَدْرِ هِمَّته» الحديث.

ومما قال لي الشيخ رحمه الله تعالى ونفعنا به، قال: العبد الذي يخدُمُ بالمحال كما تخدم العامة بالعُرْف يفرح به مولاه كما تفرح المرأة بولدها ليلة عُرْسه. ويدلك على ذلك فرح الناس بمن ظهر على يده شيء من خَرْقِ العادة، لأن ألْسُن الخلق أقلام الحق، إذا أردت أن تنظر منزلتك عند الله فانظر منزلتك عند الناس.

[الإنسان نسخة من الوجود والوجود نسخة منه]

وأيضاً: ومن ذلك، أنَّ الله تعالى خلق الإنسان وجعله نسْخة من الوجودِ، وجعل الوجود نسخة من الإنسان. ومن جملة ما قام به الوجود: الفساد والصلاح. هاتان حقيقتانِ من حقائق الوجود مهما تعذَّرت واحدة منهما تعذَّر الوجود. الفساد لا يقوم إلاّ بالصلاح والصلاح لا يقوم إلاّ بالفسادِ، وكما جعلهما الله تعالى بحكمتِهِ في الوجود لا يقوم إلاّ بهما، كذلك جعلهما الله تعالى في الإنسان، لا تقوم ذاته وحياته إلاّ بهما. ولو بطلت واحدة منهما من ذاتِ الإنسان لبَطل الإنسان واضمحلَّ وتلاشى.

ومن حكمته تعالى، جَعْل ذوات الخلق، مختلفة. مِنَ الناس من جُعِلَ الفسادُ في ظاهره والصلاح في باطنِهِ، ومنهم من جُعِلَ الفساد في باطنه والصلاح في ظاهره. وكل ذلك في غاية الاتقان. ومن الناس أيضاً من يكون الفساد في ظاهره والصلاح في باطنه، ثم ينقلب بحكمة الله تعالى فيصير الصلاح في ظاهره والفساد في باطنِهِ وذلك عند الله أسْرَع مِنْ طرفة العَيْنِ. ومن الناس أيضاً من يكون بالعكس، يكون الصلاح في ظاهره والفساد في باطنه فيقلبه الله تعالى بحكمته أسرع من طرفَة العين، فيصير الصلاح في باطنه والفساد في ظاهره، وهذا كله من كمال القُدْرة: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: الآية 12] .

والإشارة بهذا المعنى إلى السلوك في علم النفوس، لأنَّ من عرف نفسه عرف ربَّهُ. وتحصل أيضاً بهذه الإشارة معرفة الفرق بين أهل التجريد وأهل الأسباب. أما أهل الأسباب فمِمَّن جعلهم الله تعالى صلاحهم في ظواهرهم وفسادهم في بواطنهم. وأهل التجريد ممَّن جعلهم الله تعالى صلاحُهُم في قلوبهم وفسادهم في ظواهرهم، والكل حسَنٌ. والحِكمة في الضمير، وبالله التوفيق.

[الصَّمتُ نقص في الظاهر]

وأيضاً: صاحب الظواهر ظواهره كلها كمالٌ إلاَّ لسانه نقصٌ، إن سكت سكوته نقصٌ، وإن تكلم لا تبرز عبارته إلاَّ ناقصة. كماأن صاحب الباطن بالعكس، ظواهره كلها نقص إلاَّ لسانه كمال، إذا تكلم كلامه كمالٌ وإن سكت سكوته لا يَبْرُز إلاَّ عن كمالٍ، لأنَّ اللسان باطِنِي والكلامُ ترجمان باطني أَلَّفَ الله به بين الظاهر والباطن. ولمَّا كان الكلام باطني صار لا يَبْرز إلاَّ مكسوّاً بكِسْوَة الباطِنِ ولا يخلو إذا كان الظاهر كمالاً لا يكون الباطن إلاَّ نقصاً، وإذا كان الباطن كمالاً لا يكون الظاهر إلاَّ نقصاً. هكذا جرت عادة الله في خلقِهِ.

[تعلم الصغير]

وأيضاً: إنَّ الصغير للتعلم بينه وبين الكبير فرق عظيمٌ؛ لأنَّ الصغير رأسه رطب سريع الميل للخير والشرّ، والكبير بخلاف ذلك. رأسه شديد لا يميل للخير إلاَّ بالمشقة العظيمة، وإذا مال لا يرسخ في عقله التعلم مثل الصغير إلا القليل من الناس. الصغير مثل الآنية الطينية قبل تطييبها في النار زلافة، فإذا أردت أن تعجنها وتردَّها غرافاً فإن ذلك هيّنٌ، لأنها لم تدخل النار، والكبير مثل الآنية التي طُبِخت في النار لا تقبل صنعة أخرى لو سحقتها في المِهراس.

[التجريد صاحبه موصول]

وأيضاً: يكفيك في التجريد أنَّ صاحبه موصول لا ينقطع، وليس بينه وبين مولاه حجابٌ. ويكفيك في الأسباب أنَّ صاحبها مقطوع أبداً لا يصل. وعلى قَدرِ تقوية التجريد يضعفُ الحجاب، وعلى قدر تقوية الأسباب يعظم الحجابُ. وعلى قدر ضعف الأسباب يضعف الحجاب ويضمحلُ.

الحاصل: أنَّ صاحب التجريد مع مولاه أبداً وصاحب الأسباب مع المخلوق أبداً، وما زاد من جهة الحق نقص من جهة الباطل، وما زاد من جهة الباطل نقص من

جهة الحق. والحق هو الله، والباطل هو المخلوق. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿257﴾﴾ [البقرة: الآية 257] . ألا كل شيء ما خلا الله باطِلُ. والباطل: هو الطَّاغوتُ.

حُكي أن رجلاً من العُبَّاد قال: كنت منفرداً لعبادة مولاي في مغارة، وكانت قريبة من المغارة شجرة، فاستوحشت يوماً، فقرَبت من الشجرة لأسمع صوت طائرٍ أتأنَّسُ به، فحُجِبْت من أجل ذلك عن مقامي أربعين يوماً.

قال الششتري رحمه الله في بعض كلامه: عندي محبُوب إنما هو غيور، تراه في قلبي يطلل كطير حزوز، إن رأى شيئاً امتَنَعَ أن يزوز.

[حقيقة الظن]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحق هو ما ظُنَّ به حق، والباطل ما ظُنَّ به باطِلٌ: «أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي» الحديث. ما أفلح من أفلح إلاَّ بالتعظيم وحسْن الظنّ، ولا خَسِرَ من خَسِرَ إلاَّ بتحقير الحرمة وسوء الظنّ. ومن حقَرَ الحرمة فإنما حَقَرَ حرمة نفْسِهِ، والله غني عن العالمين.

[التجريد والأسباب]

وأيضاً: التجريد مُرُّ النُّوَارِ، حُلْو الأثمار، والأسباب حُلْو النُّوَّارِ مرُّ الأثمارِ. «حُفَّتِ الجنَّة بالمكاره وحفتِ النار بالشهوات» الحديث. كأن التجريد جمع والأسباب فرق. قال الجيلاني:

وجَـمْـعَـكَ صِـلَـةُ إن فَـرْقَـكَ قـاطِـعُ

[كثرة الكلام من صغر الهِمَّة]

وأيضاً: كثرة الكلام من صُغْرِ الهِمَّة. وقيل: إنه هو عين صُغْر الهِمَّةِ. المتكلم دعوة همتِهِ محصورة محدودة وصاحب الصمت دعوته غير محصورة ولا محدودة.

[من لا حقيقة له لا خصوصية له]

وأيضاً: اعلم أنَّ المتوجهين لطريق الخصوصية كل من لم تكن له حقيقة لا خصوصية له، وذلك لأنَّ الحقيقة مثل الإكسير، أدنى شيء منها يُغْنِي، كما قال القائِل:

ومَـنْ يـكُـنْ عـنـده مـنـك نُـسْـكُ   يـسـيـر فـي الـخـلـقِ كـالـعَـلَـمِ

وهذه الحقيقة سواء كانت ظاهرية أو باطنية إلاَّ أنَّ الحقيقة الظاهرية تجمعه على الحق في الظاهر، والحقيقة الباطنية تجمعه على الحق في الباطِنِ. وصاحب الخصوصية لا غنَاء له عنها ولا محيد. والظاهر والباطن إنما هما مقامان، والأحوال تحوِّل المخصوص من مقامٍ إلى مقام، ولا له مقام في مقام. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: الآية 13] ومنتهى الخصوص من الله إلى الله، فهو أبداً راحلٌ قَاطِنٌ ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النّمل: الآية 88] .

[الحكمة تبرُز على لسان الوَجْل]

وأيضاً: الحِكمة ربما بَرَزت من لسانِ وجلٍ جاهلٍ، كمثل قول من قال: قراط خَوْفٍ أفضلُ من قِنطار محبَّة. نفهم نحن من هذا: قِرَاط جلالٍ أفضل من قنطار جمالٍ. يعني به في الظاهر، ولا شك أن الظاهر هو عين الباطِنِ، كل من تَنورت ظواهِره، تنوَّرت بواطنِهُ، وبالعكس. والظّاهر والباطن حالات، وكما أن الظاهر مفتاح الباطِنِ، كذلك الباطن مفتاح الظاهر. قال أبو العباس: اجعل عملك ملحاً وأدبَكَ دقيقاً. ولا شك أن الأدب مِلْحُه ظواهر الأشباح والعمل سِره وتصرفه ببواطِنِ الأرواح. وهي معاني، والمعاني قليلها مثل كثيرها لأنَّ الظاهر الذي يحمل التحري لأنَّ المقامات والمراتب التي تُنسب إلى الباطن إنما هي في الباطن مجازية، وفي الظاهر حقيقية، والبدايات مجْلى النهايات، مَنْ أشرقت بدايته أشرقت نهايته.

[قف على آفات البَسْط والقبْض]

وأيضاً: من أعظم آفات الظاهر: البَسْط. كما أنَّ من أعظم آفات الباطن: القبض. وذلك لأنَّ البسط نور في الباطن، ظلمة في الظاهر. كما أنَّ القبض نور في الظاهر، ظلمة في الباطن. لأنَّ الظلمة هي عين ذاتِ الحسيات كما أنَّ النور هو عين صفات المعاني. ولا شك أنَّ الذّات هي مدْخل الصفات، كما أنَّ الصفات هي مدخل الذّات. ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [يونس: الآية 31] فافهم.

[مقامات العوام ومقامات الخواص]

وأيضاً: عند أهل الظاهر، وهم العوام، أربع مقامات، وأشرفهم وأعلاهم المقام الرابع.

المقام الأول: الحسّ يجد المعْنى.

المقام الثاني: الحسّ يجد المعنى أيضاً.

والمقام الثالث: المعنى تجد المعْنَى، وهو أعلى من الثاني.

والمقام الرابع، وهو أشرف الأربعة: المعنى تجد الحسَّ.

وكذلك عند أهل الباطِنِ، وهم الخاصة، لهم فيه أربع مقامات، كل واحد أعلى من الذي قَبْلَهُ، وأشرفهم وأعلاهم المقام الرابع:

المقام الأول: وهو الحس الباطِني، يجد المعنى الباطني.

والثاني: الحس الباطني، يجد المعنى الباطني، وهو أعلى من الأول.

والثالث: المعنى الباطِني، يجد المعنى الباطِني، وهذا أعلى من الثاني.

والمقام الرابع، وهو أشرف المقامات الثمانية: مقامات الظاهر، ومقامات الباطن، وهو المعنى الباطِني، يجدُ الحسّ الباطني. يا له من مقام أهله في الوجود كالكبريت الأحمر، من وجد واحداً منهم ووافقه فقد حصل على ملك الدنياوملك الآخرة. يرحم الله الشيخ أبا مَدْين الغوث حيث قال:

مـتـى أرَاهـم وأنّـى لـي بِـرُؤيـتِـهِـم ... أوْ تَـسْـمَـع الأُذُنُ مِنِّـي عَـنْـهُـمْ خَـبَـرَا

هُمْ أهْل وُدِّي وأحبابي الـذين عَـلَـوْا ... عـمَّـنْ تَـجـرُّ ذيـول الـعـز مـفـتـخِـرَا

[قرية المُلك]

وأيضاً: اعلم أنَّ قَلْبَ الإنسان قرْية المُلك، وهي ـ أي القرية ـ مهيّأة لاثنين مِنَ الملوكِ، أبداً يتزاحمان عليها، واحد اسمه الظاهر، والآخر اسمه الباطن؛ وهما ضدَّانِ لا يجتمعان في القلب أبداً. ومهما اجتمعا أخرج واحد منهما الآخر على كل حالٍ. والذي يغلب في الوقت هو الذي يسكن القرية. العوامُ ساكِنُ قَرْية قلوبهم الظاهر، والخاصة ساكن قرية قلوبهم الباطن. وفراغ القلب من كل واحد منهما مُحالٌ، إما عامِرٌ بالظاهر أو بالباطن. والظاهر له جنود وخدَّام، والباطن له جنود وخدَّام. ومن خلي من القرية من الخارج وجنوده عمِّر بالداخل وجنوده. والخلاء كما قلنا محالٌ، فلذلك تجِد المريدين للخصوصية عند ارتحالهم من مقام العامة إلى مقام الخاصة يكثر قيامهم ويظهر عليهم أثر الحمق حتى يعرف ذلك فيهم الخاصّ والعام، وذلك يقع بهم لما اقترنت الملوك والجنود في قرية قلوبهم، ملك الظاهر وجنوده، وهو القاطن، ومَلَك الباطن وجنوده الذي هجم عليه. فعند اقتتالهما على القرية، وهي القلب، يظهر عليه أثر ذلك على كل حالٍ، ولا يستريح المريد ويظهر عليه أثر السكون حتى تضع الحرب أوزارها ويكون الحكم لواحدٍ؛ إما الذي هجم، وهو الباطن، فيخرج الظاهر من القرية وتصير الجثة من الخاصة أو القاطن، وهو الظاهر، يخرج الهاجم عليه، وهو الباطن،

فيرجع صاحب الجثة إلى منزلته الأولى، وهي منزلة العامة، فيحصل السكون حينئذ لصاحب الجثة لغلبة أحدهما الآخر. وما دام لم يظهر الغلب لواحدٍ، فصاحب الجثة في أمرٍ عظيمٍ. ولهذا المعنى قال بعضهم: طريقتنا هذه أولها جنون ووسطها فنون وآخرها سكونٌ. صار السكون لا يكون إلاَّ بالعمومية بالظاهر وحده، أو بالخصوصية بالباطن وحده، وأما عند افتراقهما فلا يكون صاحب الجثة إلاَّ مثل المرأة عند وضع حَمْلِها، يراقب أحد أمرين: إمَّا الموت، بالرجوع إلى الغفلة والفرقة، وإما الحياة باليقظة وأنوار المشاهدة.

[حجاب الفعْل عن الفاعل]

وأيضاً: قومٌ حجبوا بالمعصية عمَّن قدَّر المعصية، وقوم حجبوا بالطاعة عمَّن قدَّر الطاعة، وقوم وجدوا الطاعة حقاً بالرضى مما يبرز من حضرة الحق فلم يحجبوا عن حبيبهم بأنواع الطاعة ولا بظلام المعصية، بل صاروا في كل حالٍ عبيداً مخلصين لله بلا عِلَّةٍ. كما قال إمام الطريقة رضي الله عنه ونفعنا به: «واجعلنا عبيداً لك في جميع الحالات، وعلِّمْنا من لَدُنك عِلْماً نصير به كاملين في المحيا والممات».

[أهل الجذب القهري وأهل الجذب الاختياري]

وأيضاً: أهل الجذب على فِرْقتين: فرقة أهل الجذب القهري، وفرقة أهل الجذب الاختياري. أهل الجذب القهري تفتحه عليهم القدرة قهراً، وتغلقه عليهم ـ إن شاءت ـ قهراً. خمرتهم حاكمة عليهم بإرادتها لا بإرادتهم. وهذا الجذب القهري يكون سبب معرفة أهله، ويكون بلا سبب. والفرقة الثانية، وهم أهل الجذب الاختياري، يفتحونه بأيديهم اختياراً واكتساباً، ويغلقونه بأيديهم اختياراً واكتساباً، وهذا الوصف لا يجده طالبه إلا بمرافقة أهله فقط. أهل هذا الوصف حاكمون على خمرتهم بإرادتهم لا بإرادتها، وشتان بين من يكون مالكاً لحضرته وبين من يكون مملوكاً لها. ومن كان جذبه قهراً في بدايته لا يكون إلاَّ قهراً في نهايته، لأنَّ البدايات مجْلى النهايات.

[من قال ما فعل ومن فعل ما قال]

وأيضاً: ما فَعَلْتَ ما قلتَهُ، وما قُلْتَ ما فعلته، وقولك هو الدليل على عدم فِعْلِكَ، وفِعلك هو الدليل على عدم قَوْلِك، لأنَّ الفعل ينقض القول كما أنَّ القول ينقض الفِعْلَ.

[ملوك الظاهر وملوك الباطن]

وأيضاً: ملوك الظاهر، سطوتهم الخوف والهيبة. وملوك الباطن، سطوتهم الشوق والمحبة. ملوك الظاهر سطوتهم بالسيف القاطع، وملوك الباطن سطوتهم بالنور الساطع. ملوك الظاهر ملكهم على ظواهر الخلق وظواهر الوجود، ومُلوك الباطن ملكهم على غيب النفوس وغَيْب الوجود. مُلوك الظاهر ملكهم على الفرْق بالخلق، وملوك الباطن ملكهم على الجمع بالحقّ. مُلوك الظاهر مُلكهم كن باللسان كَانَ، وملوك الباطن مكلهم كُنْ بالاهتمام كانَ. ملوك الظاهر مكلهم بالعلويات، وملوك الباطن ملكهم بالسفليات. ولا شك أنَّ الرياح السفليات جعلها الله تعالى حاكمة على الرياح العلويات. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القَصَص: الآيتان 5،6] .

[راحة الخصوص وتعب العوام]

وأيضاً: العوامّ يجدون التعب في تجلّي الذات، ويجدون الراحة في تجلّي الصفات. والخاصة بالعكس، لا يجدون الراحة إلاّ في تجلّي الذّات، ولا يجدون التعب إلاّ في تجلّي الصفات. وخاصة الخاصة استوت راحتهم في الحالتين معاً، راحتهم في الذات كراحتهم في الصفات، وراحتهم في الصفات كراحتهم في الذّات. وذلك لأنَّ شهودهم للحق في الأحوال كلها، فلذلك استوت عندهم الأحوال وأضدادها جلالها وجمالها، علويها وسُفليها، أكبرها وأصغرها، أحلاها وأمَرّها، أرفعها وأوضَعها، طَعْم الشَّهْد وعروق الدِّفلة واحد.

[شَرُّ النفس مع خير الفلس]

وأيضاً: اعلم أنَّ من حِكمته تعالى، أن جعل خير النفس مع شرّ الفِلْس لا يفترقان. كما جعل شر النفس مع خير الفلس لا يفترقان. يعني جمال النفس مع جلال الفلس مقروناً. جمال النفس هو وجودها بصحتها، وجلال الفلس تعذره بعدم وجوده. وكذلك جمال النفس لصحته بوجوده وجلال النفس هو تعذّرها بعدم صحتها. ومن أراد أن يجمع بين خير النفس وخير الفِلْس فإنه لا يقدر على ذلك؛ لأنه أراد أن يُبَدل سنّة الله في خلقه خلاف ما أراد الله تعالى فيهم. وكذلك من أراد أن يجمع بين شر النفس وشرّ الفِلْس فإنه لا يقدر. قال ابن عطاء الله في الحِكم: ما ترك من الجهل شيئاً

من أراد أن يُظهِر في الوقت غير ما أراده الله تعالى فيه.

[الذُلُّ شرط في الخصوصية]

اعلم أنَّ الذلّ شرطٍ في حق من أراد الخصوصية، سواء كانت خصوصية الظاهر أو خصوصية الباطن. لأنَّ الخصوصية عِزٌ ولا شكَّ أن مفتاح العِزِّ هو الذل. كما أن مفتاح الذل هو العز. من أراد أن يكتسب عزّاً فوق عزّ العامة فليكتسب ذُلاً تحت ذُلّ العامّة، وعلى قدر نزول الذي يكون طلوع العز كثرت أو قلّت. أهل الظواهر ذُلُّهم بالأقوال دون الأفعال، حصل لهم به العزُّ بالأقوال دون الأفعال. لأجل ذلك صاروا أهل صفات. وأهل الباطن بالعكس ذُلُّهم بالأفعال دون الأقوالِ، حصل لهم به العز بالفعل لا بالقول. لأجل ذلك صاروا أهل ذاتٍ، كما قال القائل: ثمَار ما قد غَرَسْت تَجْني. وهذه عادة الزمانِ. والذلّ لا يُفارق العزَّ كما أن العز لا يفارق الذلّ وهما مجتمعان في الإنسان أبداً إلاَّ أنه تارة يتجلّى العز في الإنسان ظاهراً فيكون حينئذ فيه الذلّ باطِناً، وتارة بالعكس، يتجلّى الذل في الإنسان ظاهراً فيكون فيه العزّ باطناً، هكذا جرت سنة الله في خلقه. عرفها العارفون رضي الله عنهم وساروا فيها على بصيرةٍ وعلمٍ فازوا بثمارها وأنوارها، وجَهِلها الجاهلون عفا الله عنا وعنهم، فساروا فيها على عَمى وجَهْل فبذلك فاتتهم أنوارها وثمارها. والأنوار: أنوار العلم، والثمار: ثمار العمل به. قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُمَر: الآية 9]. وقال جلَّ من قائل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية 28]. قال الشاعر:

تَذَلَّل لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الهَوَى سَهْلٌ ... إذَا رَضِيَ المَحبُوبُ صَحَّ لكَ الوَصْلُ
تَذَلَّلْ له تَحْظَى بِرُؤيا جَمَالِهِ ... وفِي وجْهِ مَنْ تَهْوَى الفَرَائِضُ والنَّفْلُ

وقال آخر:

إذَا أَنْتَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى الذُلِّ في الهَوَى ... تُفَارِقُ مَنْ تَهْوى وأنْفُكَ راغِمُ

[سَيّد أقرانه]

وأيضاً: من أراد أن يكون هو سيد أقرانِهِ، فليكن أقلَّ أقرانه يجد نفسه هو سيد أقرانِهِ، لكن بمرافقة أهل فنّه. ومن اشتغل بقوتِ القَالب أي الذات، قاتل قوت الرُوح، والقلب بمشاهدة الرَّبّ في حضرة الوصل والقرب. صاحب الحقيقة مقطوع غريبٌ لكنه بغربته وانقطاعِهِ مَلك البعيد والقريب. وكثير الأعداءِ هو كثير الأحباب، والبعيد هو القريب، وأين عظم الخسران والرزاية كمثل الربح وعظمة العناية، وأين سَعُرت النيران

وزخرف الجنان، ولا تجد الرقيب إلاً بلصق الحبيب، ومن وُقِي هَمٌ المَعاش عاشَ، لأنٌ أكثر الناس ما شغلهم عن شهودِ الحق والفعل بالحق إلاً خوف الخلق أو الاهتمام بالرزق.

قُـلْ لِـلّـذِيـنَ رأَوْا ما يُـنْـكِـرُون فِـيـنَـا لِـصَـفَـاءِ شُـرْبِـنا رأَوْا صِـفـاتـهـم فِـيـنَـا

واعلم: أنّ الذلّ مِنَ الفقر بمنزلة الجير من البنيان، إذا لم يكن جيرٌ فلا بنيان، ولو رأيت البنيان في غاية الحسْنِ والإتقان كذلك الفقر إذا لم يدخل صاحبه إليه من باب الذلّ فلا فَقْرَ، ولو رأيته في غاية الحسْنِ والإتقان. مقام العامة إنكارٌ بالظاهر وبالباطن وإقرار بالظاهر وبالباطن. ومقام الخاصة إقرار بالظاهر وبالباطن ولا إنكار لا بظاهر ولا باطِنٍ. ومقام خاصّة الخاصة إقرار بالباطن لكل شيءٍ، وبالظاهر إقرار شيءٍ وإنكار شيء. صار العامة يقرُّون ويُنكرون، والخاصة يقرُّون ولا ينكرون، وخاصة الخاصة يقرُّون ببواطنهم كل شيءٍ، وبظواهرهم يُقرّون شيئاً ويُنكرون شيئاً، كما قلنا.

[الخصوصية عل ست فرق]

وأيضاً: اعلم أنّ أهل الخصوصية على ست فِرَق، وأشرفهم الفرقة السادِسة لأنها مَرْتبة المُلك والتمكين بالله.

الفرقة الأولى: أهل العلم الظاهر.

والفرقة الثانية: أهل العمل الظاهر.

والثالثة: الجامعون بين علم الظاهر وعمل الظاهر.

والرابعة: أهل علم الباطِنِ.

والسادسة: الجامعون بين علم الباطن وعمل الباطن. وهذه الفرقة السادسة هم أهل التصرف بالمغيبات في الظواهر كلها، وأمرك بأمر الله إن قلت: كن يكون.

[الذل الظاهري الحسي . . وصحبة العالم والجاهل وأيهما أفضل]

وأيضاً: اعلم أنّ الذلّ هو الذل الظاهري الحسي. وأما الذل المعنوي الباطني فلا يُسمَّى ذُلاً، وإنما يُسمَّى عدم الرضى عن النفس. كما أن العزّ هو العز الظاهري الحسي، وأما العزُّ المعنوي الباطني فلا يسمَّى عِزّاً وإنما يُسمى بالرضى عن النفس. وصاحب الذل الظاهري أرفع من صاحب الذلّ الباطني بدرجات. كما أن صاحب العزّ الباطني أرفَعُ وأحسن من صاحب العزّ الظاهري بدرجاتٍ. لهذا المعنى قال صاحب

الحِكَم: لأنْ تَصْحَب جاهِلاً لا يَرضَى عن نفسه، أفضل من أن تَصْحَب عالِماً يَرْضَى عن نفسه، أيُّ عِلْم لعالم يرضى عن نفسه وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه. على هذا القياس صار الذي كان جهله في ظاهره وعلمه في باطنه هو العالم حقاً والعَالِم الذي علمه في ظاهره وجهله في باطنه هو الجاهل حقاً، وذلك لأنَّ العلم أصله معنوي باطني. لأجل ذلك من كان علمه في باطنه فهو العالم حقاً. والجهل أصله حسّي ظاهري، ولأجل ذلك: مَنْ علمه في ظاهره، وهو راضٍ عن نفسه، فهو الجاهل حقاً.

[الفناء بالعلم والفناء بالعمل]

الفناء على وجْهَين: فناء بالعلم، وفناء بالعمل. واحِدٌ يَتَرَدّف الآخر. مِن الفقراء مَنْ يفنى أولاً بالعلم، ثم بعد ذلك يفنى بالعمل. ومنهم من يفنى أوّلاً بالعمل ثم بعد ذلك يفنى بالعلم. الفاني بالعلم قبل العمل يقول ولا يفعل، والفاني بالعمل قبل العلم يفعل ولا يقول. والفاني بالوجهين معاً جامع لأوصاف الفناءِ: يقول ويفعل، إذا قال فلا مجيب، وإذا فعل فلا معترف. والفناء في الظاهر هو الذلّ الظاهري الحسي. والفناء في الباطن: هو العز الباطني المعنوي، ثم الفناء الظاهري وهو الجلال يثمر لك بالبقاء الظاهري وهو الجمال. والبقاء الباطني، وهو الجمال، يثمر لك بالبقاء الباطني وهو الجلال، فإذا صارت ظواهرك جلالاً وبواطنك جمالاً فذلك هو كمال الكمال.

[مفتاح الملك]

وأيضاً: اعلم أنَّ مفتاح الملك هو الذلّ الظاهري، والعزّ الباطني. وكذلك مفتاح المِلك هو الذلّ الباطني والعزُّ الظاهري. مع أن الملك بنفسه هو الذل الظاهري والعز الباطني. الذلّ الظاهري في البدايات خيره قوي عظيمٌ وشرّه قوي عظيمٌ ـ يعني في النهايات ـ، والذل الباطني في البدايات خيره قليل ضعيف وشرّه قليل ضعيف ـ يعني في النهايات ـ وذلك لأنَّ الظاهر كله بدايات كما أن الباطن كله نهايات. ومَنْ عظمت بدايته عظمت نهايته. البدايات مجلّى النهايات والباطن أيضاً كله هِمَمٌ، والنتائج كلها ظواهر، ولا شكَّ أنَّ مَنْ عظمت همَّته فعلى قدر ذلك تعْظم نتائجه. لأجل هذا صار ذلّ الظاهر وعزّ الباطن هو مفتاح الملك ـ يعني في النهايات ـ لأنَّ البدايات أصُول.

قال في الحِكَم: إنَّما حُرموا الوصول لتضييعهم الأصول. وقال أيضاً: مَنْ أشرقت بدايته أشرقت نهايته.

وكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدل على أن صلاح الظواهر يعْظم

على قدر صلاح البواطن. وفساد الظواهر يعظم على قدر فساد البواطِنِ. وقولك: مَنْ أشرقت بدايته أشرقت نهايته، يعني من عظمت همَّة باطنه أي وُفِّقَتْ وكبُرت وعزَّت وحقرَت أحوال ظواهره، أي خفضت وصُغّرت وذُلّت، ينعكس الأمر عَلى قدرِ ذلك، أي على قدر ذلِّ الظاهر في البدايات يكون عزّ الظاهر في النهايات، وعلى قدر عزّ الباطن في البدايات يكون ذلّ الباطن في النهايات. فهذه مرتبة الملك. وضدّ هذه المرتبة هي مرتبة الملك، أي من حقرت همَّة باطنه وخفضت وصُغّرت وذُلّت، يعني في البدايات، رفعت أحوال ظاهره وعظمت وكبرَتْ. ينعكس الأمر على قدر ذلك في النهايات أي على قدر ذل الباطن يكون عِزّ الباطن وعلى قدر عز الظاهر يكون ذلّ الظاهر. فهذه مرتبة المِلك، وشتّان بين المَالِك والمملوك، صارت البواطن أصول والظواهر فروع والأصول أشجار والفروع ثمارٌ، ولولا الأصل لم تكن فروعاً ولولا الفروع لم تكن ثماراً.

[التهيّؤ للشغل الأعظم]

أعْظم ما في شغلنا، التهيُّؤ لِشُغْلِنا تسعمائة قسمة وتسعة وتسعون قسمة كلها تَهَيؤ. وقسمة واحدة وهي تمام الألف، هي الشغل بنفسه. صار من لا يتهيّأ له وإن وجد الشغل فلا شغل له، ومن لا شغل له إن وجد التهيُّؤ فالشغل ثابت له، ثبوت الشغل بثبوت التهيّؤ ونفي الشغل بنفي التهيُّؤ. قال بعض العرب: إنَّ في الحرب تسعة وتسعين خدعة وتمام المائة هي أرواح لهم.

[النّكُران وعدمه]

وأيضاً: اعلم أنَّ العارف المحقق يُنْكَرُ على قدر ما يعرض له من جلال وجمال، لأنَّ جمالَه على قدر جلالِهِ، وجلاله على قدر جماله لأنَّ الذات تلُوح من الصفات كما أن الصفات تلوح من الذّات. وكذلك الذات تلوح من الذات، كما أن الصفات تلوح من الصفات. والذات تلوح من بين الذات والصفات كما أن الصفات تلوح من بين الذات والصفات. من أراد أن يعرف الحق حقاً فعليه بعدم النكرانِ فإنه رأس الفتوحاتِ كلها، والخيرات بأجمعها. جرت سنّة الله تعالى في خلقِهِ أن كل من يرى الحق حقاً يجد نفسه بالحق وكل من يرى الحق باطِلاً يجد نفسه باطِلاً، لأنَّ الحق منك يبرز وإليك يعود، كما أنَّ الباطل منك يَبْرُز وإليك يعود. قال الشيخ الششتري رحمه الله:

مِـنّـي عـلـيَّ دارتْ كُـؤوسِـي مِـنْ بَـعْـدِ مَـوْتِـي تَـرَانِـي حَـيْ

وكذلك المعروف كثيراً، هو المنكُور كثيراً، كما أن المنكور قليلاً هو المعروف

قليلاً، والمعروف كثيراً هو المنكور كثيراً، هو الجمع. كما أنَّ المنكور قليلاً والمعروف قليلاً هو الفَرْق والجمع حقيقته ملكاً. والفرق شريعته مِلْكاً ولا في الوجود بأسره إلاَّ حقيقة مُلْكٍ وشريعة مِلك، مع أنَّ الحقيقة هي عين الشريعة والشريعة هي عين الحقيقة. كما قال القائل:

يـا زَيـن الـخـلائـق يـا عـيْـنَ الـحـقـيـقـة

فهذا فيه شعور بأنَّ المُلكَ هو عين المِلكِ، كما أنَّ المِلك هو عين المُلكِ ولا في الوجود إلاَّ الملك «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»[1].

[دعوى الذات والمستشرفون عليها]

وأيضاً: اعلم أنَّ الدَّعوى في أصلها ذات، وهي على قسمين: دعوة أهل مقام الذات، بلسان حالهم، ودعوة المستشرفين على مقام الذات بلسان مقالهم. الأولون راتِعُونَ في الذَّاتِ شغلهم الفِعل عن القول. والفرقة الثانية مستشرفون غير واصلينَ، دفعهم التشوق للدَّعوى بلسانِ المقالِ كما وقع للحلاج، وذلك لأنَّه لما وقف مع الاستشراف وهو في أول مقامات الفناء. وأما من حصل له الفناء بالفعل ففعله يُبْطل قوله، وإذا بطل قوله بطلتِ الدّعوى بلسانِ المقالِ وثبتت بلسان الحالِ. ولا شك أنَّ لسان الحال أفصح من لسان المقال. وأما صاحب الصفات فلا دعوى له لأنه باقٍ في مقام العبودية بخلاف المستشرف على الفناءِ، يعني المدَّعي بلسانِ المقال، والراتع في الفناء المدَّعِي بلسانِ الحالِ، وربما تبرز الدعوى من صاحب الصفات إذا كان مُرَافقاً لصاحب الذات فيؤثر حاله فيها لأنَّ الصحبة هي الخير كله.

ومن الأشياخ من يأمر تلميذه بها اختياراً إذا رآه صادِقاً في طلبه فيها، تجِب عليه وجوباً لكن بشرط مرافقة الشيخ، لأنَّ الشيخ لا يتركه يقف في مقام الدعوى باللسان وإنما يورده إيَّاهُ ويدفعه للذي بعده، لأنَّ الشيخ راحِل به أبداً من مقام إلى الذي بعده، بخلاف المُدَّعي بلا إذْنٍ، ولا بمرافقة عارف فإنه تالفٌ ولو أصاب.

[وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به]

وأيضاً: قال عارف: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به. وقال عارف آخر: وصولك إلى الله وصولك إلى رجل من أولياء الله، والرجل الولي هو من تظنُّ أنه وليٌّ

---

(1) روي هذا الحديث بلفظ: «كان الله ولا شيء غيره، وكان العرش على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق سبع سماوات» الحديث. (المستدرك على الصحيحين، حديث رقم 3307).

فإنك تجده وليّاً. وعلامة ظنّك فيه أنه وليٌّ إيثار علمه على عِلْم نفسك وإيثار عمله على عَمَلِ نَفْسِكَ. ومن جملة إيثار علمه على عِلْم نفسك أنك تأتيه طالب الخصوصية وأنت جاهلٌ بها. ولو قال لك: أنك وصلت مقام الولاية يا فلان بنفس ما وصلت إلينا، لقد صَدَقت يا سيدي وصلتها والحمد لله حقاً مع أنك جاهل بها لا تعرف منها ولو حرفاً واحداً، لكن لمّا سمعتها منه خبراً يصير خبره لك عياناً لاقتدائك بعنايته عن عنايتك، تحكم به وتقطع وتجزع، بل خَبَره أعظم من عيانك لأنَّ تعظيم خَبره على عنايتك هو الشكر له، والشاكر مستوجب الزيادة، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. كما أن تعظيم علمك بنفسك على خبر الشيخ هو عين الكفر به، يعني كُفْرِ النعم مع أنَّ ملاقاة الولي هي أعظم نِعم الدنيا والآخرة، والكافر بالنعم لا شك أنه مستوجب للحرمان. انظر قول بعض الأنبياء عليهم السلام في بعض مناجاته لله إذ قال له: يا رب أين أجِدك؟ قال: تجدني في أول قَدَم.

[قول أبي العباس المرسي. . . وقول سيدي العربي بن عبد الله]

ومن هذا المعنى ما قاله الشيخ أبو العباس المِرْسي في حضور الوجد: والله لو جاءني عربي بَدَوِي يَبُولُ على سَاقِهِ لوصَّلته إلى الله من حِينِهِ.

وسمعت ذات يوم من شيخنا في هذا الفنّ، المِرسي يقول: والله لو جاءني عَرَبي. . . وأعاد القصة. وأنا أقول: والله لو جاءني يهودي أو نِصراني لوصَّلته إلى الله من حينه. وطريقتنا هذه هي الشاذلية المحضة، فيجب على طالبها أن يتأسّى بإمامها، وهو قطب الأقطاب أبي الحسن، حيث اجتمع مع الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش، بعد أن اغتسل وقال: اللهُمَّ إني اغتسَلْت من علمي وعملي حتى لا أمْلِك علماً ولا عملاً إلاَّ ما يردُ عليَّ من هذا الشيخ. ثم تقدَّم إليه، نفعنا الله بهما، فحينئذ كان منه ما كان. فصارت هذه السنّة شرطاً في طالب هذه الطريقة، أن يغتسل من عِلْمه وعمله إن وجد واحداً من أهلها إلاَّ ما يَرِدُ عليه منه، ويقدم عليه. فإذا أثَّر عِلْمَه على علمِهِ، وعَمَلَهُ على عَمَلِهِ بحيث لو سَمِعَ منه المحال انقطع الذي لا يتصور وجوده، لبَنَى عليه، ويصير عرفاً من غير التِفاتٍ. ولو كان الوجود بأسره على خلافِ ذلك، حتى نفسه، بل نفسه أعلم من الوجود بأسره، لأنها معه في جِلده والوجود خارج عن جِلْدِهِ، يترك علم الوجودِ وعلم نفسه ويحكم بعلم الشيخ من غير التفات ولا تَبرُّم. كما قال الشريسي: ولا تعدم مَن قبل اعتقادك أنه مُرَبٌّ ولا أولى بها منه في العَصْرِ. فإن رقيب الالتفات لغيره يقول لمحبوب السراية لا تسري. ومن هنا أخذ كثير من

المريدين، كما قال في الحِكَم: إنما حُرِموا الوصول لتضييعهم الأصُول. وقال سيدي المجذوب نفعنا الله به: لا تحسبْهَا أرْخيص وَكُلْ معشوْق غَالِي. ما تَنْحصِلْ صَابَتْ الصَّيْف، إلاَّ ببَرْدْ اللَّيَالِي. فَلْيَسْتَغْنِ الإنسان بالله، وليسر على منهاج القوم فإنه يَرد إنْ شاء الله مَورِدهم، وبالله التوفيق.

[صاحب الطريقة الشاذلية]

وأيَضاً: صاحب طريقتنا هذه، وهي الشاذلية، يكون أوَّلاً في زَمَنِ البدايات يتلقَّى المَدَدَ من جنسه، وزمن البدايات يدفعه لزمَنِ النهايات، فيصير يتلقى المدد من نفسه، كما يتلقَّاه من جنسه. أولاً: كان يُسْقَى من جهة واحدة، وهي وجهة جِنْسِهِ ـ يعني في زمن البدايات ـ. وثانياً: يصير يسْقى من وجهتين معاً، وجهة نفسه ووجهة جنسه ـ يعني في زمن النهايات ـ إلاَّ أنَّ الجِنْس الذي لا يُسْقى منه في زمَنِ البدايات مشايخه، والجنس الذي يُسْقَى منه في زمن النهايات تلاميذه. ومنهم من يُفْتح له وهو مع أشياخه فيصير تارةً يُسْقى من أشياخه وتارة من نفسه ويأخذ في ذلك زمناً حتى يُعدم شيخه. ومنهم أيضاً من يُفتح له وهو مع شيوخه ثم إنَّه يَمُدُّ فِرْقة مِنَ المُبْتدئِينَ معه، فيصير يُسْقى من ثلاثة أوجهٍ: من وجهَةِ نَفْسِهِ، ومن وِجْهة شيوخه، ومن وجْهة تلامذته. فيعطي لكلِّ واحد من هذه الثلاثة وقتها مخصوصاً بها. وهذه الحالة لا يقدر عليها إلاَّ مُريداً قويّاً صديقاً عارفاً لأنه لا يستوفي بحق شيوخه بالأدب معهم بعد الوصول، إلاَّ من أيَّده الله بالتوفيق.

[مُلْك الوُجُود بسخاءِ النَّفس]

وأيضاً: اعلم أنه من كَرَم الله سبحانه، أنه كما جعل لبعض الوجود ثمناً، وهو الفِلْس، كذلك جعل للوجود كلّه ثمناً، وهو النَّفْسُ. فمهما يدفع الإنسان فِلْسَهُ، يملك به بعض الوجود، ومهما دفع نفسه ملك بها الوجود كله لا محالة، لأنَّ الفلس هو بعض الوجود يُمْلك به بعض الوجودِ، والنفس تعدل الوجود بأسره يملك بها الوجود بأسره. انظر قول الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني:

وَنَفْسُكَ تَحْوِي بالحقيقة كلها أشَرْتُ بِجِدِّ القَوْلِ ما أنا خَادِعُ

من أراد أن يملِكَ بعض الوجود فليسخى بفلسه لجِنْسه، كما أنَّ من أراد أن يملك الوجود بأسره فليسخى بنفسه لربِّه. ولابن الفارض في هذا المعنى:

فَمَنْ لَمْ يَجُدْ في حُبِّ نُعْمَى بِنَفْسِهِ وإنْ جَادَ بالدُّنْيَا إليه انْتَهَى البُخْلُ

[الظاهر بمنزلة المرآة من الباطن]

وأيضاً: اعلم أنَّ الباطن من الظاهر، بمنزلةِ مِزآة مقابلة للإنسان، يعني الظاهر إنسان والباطن مرآة. والمِرآة مقابلة للإنسان، كما أن الإنسان مُقَابل للمرآة. والذي يفعله الظاهر يفعله الباطن من غير زيادة ولا نقصانٍ. من فعل خيراً يُفعل له خيراً ومن فَعل شرّاً يُفعل له شرّاً، ومن عَظَّم عُظِّمَ، ومن حَقَّرَ حُقِّرَ، ومَنْ ضَيَّقَ ضُيِّقَ له، ومن وسَّعَ وُسِّعَ له، ومن أحْسَنَ أُحْسِنَ إليه، ومن أساءَ أُسِيءَ إليه، ومن شَرَّف شُرِّف، ومن أهَانَ أُهِينَ، ومن شَدَّدَ شُدِّدَ له، ومن خَفَّفَ خُفِّفَ له، ومن أقرَّ أُقِرَّ له، ومن أنْكَرَ أُنْكِرَ له، ومن أعْطَى أُعْطِي له، ومن قَتَّرَ قُتِّرَ له، صار ما أُحْرِم أحد من الشيء إلاَّ من أحْرَم نفسه منه، وما أعطى أحداً شيئاً عظيماً أو حقيراً إلاَّ من أعطاه لنفسه. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية 182]، وقال جل من قائلٍ: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محَمَّد: الآية 38] فافهم.

ومشيئة الله هي الأصل، عليها تترتب مشيئة العبد.

[قف على المحال عند فهم عامة الناس؛ وهو ما يسمى بالتجريد عند أهل طريقة الشاذلية]

وأيضاً: اعلم أنَّ طريقتنا هذه جعلها الله بعكس ما تفهمه العقول، وهو المحال عند فهم عامة الناس. لأجل ذلك صاحب هذه الطريقة لا يليق به إلاَّ المحال، في أقواله وفي أفعاله وفي أحواله، ذلك هو عزّهُ وشرفه، وهذه الحالة هي المسماة عند أهل الطريق بالتجريد، وهي عندهم بمنزلة الإكسير الذي قيراط منه يغلب ما بين الخافِقَيْنِ. وحقيقة هذا المحال هو الخروج من العادة بالظاهر، يعني عادة العامة في الأقوال والأحوال والأفعال والمداومة عليها، وغَرْس المحال، لا ينبت إلا بالمُحَال، ولا يثمر إلاَّ بثمر المُحَال، وغرس العادة لا ينبت إلاَّ عادة، ولا يثمر إلا بالعادة، كما قال القائل:

ثمار ما قد غَرَسْتَ تَجْني وهذه عادَة الزَّمانِ

قال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعَام: الآية 139]، وعنه ﷺ: «إنَّ الله يَرْزق العبد على قدر هِمَّتِهِ»[1] الحديث. وقول العامة فيها: أين تُنَزِّل نَفسَك ثم تجِدْها، إذا نزّلت نَفْسك بالخروج عن العادة فيها يمدّك مولاك بها وبها يثمر

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

ثمرك، ولا تَجِدْ نفسك إلاَّ من خاصة الناس. وإذا نزَّلتَ نفسك في عادة العامة بها يمدك مولاك، وبها يثمر ثمرك ولا تجد نفسك إلاَّ من عامة الناس، وهكذا. قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34] ، هذا كله لا يصحّ إلاَّ إذا كان الضمير مُوجّهاً في طلبه لمولاه، وأما إذا كان الضمير ناقضاً في طلبه، يعني طالباً للمخلوق وتخلّق بشيء من هذه الأخلاق، فذلك هي البِدَع بنفسها «وكُلّ بدعَة ضلالة وكلّ ضلالة في النّار»(1) الحديث. وإذا كان الضمير إلى المولى طالباً تجِده في كل شيء، وبكل شيء، ويباح للعبد القريب لمولاه بكلّ شيء.

وما كان لله دامَ واتَّصل وما كان لغير الله انقطع وانْفَصَل

يَرْحم الله القائل:

يا لَيْتَكَ تَحْلُو والحيَاة مَرِيرَةٌ وليْتَكَ تَرْضَى والأَنَامُ غِضَابُ
ولَيْتَ الَّذِي بَيْني وبَيْنَكَ عَامِرٌ وما بَيْنِي وبَيْنَ الأنَامِ خَرَابُ
إذَا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ وكُلّ الذي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

[المريد الصغير مع المريد الكبير السّن]

وأيضاً: صاحب الظاهر لا يَعْقب إلاَّ في الظاهر، وما في الباطن لا عَقِبَ له. والشرائع تجني، والحقائق تقضي، وهكذا.

وأيضاً: مثلُ المُريد المتعلم كالشجرة الصغيرة الرطبة، الرقيق عودها، هي التي تقبل اللَّقمة إذا لقَّمها الجنّان. وأما الشجرة الغليظة الذي عودها لا يَقبل اللَّقمة لا يجيء منها شيء كذلك المريد المتعلم لا يقبل التعلم إلاَّ إذا كان صغيراً رطباً متوجهاً صادِقاً. فإذا كان هكذا فإنه يقبل الزيادة والنقصان، أي يقبل ما يزيد فيه الشيخ وما ينقص منه. وأما إذا كان على ضدِّ هذه الأوصاف، يعني كبر سنُّهُ وغلظت نفسه، واطمأنّتْ بما سَكَن فيها وسكَنَت فيه، فإنها لا تتعلّم أبداً، ومن أراد تعليمها فكمن أراد أن يجني من الشوك العنب.

[أعظم الخِصال]

وأيضاً: اعلم أنَّ خِصْلةً واحدة اجتمع فيها الخير الظَّاهري والخير الباطني وهي

(1) رواه ابن خزيمة، باب صفة خطبة النبي ﷺ. . . ، حديث رقم (1785) [3/ 143] ورواه النسائي في المجتبى، كيف الخطبة، حديث رقم (1578) [3/ 188]. ورواه غيرهما.

عين السرور والبَسْط، ظاهراً وباطناً، وهي الجمع. وخصلة واحدة اجتمع فيها الشرّ الظاهري والشر الباطني وهي عين الهُمُوم والقبْض، ظاهراً وباطناً، وهي الفَرْق. وإذا فتَّشت وحقَّقت، لا تجد عنصر الفرح كله إلاّ الجمع، وعنصر الحزن كله هو الفرق. يرحم الله القائل:

كَانَتْ لِقَلْبِي أهْواء مُفَرّقة فَاسْتَجْمعَتْ مُذْ رأتْكَ العَيْنَ هَوَايَ
فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْت أحْسده وصِرْتُ مَوْلى الوَرَى إذ صِرْتَ مَوْلايَ
تَرَكْتهُ لِلنَّاسِ دينهم ودُنْياهم تشغلاً بِك يا دِيني ودُنْيَايَ

وأيضاً: الجماعة رحمة، والفرقة عذاب. الحديث.

[الجماعة رحمة والفرقة عذاب]

وأيضاً: اعلم أنَّ الجمع مثل الرَّجُلُ، والفرْق مثل المرأة. والله تبارك وتعالى قال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: الآية 34] . وصارت عادة الله في خلقه إذا كان الحكم للرَّجَلِ على المرأة لا بد أن يحضر الخير كله، وإذا كان الحكم للمرأة على الرجل لا خير في الجميع. كذلك إذا كان الحكم للجمع على الفرْق يحْضر الخير كله، عند صاحب هذا الحال، وإذا كان الحكم للفَرْقِ على الجمع فصاحب هذا الحال لا يرى خيراً ولا يجد راحة.

[أحوال الإنسان كأحوال الوجود إذ هو نسخة منه]

وأيضاً: اعلم أنَّ حقيقة أحوال الإنسان كحقيقة أحوال الوجود، وحقيقة أحوال الوجود كحقيقة أحوال الإنسان، حرفاً حرفاً من غير زيادة ولا نقصان. فأحوال الوجود قامت بالأضداد كالشتاء والصيف، نعني به الحرارة والبرودة. كل حالة لا تقوم إلاّ بالأُخرى معها، ولو كانت حالة واحدة لاضمحلّ الوجود. ولكن لا بد أن يكون الحكم لواحدة على الأخرى ولو كانت معها لا تفارقها ولا تقوم إلاّ بها، كما أنَّ في المصيف يكون الحكم للحرارة مع أنَّ البرودة لا تفارقها، ولو كان في المصيف الحرارة من غير برودة لاضمحلّ الوجود ومن هو فيه، وتلاشى بالحرّ. وكما أنَّ في الشتاء يكون الحكم للبرودة، مع أن الحرارة لا تفارقها، ولو كان في الشتاء البرودة من غير الحرارة لاضمحّل الوجود ومن فيه وتلاشى بالبرودة. كذلك الإنسان، كل فصل وكل وقت يكون فيه الحال وضدّه ولكن الحكم للغالِب في الوقت لأنَّ وجود الوجود ما قام واستوى إلاّ بالأشياء وأضدادها أبداً. ولو كان في حال واحد طرفة عين لهلك الوجود

وعدم. كذلك الإنسان، ما قام واستوى وجوده إلاَّ بالأشياء وأضدادها أبداً، ولو كان فيه حال واحد طرفة عين لهلك الإنسان وعدم واضمحلّ، وهكذا. فإنَّ الإنسان، كما قُلنا أولاً، نسخة من الوجود والوجود نسخة من الإنسان.

قيل: إنَّ عِلم النفوس هو العلم الأكبر وعلم الوجود نسخة منه، لأنَّ علم النفوس له الحكم على علم الوجود، ولا حكم لعلم الوجود على علم النفوس. وذلك لمَّا عظَّمه وشرَّفه حيث قال: «لن تَسَعَنِي أرضي ولا سمائي، ويسعني قلب عبدي المؤمن»، هذا هو الدليل على شرفه عليه (. . .).

[اجتماع المراتب في مرتبة واحدة]

وأيضاً: اعلم أنَّ المراتب كلها اجتمع سرّها في مَرْتبة وهي أشرفهم وأعلاهم وأكبرهم وأعظمهم، هو أن يكون باطنك مع الحق حقاً، وظاهرك مع الخلق بالحق، كما قال الشاذلي رحمه الله: الجمع في سِرِّك مشهُود، والفرْق في لسَانِك موجود. لأنك إذا كان ظاهرك مع الخلق وباطنك مع الحق، فإنك حينئذٍ تصفِّي جميع أحوالك من جهة الظاهر لا ينكرونك الخلق ومن جهة الباطن لا واسطة بينك وبين الحق.

[حقيقة الإنسان وحقيقة الوجود]

وأيضاً: حقيقة الإنسان وحقيقة الوجود حكمهما كأنه واحدٌ من غير زيادة ولا نقصان، وإن فتشتهما في الأصل وجدتهما حقيقة واحدة وحكمهما يرجع إلى خمسة أقسام:

أولها: إما أن تكون حرارتهما على قدر برودتهما فهذه منزلة الاعتدال. وإما أن تكون حرارتهما من غير برودتهما. وإمَّا أن تكون برودة من غير حرارة. وإما أن تكون حرارة وبرودة. والحرارة أقوى من البرودة. أو تكون حرارة وبرودة أيضاً، ولكن البرودة أقوى من الحرارة.

أما القسم الأول؛ وهو قسم الاعتدال، وهو الذي ذمَّه الله تعالى في قوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: الآية 143] فزيادة هذا القسم زيادة سفلية.

والقسم الثاني: وهو حرارة من غير بُرودةٍ، زيادة أيضاً سفلية.

والقسم الثالث: برودة من غير حرارة، زيادة أيضاً سفلية.

والقسم الرابع: وهو ترجيح الحرارة عن البرودة، وهو مذهب أهل الباطن، زيادة علوية.

والقسم الخامس: وهو ترجيح البرودة عن الحرارة، هو مذهب أهل الظاهر وزيادته علوية.

أما الثلاثة جرت عادة الله بها في الوجود مَنْزِلة الاعتدال، ومنزلة الترجيح الأول، ومنزلة الترجيح الثاني. وأما منزلة الحرارة فقط ومنزلة البرودة فقط ما وُجِدا في شيء إلاّ عُدِمَ.

[الحيّة مع الغفلة]

وأيضاً: اعلم أنّه قيل: إن الحيَّة تهلك الإنسان إذا فَاهَتْ عليه، وصاحب الغفلة يهلك الإنسان بالتقاءِ بصره ببصره. وقيل: إنَّ صاحب الجذام يُعادي الإنسان وبينهما طول رُمْحٍ. وصاحب الغفلة يعادي الإنسان وبينهما قدر ما يُمَيِّزُ الرجلُ من المرأة.

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الباطِنِ، لماذا خُصَّ بتسمية الباطن مع أن الباطن لا يقوم إلاّ بالظاهر. وصاحب الظاهر، لماذا خُصَّ بتسمية الظاهر مع أنَّ الظاهر لا يقوم إلاّ بالباطِنِ. وذلك لأن صاحب الباطن مشتغل بالله بباطنه وهو قلبُهُ ومشتغل بالمخلوق بظواهره وهي نفسه، وصاحب الظاهر مشتغل بالله بظواهره وهي جوارحه ومشتغل بنفسه ببواطنه وهو قلبه. وشتَّان بين مَن تفرّد قلبه وظواهره خرابٌ، وبين مَنِ اشتغلت ظواهره بالله وقلبه خرابٌ. «ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَت صَلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألاَ وهي القَلْبُ»[1] الحديث.

وأيضاً: اعلم أن المتكَلِّم بالله ينفد كلامه في الحين، والمتكلم لله ينفد كلامه بعد حينٍ، والمتكلِّم بنفسه كلامه مَرْدود لا ينفُذُ أبداً.

وأيضاً: ومما سمعت من الشيخ رضي الله عنه ورحمه يقول: قال بعض العارفين: لو أتاني عربي بدوي يَبُول على ساقيه لوصلته إلى الله من حينه. وأنا أقول: لو أتاني يهودي أو نصراني لوصَّلته إلى الله من حينه. سمعت هذا منه في حالٍ عظيم وَرَدَ عليه.

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب السلوك، أعني المريد، أول مرتبة تحصل له: إقبال الخلق عليه، وهي أكبر المصائب والبلايا، وأول ما يرد على صاحب الجذب في

(1) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه رقم (52)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم [107ـ (1599)] ورواه غيرهما.

بدايته: إنكار الخلق له بأجمعهم حتى يفرَّ منه القريب والبعيد، وهذه أيضاً من أكبر المصائب وأعظم البلايا. «حُفت الجنّة بالمكَارِهِ»[1] الحديث.

[الولي إذا امتحت إرادته]

وأيضاً: اعلم أنَّ الولي إذا امتَحَتْ إرادته، بحيث يصير لا إرادة له إلاَّ ما يبْرُزُ في الوقت، فإذا اطمأنَّ الولي في هذا الحال، فإنه يصير هو كلمة الله التي لا نفاد لها، وهو اسم الله العظيم الأعظم، ويصير يقول للشيء كُنْ فيكون. إنَّه ما اهتَّم بشيْءٍ إلاَّ وجد بين يديه بأمر الله تعالى.

وأيضاً: لا تحصل للفقير ثمرة العلم حتى تكون شريعته وحقيقته شيئاً واحداً، كما كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يحجبهم جمع على فَرْقٍ ولا يحجبهم فرْق على جمعٍ.

[الأجر على قدر المشقة]

وأيضاً: اعلم أنَّ الأجْرَ على قدْر المشقة، من ذلَّ نفسه ظاهراً، جهرة عياناً، أعني من المتوجهين لله، يفتَح عليه كذلك فتحاً ظاهراً جهرَة عياناً، ومن ذلَّ نفسه باطناً خفية لا يُفتح عليه إلاَّ كذلك باطناً خفية. كما أن الأسد لا يلد إلاَّ الأسد والذِّئب لا يَلد إلاَّ الذِّئب. كما أن أهل الظاهر عندهم ذلّ النفوس خفية، كذلك لا يحصل لهم عزّ النفوس إلاَّ خفية. وأهل الباطن عندهم ذل النفوس جهرة كذلك عز النفوس لا يحصل لهم إلاَّ جهرة. وشتان ما بين الفرقة الأولى والثانية. وشرف باطِنِ الإنسان على ظاهره كشرف السماء على الأرض.

[ضمان المعيشة]

وأيضاً: ومما سمعت من سيدي العربي، نفعنا الله به، وبكلامه، يقول: من يضمن لي معيشته من دنياهُ، أضمن له الوصول إلى جميع المقامات. كما قال بعض العارفين، نفعنا الله به:

إلّي مَتْهَنّا ما يَخْشَى الغِنَا يشرب يتهنّا يُمْسِي من السباق

ومن كلام العوام: الهنا ضمْن الغنَا.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة. . .، حديث رقم [1ـ (2822)]، ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من ذمه نفسه عن شهواتها. . . حديث رقم (716) [ج 2 ص 492] ورواه غيرهما.

[صاحب الظاهر لا طاقة له بشغل الباطن]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الباطن لا طاقة له بشغل الظاهر، لا شغل العادة، ولا شغل العبادة، إلاَّ القليل. وإذا اضطر لفعله لا مزية تحصل له فيه، كما أن صاحب الظاهر لا طاقة له بشغل الباطن، لا شغل العادة ولا شغل العبادة، إلاَّ القليل، وإذا ألجأه الحال لفعله لا يحصل فيه على شيءٍ.

وأيضاً: اعلم أنك ما تهيّأت لشيءٍ، إلاَّ تهيأ لك ذلك الشيء، كان ظاهراً أو باطناً، ولا طلبت شيئاً إلاَّ طلبك، ولا نكرت شيئاً إلا نكرك، ولا أقبلت على شيء إلاَّ أقبل عليك، ولا أعرضت عن شيء إلاَّ أعرض عنك، ولا أحببت شيئاً إلاَّ أحبَّك، ولا كرهت شيئاً إلاَّ كرِهكَ هو. وحاصله: الوجود مثل المرآة، ما قابلته بشيءٍ إلاَّ قابلك به، وأين ما طرحت نفسك ثَمَّ تجدها، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ [إبراهيم: الآية 34]، وعنه ﷺ: «إنَّ الله يرْزق العبد على قَدْرِ هِمَّتِهِ»[1]، أو كما قال: النفس مثل النحلة، البلدة التي رتعت فيها من طعمها تتعشّى وبه تروح في مخلبها إلى جناحيها.

وأيضاً: اعلم أنه جرت عادة الله أنَّ ما يجمعك في الظاهر يفرقك في الباطن وبالعكس، أعني الإثبات في الظاهر هو النفي في الباطن، والنفي في الظاهر هو الإثبات في الباطن: «ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسَد الجسد كله، ألا وهي القلب»[2] الحديث.

وأيضاً: من حكمة الله تعالى أن جعل الجمع لا يزال يمدّ الفرق شيئاً فشيئاً، حتى يصير الفرق كله جمعاً، وجعل للجمع الحكم على الفَرْق، كما جعل الحكم للفرق على الجمع، لا يعلم حكمهما من الرجال إلاَّ من استوى عنده فرقه وجمعه، أي استويا فيه فِعلاً لا قولاً، أي جمعه لا يحجبه عن فرقه وفرقه لا يحجبه عن جمعه، وقليل ما هم. وعامة مَنِ استوى فيه الجمع والفرق هو الذي يقول بأمر مولاه للشيء كن فيكون.

[عزّ الظاهر لا يخرج إلاَّ من ذلّ الباطن]

وأيضاً: اعلم باختصار، أنَّ عِزَّ الظاهر لا يخرج إلاَّ من ذلّ الباطن، وعزّ الباطن لا يخرج إلاَّ من ذلّ الظاهر. واشتغالك بالشيء ومباشرتك إياه هي التي تمكنك منه من غير مِنَّة

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

لأحد عليك لأنَّ حياة الشيء هي مباشرته بالدوام، وموت الشيء هو الاشتغال بغيره.

وأيضاً: أنك إذا كنت عبداً لمولاك لا تجد في الوجود أحداً أصدق من نفسك، ولا لك حبيبٌ مثلها، ولا لك خيراً إلاَّ خَيْرها.

كما أنك إذا كنت عبداً للمخلوق لا تجد أحداً أعدى عندك من نَفْسِك، ولا تَجِد شيئاً مبغوضاً عندك مثلها، لأنه لا يصل لك شرّ إلاَّ منها، ولكن كلُّ ما يجمعك على نفسك يفرقك عن جِنْسِك، وكل ما يجمعك على جنسِك يفرقك مع نفسك، جرت عادة الله بهذا الاختلاف، وهو أحكم الحاكمين.

ومن كلام العامَّة: إكْره نفسك يحبك الناس، وحبَّ نفسك يكرهك الناس. ومحبة نفسك المحبة الكاملة لا تحصل لك حتى تعرفَهَا، ومن عرف نفسه عرف ربّه. وإذا حصلت لك معرفة ربِّك تُنْكَرُ عند الناس أولاً كلهم حتى لا يبقى لك حبيبٌ إلاَّ مولاك أو من هو منسوب إلى مولاك. وكذلك جرت عادة الله في خاصة عبادِهِ. وذلك إخباراً من الحق لعبده: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العَنكبوت: الآية 2] الآية. ثم يعقب ذلك الحال حالٌ ضدُّهُ يحبك فيه أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع من الجنّ والإنس والطيور والهوام والملائكة والأحياء والأموات والجمادات والحيوانات والنباتات، إلاَّ مَن أعمى الله بصيرته، وسبقت له الشقاوة ولم يكن له نصيب من نور الإيمان، والعياذ بالله، وبعد يحبونك بأجمعهم تصير الأكوان كلها خدَّام لك، عند أمرك ونهيك، وذلك لمَّا كنت عبداً لمولاك حقاً تكون الأكوان عبيداً لك حقاً بأمر الله تعالى. جعلنا الله وإيَّاكم من السَّالكين على هذا المنهج القويم بفضله وإحسانه إنه على كل شيء قديرٌ.

ومما قال لي الشيخ رضي الله عنه، قال: اتبع أعلام السلطان ولا تنظر إلاَّ فيه وفي مولاه، وأين ما قال قُلْ، وأين ما توجَّه توجه، ولا عليك فيما قيل وقال، على أيّ جهة كان، وإن شئت قلت: ألا وهو القلب، فهو منزل الرّبِّ وما يليه أي من مملكته، أي الجوارح، رحم الله التستري حيث يقول في بعض كلامه: وأنا معي بَذْر الكَمالِ حيث يميل قلبي يميلُ.

[الفقير الصادق والكلام]

وأيضاً: الفقير الصادق، الكلام محرَّم عليه، إلاَّ على فنّه، مع أهل فنِّهِ. لا يتكلم إلاَّ كلمة أو كلمتين أو ثلاثة رخص له فيها بعد الاضطرار الكثير وإن لم يضطرّ فالكلام عليه حرام مع غير أهل فنّه على غير فنِّهِ.

[سرّ الخصوصية كله اجتمع في الكتْم بها]

وأيضاً: اعلم أنَّ سرَّ الخصوصية كله اجتمع في الضمير والنظرة فيها، عرفه من عرفه فظفر به وبها، وجهله من جهله فحُرِمَ منه.

قيل: إنما حُرِموا الوصول لتضييعهم الأصول، وذلك أنك ما نظرت في الوجود كله بالكمال إلاَّ نظر الوجود كله فيك بالكمال، وما نظرت في الوجود كله بالنقصِ إلاَّ نظر الوجود كله فيك بالنقص. وكذلك إذا نظرت في بعضه بالكمال ونظرت في بعضه بالنقص فإن بعضه ينظر فيك بالكمال وبعضه بالنقص. وإذا نظرت الوجود كله كامِلاً تجده كاملاً، وإذا نظرت الوجود كله ناقصاً لا تجده إلاَّ ناقصاً. وما توجهت لشيءٍ في الوجود طالباً له بالصِّدق إلاَّ توجَّه ذلك الشيء لك طالباً لك بالصدق. وكذلك إذا توجهت له كاذباً في طلبك كذلك يتوجه إليك هو كاذباً في طلبك. وما أحببت شيئاً إلاَّ أحبَّك وما أبغضت شيئاً إلاَّ أبغضك، وما تقرَّبْت لشيء إلا تقرَّب إليك، وما ابتعدت عن شيء إلاَّ أُبْعد منك لأنَّ الوجود مثل المِرآة ما أقبلت عليه بشيء إلاَّ أقبل عليك بمثله حرْفاً حرفاً وذلك لأنَّ الوجود منك وأنت منه كلما فعلته معه مع نفسك فعلت، وما أكرمت إلاَّ أُكْرِمْت، وما أخرمت إلاَّ أُخرمت. شاهده في القرآن: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمّد: الآية 38]. وقال بعض أهل الكلام في هذا المعنى:

ثِـمَـارَ مـا قَـدْ غَـرَسْـتَ تَـجْـنـي وهَـــذِهِ عـــادَةَ الـــزَّمَـــانِ
مَـنْ بَـاتَ مِـنْـهُ الـوَرَى فـي أمْـنِ بَـاتَ مِـنَ الـدَّهْـرِ فـي الأمَـانِ
خُـذُوا الـحَـدِيـثَ الـصَّـحِـيـحَ عَـنِّي بِـمَـا يُـؤْذِي الـفَـتَـى يُـدانِ

[الله واحد وفضله كبير مُتَّسِع ولكن تتفاوت فيه رتب الخلق]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى واحدٌ، وفضله كبير متسع، لا يعرف حدّه إلاَّ هو، ولكن تتفاوت فيه رُتَب الخلق على قَدْر هِمَمهم في حكم أهل الباطن. إنك إذا أنزلت نفسك في مقامٍ لا تجدها إلاَّ فيه، والمقامات متفاوتة، من أسفل سافلين إلى أعْلى عليين، ارفع نفسك ما شئت أو ضَعْهَا، المقامُ الذي ترفع همتك فيه يُقرّبك مولاك فيه، وفيه يُنْزِلك الخلق، وبه تُعْرف عند أهل الملكوتِ العلوي والسُفلي، «إن الله يرزق العبد على قدر هِمَّته»[1] الحديث. وكل مقام نزَّلت نفسك فيه لا بد أن يظهر عليك أثره ولا يمدّك مولاك إلاَّ منه وبه من مقام الحرية إلى مقام العبودية، ومن كلام العامّة أنت

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

تنزّل نفسك ثم تجدها. هذا في الباطن، وأما في الظاهر بالعكس، مقام الحرية كامنٌ في مقام العبودية وكذلك مقام العبودية كامِنٌ في مقام الحرية، أعني العزُ كامِنٌ في الذُّلّ كما أنَّ الذل كامِنٌ في العزِّ. هذا حكم الظاهر والأشياء كلها في أضدادها.

[الوجود فيك بمنزلة أعضائك]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى جعل الوجود منك بمنزلة أعضائك، لك الحكم والسلطان عليها ولا حكم لها عليك، هذا إن كنت لك فإنه يكون لك كل شيء، وإذا كنت به كان بك كل شيء.

[أهل الطريقة لا يحصلون عليها إلا بالعودة إليها بعد الغلبة]

وأيضاً: اعلم أنَّ طريقتنا هذه لا يحصل عليها إلاّ من يكون عنده العشق حراماً يغلب ويعود، ولا يعشق. يرحم الله الششتري حيث يقول في بعض كلامِهِ:

اغْلِبْها بالرّجلا والتّيارَا تَعُدْ تخاف مِنك يا زَعيمُ

هذه بعض علامات صاحب هذه الطريق، أي طالبها. وهذا كله إشارة لصدق الطلب، ومهما صَدَق الإنسان في طلبه لشيءٍ يمدّه الله في الحين من غير تراخٍ، لأنَّ التراخي محال من قِبَلِ المولَى، وإنما يأتي من قبل الإنسان، أي من عَدَم صِدْقه في طلبه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية 34] (. . .).

[الولي لا يكمل إلاّ إذا زهد في ولايته]

وأيضاً: لا يكون الولي وليّاً حتى يزهد في ولايته. نظيره جواب بعض المشايخ إذ أجاب تلميذه حين سأله قائلاً له: يا سيدي، متى يكون الوصول؟ فقال له: يكون الوصول إذا لم تكن طالباً للوصول لأنَّ سِرَّ الظاهر لا يجتمع مع سر الباطن أبداً وسِرُّ الباطن لا يجتمع مع سر الظاهر أبداً، مع أنهما مجتمعان أبداً. وسر الباطن لا يجتمع مع سِرّ الظاهر أبداً مع أنهما مجتمعان أبداً. ولو افترقا لبطل وجود الإنسان. ولكن المعنى في ذلك، واحد يكون مَلِكاً والآخر يكون مملوكاً، إذا كان الظاهر مَلِكاً يكون الباطن مملوكاً وإذا كان الباطن مَلِكاً يكون الظاهر مملوكاً، والحكم للمَالِكِ لا للمملوك.

[الكامل من صاحب الحقائق]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الحقائق إذا انتهى وكَمُلت حقائقه، تصير عنده الشرائع

مثل الماءِ البارد للعطشانِ في زَمَنِ المصيف، فإذا حصلت له هذه المرتبة يكون من أهل مقام «أرِحْنَا بِهَا يا بِلاَلُ». والكامل في الحقائق حتماً لا يكون إلاّ كاشِفاً للشرائع مُشْتاقاً لها ولأهلها.

وأيضاً: ومن جملة كمال هذه الخمرة الربانية أن ظهرت بالكمال في النّقص. والكمال من ذلك أن كمل ظهورها في جهلها حتى جَهِل جهلها عِلْمُها، ولم يبق للعلم مع الجهل أثرٌ. أعني في حال تجلّيه. وكما كمل ظهورها في عِلْمِها حتى عَلِم عِلْمُها جَهْلَهَا، ولم يبق للجهل مع العلم أثرٌ، أعني في حال تجلّيه، هذه بعض إشارة وصفها في الظهور في الأشياء وفي أضدادها، أعني مِن قدرة وعَجْز وقوة وضعْفٍ وذُلٍّ وعِز، وفقر وغناء، إلى ما لا نهاية له. جعلنا الله من المهتمين بِشُرْبِها، السّاكرين بحبِّها. يرحم الله القائل:

وَلَوْ شَمَّهَا الأمْوات عَادَتْ نفوسُهُمْ لأجْسَامِهَا بَعْد افتِراقٍ ومَغْزِلِ

صار من حصل على جهلها جَهِل علمَهَا، ومن حصل على عِلمها عَلِم جهلها. من هذا الباب هَلَكَ من هلك ونَجَا من نجى، ومن حصل على جَهْلها فاته عِلْمُها فحمله الجهل على وصفها بما لا يليق بجلالها وجمالها، فكان ذلك هو سبب طرده وهلاكه، والعياذ بالله، ومن حصل على علمها فاته جهلها فحمله العلم على المعرفة والأدب وكمال المحبة فصار لا يصفِها إلاّ بما يليق بجلالها وجمالها، فكان هو سبب نجاته وفلاحه وقربه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية 28]. فسُبحان من قَسَمَ فعدَلَ وأعْطى فتفضّل.

[كل ما خلق جعل منه زوج]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ رحمه الله ونفعنا به: يا ولدي كل مَنْ قال لك شيئاً ورأيته يُعظمه لك فقل له: هذا نصف الشيء وبقيَ نصف آخر. لأنَّ كل ما خلَقَ الله في هذا الوجود جُعل منه زوج، وذلك ليتفرّد هو جل ثناؤه بالوحدانية، ولا يكون واحداً وحده إلاّ هو ثناؤه لا ثاني له ولا ضِدٌ له ولا شَبِيه له ولا نظير له ولا شريك له ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: الآية 18] لا إله إلاّ هو ولا معبود سواهُ.

وأيضاً: اعلم أنه ما اصطحبَتْ له همتان على شيء إلاّ وُجِدَ، وكان من غير مُهْلَة، أعني همّة ظاهرك وهمّة باطنك. همّة باطنك هي علمُك ويقينك وعَزمِكَ. وهمّة ظاهرك هي اصطلاحك وفعلك بما هو في علمك أي فعلك بجوارحك الظاهرية إذا اصطحب مع فعل جوارحك الباطنية فما اصطحب الفِعلان على شيء إلاّ كان، ولو كان

من محالِ المحالِ، لكن انظر المقصود من ذلك، فإذا كان المقصود هو الله، ما كان لله دامَ واتصل. وإذا كان المقصود غير الله، ما كان لغير الله انقطع وانفصل.

قال الشاذلي رحمه الله: وَهَبْ لنا حِكمةَ الحِكمَةِ البالِغَةِ. صار الطلب على زوجٍ: طلب الحكمة وطلب حكمة الحكمة. فطلب الحِكمة: هو طلب المخلوق «تَعِسَ عبد الدّرهم». وطلب حِكمة الحِكمة: هو طلب صدق التوجه لله، في جميع الأشياء. جعلنا الله وإياكم من الصادقين في توجههم لله بفضله وإحسانه إنه على كل شيءٍ قدير وبالإجابة جديرٌ.

[ظهور الله تعالى في الوجود في حقيقتين]

وأيضاً: اعلم أنَّ لله حقيقتين ظهر بهما في هذا الوجود، وهما: العلم والجهل.

العلم به قامت الرُّبوبية، والجهل به قامت العبودية. ومن فضله أن خلق الإنسان وفضّله على سائر الأكوان، وقال له على لسان نبيّه ﷺ: «عبدي خلقت الأشياء من أجلك وخُلِقْتَ من أجلي» الحديث.

ومن جملة فضله عليه، أي على عبده الإنسان: أن جعل له وجهين: وجهة لمَالِكِه، أي للرُّبوبية. ووجهَة لمَمَالِكِه، أي للعبودية. وجعل الإنسان بَرْزخاً بينهما وظهر فيه بكمال الأوصاف. من جهة العلم جعله عالِماً حرّاً، ومن جهة الجهل جعله جاهلاً عبداً. وعلى قدر العلم تعظم الحرية وعلى قدر الجهل تعظم العبودية. وهاتان الحقيقتان لا نهاية لهما لأنَّ العلم حقيقته جمالية والجهل حقيقته جلالية، والجلال والجمال إلى ربّك المنتهى. ومرتبة الإنسان على قَدْرِ رفع همَّتِهِ أو وَضْعها، وترفع همَّة الإنسان على قدر عِلْمِهِ، وتوضع همَّته على قدر جَهْلِهِ، وبالله التوفيق.

[ظهور الذات وبطونها وظهور الصفات وبطونها]

وأيضاً: الذات منها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن. وكذلك الصفات، منها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن. وكل ما هو حسّ فهو ذات، وكل ما هو معنى فهو صفات. وما اجتمعت ذات وصفات في شيء إلا قام بإذن الله تعالى. ولو كان صُمّاً يُظهر للناس محال المحال، ولا يتعطل إلاَّ إذا تعذّر شيء من ذاتِهِ أو من صفاته.

[الخصوصية هب الباب للأذكار وللأفكار]

وأيضاً: اعلم أنَّ باب الخصوصية هي الفناء. والفناء له بابان: الأذكار والأفكار. فهما بابان يُدخل منهما إلى الفناء، فمن أتى من جهة الظاهر لا يدخل إلاَّ من جهة

الأذكار. ومن أتى من جهة الباطن لا يدخل إلاَّ من جهة الأفكار. والأذكار والأفكار عَلَمَانِ: أهل علم الأذكار يتعشقون لعلم الأفكار ولأهله، وأهل علم الأفكار يتعشقون لعلم الأذكار ولأهله. وبالجملة: فكلاهما ذِكْرٌ إلاَّ أنَّ الذِكر الظاهري يقال له ذكر، والذكر القلبي يقال له فكرٌ. والفِكر إنما هو ذِكر قلبي لا يطلع عليه سوى الله، والقلوب لا يعلم ما فيها إلا صانِعها، وهو علاَّم الغيوب. قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العَنكبوت: الآية 45].

وهذا الفِكر له وجهان، فهذا الذي ذكرنا واحدٌ يقال له: فكر النَّفْسِ. والوجه الآخر، يقال له: فكر الجِنْسِ، وهو فكر اثنين أو ثلاثة، وهو أقوى من فكر النفس لأنَّ يَدَ الله مع الجماعة. وبين فكر النفس وفكر الجنس ما بين صلاة الفَرْد مع الجماعة، وهذا إذا وُجِد أهل الأفكار، وقليل ما هم.

[حياة الفن رباطه بأهله]

اعلم أنَّ حياة الفنِّ هو رباطه، ورباط الفن هو مجالسته أهله، وموت الفن هو مجالسة غير أهل فنِّه.

[ما خُلقَ جسد الإنسان إلاَّ للروح]

وأيضاً: اعلم أنه ما خلق الله جسد الإنسان إلاَّ لأجل الروح، ومهما غابت الروح هُلِك الجسد وفنى وتلاشى، وكذلك خلق الله الوجود لأجل الإنسان، ولو غاب الإنسان لهلك هذا الوجود وفنى وتلاشى. خلق الله الجسد كرامة للروح، كما خلق هذا الوجود كرامة للإنسان، فضلاً ورحمة منه سبحانه من لا يحصر جوده وكرمه، الكريم المتعال.

[الهِمَّة في المخلوق محصورة]

وأيضاً: الهِمَّة في المخلوق محصورة بحصره، مقيّدة بقيده. والهِمَّة في الخالق لا تُحْصَر ولا تُقيَّد أبداً. لأنَّ الهِمَّة وصفها وصف من نزلت عليه إذا كان محصوراً مقيَّداً تكون هي كذلك وإذا كان لا يُحْصَر ولا يقيَّدُ تكون هي كذلك.

[سوء الأدب مع الشيخ والوالدين]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ رحمه الله ونفعنا به: يا ولدي، ومن أعظم ما يخاف على طالب هذا الفن منه سُوء الأدب مع والديه، ومع شيخه، ومع نفسه، ومع ربِّه. أما مع الوالدين فإنهما يحسنان إليه وهو صغير حتى إذا بلغ مبْلغ الرجال، ورأى

نفسه استوت وكملت من جهة الذات ومن جهة العقل فيحصل له الازدراء والتهاون بالوالدين، فيسيء معهما الأدب، فعند ذلك يأخذه الله أخذاً وبيلاً، وكذلك مع شيخه وذلك أنه يأتي إليه وهو جاهل بالعلم وجاهل بالعمل ثم إنَّ الشيخ يأخذ بيده حتى يوصله مواصل الرجال من العلم والعمل به، فإذا رأى نفسه أنها ظفرت بما ظَفِر به أقرانه، فلا يعجب بنفسه ويستكفي بعقله ويرضى عن نفسه في أحوالها وفي أقوالها وفي أفعالها، وربما يحصل له بذلك الازدراء والتهاون بالشيخ، فذلك هو الكُفر بالنِعم «ومَن لم يشكر الناس لم يشكُرِ الله ومن لم يشكر النِّعم فقد تعرَّض لزوالها» الحديث. فعند ذلك يُؤخذ أخذاً وَبيلاً. وعلامة أخذه: القناعة. والقناعة من الله أو ممَّن يدلك على الله حِرْمان. نسأل الله السلامة.

وكذلك مع نفسه أيضاً، فمن عرف نفسه عرف ربَّهُ، فإذا حصلت له مرتبة من مراتب معرفة النفس، ثم إنه أخذ الأمر على وجهه ولو يتواضع في ذلك الحال لمولاه بكونه يرد نفسه للعبودية مع ما فتح له من معرفة شرفها وعلوّ مرتبتها عند خالقها، إذا كان يجب عليه أن يتبع سنَّة النبي ﷺ في ذلك لقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية 21] أي حين خيَّرَه الله تعالى بأن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبْداً، فاختار العبودية على المُلكِ تواضعاً منه ﷺ مع مولاه. وقال له: «يا ربّ أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً. إذا جُعْت أطلبك وإذا شبِعْت أشكرك». فإن كان من أهل هذا المنهج فذاك، وإلاَّ فهو مخذولٌ، والعياذ بالله.

وكذلك مع الله تبارك وتعالى إذا مَنَّ عليه بما مَنَّ على عبيده المحبوبين العارفين رضي الله عنهم فيجب عليه أن لا يأمن مكر الله، وأن يعظم خوفه على قدر ما يُعظِّم رجاءَهُ، ولو وصل ما وصل. أما ينظر إلى الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به حين اشتكى له تلميذه سيدي أبو الحسن نفعنا الله بالجميع قال له: يا سيدي أصبحت أشكو من حرّ التدبير والاختيار. فقال: يا ولدي كما أصبحت تشكو من حرّ التدبير والاختيار كذلك أصبحت أنا أشكو من بَردِ الرضى والتسليم.

وقوله: أنا أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتى لا يكون لي منجا ولا ملجأ إلاَّ إليك، وقول أبي الحسن الشاذلي: واجعلنا عبيداً لك في جميع الحالات مع شرف مرتبته وعلوّ نصيبه الذي لا ينكر ولا يُحَدّ. هكذا ينبغي للعبد المُؤدَّب أن يكون مع مولاه، لهذا قالوا: اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً.

[العمومية والخصوصية مجموعتان محصورتان في الذكر]

وأيضاً: اعلم أنَّ العمومية والخصوصية مجموعتان محصورتان في الذِّكر، ذكر

العامة فَرْق وذكر الخاصة جمعٌ. ذكر العامة هم فيه على فرقتين: أهل الذكر الظاهري باللسان وأهله محجوبون عن المذكور لأجل ذلك صاروا أعواماً. والفرقة الأخرى، أهل ذكر قلبي معنوي، وهم في غمرات الحجاب والبُعْد والغيبة عن المذكور. وهاتان الفرقتان هما فِرْقتي العامة. وأهل هذا الذِكر القلبي يقال لهم: أهل المراقبة وهم أقوى من أهل الفرقة الأولى، والخاصة نفعنا الله بهم أهل جَمْعٍ، ذكرهم بالمشاهدة والعيان وكل واحد منهم يأخذ منها على قدر مقامه في أحواله، فصار ذكر العامة خبراً وذكر الخاصة عياناً وليس الخبر كالعيان. أهل المراقبة في دائرة الحجاب أخذوا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية 4] وأهل المشاهدة لم يشاهدوا إلاّ المَلِك الوهاب ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91] . غابوا عما سواه ولم يشهدوا إلاّ إيّاه. رزقنا الله محبتهم وجعلنا عبيداً لعبيدهم بفضله وإحسانه لأنّ عبد العبيد أشرف.

وإنما قلنا: إنَّ المشاهدة جمع لأنها تحصل لأهلها بالظواهر والبواطن كلها، وكل شعرة وكل عرْق وكل عضوٍ وكل جارحة تأخذ نصيبها منها. فالحقيقة صاحبها محجوب عن كل ما سوى الحق، حتى عن نفسه، لأنها تسري في بدن صاحبها كَسَرْيِ الماء في بدنِ العطشان. كل شعرة منه تأخذ نصيبها، ولذا قال بعضهم: لو أشرقَ نُور الإيمان لغطَّى وجود الأكوان، ولوَقَعَ العيانُ على فَقْدِ الأعيان.

[الوجود كله على الإرادة]

وأيضاً: اعلم أنَّ الوجود كله سائرٌ على قواعد الإرادة. أي إرادة الحق. ومن إرادة الحق: إرادة عبيده. وإن فتشت الوجود لم تجد فيه عشبة ولا حصاة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، سائراً على غير الإرادة. ولكن تجد الأشياء مستقراً على إرادة فاعلها، أعني الحكيم، سواء كان الحكيم حقيقياً أو مجازياً. ومهما عرضَت إرادة أخرى فإن الأشياء تنقلب على حُكْمِها، سواء كانت هذه الإرادة عرضَتْ من صاحب الإرادة الأولى أو من غيره.

حاصلهُ: الأشياء كلها علوية أو سفلية، سائرة على سير الإرادة، ولا ينقلب حكمها إلاّ إذا أُدخلت عليها إرادة أخرى، فإن تلك الإرادة التي دخلت من أجلها تنقلب الأشياء على حكمها في الحين سواءً كانت إرادة الحكيم الحقيقي أو إرادة الحكيم المجازي، وهو العبد. وفي الحقيقة الكل حق وليس هناك غيره، ألا كل شيء ما خلا الله باطِلُ.

[قف على التجريد حسّاً لا معنى]

وأيضاً: اعلم أنَّ التجريد من الدنيا ظاهراً، حساً لا معنى، لأنَّ التجريد معنىً لا يحصل نفعه حتى يحصل التجريد الحسِّي. وإذا لم يحصل التجريد الحسِّي وإن حصل التجريد المعنوي لا يُعْبأ به، ولا يُلْتفت إليه، ولا يُحكم به، إلا إذا ظهر الحسِّي: «أُمِرْتُ أن أحكم بالظواهر والله يتولى السَّرائر» لأنَّ الظواهر هي التي تثبت وهي التي تفنى، فمن ثبت له شيء في الظاهر فهو ثابت، ومن لم يثبت له شيء فيه فليس بشيءٍ. وإن كان الباطنُ هو أساس الظاهر وعليه يُبْنَى.

[النار الحسية والمعنوية]

وأيضاً: اعلم أنَّ النار الحسية لا تهيج ويكثر وقيدها إلاَّ إذا ألقي فيها ضِدُّها وهو الحطب. فإذا زدتَ منه شيئاً زادت هي إيقاداً واشتعالاً، إذا لم يلق فيها نقَصَت شيئاً فشيئاً حتى تصير رماداً. كذلك النار المعنوية؛ وهي المحبة وحطبها الحسّ فإذا زدت شيئاً من حطب الحسّ في نار المحبة زادت هي وقوداً واشتعالاً حتى تقطع عنها الحطب، فإنها تنقص وتتمرَّدُ حتى لا يوجد لها خبر، فالزيادة باجتماع الشروط والنقص من عدم الشروط.

[حكم حبَّة الخَرْدل هو حكم الحقيقة بأسرها]

وأيضاً: اعلم أنَّ حُكْم حبة الخردل هو حكم الحقيقة بأسرها، وحكم الحقيقة هو حكمُهَا، وكذلك ما بينهما من عوائد. فحكم الحقيقة أنها تارة تقول للإنسان: أنت عبدي وأنا سيدتك، فيصير يخدمها خدمة العبد لسيده أحبَّ أم كره، وتارة تعكس له الأمر تقول له: أنا مملوكتك وأنت سيدي لا أفعل إلاَّ مُرَادك وما تشتهي ولا أسير إلاَّ على أمرك ونَهْيِكَ. فيصير الإنسان مَلِكاً عليها. العبد إن كان مملوكاً لها، وهذا دأبُهُ دائماً، فهذان الأمران يتعاقبان على كل إنسانٍ، عرفه من عَرَفَه مِن الخصوص وجَهِله من جهله من العوام. وهذا القياس تجده في كل من يحبّ شيئاً مهما كملت عبوديته لذلك الشيء، وكَمُلت مِلكية ذلك الشيء له، فينعكس الأمر فيصير ذلك المحبّ مَلِكاً والحبيب الذي كان ملكاً مملوكاً. فمن صبر على المِلكِ حتى توفَّرت الشروط فإن المِلكَ ينعكس مُلكاً، ولذا قال بعضهم: دَعَوْنِي لِمِلكهم فلمَّا أجبْتهُمْ قالوا: دَعَوْنَاك للمُلكِ لا لِلْمِلْكِ. وهذه حكمة الله في الوجود كل من يملكك لا بدَّ أن تمْلكه وكل من تملكه لا بد أن يملِكك.

[أهل الله تعالى في علم ليس أهل الدنيا فيه]

وأيضاً: اعلم أن أهل الله هُم في عِلْم ليس أهل الدنيا فيه، وأهل الدنيا في علم ليس فيه أهل الله. جعلنا الله عبيداً لسادتنا أهل الله، وعبوديتنا تكون منا محبّة وشوقاً لهم لا قَهْراً إذ القهرية حاصلة لكل أحَدٍ.

ومن جُملة ما يجب على مَن طلب محبّة سادتنا ألاَّ يتمَتَّع بنظرة من أهل الدنيا ولا ينظر إلاَّ في أهل فنّه، ولا يمتع سمعه من أهل الدنيا ولا يمتع أهل الدنيا من كلامه، والكلام معهم هو أقبح كل شيءٍ، ولا يشمّ روائحهم ولا يجلس مجالسهم لأنه إذا ترك ما ذكرناه من النظر وما بعده فقد أبطل خلتهم وبِفِعْلها مع أهل الله تصح خلته لهم، وإذا صحت «فالمرءُ على دين خليلِهِ» الحديث. وليس ثم إلاَّ أهل الله، وأهل الدنيا فقط، لا ثالث لهما. فمهما فاتتك رفقة هؤلاء حصلت لك رفقة هؤلاءِ لا زائد. جعلنا الله من رفاق عباده الصالحين العارفين به بفضله وإحسانه آمين.

[بما تقابل به الوجود يقابلك]

وأيضاً: اعلم أنَّ الوجود وأهله كالمِرآة بما تقابلهم بما يُقابلونك، من غير زيادة ولا نقصانٍ. إن قابلتهم بالجد قابلوك به، وإن قابلتهم بالهزل قابلوك به. وبالجمال قابلوك به، وبالجلال قابلوك به، وإن قابلت بعضهم بالجلال وبعضهم بالجمال فالذي تقابله منهم بالجمال يقابلك به، وإن فرّقت فرّقوا، وإن جمعت جمعوا، وإن وسَّعْت وسَّعوا، وإن سَهَّلت سَهَّلوا، وإن أوفيت أوفُوا، وإن خنت خانوا، وإن صدقت صَدَقوا، وإن كذبت كذبوا، وإن جرت جاروا، وإن عدلت عدلوا، وإن تكرَّمت تكرَّموا، وإن بخلت بخلوا، وإن خفتهم خافوك، وإن زعمت زعَمُوا، وإن أحبّبتهم أحبُوك، وإن أبغضتهم أبغضوك، كأنَّ الأمر كله بيدك، منك يخرج وإليك يرجع، خيراً كان أو شرّاً، حلواً كان أو مُرّاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية 49].

يرحم الله الششتري حيث يقول:

مِنِّي عَلَيَّ دَارَتْ كُؤُوسِي ... مِنْ بَعْدِ مَوْتِي تَرَانِي حَيْ

انظر يا أخي هذا الربَّ الكريم، ما أكرمه وما أحلَمه وما أعظمه! وهو غنيّ عن العالمين. سبحان المنزَّه عن عباده بعظَمَتِهِ.

[المِلك والمُلك]

وأيضاً: اعلم أنَّ المِلك لا يكون مُلكاً إلاَّ قبل كماله، ومهما كمل فإنه يصير

مُلْكاً، وكذلك المُلك لا يكون مُلكاً إلاَّ قبل كماله، ومهما كمل فإنه يصير مِلكاً لا مُلكاً، كأنَّ الأشياء كامنة في أضدادِها، المُلكُ في المِلكِ، والمِلكُ في المُلكِ. من عادته تعالى يُخرج الحيَّ من الميت ويخرج الميّت من الحيّ، ويرزق من يشاء بغير حساب.

[اقبض من جل الناس ولا تختار وادفع لجل الناس ولا تختار]

أيضاً: ومما قال لي الشيخ نفعنا الله به: يا ولدي، إذا أردت الحرية أقبض من جُلّ الناس ولا تختار ممّن تقبِض، وادفَع لجلّ الناس ولا تختار لمن تدْفع. فإذا كنت هكذا فإنك تصير حرّاً، فالذين تقول لهم هاتوا لم يملكوك بها، والذين تقول لهم خُذُوا لم يملكوك بها. وإذا خصَّصت أهل هات ودمْت معهم فإنك تصير مملوكاً لهم، وكذلك إذا خصَّصت أهل خُذُوا ودمْت معهم، فإنك تصير عبداً لهم. ومقصودنا كله بالدخول لهذا الفنّ هو الخروج من عبودية المخلوق لعبودية الخالِق، وهو الله تبارك وتعالى. وأمّا إن كنت فررت من الفنون كلها لتكون عبد الله ودخلت لهذا الفنّ لئلاَّ تكون عبداً لعبدٍ، ثم تحصل على عبودية العبيد فلا فائدة في دخولك ولا في خروجك.

[طالب الحقيقة]

وأيضاً: اعلم أنَّ طالب الحقيقة مثل طالب المُلكِ، فإذا كان صادقاً في طَلَبِ مُلكِهِ ودام على ذلك فيصير مَلِكاً على كل حال. فمن لم ينقد اليوم ينقاد غداً ومن لم يطعهُ في هذا الشهر يُطعه في الذي بعده، ومن لم يُطعه في هذه السنة يطعه في التي بعدها. كذلك طالب الحقيقة إذا كان صادقاً في قلبِهِ ما لم يظفر به اليوم يظفر به غداً، وما لم يظفر به هذا الشهر يظفر به في الذي بعده، وما لم يظفر به هذه السنة يظفر به في التي بعدها حتى يملك التصرّف بالحقيقة غائباً وحاضراً، ظاهراً وباطناً، علماً وعملاً.

[علامة الفقير الظاهري والفقير الباطني]

وأيضاً: ومن علامة الفقير الظاهري المتعشِق للباطن، أنك تجده كثيراً ما يتكلَّم على الحقائق والمغيبات. ومن علامة الفقير الباطني المتعشق للظاهر أنَّ أكثر كلامه على الشرائع، أي الخلق، وعلى الظواهر، لأنها من عوائد نفوس الخلق. إنها ما أحبَّت شيئاً إلاَّ أكثرت من ذكره، وما ملكت شيئاً إلاَّ أحبَّت غَيْره. وقد قيل لبعضهم: متى تستريح؟ قال: إذا لم نجد له ذاكراً:

ومِنْ علمه أن ليس يُدْعَى بعالِمٍ ... ومَنْ فقره ألاَّ يُرى يَدَّعي الفَقْرَا
ومَنْ حالُهُ إنْ غابَ شاهد حالَهُ ... فَلاَ يَدَّعِي وَصْلاً ولا يَشْكُو هَجْراً

[قف على مَلْكِ الفرق والجمع]

وأيضاً: إذا أردت أن تَمْلِك الفَرْق فلتكن عندك تسعة أقسام جلالاً، وقسمة جمالاً. وإذا أردت أن تملِك الجمع فلتكن عندك تسعة أقسام جلالاً وقسمة جمالاً. فالأول إذا كانت عنده عشرة أقسام جلالاً ولم تكن عنده تلك القسمة الجمالية، فإنَّ أمره لا يستقيم إلاّ بتلك القسمة. والثاني أيضاً، إذا كانت عنده عشرة أقسام جَمَالاً ولم تكن عنده تلك القسمة من الجلال فإنَّ أمره لا يستقيم إلاّ بتلك القسمة.

[الحقيقة لا تحملها إلاّ الحقيقة]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقيقة لا تحملها إلاّ الحقيقة، أي حقيقة الجمع لا يحملها إلا إذا كان الفرق كاملاً، وإذا حملت الجمع على بعض الفَرْقِ فإن ذلك الجمع يكون في غاية الضيقِ. وذلك الفرق يكون في غاية التعب. وذلك لأنك حملْتَ قوياً على ضعيف. لا تحصل لهما راحة مع بعضهما. وكل ما هو جمع فهو حقيقة وكل ما هو فرْق فهو شريعة.

[أهل الفقر الذين لم يحصلوا على نتائجه، ما السبب؟]

وأيضاً: سمعت من الشيخ، نفعنا الله به، يقول: أهل الفقر الذين لم يُحَصِّلوا على نتائجه أتدري لماذا لم يحصلوا عليها؟ فقلت: لا أدري. فقال لي: مثلهم في ذلك كمثل الحيَّة، من قبض الحية من ذنبها مهما التفتت فيه برأسِهَا لسَعَتْ إلاّ إذا خاف منها فإنه يرميها ويُنَجِّي رأسَه. وأما أهل الفقر الذين حصلوا على نتائجه مثلهم كمثل الذي أخذ الحيَّة من رأسها فهو لا يخاف من ذنَبِهَا ورأسها هو الذلّة والافتقار. ومن عوَّد نفسه عليها حاز نتائج الفقر، ومن لم يعوِّد نفسه عليها لم تحصل له نتائج الفقر، ولو وصل ما وصل. ولا تتعوَّد نفس الإنسان الذُلَّة حتى يصطحب مع أرباب الفنّ، ويكون عبداً لهم، هذا إن ساعده الحال بمُلاقاة أحدٍ منهم، وقليل ما هم.

[مَلك الخلق بالخير أو بالشَّر]

وأيضاً: اعلم أنَّ مَن مَلَك الخلق بالخير فإنَّ مُلكه توسيع على الخلق، وتضييق عليه. ومن ملك الخلق بالشر فإن مُلكه تضييق على الخلق وتوسيع عليه، فطالب المُلكِ يطلبُه مُلكُهُ بما أمكن له فالتي لم يملكها بِخَير، يملكها بشرٍّ، والعكس كما قال الشاعر:

أَيا ربَّةَ القِرْطِ التي سلبَتْ نُسْكِي عَلَى أيِّ حَالَةٍ لا بُدَّ لِي مِنْكِ
فَإِمَّا بِذُلٍّ وهو أَلْيَق بالهَوَى وإمَّا بِعِزٍّ وهو أَلْيَق بالمُلْكِ
فَإِنْ كُنْتِ في بَرٍّ أتيتكِ رُكْبَاناً وإنْ كُنتِ في بَحْرٍ أتَيْنَاكِ بالفُلْكِ

[المُلك لا يقوم إلاَّ بين خير وشر]

وأيضاً: اعلم أنَّ المُلك لا يقوم إلاَّ بين خير وشرّ، فمن لم تملكه بخير لا تملكه إلاَّ بشرّ، ومَن لم تملكه بشرٍّ لا تملكه إلاَّ بخير. وأما كثرة الخير بلا شَرٍّ يصير المَلِك مملوكاً والمملوك مَلِكاً، وكذلك كثرة الشر بلا خَيْر تصيّر المملوكَ مَلِكاً، والمَلِك مملوكاً. وبالاعتدال بينهما يكون المَلِك مَلِكاً والمملوك مملوكاً. وكل من صعبت عليك ملكيته بالشرّ فاجعل الشر خيراً فإنك تملكهُ. وكل من صَعبت عليك ملكيته بالخير فاجعل الخير شراً فإنك تملكه على كل حالٍ. هكذا جرت عادة الله في خلقِهِ سبحان الحكيم العليم.

[تجليات الحس والمعنى ترد على كل إنسان]

وأيضاً: اعلم أنه كما أنَّ تجليات الحسِّ تتوارد على الإنسانِ إلى الأبَدِ، ما لها نهاية ولا نفاد كذلك تجليات المعاني حكمها واحد إلاَّ أنَّ تجليات المعاني علمٌ وخَبَرٌ وتجليات الحسِّ عمَلٌ وعيانٌ. والعلم لا يقوم بغير العمل كما أن العمل لا يقوم بغير العِلمِ. وكما أن الخبر لا يقوم بغير العيان كذلك العيان لا يقوم بغير الخبَر. والذي تجلَّى لك معنىً هو الذي تجلَّى لك حسّاً. والذي تجلَّى لكَ حسّاً هو الذي تجلَّى لك معنىً. الماء واحد والزهر ألوان لكن بين اختلافها أفلح من أفلح وهلك من هلك، كما قال الششتري:

بَيْنَ طلوع ونزول تخبَّلَت الغزولْ أفْنَى مَنْ لَمْ يَبْقَ وأبْقَى مَنْ لَمْ يَزُلْ

سبحان من يرحم بالطاعة كثيراً ويعذب بها إن شاء كثيراً، ويُعذب بالمعصية كثيراً ويرحم بها إن شاء كثيراً. سبحان من لا يتوقف فضله وعدله على عِلَّةٍ. المعطي بلا شيءٍ، المانع بلا شيءٍ، الحكيم، ذو الحكمة البالغة، العليم، الذي وسِعَ كل شيءٍ علماً، سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

[الفكر هو أشرف وجوه العبادات إن وجد]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفِكْرَ هو أشرف وجوه العبادات كلها إذا اجتمَعَ، وأما إذا تفرَّقَ فالعبادة الحسية أولى. قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النِّساء: الآية 43] . وأعظم

ما يفرق به الفِكْر، الجلوس مع العوام، وذلك لأنهم تالِفُون في عوالم الفَرْقِ كلامهم فرق وأفعالهم كلها فَرْق ناشئة عن فَرْقٍ ولا شكَّ أن جليس صاحب الفَرْق مفروق بفَرْقِ جليسه، والعامَّة مثل النساءِ والصِّبْيان والمجانين.

[المتفقرة الجاهلون]

وجهالة المتفقرة هم أقبح من النساء والصبيان والمجانين. والجلوس مع الفقير الجاهل هو للأرواح مثل أكل السمّ الخارق للأشباح، والفقير الجاهل الراضي عن نفسه هو أشدّ بعداً من العامة بأضعاف كثيرة، لأنَّ العامِّي مثل الفخار الجديد يقبَلُ كل ما يُلْقَى فيه، والفقير الجاهل مثل الفخَّار الذي طلِيَ بالقطرانِ لا يقبل الغَسْل ولا يصلح للطيبات.

[متابعة النَّفس فيه ما هو حرامٌ وما وهو واجبٌ؛ ومثلها متابعة الجنس]

وأيضاً: متابعة النفس لها موطنانِ، موطنٌ متابعتها فيه حرامٌ، وموطنٌ متابعة النفس فيه أمر واجب. وكذلك متابعة الجنس لها مَوْطِنان: موطِنٌ متابعة الجنس فيه أمْر واجب، وموطن آخر متابعة الجنس فيه حرامٌ. وتبيين هذا هو أنَّ المريد إذا سلمَت نفسه إسلام الشهود والعيان يجبُ عليه أن يتبع نفسه وجوباً ويحرم عليه متابعة الجنس في هذا المقام. وما دام المريد إسلامه إسلام الدليل والبرهان، يحرم عليه مُتابعة نَفْسِهِ ويجب عليه متابعة جنسه من أهل فنِّه وجوباً. وذلك لأنَّ إسلام العيان هو الذِّكر الأكبرُ، والذكر الأكبر ما حصل لنفسٍ إلاَّ فَنِيَتْ تلك النفس وبقي الحق، صار مَن يتبع نفسه بعد الفناء فقد تَبِعَ الحق، كما أنَّ من تَبِع نفسه قبل الفناء فقد تبع الباطل. قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يُونس: الآية 32].

ومفتاح متابعة النَّفس هو متابعة الجنس، أعني الوسائِطِ، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط. كذلك مفتاح متابعة الجنس لك، أعني المريدين، هو متابعتك لنفسك كما قيل: «مَن لا تَرَبَّى كيف يُرَبِّي» أي من لا حصلت له تصفية نفسه كيف يصفِّي على يده غيره (. . .).

[الخصوصية كلها تعظيم]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخصوصية كلها تعظيم أصولاً وفروعاً. فطالب الخصوصية؛ بالتعظيم في بدء أمرهم عليها تكون بدايتهم وعليها نهايتهم، وإليه تكون نهايتهُمْ. إلاَّ

أنَّ تعظيم البدايات يكون شرعياً مجازياً، وتعظيم النهايات يكون حقيقياً قهرياً. وإن شئت قلت: تعظيم البدايات لأهل الله وتعظيم النهايات لله بلا واسطة. وإن شئت قلت: تعظيم البدايات للطريقة ولأهلها، وتعظيم النهايات للحقيقة بأسرها. وإن شئت قلت: تعظيم البدايات بالنفس للجنس لله من وراء حجاب، وتعظيم النهايات بالله لله بعد فقد سواه وخرق الحجاب.

[أهل الظاهر وأهل الباطن]

وأيضاً: اعلم أنَّ أهل الظواهر وأهل البواطن كلهم أهل شرائع، طالبين للحقائق، أي من المتوجهين لطلب الحق. إلاَّ أنَّ أهل الظواهر شرائعهم جلالية لنفوسهم، جمالية للخلق، وأهل البواطن بالعكس، شرائعهم جمالية لنفوسهم جلالية للخلق، وجرت عادة الله في خلقه أن الحقائق تبرز على وفق الشرائع. كما قال القائل:

ثِمَارَ ما قَدْ غَرَسْتَ تَجْنِي وهَذِهِ عادة الزَّمانِ

كأن الشرائع أُصولٌ وكأنَّ الحقائق فروع، وثمار هذا من كَرَمِهِ تعالى، الذي تفضَّل به على عبده الآدمي وخصَّه بهذه المِزية العُظمى، من دون ما عداه من مخلوقاته تعالى حيث جعل الأمور كلها، أمور النفس وأمور الوجود وما حوى الوجود، لا تبرز إلاَّ على وفقِ إرادة الآدمي: خيراتها وشرّياتها، وإن كانت إرادة الخلق في الحقيقة لا تبرز إلاَّ على وفق إرادة الله بلا شكٌ، ولكن الظواهر اقتضت أن الحق جلَّ ثناؤه لم تبق للعبد حجة عليه حيث أعطاه العقل، وحكم جل ثناؤه على نفسه بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: الآية 34]، وقال جلَّ من قائلٍ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية 139].

[الساخي جمالي الظاهر جلالي الباطن]

وأيضاً: السّاخي جمالي الظاهر، جلالي الباطن، والبخيل جلالي الظاهر، جمالي الباطن. والساخي علوي الظاهر سفلي الباطن. والبخيل سُفلي الظاهر علويّ الباطن. والساخي معنوي الحسّ، حسي المعْنَى. والبخيل حسّي الحسّ، معنوي المعْنَى. والسَّاخي حريته في ظواهره وعبوديته في بواطنه، والبخيل عبوديته في ظواهِرِهِ وحريّته في بواطنِهِ، والساخي نوره في ظواهره وظلمته في بواطنه، والبخيل ظلمته في ظواهره ونوره في بواطنه. والساخي مُلكه في ظواهره ومَلِكه في بواطنه. والبخيل مِلْكُه في ظواهره ومُلكهُ في بواطنِهِ. وهذا القياس تحصل به زيادة معرفة النفس وإن حصلت تلك الزيادة للشخص فعلى قدرها تحصل زيادة معرفة الله بلا رَيْبٍ على كل حالٍ.

[استواء الأضداد في الفقير]

اعلم أنّه إذا استوى في الفقير المتوجه إلى الله، الحسّ والمعنى، حتى يكونان عنده مستويين فإنه يصير يَفْتل الوجود، علوي وسُفْلي، كما يَفتل الدَّوْمُ. واستواء الحسّ والمعنى هو استواء العزّ والذلّ، والخير والشر، والقبض والبسط، والمدح والذمّ، والعطاء والمَنْع، والسعة والضيق، والعدوّ والحبيب، والقُرْب والبُعْد، والجلال والجمال، والإقبال والإدبار، والعلوّ والدنوّ، والمَلِك والمملوك، إلى ما لا نهاية له من الأضداد.

وأيضاً: سمعت الشيخ نفعنا الله به يقول: عند أهل الظاهر جماعة تُغْنِي رَجُلاً، ورجل واحد لا يُغْني الجماعة. وعند أهل الباطِنِ رجل واحد يغني جماعة، وجماعة لا تُغني رجُلاً.

[المعاني أصول والحسيات فروع]

اعلم أنَّ المعاني أُصُول، والحسيات فُرُوعٌ. ولا تقوم الحسيات إلاّ بالمعاني، كما أنَّ الفروع لا تقوم إلاّ بالأصولِ. هكذا جرت عادة الله، والله يفعل ما يريد.

[زيادة أهل الظاهر وزيادة أهل الباطن]

وأيضاً: زيادة أهل الظاهر هي النقص عند أهل الباطنِ، وكذلك الزيادة عند أهل الباطن هي نقص عند أهل الظاهر. وأهل الجمع بين الظاهر والباطن. الجميع عندهم زيادة ولا نقص وذلك لما عرفوا أنَّ الزيادة مادة واحدة إلٰهية أبدية. إلاّ أنها تارة تدفع في الظاهر وتارة تدفع في الباطن. فإذا دُفعت في الظواهر تكون حسية، وإذا دفعت في البواطن تكون معنوية. وإن شئت قلت: في الظواهر شرعية، وفي البواطن حقيقية. وإن شئت قلت: في الظاهر جلال وفي الباطن جمال. وإن شئت قلت: في الظاهر فَرْق وفي الباطن جمع. وإن شئت قلت: في الظاهر عبودية وفي الباطن حرية تمليك. وهكذا إلى ما ليس له حصر من تلونات بُرْزها.

[الله تعالى مع أهل السفليات]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله مع أهل السفليات أين ما كانوا، وكيف ما كانوا. وانظر إلى القرص يكون من أربعة أرْطالٍ، تقرّصُ به أربعين قنطاراً وذلك حين جاء من أسفل. وذلك أنَّ السُفلي مستضعف. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القَصَص: الآيتان 5، 6] .

[مفتاح خرق العوائد]

وأيضاً: اعلم أنَّ مفتاح خَرْقِ العوائد في العزِّ بالله، هو خَرْق العوائد في الذلِّ لله. والذلُّ لله هو الذل لعبادِ الله، فالذلُّ لله من العبد حكمة، والعزّ بالله من الله قدرة، والحِكمة عبودية. ولا شك أنَّ العبودية هي مفتاح كنوز الرّبوبية. قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: الآية 269] . وفي الحِكَم: كيف تُخرقُ لك العوائد وأنت لم تُخرِق من نفسك العوائد.

[من أراد أن يملك الخلق بالفعل]

وأيضاً: إذا أردت أن يُقابلك الخلق بالفعل، حتى نفسك، فقابلهم به، فإنّهم يقابلونك به، وكل ما عدا القول فهو فعلٌ، وكل ما عدا الفعل فهو قول، حتى الصمت من الفعل. إلاَّ أنَّ القول مع نفسك يكون باطنياً معنىً، وبالقلب يكون ظاهراً باللسان. ومع الخلق لا يكون القول إلاَّ ظاهرياً باللسان فقط.

من قابَلْتَهُ بالصمت حتماً يقابلك بفعل آخر، ومن قابَلْته بالقول حتماً يقابلك بقولٍ آخر. بهذا جرت عادة الله في الخلق. وفي بعض الأوقات يكون الأمر على خلاف هذا، وهو أنَّ مَنْ قابلته بالفعل قابلك بالقول، ومن قابلته بالقولِ قابلك الفعلِ. ولكن الوجه الأول هو الغالب، والكل صحيح.

[الشيخ هو باب الله للمريد]

وأيضاً: اعلم أنَّ الشيخ هو باب الله للمريد، وهو عيْن الحجابِ، لأنَّ الباب هو الحجاب. إلاَّ أنَّ الشيخ، أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع وأهل العرش وأهل القلم وأهل الكرسي، كلهم أبواب للشيخ يدخل من أيِ باب شاء منها على الله، بخلاف المريد ما له إلاَّ باب واحد إلى الله، وهو باب شيخه. إن دخل منه فذاك وإلاَّ فهو مطرود مردود. وذلك لأنَّ الشيخ قد فتح له طلْسَم كَنْزِ نفسه، ونفسه تعدل الوجود، وهي مقابلة للوجود وحين ملك نفسه مَلك بها الوجود. وحين مَلك الوجود مَلك به نفسه، ولا شك أنَّ من أُبيح له الدخول على الله من باب نفسه فقد أُبيح له الدخول من كل أبواب الوجود، يدخل من أيِ باب شاء. ألا إنَّ أبواب جنة الآخرة ثمانية، وأبواب جنة الشهود والعيان ليس له حدّ ولا حصر ولا نهاية. قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية 115] .

وقولنا: الوجود يَدْخل عليه من أبواب النفس، والنفس يُدْخل عليها من أبواب الوجود، مثال ذلك، المريدون مع المشايخ، فالمُريدون لا يدخلون على نفوسهم حتى يملكونها من أبواب الوجود، وهم المشايخ. والمشايخ لا يدخلون على الوجود وأهله، يعني المريد وغيره، حتى يملكونه من أبواب نفوسهم. صارت أبواب النفس يُدْخل منها على الوجود كما أنَّ أبواب الوجود يُدْخل منها على النفس.

[طريقنا طريقة الشرائع ونتائجها حقائق]

وأيضاً: طريقتنا هذه طريقة الشرائع، ونتائجها حقائق، لذلك تسمَّى باطنية. اسمها على نتائجها وضدّها هي طريقة الظواهر، هي طريقة حقيقية، ونتائجها شرائع، لذلك سميت طريق الظواهر، اسمها على نتائجها. أهل البواطن يطلبون الشرائع وتطلبهم الحقائق، وأهل الظواهر بالعكس يطلبون الحقائق وتطلبهم الشرائع، وأهل الجمع بين الظاهر والباطن يطلبُونَ الشرائع كما يطلبون الحقائق وتطلبهم الحقائق كما تطلبهم الشرائع.

[خمرة العبودية وخمرة الحرية]

وأيضاً: اعلم أن الخمرة خمرتان، خمرة العبودية وخمرة الحرية. خمرة العبودية جلالية وخمرة الحرية جمالية. وإن شئت قلت: هاتان الخمرتان هما خمرة واحدة إلاَّ أنها تتلوَّن تارة جلالاً وتارة جمالاً وتارة حسّاً وتارة معنىً وتارة ذاتاً وتارة صفاتاً، ومحلّ تلوّنها القلوب، ثم بعد القلوب يظهر أثرها على الأشباح، ثم بعد الأشباح يظهر أثرها على الوجود: علوي وسُفلِي.

[القلب]

القلب بيت الربّ، ومنبع الأسرار والأنوار، وهو عنصر التجليات كلها، تجليات الوجود وما حوى، بل تجليات الحقيقة بأسرها.

[الإنسان إذا تكلم حقرت دعوته]

وأيضاً: اعلم أن الإنسان إذا تكلَّم حَقُرَتْ دعوته، وإذا سكت عَظُمَت دَعْوته. فوق جميع الهِمَم هِمَّتَه، لأجل هذا المعنى كان الصمت أشرف من الكلام، فإذا كان الكلام من الفضة كان الصمت من الذّهب.

[الخلق كلهم ساكرون]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخلق كلهم ساكِرُون إلاَّ أن سُكرهم على وصفين: أقوام سَكِرُوا بخمرة الجمال، وآخرون سكروا بخمرة الجلال. خمرة الجمال من عنصر الأرواح وخمرة الجلال من عنصر الأشباح. وهاتان الخمرتان لا ثالث لهما، والناس كلهم سَاكِرون بهما، من لم يَسْكر بخمرة الجمال، فهو ساكر بخمرة الجلال. فمن غَلَبَت رُوحه على جسدهِ فهو ساكر بخمرة الجمال، ومن غلب جسده على روحه فهو ساكر بخمرة الجلال. وبهاتين الخمرتين قام وجود هذا البشر، أي الآدمي، وبوجود هذا البشر قام وجود الوجود، ولو عدم السكر من البشر لتلاشى، ولو تلاشى لتلاشى الوجود. صار وجود الإنسان قائماً بوجود السكر بالخمرة كما أن وجود الوجود قائم بوجود الإنسان. أهل خمرة الجمال ملوك لأنَّ خمرتهم منسوبة إلى الخلق، وإن كان الكل بالحقّ ومن الحق وإلى الحق، لكن ما نَسَبه الحق لنفسه فهو حق، وما نَسَبَه الحق لخلقه فهو للخلق بالحقّ (. . .).

[من لم يأت لمولاه اختياراً يأتي قهراً]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل من لم يأتِ لباب مولاه حكماً اختياراً، لا بد أن يأتي لبابه قوة قهراً. من لم يجب داعي الإحسان حتماً يجيب داعي السلطان، الحِكمة حكمته تعالى، نسَبها الحق لخلقه هبَةً وفضلاً مِنّة عليهم وإن كان في الحقيقة هو الفاعل بها منه به إليه، كذلك القدرة قدرته تعالى نَسَبَها الحق لنفسه عدْلاً منه به إليه، كأنَّ الحِكمة شريعة والقدرة حقيقة.

[الكلام جلال والصمت جمال]

وأيضاً: الكلام جلالٌ فرق للنَّفسِ، لأجل ذلك حُصرت هِمَّة قائِله، والصمت جمالٌ جمع للنفس، لأجل ذلك لم يُدرك قدرُ غُلوِّ هِمَّة صاحبه (. . .).

[أقوال الفقر الفعلية]

وأيضاً: إذا أردت أن تفهم أقوال الفقر الفعلية، كالذي يتعلم الإشارة بالمدْفَع، يَرْمي الإشارة ولا يصبها، ويعودُ ولا يصبها، وهكذا حتى يصير مهما رماها إلاَّ أصابها، لأنَّ من لا أفسد ما صوَّب ولا أصْلَحَ، ومن لا عوَّجَ ما سَقَّم ومن لا تذلَّل ما عُزَّ، جرت عادة الله في خلقه أنَّ الأشياء لا تخرج إلاَّ من أضدادها، ولكن تتفاوت

الرجال في الزِّعامة، وفاز باللّذة الجسور. يقول الششتري في بعض كلامه: اغْلبْها بالرَّجْلا والتيارا تَعُد تخافِ مِنك يا زَعيمُ. وقال سيدي عبد القادر الجيلاني في بعض كلامه: فما نالها إلاّ الشجاع المقارِعُ. وقال الشاذلي رحمه الله: اللَّهُمَّ إنَّ القوم قد حكَمْتَ عليهم بالذلّ حتى عَزُّوا، أي ذلّ البدايات حتى حصل لهم عِزّ النهايات. وقد قال الشاعر:

فإنَّ الحبَّ آخره المَنَايَا وأوله شبيه بالمُزَاحِ

[نَفْسُ الرجال أكبر حبيب لهم في الوجود فمزاياها عظيمة]

وأيضاً: اعلم، علّمني الله وإيّاك، أني ما وجدت حبيباً في الوجود يعادل نَفْسِي هي أَحَبُّ الأحباب إليَّ، وهي منْبَع الخيرات، ومنبع الأسرارِ والأنوار، ولا وجدت خيراً في الوجود إلاّ خَيْرها، وما احتَجْت على شيْءٍ والتفّت إليها إلاّ وجدته بين يدي أقربُ من طرفة عين، فيها دوائي، وبها شفائي، ومنها ابتدائي، وإليها انتهائي، بها طلبي، وهي مطلبي، وهي شربي، ومنها مشربي، منها غنائي، وهي غنائي، ومنها فنائي، وفيها فنائي، هي خيرتي، وفيها حضرتي، وهي شربي، وبها سكرتي.

[الأكوان بمنزلة أهل الشرطة]

وأيضاً: اعلم أنَّ هذه الأكوان جعلها الله بمنزلة أهل الشرطة على حضرته، وأمر الناس بدخول الحَضْرَة ونهاهم عن الخروج منها، من دخل حَضْرَته أمِنَ ونَجا، وحصلت له الراحة والغنيمة. ومن خرج من حضرة مولاهُ سلط عليه الأكوان، أخذوه وأوثقوه فضيقوا عليه وفتنوه وطافوا به في أزقّة الأكوان وهم ينادوا عليه: هذا جزاء من غَفَل عن حضرةِ مولاه لأن الأكوان كلها خلقها الله عبيداً لك وخلقك أنت عبداً له. مهما اشتغلت بخدمة مولاك اشتغلت الأكوان بخدمَتِكَ، ومهما اشتغلت بخدمة الأكوان وغفلت عن خِدمة مولاك وقع بك ما ذكرناه أولاً. ومن قال لا راحة في الدنيا فقد صدق وإنما الراحة في الخروج عنها بالقلبِ أو بالموتِ. ما كانت إلاّ حضرة المخلوقِ وحضرة الخالق. من دخل حضرة الخالق حصلت له الراحة وسَلِمَ من التَّعَب والآفاتِ كلها. ومن دخل حَضْرَة المخلوق حصل له التعب ولم يَدْرِ راحة معهم، إلاّ مَنْ دخل حضرة المخلوق بالخالِقِ فإنَّ هذا حصل له فضل الحَضْرَتين، وهذه المنزلة لا تحصل إلاّ للرجالِ الواصلين الكُمَّال، رزقنا الله وإياكم محبَّتهم والالتفاتِ، آمين.

[صاحب الحال الوارد كصاحب الجنون]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب الحال الوارد حكمه حكم صاحب الجنون الذي يُغمى

عليه. أرأيت المُغْمَى عليه في حال إغمائِهِ هل له تصرف بنفسه في حالة هجوم الجنّ الواردِ عليه، لا تصرُّف له في نفسه حتى يفتر عند تلك الحالِ، فلذلك أعذَرَه الله ورسولُه كلما فعل في تلك الحالة لا يُؤاخذ به، لأن الحكم للغالب عليه. كذلك صاحب الأحوال لما غلبت عليه أحواله صارت هي المتصرفة فيه بما شاءت وكيف شاءت. فسقط عنه عند ذلك التكليف. كما قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: فَقَد رُفِع التكليف في سُكْرنا عنَّا. ومَن قال بأن صاحب الأحوال لا يظهر أثرها عليه فقد كذب لأنّ ألأحوال ما وردت على أحدٍ إلاّ ظهر عليه أثرها، إلاّ النَّبي ﷺ خصَّه الله تعالى مِن بين خَلقِهِ هو منبع الأسرار والأنوار، والصالحون رضي الله عنهم، إنما هم رشحات مِن بُحُور أنواره، خصه الله تعالى بهذه المزية العظمى، اجتمعت فيه الأحوال كُلُّها، ولم يغلب فيه حال على حالٍ. ورد على قلبه ﷺ ما لم يَرِدْ على قلب بشرٍ، وهو ﷺ يعطي لكل ذي حقٍّ حقَّهُ، ويُوفِّي كل ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ، كما قال القائل:

مَا شَرِبَ الكَأْسَ واحْتَسَاهُ ... إلاّ مُحِبٌّ قَدِ اصْطَفَاهُ

يعني النبي ﷺ.

[مقام سيدي علي الجمل صاحب هذا الكتاب، تحدثاً بالنِّعم]

وأيضاً: اعلم سيدي، أنَّ مما تفضَّل به عليَّ مولاي جلَّ ثناؤه، أن جعلني أعْذر نفسي، وأعْذر من يَعْذرني، لماذا لم يعذرني. وأذكر نعمته عليَّ أيضاً، أن جعلني أتطوَّرُ بجميع الأطوار، لأقضي سائر الأوطار. تارة أكون وليّاً وتارة أكون أُميّاً وتارة أكون مَلِكاً وتارة أكون مملوكاً وتارة أكون حُرّاً وتارة أكون عبداً وتارة أكون رجلاً وتارة أكون امرأة وتارة أكون كَهلاً وتارة أكون صبيّاً وتارة أكون عابداً طائعاً زاهداً، وتارة أكون غافلاً عاصياً زائغاً، وتارة أكون صدّيقاً وتارة أكون زنديقاً وتارة أكون في أعلى عليّين وتارة أكون في أسفل سَافِلينَ، وتارة أكون مَلِكَ أهل الخصوصية وتارة أكون قائدِ أهل الخصوصية، وتارة أكون قائد أهل اللصوصية، وتارة أكون ألِدُ وأُرَبِّي، وتارة مولوداً متربياً، وتارة أكون من أهل الأحوال والمقامات وتارة أكون من أهل الخمور في الحانات، وتارة أكون راسخاً في اليقين، وتارة أكون من ضعفاء المسلمين، وتارة أسْرح في الملإ الأعلى، وتارة أسرَح في الأرض السابعة السُّفْلى، وتارة يكون الكون في قبضتي، وتارة أخسَأ في ذُلّتي، وتارة أتصرف في العوالم كلها، وتارة لا أقدر على نفسي أن أُنقِذَها، وتارة صفتي صفة المجنون، وتارة من أهل الفنون والسكون، وتارة من أهل المعارف والأسرار وتارة أخوض في ظلمة الأغيار، وتارة أكون عالماً للعلماءِ

وتارة أكون ممَّن يَسْفِكُ الدماء، وتارة أقهر الجبابِرة بسطوتي، وتارة أشبه اليهود بِذُلتي، وتارة أقطف أنوار الفِكر في حانِ حضرةٍ، وتارة أرقص بالأشواق في وسطِ الأزقة. هذه بعض أوصاف صفاتي.

[الشيخ مع المريد في تعميم النفع للعباد بواسطته. . والشيخ في ساعة فيضه يكون باباً من أبواب الله، واسماً من أسمائه]

وأيضاً: اعلم أنَّ مثل الشيخ مع المريد كمثل البقرة مع ولدها. لا يُمكن أن يظفَرَ أحد بلبَنِها إلاَّ بسبب وَلَدِها، لأنه إذا قصدها ولدُها ورقت كَبِدُها عليه وعطفَتْ، أرْخَتْ ألبانَها فحصل النَّفع للناس بما يفضل عن ولدِها. ولولا ولَدُها ما انتفع أحدٌ بلبنهَا. كذلك الشيخ الكامل إذا كان له مريداً صادقاً حسَنَ الظنِّ به لا يبغي به بَدَلاً ولا يرى في الوجود أحداً أعلى مرتبة عند الله منه، فإذا كان المريد في هذه الحالة فإن الشيخ يعطف عليه قلبه لا محالة، وإذا عطف قلبه وحنَّ عليه الشيخ تبرُز منه بسبب تلك المريد أقوال وأفعال وعوالم وعلوم وأسرار، مما ينتفع بها المريد وغيره في حياته وبعد موْتِهِ، لأنَّ الشيخ إذا حضرت له ساعة الفيْضِ يكون باباً من أبواب الله واسماً من أسمائه وهو اسم الله العظيم الأعظم، من دعا به أُجيبَ، ومن سَأل به أُعْطِي؛ لأنَّ الشيخ لا تبرز منه هذه المِزية العظمى إلاَّ على حالتين: إمَّا لفيضانِ وَجْدٍ أو لإرشاد مُريد: لأنَّ هذا العلم كله دائِرٌ على الأدبِ مع الله والمشايخ رضي الله عنهم. انتهى أدبهم مع الله وهم أهل حضرتِهِ وجُلسائِهِ وخاصَّته من خلقه وأحبابه، حفظهم الله تبارك وتعالى من النقائِص وحاشاهم من ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: الآية 42] صارت أحوالهم كلها لا تتحرَّك إلاَّ بالله، متى شاء الله، كيف شاء الله، إذا صدرت منهم رضي الله عنهم أشياء تناسبُ البشرية للكَمالِ. نفهم منهم عند ذلك أنَّ السّطوة الربَّانية تجلَّت فيهم وصارت هي الفاعلة بهم فلا نلومهم على شَيْءٍ من ذلك وإنما يجب علينا أن نُحَسِّنَ الظنَّ بهم، ونلتمس بَرَكَتَهُم، والله أعلم بأحوالهم، وإذا صدرت منهم أشياء تناسب البشرية نفهم منهم أنَّ البشرية ظهرت فيهم، هي الفاعلة بهم، فلا نلومهم على شيءٍ ولا نسيء الظنَّ فيهم، بل نحسِّن الظنَّ بهم، ونلازم الأدب معهم والسكينة والوقار، ونعلم أنما هم بشرٌ مثلنا يجوز في حقِّهم كل شيءٍ.

[الولاية بين الفقر والدنيا]

وأيضاً: اعلم أنَّ الولاية بين الفقر والدنيا لا تظهر إلا بينهما، إذا كانت الدنيا ولم يكن الفقر تعذَّر الوصول إليها، وإذا اجتمعوا باثنين ظهرتِ الولاية بينهما، لأن الدنيا

شريعة والفقر حقيقة. والولاية هي معرفة الحقّ، والحق لا يظهر إلاّ بين شريعة وحقيقة، وكذلك في جميع الأشياء كل شيء له شريعة وحقيقة، ما تعلقت همّتك بشيءٍ واجتمعت له شريعته وحقيقته إلاّ وجدت ذلك الشيء بينهم أقرب من كل شيءٍ. ولا يتعذر عليك ذلك الشيء إلاّ إذا تعذّرت شريعته، أو تعذّرت حقيقته.

[الولي مثل الكامون ما يفوح حتى يُحَلّ]

وأيضاً: اعلم أنّ الوليّ مثل الكامون، ما يفوح حتى يندق. إما بمُعْترِضٍ يلومه في أحواله وإما بمريد يُحْرِقه بمحبّته، لأنّ المحبة نارٌ ما نزلت على حجاب إلاّ أحرقته، وإلاّ أخاً في الله يكون سَالِمَ القَلْبِ منصتاً إلى الحقّ، فلهؤلاء الثلاثة تفوح رائحة الولي، وتظهر كراماته. وإن لم يكن واحد من هذه الثلاثة فإنه لا يظهر عليه أثرٌ إلاّ إذا كان مغلوباً غَلَبَتْ عليه أحواله.

وأيضاً: إذا جمعْتَ بين حقيقة معيّنة، وشريعة مبيّنة، ستعلم أنك حصلت على حقيقة كاملة.

[قف على جليس حضرة الحق إذا وقعت منه هفوة]

وأيضاً: اعلم أنّ جليس حَضرة الحقّ، إذا وقعت منه هفوة أو غفلة عن حضرةِ مولاه، فإن الأكوان تأتيه من كل جانبٍ بما لا يَنحصِرُ، كلها لفِتْنَته ولإذايتِهِ، لأنّ الأكوان كلها عاشقة له، فإذا دخل الحضرة ضُرِبَ بينه وبين الأكوانِ بحجابٍ من نورٍ لا تقدر الأكوان أن تصل إليه لشدة نوره، كل من طاف حوله منهم يحترق بذلك النور، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: الآية 42]، وكذلك قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: الآية 40] إلى ما لا ينحصر من الآيات في هذا المعنى والأحاديث الصريحة، حتى إذا وقعت منه غفلة عن حضرة مولاه تأتيه الأكوان مشتاقةً إليه تأخذه مثل الضواري على الصَّيْد لا ينجيه منهم إلاّ دخول الحضرة، فإذا دخلها استراح من تعبهم ومن نَصَبِهم عند ذلك تحصل له الراحة من التعب، لأنّ الله تعالى خلق العباد لحضرتِهِ ودعاهم إليه على لسان نبيّه، وما أوجد هذا الوجود إلاّ لأجل ذلك. وخلق هذه الأكوان وسلّطهم على خلقِهِ لا ينجو من فتنة الأكوان إلاّ من دخل الحضرة، وإلاّ فهو مفتون، مملوك في أيديهم، يفعلون به ما شاؤوا، كأن هذه الأكوان جعلها الله بمنزلة الحراس على الحَضْرةِ من خرج من حضرته أخذوه والتقموه وملكوه وفتنوه، صاروا عند ذلك على الولي رحمة، لأنهم يردّونه إلى حبيبه، وعلى غيره نقمة لأنهم ملكوه وقيّدوه عن قرّة عينه وحبيبه، صاروا إذاً على الوليّ هُمْ عين

النِّعَمِ وعلى غيره هم عين النِّقَم. صاروا إذاً للولي هم أَحَبُّ الأحباب وعلى غيره هم أعْدى الأعادي. صاروا أيضاً على الولي هم عيْن الغِنى، وعلى غيره هم عين الفقر. صاروا إذاً على الوليّ بهم قُرْبه وغنيمَته، وعلى غيره بهم كَمُلَ بُعْدُهُ وخسارته. صاروا إذاً للوليّ بِهِم يكمل جمعه وأُنْسُهُ، وعلى غيره بهم فَرْقُهُ ووحْشَهُ، لا حبيب للولي أفضل من الأكوان، ولا عدوٌ لغيره أعظم من الأكوان.

[قدر سيدي علي الجمل رضي الله عنه وسائر من هو في درجته]

وأيضاً: اعلم يا أخي أنَّ أصحابي يأتوني على أنواع، بعضهم اشتدَّت عليه البرودة، يأتي إليّ يَطلبني في السخونة، وبعضهم اشتدت عليه السخونة يأتيني يطلبني في البرودة. وكل منهم لا يخرج مِنَ عندنا إلاّ مملوءاً بما طلب على أحسن هَيْأةٍ، والله لو طلبوني أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع في ساعة واحدة لقَضَى الله تبارك وتعالى حوائجهم في تلك الساعة جميعاً.

[للخلق ثلاث مقامات]

للخَلْق ثلاث مقامات، كل مقام هي منزلة، أوَّلهم مقام خاصة المسلمين، ومقام عامَّة المسلمين، ومقام أهل الشركِ أعاذنا الله منه. وفي هذه المقامات انحَصَرَتْ أحْوَال ولَدِ آدَمَ.

أما مقام الكُفْر على فِرْقتين: أهل كُفر الأقوال، وأهل كفر الأفعال. أما أهل كفر الأقوال فهم المنافقون، وأما أهل كفر الأفعال هم اليهود والنصارى.

وأهل مقام الإسلام رضي الله عنهم، ينقسمون على فِرْقتين: فِرْقة أهل أقوالٍ، وفرقة أهل أفعال. فِرْقة أهل الأقوال هم العصاة، وفِرْقة اجتمعت فيهم الأقوال والأفعال: هم المسلمونُ حقاً رضي الله عنهم.

وأما أهل مقام الخصوصية، ينقسمون على فِرْقتين: فرقة أهل ظاهِرٍ، وفِرْقة أهل باطِنٍ. أهل الظاهر هم أهل أقوال وأفعال. وأهل الباطن هم أهل أقوال وأهل أفعالٍ. وكل واحد من أهل هذه المقامات يُرْجَى له ما سبق في سابق الأزَلِ. «فَرَغَ رَبّكَ من أرْبَع: خَلْقٍ وخُلُقٍ، ورزق وأجل». هذا حُكمُ الحقيقة وعلى ظهرها تترتب الشريعة وأحكامها، الشريعة من عين الحِكمة، والحقيقة من عين الحكم. وكلاهما أوصاف الرَّبِّ.

[قف على الولي الكامل كيف يجعل النفس تعطي أُكلها]

وأيضاً: اعلم أنَّ الولِيَّ الكامل هو الذي يجذبُ صاحبه من أي حالةٍ كان عليها،

مهما وجده فيها، منها يُدخله على ربه، ومنها يستشرفه على حضرة أُنسِهِ. قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية 115] كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان. إذْ لا موجود سواه ولا في الوجود سواه.

[النفس]

وأيضاً: الولي الكامل يجد صاحبه مملوكاً في يد نفسه فينزع ملكها من يدها، ويملكه إياها، فتصير مملوكة له. كانت تملكه فصار يملكها، كانت تأمر عليه فصار يأمر عليها، كان يخدمها فصارت تخدمه، فصارت عند أمره ونَهْيِهِ، كما كان عند أمرها ونَهْيِها. كان لا يأكل إلاَّ من أمَرِّ طعمها فصار يأكل من أطيب ثمارها وأنوارها، لأنه من فاته خيرُ نفسه لا يصل إلى الخير أبداً، هي خزانة الخير كله وهي خزانة الشر كله، من فاته شرها حصل على خيْرهَا، ومن فاته خيرها حصل على شرها، ومن حصل على خيرها هي أقرب الأبواب إلى الله، ومن حصل على شرها هي أبعد الأبواب من الله. هي الطالب والمطلوب وهي العدو وهي الحبيب، هي رأس الخير وهي رأس البلوَى. ومنها يُشتكى وإليها الشكوى، أثمار خيرها أحْلى من الحلوى والعسل، وأثمار شرها أمَرّ من الحنظل والدِّفْلِ، ولا لك خير إلاَّ خيرها، ولا لك شر إلاَّ شرُّها.

[الشيخ الكامل]

وأيضاً: الشيخ الكامل هو الذي يدلك على خير نفسك، ويطعمك ثمارها وينقذك من أشرارها، حتى تكون طوع يَديك، وعند أمرك ونهيك، ويرقيكَ برفقٍ ولطفٍ في المنازل الثلاثة، من منزلة العامة إلى منزلة الخاصة إلى منزلة خاصة الخاصة.

أما منزلة العامة، هم الذين حجبُوا بالشريعة عن الحقيقة، ومنزلة الخاصة هم الذين تشبّهوا بالحقائق، ومنزلة خاصة الخاصة هم الذين فنوا في الحقائق حتى لم يشهدوا في الوجود سواهُ.

[الوجود كله واحد]

وأيضاً: ومما يدلك على الوجود كله واحد، وأنت هو ذلك الواحد، إلاَّ إذا اهتممت بشيءٍ في باطنك، ولم يعلم بطويتك سواك، فإنَّ الوجود كله لا يقابلونك إلا بما اهتَمَمْتَ به خيراً كان أو شرّاً «أنا عند ظنِّ عبدي بِيَ» الحديث.

[لا حُدُوث ولا عدم في مذهب الجمع، ولا بداية ولا تمام]

وأيضاً: أهل الجمع عندهم في مذهب الجمع ما عندهم حدوثاً ولا عَدَم ولا

بداية ولا تمام، كما قال الغزَّالي رحمه الله: ما في الإمكان أبدع مما كان. هكذا المستغرقين في مشاهدة الحق جلَّ ثناؤه رضي الله عنهم، ونفعنا بهم، آمين. كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

[معرفة الولي أصعب من معرفة المولى جل ثناؤه]

وأيضاً: اعلم أن معرفة المَولى جلَّ ثناؤه، أيسر وأسهل وأقرب من معرفة العبد، الولي العارف بالله. ومعرفة العبد العارف بالله أيْسر وأسهل وأقربُ من معرفة العبد العامِّي الجاهل بالله. وعلى هذا صار لا يتبرَّز الولي لمباشرة العامة وتربيتهم إلاَّ من كَمُلت نورانيته، وكَمُل آدابه مع مولاه من كل جهةٍ، من جهة الجمع ومن جهة الفَرْقِ. قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: الآية 24].

[قف على الذي قام به الإنسان]

وأيضاً: الإنسان قامَتْ بنيته بمادَّتين: مادَّة حسية، ومادة معنوية. مادة الحسِّ على يد أهل الحسِّ، ومادة المعنى من عند أهل المعاني. وربما اشتدَّ الحسّ من المعنى وربما امتدَّتِ المعنى من الحسِّ. وهاتان المادَّتانِ لا يَردانِ عليك إلاَّ من نفسك أو من جِنْسِكَ.

[الوجود كله واحد أيضاً]

وأيضاً: الوجود كله واحد: بعضه من بعضٍ، عاشق بعضه لبعضٍ، مشتاق بعضه لبعضٍ، حتى يلتقي بعضه ببعضٍ، وينكح بعضه لبعضٍ، فَيَلِدُ بعضه بِبَعْضٍ، فتبرز الزيادة بين البعض والبعض.

والزيادة على وجهين: زيادة تَدَلِّي، وزيادة ترقِّي (...).

[الحمق غرْس العقل]

ومما قال لي الشيخ رضي الله عنه: تمسَّك بالحمَقْ فإنه غَرس العقل، إن كان من جهة مولاك لأنَّ الحُمْق إذا كان من هذا الوجه على قدر ما يتناقص غرْس الحمق يتناهى طعم العقل، أي تلك الغرس الذي نغرس حمقاً على قدر ما يعظم، يعظم ثمره عقلاً. اجتهد في كثرة الغرسِ ولا تلتفت إلى شيءٍ، واستعن على حُمْقك بالله واصْبِر وبالله التوفيق.

[إيَّاك أن تكذب دعوة نفسك لكل مقام مقال]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ، قال لي: يا ولدي إيَّاك أن تكذب دعْوة نفسك إذا حدَّثتك بشيءٍ لأنها مثل الكلب المربَّى لا تنبح إلاَّ على الحيّ. ووصِّيتي هذه خاصة لك لا لغيرك، كما قالوا: لكل مقام مقال، لأنَّ النفس إذا كان صاحبها محجوباً يجب عليه اتِّهامها، وإذا كان صاحبها بالله يَحْرُمُ عليه اتِّهامُها، ويجب عليه تَزْكيتها.

[أهل الله مثل الأرض]

وأيضاً: ومما سَمِعْت الشيخ رضي الله عنه يقول: نحن مثل الزُّقاق، يجُوزُ علينا البرُّ والفاجِرُ، المسلم والكافر، والمحسن والمسيء، ولا نبالي، فالناس عندنا سواء لا نَنْهَر هذا، ولا نكثر البرَّ بهذا دون الآخر، من حازنا منهم نعطيه واجبه.

[الخلق كالثياب]

وسمعته أيضاً يقول: الخلق مثل ثياب الإنسان لا يستغني عنها أحدٌ إلاَّ في الأوقات التي يريد الإنسان أن يتجرّد لحاجته، حتى يفرغ منها، ويرجع إلى حوائجه، أي إلى الخلق.

[التشريف والتعظيم]

وأيضاً: ومما أوصاني، قال لي: وإياك أن تغفل عن التشريف والتعظيم لمن ظهر لك بعض الفتح على يده، لأنَّ في التشريف والتعظيم للحرمة مفتاح عظيم لزيادة الإمداد والخيرات والأنوار والأسرار، لا تغفل عن هذا الباب ولا بد وإياك.

[استقامة الأمر وعدم استقامته]

وأيضاً: اشتكيت يوماً للشيخ رضي الله عنه بأمري، قلت له: يا سيدي، الأمر عندي في الباطن مستقيم على أحْسَن هيأة، وفي الظاهر لم يستقم. فأمرني أن نتشبه بالحمْق، ونصنعه في نفسي حتى يصفني به الخاص والعام. ففعلت، فاستقام لي الأمر.

لما غرست الحمق باطناً أثمر لي العقل باطناً، ولما غرسْت الحمق ظاهراً أُثمر لي العقل. وجدت الأشياء كلها كامنة في أضدادها، لا تدري الأشياء إلاَّ بالتخلق بأضدادها، جزى الله سيدنا عنَّا خيراً (. . .).

[أهل هذه الطريقة كأهل الجنة]

وأيضاً: رأينا سادتنا في طريقنا هذه نفعنا الله بهم، كأهل الجنّة، إذا أرادوا أن يتحدثوا مع بعضهم دنا كل واحدٍ من صاحبه يتحدثون بما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعينُ حتى إذا عثروا على حديث الدنيا افترقوا، وبَعُد كل واحدٍ من صاحبِهِ. كذلك أهل طريقتنا هذه، وهم في الدنيا على هذه الحالة رضي الله عنهم لأن طريقتنا طريق البَسْطِ والكلام على الدنيا قبض، والقبض لا يليق بهم، وليسوا من أهله.

[ولادة كل شيء من أسفل]

وأيضاً: انظر يا أخي وتأمّل، ولادة الأشياء كلها من جهة الأسْفل في البَشَرِ والأنعام والأعشاب والجمادات، هذا مما يدلك على تقوية السّفلي على الفوقي.

[كمال الشيخ]

وأيضاً: ومما يدلك على كمال الشيخ، ومحقِ إرادته في إرادة مولاه، يعني شيخ التربية، أنه يسير مع كل واحدٍ من أصحابه، يعني المريدين، على الحالة التي وجده فيها حتى يسرقه منها برِفقٍ إلى حضرة مولاه، ولا يشعر المريد حتى يقول له الشيخ: ها أنت ومولاك.

[صدق الطلب]

وأيضاً: ومن جملة إحسانه تعالى أن جعل ثمن فضله وجوده مهرهُ، هو صدق طلبه وعبوديته، فقال جل من قائل: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ [إبراهيم: الآية 34]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: الآية 60] . على قدر ما يصدقك طلبك للشيء يصدق ظفرك به، وصدق الطلب لا يوجد إلاّ بين هِمّتين: هِمّة باطنية وهمّة ظاهرية. هِمة باطنية لا تظهر، ولكن الأقوال هي التي تُنَبِىء عنها وتخبر بها، وهمّة ظاهرية وهي الأفعال باليد أو بالرجل أو بالعين أو بالفرج أو بكل ما يظهر، صارت الهِمّة التي يصدق طلبها هي الجامعة بين الفعل والقول على قدر ما يصدق طلبك بالقول والفعل يكون ظفرك بما طلبت. حَكَمَ مولانا على نفسه بهذا الحكم فضلاً على عبادِهِ. والتقصير لا تجده أبداً من جهة مولاك، محال في حقه، لا يكون التقصير إلاّ من جهة العَبْدِ، إذا كان كاذِباً في طلبه، وهذا القياس من جهة المريدين الطالبين لفضله تعالى. وأما إحسانه وفضله لا يتوقف على وجود طَلَبٍ ولا على عَدَمِهِ.

[الخلق كلهم حقائق]

وأيضاً: الخلق كلهم حقائق، وحقائقهم مقسومة على أربعة حقائق، لا يخلو الإنسان أن يكون في واحدة منهما في الوقت.

الأولى: أهل حقيقة الباطن، وهم أهل الله الذين مكنهم الحق بالتعريف في الكون.

والفِرْقة الثانية: أهل حقيقة يقال لها: شريعة الباطن.

والفرقة الثالثة: أهل حقيقة الظاهر، وهم رؤساء الوقت في الظاهر، كما أنَّ الباطن قائم بالفرقة التي ذكرنا (الأولى) كذلك الظاهر قائم بهذه الفرقة.

والفرقة الرابعة يقال لهم: أهل حقيقة، تكنَّى بشريعة الظاهر. وأهل هذه المرتبة أخصُّ مما فيها، وكلهم حقائق، وكل حقيقة من أهل هذه الأربعة لها أهل مخصوصين بها، مقرينَ فيها، هيّأهم مولاهم إليها وهيّأها إليهم، وأقامهم فيها وبها، وأقامها بهم وفيهم. قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 53] . هذا من إتقان صنعته تعالى. سبحان من أعطى كل قلب ما أشغله، بهذا قام الوجود واستقام، سبحان من خصَّ كل من شاء بما شاء، «قد فَرَغَ ربُّك من أربعٍ: خَلْقٍ وخُلُقٍ، ورزق وأجَلٍ». والعارف بالله هو الذي كمل أدبه مع مولاه. وعلامته هو: أن يسير مع كل فرقة من هذه الأربعة فِرَقٍ على سيره في بلده، ولا يُنكر على أحدٍ من هذه الأربعة فِرَقٍ حالاً من أحوالهم، بل يُقرّ كل واحدٍ على حاله ويخصه على حاله ويسير معه على حاله حتى يجذبه إلى حضرة مولاه كالسارق، وهذه المزية لا تجدها إلاَّ في الكُمَّال العارفين بالله. العارف بالله يداوي بالتي كانت هي الدَّاء، لأنَّ هذه الصفة الكريمة من صفات النبي ﷺ.

رُوِي أنَّ رجلاً كان مع النبي ﷺ ومن أصحابه، قال: صحبت النبي ﷺ كذا وكذا من سنين ولم يقل لي في أمر فَعَلْته لِمَ فعلت كذا، ولم يقل لي في أمْرٍ لم أفعله لِمَ لَمْ تفعل كذا وكذا؟ أو كما قال[1]. وهذا من كمال عِلمِهِ ﷺ ومعرفته ورأفته لأنه ﷺ إمام العارفين وقطب الزَّاهدين، وهو منبع أسرار الصالحين رضي الله عنهم، إنما هم رشحات من بَحْر أنواره ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريَّاته، ما هبَّت الرياح وتحرَّكت الأشجار.

---

(1) رواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك بلفظ: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، لا والله ما سبني سبة قط، ولا قال لي أف قط ولا قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته» (حديث رقم 13057 ج 3 ص 197) ورواه غيره.

[قف على بعض الحقائق]

وأيضاً: من الحقائق: الكحول والسواك والغاليا والمسك والخواتم في الأصْبُع وتقبيل كل ذي حُسْنٍ وجمَالٍ. ومن الحقائق أيضاً: الجلوس في المسجد، أي كثرته، وكثرة الوقوف وكثرة المشي بين أسوار المسجد، والاضطجاع فيها وكثرة الجلوس أيضاً، وكثرة الوقوف والرقاد والمشي في الأسواق. هذا كله حقائق.

[فضل الجلوس مع الأحباب والنقل عنهم]

ومما قاله لي الشيخ رضي الله عنه، ونفعنا به: يا ولدي لا تؤثر على الجلوس مع الأحباب شيئاً إلاَّ الكتابة في الأوراق، لأنها إذا فاتت لا تُجْبَر.

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ رضي الله عنه ونَفَعَنا به: يا ولدي، كثيراً ما تُداوى الأشياء إلاَّ مع قويّها ورطوبتها ورخفها، وأما إذا طالت وعظمت وتبلغمَتْ قليلاً ما تداوى، وهذه عند أطباء الظاهر وأطباء الباطن.

[الخلق على قسمين]

وأيضاً: الخلق إن شئت قلت على قسمين: أهل حقائق الظاهر وأهل حقائق الباطن. أما أهل حقائق الظاهر: هم رؤساء الوقت من أهل المالِ وأهل الرياسة وأهل الجاه والسطوة. وأهل حقائق الباطن: هم المساكين والضعفاء والفقراء المنسوبين عند عامة الناس إلى الله، من عَرَف أهل حقائق الظاهر ولم ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم، يظفر بما في أيديهم ولا يُمْنع خيرهم قطعاً. ومن عَرَفَ أهل حقائق الباطن ولم ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم يظفر بما في أيديهم على كل حالٍ ولا يُمنع خيرهم قطعاً.

والعارف بالله يجمع بين خير الفرقتين، يصطحب معهما جميعاً، وكل فرقة يتلوَّن معهم على لونهم، كشيخ شيوخنا رضي الله عنهم أجمعين ـ سيدنا أحمد اليماني نَفَعنا الله به ـ كان رضي الله عنه ممَّن لا ينكر حالاً من أحوال الخلقِ. أهل الظاهر يتلمذهُمْ في ظواهرهم، ويدفعهم إليها، ويقرّهم فيها. وأهل البواطن يتلمِذهم في بواطنهم، ويدفعهم إليها، ويقرّهم فيها. فحصل لهم خير الفرقتين. وذلك لما رزقه الله من المعرفة والحِكمة.

قيل: إنَّ الولي الكَامِل يتطور بجميع الأطوار.

[السّر في الظاهر والباطن]

وأيضاً: السّرّ إذا كان في الباطن ليس للظاهر فيه نصيب. وإذاخرج للظاهر ليس للباطن فيه نصيب. كما قال سيدي عبد القادر في قصيدته العَيْنِية، قال:

فإن راحلت إلاَّ فاض في السير طالعُ

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ رضي الله عنه ورحمه، قال لي: إياك تُفلِّت الفريسة إيَّاك، عَضْ فيها بزائد، وإيَّاك ثم إيَّاك يتلطخو شوَاربَكْ بدَمِهَا اخضِ شوَارْبَكْ حتَّى ما يْلِطْهوهَشِ.. لا القليل ولا الكثيرْ.

[استراحة النفس]

وأيضاً: لا تستريح بنفسك إلاَّ حيث راحتها في العُزْلة أو في الاجتماع، ولا تتهمها فيما أمَرَتْك. واحتفظ من خصيم نفسك ومن خَصيم جنسك وسياستهم حتى تدخل خواطرهم، لأنَّك إذا حفَرْت في الأرض ما يبقى لك وراءهم إلاَّ الحبيب (...).

[كرامات سيدي أحمد بن عبد الله]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ، نَفَعنا الله به، قال: كان سيدي أحمد ـ أبوه رحمه الله ـ إذا ظهرت على يديه كرامات ويتكلم معه أصحابه في شأنها يقول: إنَّما ذلك حُمْقاً يعتريني، الله تعالى يشفيني مِنْهُ.

[كرامات رجال الله]

وأيضاً: سمعت منه رضي الله عنه يتكلم في وسَط الفقراء، قال: بعض الصالحين أصبح يوماً ونادى أصحابه وقال لهم: يَسِّرُوا كذا وكذا من اللَّحم والطعام، أكثر مما تعوَّدوا منه، وهم لا يدرون لماذا قال لهم ذلك. ففعلوا. ففي آخر النهار قدم رجل من أولياء الوقت قد ورد زائراً هو وجماعة من أصحابه، فقالوا له: أي أصحاب الشيخ، والله يا سيدي، سيدنا أخبرنا بقدومك في أول النهار لما قال لنا: يسّروا طعاماً، علمنا أن الله تعالى أعلمه بقدومك. فقال لهم: يا إخواننا، نحن مثل الفريسة، فاحت رائحتنا لما قربنا منكم. هذه من جملة تواضعه رضي الله عنه (...).

[الحقيقة العلوية والحقيقة السّفلية]

وأيضاً: الإنسان إذا ظفر بحقيقة علوية، وحقيقة سفلية، فقد يملك الوجود

بالكلية. هذا في طريق الباطن كما قالوا، وفي طريق الظاهر. من يعقد الزواق ويحلله يملك القرب كله.

وأيضاً: المدار كله على الوَصْلا. والوَصْلا: هي كل ما خرق عادة الخلق. هي الحقيقة بعينها، وكل ما هو عند الخلق عادة كله شريعة. والحقيقة تكون عند الناس حقيقة، قبل أن يستأنِسُوا بها، فإذا استأنسوا بها، انقلبت شريعة، فيجب على صاحب طريقتنا إذا كان متمسكاً بحقيقة واستأنسها الخلق منه، صارت كأنها حالتْ واتبالتْ، فيجب أن يبدلها بحقيقة أخرى. والحقائق علوية وسفلية، والشرائع علوية وسفلية. في الأصل كلها كانت حقائق حتى وقع الاستئناس، كلما ألفهُ الخلق من الحقائق انقلبت شرائع، فيجب على الصادق في هذا الطريق أن يتخلّق بالحقائق، أين ما كانت. ولا يلتفت إلى نَفْعِها ولا ضَرِّها، لأن الإنسان مع ما يصلح به قلبه ما يتقرب به لمولاه وما كان الإنسان مع دنياه، أو مع آخرته، فهو مع المخلوق، ولا يصلح إلاَّ للمخلوقِ، كقصَّة مَن ناداه المُنَادى حين تجلَّت له الدنيا والآخرة. وأعرف منهما: نودِيَ: لو وَقَفْتَ مع الأولى لمنعناك الثانية، ولو وقفت مع الثانية لمنعناك مِنَّا.

[صاحب الحقائق]

وأيضاً: صاحب الحقائق كُلُّ ما يصحبه ويلذّ على خاطرهِ يَرْتكبه، كان علوياً أو سفلياً. يأخذ مُرَاده من أعلى شيء، ومن أدنى شيءٍ. هو مع مراد نفسهِ. هذا صاحب خرْق العادة. وأما صاحب العادة بالعكس، كل ما يلذّ على نفسه يتركه ويعمل خلافه إلاَّ أنَّ الأول صاحب بسْطٍ، يأخذه بَسْطه أينما وجده. والثاني: صاحب قَبْض، يأخذه قبضه أينما وجَدَهُ. وهذه طريقتنا، واحدة ضدّ الأخرى (. . .).

[الخصوصية]

وأيضاً: والله لا تحصل لك الخصوصية حتى يحصل لك الزُّهد في الخصوصية، حتى يجزم لك أهل الخصوصية أنك من أهل الخصوصية. والله لا تحصل لك الخصوصية حتى يحصل لك الزّهد في الخصوصية، بعدما تحصل على الخصوصية.

[قف على ما قال الشيخ سيدي يوسف الفاسي رضي الله عنه]

وأيضاً: ومما سمعت من الشيخ رحمه الله، أنه قال: كان الشيخ سيدي يوسف الفاسي، نفعنا الله به، يدني إليه شابٌ يجلس معه في وسط أصحابه، وكان إذا أتى إلى الشيخ ويسمع به والديه أنه جَلَسَ معه يخاصمانه وينهيانه عن الجلوس معه، فكان يُعلم

الشيخ بذلك. فقال له الشيخ: يا ولدي أطع والديك في كل شيءٍ حتى يقولا لك: لا تأتي إلينا لا تطعهما في ذلك، ائت إلينا ولو بسَخَطِهم.

[علامة صاحب الظاهر وصاحب الباطن]

وأيضاً: علامة صاحب الظاهر: أنه يؤثر ظاهره على باطِنِهِ، يعني يقنع بما وجَدَ من البواطِنِ والظواهر كلما يَجِدُ منها الطلب الزيادة.

وعلامة صاحب الباطن بالعكس، يؤثر باطنه على ظاهره، يعني: يقنع بما وجد من الظواهر. والبواطن كلما وجد منها يطلب الزيادة. وهكذا لأنَّ صاحب الباطن اعتماده كله على الغَيْب، وصاحب الظاهر، اعتماده كله على ما يحبس في يديه، مع أن صاحب الغيب لا بدَّ له من الظواهر، وصاحب الظواهر لا بد له من الغيبيات، ولكن الحكم للغيبيات.

[طلب العامة وطلب الخاصة]

الناس كلهم: عامَّة الناس يطلبون الوصل. وخاصة الناس يطلبون المشاهدة. والوصل جلالي والشهود جمالي. ومثل صاحب الوصل مع صاحب المشاهدة كرجلين يعشقان امرأتين، واحِدٌ أخَذَ معشوقته التي أثَر حُبُّها وتزوجها، لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً. هذا صاحب الشهود. والآخر يطلب معشوقته فيظفر بها ليلة ليشفي بها غَليله تلك الليلة، ثم يفترق معها بَعْد، فلا يزيده وصول تلك الليلة إلاَّ تشغفاً واشتياقاً وأسَفاً وعذاباً. هذا هو صاحب الوصول.

[الوجود عامر لا يخلو]

وأيضاً: اعلم أنَّ الوجود عامرٌ لا يخلو أبداً، ومن أراد خلاءه أو قال بخلائه فهو جاهل. إلاَّ أنَّ عمارته جعلها الله مختلفة بين حسٍّ ومعنىً، ما زاد مِنَ المعنى نَقَصَ مِنَ الحسِّ، وما زاد من الحس نقص من المعنى. والوجود عامر أبداً بحسٍّ ومعنى، ولو فتشت الوجود بأسره لم تجد فيه مقدار حبة من خرْدل خالياً من حسٍّ أو من معنىً. وهذا القياس لا يعرفه إلاَّ من خاض بحر المعاني. يرحم الله الششتري حيث قال في بعض كلامه: لا تنظر للأواني وخُضْ بحر المعاني لعلك تراني. على عهد الصوفية، من أراد المعاني عليه بتخريب الحِسِّ. ومن أراد الحس عليه بتخريب المعاني. كأنَّ الحسّ فرْق وكأنَّ المعنى جمع. وما دخلت المعنى على الحسِّ إلاَّ خرج الحسّ وما دخل الحس على المعنى إلاَّ خرجت المعنى. والوجود عامر بينهما أبداً، إما بهذا وإما بهذا، والخلاء محال.

[قف على من يدخل الحضرات]

وأيضاً: لا يدخل الحضرات كلها إلاَّ من ظهر عليه أثر الرشاد، وإن لم يظهر عليه أثر الرشاد يحرم عليه ذلك بإجماع أرباب الحقيقة، لأنه إن دخل الحضرة غير أهل فنّه قبل أن تتوفّر فيه الشروط، فقد عرَّض نفسه للهلاك، ولا يحل للمَرْءِ المسلم أن يقدم على أمْر حتى يعلم حكم الله فيه.

ومن أوصاف أثر رشاد المريد أن يكون يأكل من الأشياء كلها، ولا تأكل منه الأشياء شيئاً. يعني إذا باشر الأشياء يظهر أثره فيها، ولا يظهر لها فيه أثرٌ. ومن أثر الرشادِ أيضاً في المريد أن يكون عارفاً بأحكام الحقائق العلوية، كما يكون عارفاً بأحكام الحقائق السفلية. كما قال المجذوب رحمه الله: يُمْني وعَسْري مسرَّحْ، نضرب بهَذِي وهَذِي.

ما امتنع له شيء من العلويات إلاَّ أخذه بالسفليات، والعكس. والأوصاف تتناهى، ولا يكمل الرشاد للمريد حتى يكتب له الإجازة أهلُ وقته، من أهل فنّهِ. وأما قبل ذلك فهو باق محجوب، ولو وصل ما وصل، إذ هو لا يعرف الرَّشاد من نَفْسِهِ حتى يعرفه فيه غيرهُ.

[حكمة الوجود]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفلوس تربط النفوس، كما تربط النفوس الفلوس. وكذلك النفوس تربط النفوس. وكذلك الفلوس تربط الفلوس، كأن الوجود كله بعضه كفؤاً لبعضٍ، مع أنه واحدٌ. اختلفوا وافترقوا حتى لم يكن فيه جمع واختلفوا واجتمعوا حتى لم يكن فَرْق. صار جمعه هو عيْن فرقِهِ وفرْقه هو عين جمعِهِ، وذاته هي عيْنُ صفاته، وصفاته هي عين ذاتِهِ، وقرْبه هو عين بُعْده، وبُعْده هو عين قرْبهِ، وفناؤه هو عين بَقَائِهِ، وبقاؤه هو عين فنائِهِ، ووجوده هو عين عَدَمِهِ، وعدمه هو عين وجودِهِ، وذلّه هو عين عزّهِ، وعِزّه هو عين ذلّهِ، وطلوعه هو عين نزوله، ونزوله هو عين طلوعه، إلى ما لا ينتهي من الأوصاف. سبحان من جعل الأشياء كامنة في أضدادها بحكمته (. . .).

[العلم محال يكون من غير عمل]

وأيضاً: اعلم أنَّ العلم محال يكون من غير عملٍ. وكذلك العمل محال يكون من غير علمٍ، ما طلع علم إلاَّ طلع العمل معه على قدرِهِ، وما طلع عمل إلاَّ طلع العلم معه على قدْرِهِ، لا ترجيح بين العلم والعمل إلاَّ أنه تارة يكون الحكم للعلمِ والعمل

تابعٌ، وتارة يكون الحكم للعمل والعلم تابعٌ. والذي يكون الحكم له في الوقت يصير كأنه ملكاً والآخر مملوكاً، يعني المحكوم عليه. الوقت الذي يكون فيه العلم مَلِكاً يظن الجاهل بالحِكمة أنَّ العمل لم يكن، وهو ثَمَّ، إلاَّ أنَّ الحكم لغيره. وكذلك الوقت الذي يكون فيه العمل مِلكاً يظن أيضاً الجاهل أنَّ العلم لم يكن وهو ثَمَّ إلاَّ أنَّ الحكم لغيره. والعارف بأحكام الحقيقة لا يشك أن الله تعالى ما أوجد موجوداً إلاَّ يُوجد ضِدّه معه على قدرِهِ. جرت سنة الله بذلك ولكن إذا ظَهَرَ الضِدُّ يَبْطن ضِدَّهُ، وإذا بطن الضدّ يظهر ضِدّه على كل حالٍ (. . .).

[من يجمع بين تربيتين]

وأيضاً: لا تكمل الولاية للمريد الذي يريد الخصوصية حتى يجمع بين تربيتين: تربية الخاصة وتربية العامة. الخصوصية من عند أهلها، وهم الخاصّة. ونتائجها يأخذها من عند أهلها، وهم العامّة. والخصوصية لا تدركُ إلاَّ باستدلالِ أهلها عليها، ونتائجها لا تدرك إلاَّ بالحكِّ مع العامّة. ولا شكَّ أن الخصوصية ليست هي الاستدلال عليها، وإنما الخصوصية بنفسها هي النتائج التي تظهر للخاصّ والعامّ، ولكن إذا لم يكن الاستدلال عليها فلا خصوصية، وإذا لم يكن الحكُّ مع العامة فلا نتائج. لأجل هذا المعنى، كانت طريق سيدي عبد القادِر الجيلاني، نَفَعنا الله به، السياحة فيها شرط من شروطها: قيل عشرة، وقيل أربعة عشر سنة. ولا شك أنَّ المراد بالسياحة، والله أعلم، هو الحكّ مع عوام الناس. كأنَّ الاستدلال على الخصوصية علم ونعت، والنتائج عمل، وإثبات الاستدلال خَبَرٌ، ونتائجها عيانٌ. والخبر بلا عيانٍ أنوار بلا أثمارٍ، والعيانُ بِلا خَبَرٍ أثمار من غير أنوارٍ، والأثمار من غير أنوارٍ لم تَجْرِ عادة الله بها، تربية العامة للمريد بمنزلة القالب للبلغةِ، أو الشاشيةِ للرأس، وتربية الخصوصية له بمنزلة الصانعين لتلك الشاشية أو البلغة.

[الحرث كلها خسران]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحرْث كلها خسران، وأثمار فاكِهها ربْحٌ. وكذلك جرت عادة الله في كل شيءٍ، الربح لا يخرج إلاَّ من الخسران، كما أنَّ الخسران لا يخرج إلاَّ من الرِّبْحِ. سبحان من يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميّت من الحيّ، ويرزق من يشاء بغير حساب. الأشجار تخرج من الأثمار، كما أن الأثمار تخرج من الأشجار. وشتَّان بين من كان خسرانه فَرْق وربحه جمع، وبين من كان خسرانه جمع وربحه فرق. الذي ربحه جمعٌ جَمَعَه جَمْعُهُ عن فرْقه، صار مجموعاً. والذي ربحه فرْق، فرقَهُ فَرْقه عن

جمعهِ صار مفروقاً في قربه. الذي كان ربحه جمع، شغل بالحق عن نفسه والذي كان ربحه فَرْق شغل بنفسه عن الحق. الذي كان ربحه جمع مستغرق في المشاهدة والعيان والذي كان ربحه فَرْق مستغرق في مُجَاهدة نفسه والشيطان. الذي كان ربحه جمع في مقام الإحسان، على منهج التحقيق. والذي كان ربحه فرْق مستغرق في مقام الإيمان على منهج التصديق. الذي كان ربحه جمع جعله الله خليفة في أرضه والذي كان ربحه فَرْق جعله الله عبداً ممتثلاً لأمر ربِّه. سبحان من قَسَمَ بينهما فَعَدَلَ وخصّ بقرْبه من شاء منهما فتفضّلَ، سبحان المعطي بلا شيءٍ، المانِع بلا شيءٍ، سبحان الحكيم العليم.

[المتنسبون على الله]

وأيضاً: المنتسبُون على الله فِرْقتان: فِرْقة أهل مُلْكٍ، وفرقة أهل مِلْكٍ. أهل المُلك هم الذين تجلّى لهم الحق في الجمع حتى عرفوه فيه وبه. وأهل المِلْك هم الذين تجلّى لهم الحق في الفَرْقِ حتى جهلوه فيه وبه.

الفرقة الأولى: وهم أهل الجمع، لمّا عرفوه صاروا ملوكاً.

والفرقة الثانية: وهم أهل الفرق، لما جهلوه صاروا ممالِك.

صاحب الجمع تجلّى له الحق في جمعه، صار فَرْقه مجموعاً. وصاحب الفرْقِ تجلّى له الحق في جنسه، صار جمعه مَفْرُوقاً. صاحب تجلّي الفَرق طالب مولاه في جميع نفسه تجلّى له في فَرْق جِنسِهِ، فكان ذلك سبب جَهْلِهِ به. وصاحب تجلّي الجمع طَلَبَ مولاهُ في فرْقِ جنسِهِ فتجلّى له في جمع نفسه، فكان ذلك سبب علمه به. والعلم نُورٌ وإن صحبه شيءٌ من العمل. والعمل ظلمة وإن صحبه شيء من العلمِ. لأجل هذا المعنى قيل: إجْعل عملكَ مِلحاً وأدبك دقيقاً. ولم يقال: اجعل عملكَ دقيقاً وأدبك مِلحاً. والأدب هنا هو العلم.

[الفقير الكامل]

وسمعت الشيخ نَفَعَنا الله به يقول: الفقير هو الذي رأس ماله مَعَانٍ. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية 28] . ولهذا قلنا: إنَّ العلم نورٌ والعمل ظلمة. مع أنَّ العلم لا يقوم من غير عمل، كما أنَّ العمل لا يقوم من غير عِلْم، لكن النظر للغالِبِ، إذا كان العلم غالباً على العمل فذلك مقام أهل المشاهدة وهم المُلُوك. وإذا كان العمل غالباً على العلم فذلك مقام أهل المجاهدة، وهم العبيد. والمُلْكُ لا يقوم من غير مِلْكٍ، والمِلك لا يقوم من غير مُلكٍ كما أنَّ النور لا يقوم من غير ظلمة،

والظلمة لا تقوم من غير نور. سُبحان من جعل الأشياء قائمة بأضدادِّها، كامنة في أضدادها، من أراد شيئاً فعليه بالتمسّك بضدِّهِ كأنَّ مفتاح الأشياء هي أضدادها. وهذا القياس لا يثق به إلاَّ من خاض بحر المعاني واجتمع مع أهلِهِ.

[من عرف الله في أشياء وجهله في أشياء]

وأيضاً: اعلم أنَّ من عَرَف الله في أشياء وجَهله في أشياء، فإنَّه يجده حيث عَرَفَه ويفقده حيث جَهِله، وهذه صفة من غَلَبَ عليه الفَرْق. ومن عرف الله في كل شيءٍ حتى لا يفقده في شيءٍ فعند ذلك تستوي عند صاحب هذا المقام الأشياء وأضدادها حتى لا يكون عنده ترجيحُ شيءٍ على شيء، وهذه صفة من غلب عليه الجمع. ومن عرف الله في الجمع بالجمعِ، وعَرفه في الفَرْقِ بالفرْقِ يُباشر أهل الجمع بالجمعِ بوجود العلم والمعرفة. كما يباشر أهل الفرق بالفرق بوجود العلم والمعرفة. فهذه صفة من هو جامع بين علم الشريعة وعلم الحقيقة. يُعطي لكل ذي حق حقَّهُ، ويوفي كل ذي قسط قسْطهُ، كأنه برزخ بين بَحْرَيْنِ: بحر الظاهر وبحر الباطن. صاحب هذا الوصف يصير كالمرآة كُلُّ من قابله يُظْهر له وصفه فيه، يصير يتلوَّن بلوْن من يُقابله حتى لا ينكره أحدٌ، وهو لا ينكر أحداً. وعند بطلانِ الإنكار منك ومن الوجود يترتَّب السَّيْر في مقاماتِ الكمال في بلاد النهايات ونهايات النهايات ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿42﴾﴾ [النّجم: الآية 42].

[من لا بداية له، لا نهاية له]

وأيضاً: اعلم أنَّ البدايات إذا لم تكن على شِبْه النهايات فهي فَسَادٌ، وذلك لأنَّ النهايات حتماً لا تكون إلاَّ على شبه البدايات، وإذا كانت البدايات فساداً وخراباً، على كل حالٍ، تكون النهايات مثلها. فلذلك وجبَ على الشيخ أول ما يباشر به المريد يُنزّله في منازل أهل النهايات، كما قال في الحِكَم: من أشرقت بدايته أشرقت نهايته. وقوله: ينزله منازل أهل النهايات، يعني بذلك الاعتدال والتوسط في الأمور كلها لقوله ﷺ: «أفضل الأمور أوسطها»[1]. والتوسط في الأمور هي منزلته ﷺ ومنزلة الصحابة كلهم والخلفاء الراشدين والتابعين وتابع التابعين والسَّالكين على مِنهجهم من خاصَّة العارفين، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

[أول ما يأمر به الشيخ المريد والسِّر في ذلك]

العارف: أول ما يأمر به المريد التوسط في العمل، والسير على السنّة والجماعة، لأنَّ السنّة بها تكون البدايات وإليها تكون النهايات. لأنّه إذا أَمَرَه بكثرة العمل يعظم خوفه، وذلك هو التعطيل. وإذا أمره بقلّة العمل يعظم رجاؤُهُ وذلك أيضاً تعطيل. وإذا أمرَهُ بالسَّيْر على قواعد السُنَّة يحصل التوسط والاعتدال في الرجاء والخوف وذلك هو المطلوب في البدايات وهو المقصود في النهايات، لأنَّ الباطِن سائر على سَيْر الظاهر كما أن الظاهر سائرٌ على سير الباطِنِ. على قَدْرِ تقوية أفعال الظواهر يتقوّى الخوف، وبالعكس، على قدر تقوية البواطن يتقوّى الرَّجَاء، وبالعكس.

[المنتسبون إلى الله على فرقتين: الفقراء إلى الله والأغنياء بالله]

وأيضاً: المنتسبُون على الله على فِرقتيْن: فِرْقة يقال لهم: الفقراء إلى الله، وفرقة يُقال لهم: الأغنياء بالله. وهاتان الفرقتان هما أضداد لبعضهما، كل ما يليق بالفقراء لا يليق بالأغنياء، وكل ما يليق بالأغنياء لا يليق بالفقراء. لأهل كل مقام مَقَالٌ. من ذلك: الفقراء لله، لا يضرهم شيءٌ مثل التَّدبير والاختيار ولا ينفعهم شيءٌ مثل عدم التدبير والاختيار. والأغنياء بالله بالعكس، لا ينفعهم شيء مثل التدبير والاختيار. الفقراء إلى الله لا يضرّهم شيء مثل الظهور ولا ينفعهم شيء مثل الخفاء. والأغنياء لا ينفعهم شيء مثل الظهور ولا يضرّهم شيء مثل الخفاء. الفقراء إلى الله لا يضرّهم شيء مثل البَسْط ولا ينفعهم شيء مثل القَبْض. والأغنياء بالله لا ينفعهم شيء مثل البَسْط ولا يضرّهم شيء مثل القبض. والفقراء إلى الله لا يضرّهم شيء مثل الاشتغال مع الخلق ولا ينفعهم شيء مثل الاشتغال بنفوسهم. والأغنياء بالله لا يضرّهم شيء مثل الاشتغال بنفوسهم ولا ينفعهم شيء مثل الاشتغال مع الخلق. إلى ما لا نهاية له.

حاصِلَه: كل ما يليق بهؤلاء لا يليق بهؤلاء، وبالعكس. سبحان من جعل هذا الوجود كله قائم بين الأضداد بحيث صارت حسنات قوْمٍ عند قوم هي المصائب، ومصائب قوم عند قوم هي الحسنات.

وقولنا في الفقراء: يليق بهم هذا، يعني: هو الغالب على أحوالهم مع أنهم كذلك ما يليق بهم لا يليق لهم ولا لغيرهم إلاَّ بما لا يليق. ولكن الحكم للغالب. جرت سنّة الله تعالى أنَّ الوجود وما فيه لا يقوم إلاَّ بين ضِدَّين، ولكن لا يكون الحكم إلاَّ لواحِدٍ من الضِدَّين على الآخر في الوقت، والذي يكون له الحكم هو الغالب على كل حالٍ في الوقت.

[لا تكمل ولاية الولي حتى يتربى ثلاث مرات]

وأيضاً: لا تكمل ولاية الولي حتى يتربّى ثلاث مراتٍ: الأولى: تربية والديه: أُمِّهِ وأبيه. والثانية: تربية الخصوص، يعني من الأشياخ. والثالثة: تربية العموم بعد تربية الخصوص. تربية والديه: تربية جسَدِهِ. وتربية الخصوص: تربية المعاني. وتربية العموم: تربية الحسِّ.

[الفقراء المنتسبون إلى الله ثلاث فرق]

وأيضاً: الفقراء المنتسبون إلى الله على ثلاثة فِرقٍ: فرقة حَصَلَتْ لهم تَرْبية الخصوص ولم تحصل لهم تربية العوام. وفرقة أخرى بالعكس، حصلت لهم تربية العوام ولم تحصل لهم تربية الخصوص. وفرقة جمعت بين تربية الخصوص وتربية العوام. الفرقة الأولى هي أضعفهم. والثانية أقوى منها، أي من الأولى. والثالثة هي أفضلهم، وهي تعادلهما باثنين، أو تَرجُح عليهما.

الأولى: بمنزلة بَيِّنَة العدولِ.

والثانية: بمنزلة بيِّنة اللُّفِيفِ؛ تُقدَّم على بيِّنَة العُدُول لأنها أقوم منها لأجل ذلك تُرَجح عنها.

وأما الفرقة الثالثة: بمنزلة البيِّنَة التي اجتمع فيها شهادتين: شهادة العدول وشهادة اللفيف. لأجل ذلك تعادلهما باثنين. رزقنا الله محبَّة الجميع وحسْن الظنِّ بهم بفضلِهِ وإحسانه.

[الوجود منك وأنت منه]

وأيضاً: اعلم أنَّ الوجود في الحقيقة هو منك وأنت منه، يعني على قَدْرِ ما تكون أنت منه يكون هو منك، وعلى قدر ما تكون عبداً له يكون هو عبداً لك. وعلى قدر ما تكون أنت سيّده يكون هو سيّدك من غير زيادة ولا نقصانٍ. وعلى قدر ما تعظمه وتشكره يعظمك ويشكرك على قدر ذلك. وعلى قدر ما تحقره وتذمه يحقرك ويذمك. وعلى قدر ما تُنفق وتتكرَّم على الوجود يُنْفق هو ويتكرَّم عليك. وعلى قدر بخلك عليه يكون بخله هو عليك. وعلى قدر حُبّك له يكون حُبّه لك. وعلى قدر بُغضك له يكون بُغضه لك. وعلى قدر إقرارك له يكون إقراره لك. وعلى قدر إنكارك عليه يكون إنكاره عليك. وعلى قدر صِدْقكَ معه يكون صدقه معك. وعلى قدر كذبك عليه يكون كذبه عليك. وعلى قدر إحسانك له يكون إحسانه لك. وعلى قدر إسَاءتك له تكون

إساءته لك. وعلى قدر ذُلّكَ له يكون ذُلُّه لك. وعلى قدر عزِّك له يكون عِزُّه لك.. إلى ما لا ينتهي. كأن الأمور كلها منك تخرج وعليك تعود: خيرياتها وشرياتها، وكأن الأمور كلها بيدك والحق هو أنها كلها بيدك، من جهتك التي قَبَلتِ الرّبوبية. والحق أيضاً أنها ليست بيدِكَ شيء منها، أي من جهَتك التي قبلتِ العبودية، الخ.

[أهل خصوصية الظاهر وأهل خصوصية الباطن]

وأيضاً: أهل خصوصية الظاهر أهل فرْق، وسلاحهم فيها أسماء الحق. وأهل خصوصية الباطِنِ أهل جمع، وسلاحهم فيها مشاهدة الحق. أهل الأسماء تحصل لهم بها مواهب العلم والعمل. وأهل المشاهدة تحصل لهم بها مواهب العلم والعمل. إلاَّ أنَّ أهل الأسماء امتازوا بالمجاهدة ومكابدة تعب الحجاب. وأهل المشاهدة امتازوا براحة القلبِ والبَدَنِ في حضرة الشهود والعيانِ، شغلهم لذيذ المناجاة عن كل تعب ونَصَبٍ.

أهل الأسماء عبادتهم محصورة بحصرهم، مقيّدة بقيدهم عن علم اليقين. وأهل المشاهدة عبادتهم مكسوة بنور يخرق جميع الصدور، بارزة منهم عن عين اليقين. صاحب الاسم بِدَوام المجاهدة مع حجابه تحصل له أثمار العِرفان، وصاحب المشاهدة بدوام الشهود في المعبود يحصل له شرف العيان وثمرة العرفان. بذلك عظمت رتبته فوق الأقرانِ. قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: الآية 20].

[صاحب الصفات وصاحب الذات]

وأيضاً: صاحب الصفات عاقل وهو في غاية الحسّ، وصاحب الذات أحْمق وهو في غاية الحسّ. صاحب الصفات عالم وهو في غاية الحسّ، وصاحب الذات جاهل وهو في غاية الحسّ. صاحب الصفات عزيزٌ وهو في غاية الحسّ، وصاحب الذات ذليلٌ وهو في غاية الحسّ. صاحب الصفات قريبٌ وهو في غاية الحسّ، وصاحب الذات بعيدٌ وهو في غاية الحسّ. صاحب الصفات ملحوظ وهو في غاية الحسّ، وصاحب الذات مهمُولٌ وهو في غاية الحسّ، صاحب الصفات مُحْسِنٌ وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذّات مُسِيءٌ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات معروف وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذّات منكور وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات مُعطي وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذّات مانع وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات عُلْوي وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذّات سُفلي وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات سماوي وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذّات أرْضِي وَهُوَ

في غاية الحسّ، صاحب الصفات متكلم وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات ساكِتٌ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات مُقْبل وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات مُدْبِرٌ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات أوّلٌ وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات آخر وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات ظَاهِرٌ وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات باطِنٌ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات موصول وهو في غاية الحسّ، وصاحب الذَّات مقطوع وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات الخلق كلهم إخوان له وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات ماله في الوجود أَخٌ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات له أولاد ووالديْن وأصحاب وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات يتيم ما له ولَدَ ولا والِدٌ ولا صاحب وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات النَّاس كلهم أهل له، وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات منفرد في وُجُودِهِ وحْدهُ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات بالخلق في الخلق للخلقِ وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات بنفسهِ في نَفْسِهِ لنفْسِهِ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات كثير الأقران والأمثال وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات لا قَرِينَ له ولا مثِيلَ لهُ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات مفروق في اجتماعه وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات مجموع في افتراقه وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات يرفع الرفيع ويوضِع الوَضِيع وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات مستَوٍ عنده الرفيع والوضيع وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات يُقرُّ ما يقر وينكر ما يُنكِرُ وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات يقرُّ ما يُقِرُّ وما ينكر ولا عنده ما ينكُرُ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات راتِعٌ أبداً في العوائِدِ وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات راتِعٌ أبداً في خرق العوائد وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات فانٍ في عِلْم الغَيْبِ باقٍ في عِلْم الحاضِرِ وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات بَاقٍ في عِلْمِ الغَيْبِ، فَانٍ في عِلْم الحاضِرِ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات باقٍ بالصفات فانٍ في الذَّاتِ وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات باقٍ في الذاتِ فانٍ في الصفاتِ وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات تصرفه بالحِكمة وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات تصرفه بالقدرة وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات يَمْلك نفْسَهُ بِغْيرِه ويَملك غيره بنفسه وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات مَلِك على نَفْسِهِ ولا في الوجود غيره وَهُوَ في غاية الحسّ، صاحب الصفات سالك إلى الله بالأسباب وهو في غَاية الحسّ، وصاحب الذَّات مجذوب إلى الله بالتجريد وهو في غاية الحسّ. والعارف بالله الكامل هو ما اجتمعت فيه الأحوال كلها وأضدادها لو وُزِنَ فيهم لتعادَلَ.

[الروح والنفس شيء واحد]

وأيضاً: الروح هي النَّفْسُ، والنفس هي الروح، ولكن اختلفت أسماؤها باختلاف المقامات. مثلاً: كالإنسان في حال صغره يسمَّى صبيّاً طفلاً، فإذا وصل أشُدَّهُ يسمَّى رجلاً كَهْلاً. وفي حال هَرَمِهِ يسمَّى شيخاً. كذلك النَّفس مع الروح واحدة. لكن ما دامت النفس مسجونة في ظلمة الحجاب وهي تُسَمَّى نَفْساً فإذا انطلق سَرَاحها وخرجت من ظلمة الحجاب إلى نور العيان تُسَمَّى رُوحاً.

[ما يُقرّب الإنسان إلى مولاه]

وأيضاً: لا يُقرِّبُ طالب الله إلى الله شيئاً، مثل جُلوسه مع عارف بالله إن وجده. وإن لم يجده عليه بذكر الله ليلاً ونهاراً، قائماً وقاعداً، مع العزلة من أبناءِ الدُّنيا بعدم الجلوس معهم وعدم الكلام وعدم النظر فيهم لأنهم سُمٌّ خارِق، ولا يُبْعد طالب الله من الله شيئاً مثل جلوسه مع فقير جاهِلٍ. الفقير الجاهل أقبح من العامّي الغافِل بألف ضعفٍ. الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلةِ والعزلة أفضل من الجلوس مع العوامّ الغافلين. والجلوس مع العامّي الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل.

لا شيء في الوجود يُسَوّد قلب المريد مثل جِلْسَةٍ مع الفقير الجاهل، كما أن العارف بالله جمع بين المريد ومولاه بنظرة أو بكلمة، كذلك الفقير الجاهل بالله رُبَّما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها. يرحم الله سيدي عبد الرحمٰن المجذوب حيث قال في بعض كلامه: جِلسَة مع غير الخيار ترذل ولو تكون صَافِي.

[الوجود ما فيه إلاَّ ذات وصفات]

وأيضاً: اعلم أنَّ الوجود بأسره ما فيه إلاَّ ذاتٌ وصفاتٌ، ومهما ظهرتِ الذَّات تنقض الصفات. ومهما ظهرت الصفات تنقض الذات. يعني مَنْ واجهك بالصفات قابله بالذَّات، فإنك تغلبه، وكل من واجهك بالذات قابله بالصفات فإنك تغلبه. وسأبيّن لك شيئاً مِنَ الذات وشيئاً من الصفاتِ إن شاء الله.

الصَّمْت ذاتٌ والكلام صفاتٌ. والنظر صفات والعَمَى ذات. والسمع صفات والصَّمَم ذات. والقرْب صفات والبُعْد ذاتٌ. والعطاء صفاتٌ والمَنْع ذاتٌ. والعِزّ صفات والذلّ ذات. والعلم صفات والجهل ذات. والعقل صفات والحمق ذات. والإحسان صفات والإساءة ذاتٌ. والإقرار صفات والإنكار ذات. والعلويات كُلّها صفات والسّفليات كلها ذات. والإقبال صفات والإدبار ذات. والظهور صفات والبطون

ذات. والأول صفات والآخر ذات. والوصل صفات والانقطاع ذات. والاجتماع صفات والافتراق ذات. العوائد كلها صفات وخرق العوائد كلها ذات. والحياة صفات والموت ذاتٌ. والأسباب صفات والتجريد ذات. والضحك صفات والبكاء ذات. والوجد صفات والفقد ذات.

حاصله: كل ما هو جلال فهو ذات، وكل ما هو جمال فهو صفات، مع أنَّ الذات هي عين الصفات كما أن الصفات هي عين الذات، وكلما وجَهْتَهُ بذاتٍ فلم يفتح عليك وجَهْته بالصفاتِ فإنه يُفتح على كل حالٍ، وبالعكس، كلما وجهته بالصفات فلم يُفتح عليك وجَهْته بالذاتِ فهو يفتح على كل حالٍ. جرت سنَّة الله بذلك ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

[العلم الباطني]

وأيضاً: العلم الباطني يَبْرُز من بين عدم الحجاب، وبين وجودِهِ. ومهما خَرَجَ للظاهِرِ واستقرّت به يصير حجاباً عن المعلوم كأنه يخرج من بين الجمع والفرق، فإذا استقرَّ في الظاهر يصير فَرْقاً لا جمع فيه لكن لولا الفرق ما عرف قدر الجمع. كما أنّه لولا الجمع ما عُرف قدر الفَرْقِ. والعلم إخبار بالوصل وهو فرْق، كما أن العمل هو الوصل بنفسه، وهو جمعٌ، ولولا العلم ما عُرف الوَصْلُ ولولا العمل به ما وُجد الوَصْل.

[النفحات وأقسامها]

وأيضاً: النفحات روحٌ: النفحات الإلٰهية والنفحات الشيطانية. وكما أنَّ النفحات الشيطانية تجتمع بتَوَفُّرِ شروطِهَا، من أكل جميل ومشرب جميل وشمّ جميل ومنظر جميل ومسمع جميل.

وكما أنَّ أهل النفحات الشيطانية يغلِقُون عليهم الأبواب الحسّية، ويرخون عليهم الستور خوفاً من أن يدخل عليهم أحد من غير أهل فنِّهم، فتفسد عليهم نفحاتهم به، كذلك أهل النفحات الإلٰهية يغلقون عليهم الأبواب المعنوية ويرخون عليهم الستور المعنوية لئلاً يدخل عليهم أحدٌ ممّن لا يعرف فنونَهُمْ فتفسد به عليهم نفحاتهُمْ. لأجل هذا المعنى تجدهم رضي الله عنهم ربما يُقرّبون من ليس له قدر من أراذل الناس إن وجدوا فيه شيئاً من نسماتِهِم يأوونَهُ، وربما يُبْعِدونَ من له جاه ومال وقَدْرٌ في الناس إن لم يجدوا فيه شيئاً من نَسَمَاتِهِمْ لأنهم، رضي الله عنهم، مع ما به صلاح قلوبهم إن وجدوه وكيف وجدوه، لأنهم أرباب القلوب وإن كانت ظواهرهم خراباً.

[التخليط]

وأيضاً: الفساد والصلاح منبع عنصرهما واحد، وهو اختلاطُ الأشياء بأضدادها. وذلك أنه ما كان تخليطه عن علم بقانون الحِكمة وقانون القدرة فهو صلاحٌ، وما كان تخليطهُ عن جهل بقانون الحِكمة وقانون القدرة فهو فساد. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝﴾ [يوسف: الآية 4] . ولو حققت ودَقَّقت العلم لوجدته هو عين الجهل كما لو حققت ودَقَّقت الجهل لوجدته هو عين العلم لأنه كما أنَّ العِلْمَ دليلٌ على الذات، وهو حجاب عنها، كذلك الجهل دليل على الصفات وهو حجاب عنها. إذ لا يُحْجِبك عن الذَّاتِ إلاَّ الصفات، كما أنه لا يحجبك عن الصفات إلاَّ الذَّات، ولا ثَمَّ إلاَّ ذاتٌ وصفاتٌ. والثالث مُحالٌ، والمحال هو الذي لم يُخلقهُ الله ولم يكوِّنْهُ سبحانه وتعالى. سبحان من أظْهَرَ الحقيقة في الحقيقة بالحقيقة لمَّا أظهرها فيها ظهرت حتى لم تَخْفَ على أحَدٍ، ولما أخفاها فيها خَفِيَتْ حتى لم تظهر لأحَدٍ. سبحان القادر الحكيم.

[اشتراك العوام مع خاصة الخاصة في المقام دون المشاهدة ووحي الإلهام]

وأيضاً: اشتركت العوام مع خاصة الخاصة في المقام، ولم يشتركا في المشاهدة، ووحي الإلهام.

العوامُ في مقام الذات مع جهل في الذات وجهل بالصفات. والخاصة في مقام الصفات مع علم بالصفات وجَهْل بالذات. وخاصة الخاصة في مقام الذات مع علم بالصفات ومشاهدة بالذات في الذاتِ. الذات من غير صفاتٍ، سفليات، ما لها نِسْبَةٌ للعلويات. والصفات من غير ذاتٍ علويات ما لها نسبة للسفليات. وباجتماع الذات مع الصفات حصل شرف الذات بالصفات كما حصل شرف الصفات بالذَّاتِ. ونور الذات أشرقت به الصفات فحصل منه علم العلويات وعلم السّفليات. ونور الصفات أشرقت به الذات فقام به عَمَل السفليات وعمل العلويات.

[الخبر والعيان]

وأيضاً: الأخبار دليلة على الغيبة، عن المخبور عنه، لأنَّ الفعل ينقض القول كما أنَّ القول ينقض الفعل. القول باللسان دليل على عدم العيان إذ لو حصل العيان لبطل القول باللسان. وليس العيان كالخَبَرِ وليس الخبر كالعِيانِ. الأخبار تثبيتٌ لها، فالسمع

والعِيان مبطلانِ للأخبار والسؤال. الأخبار مخبِرَة بالحال للمبتدئين والعِيان مَرْتَعُ الكمال من الرِّجَالِ.

[كلام أبي المواهب التونسي رضي الله عنه]

وأيضاً: لسيدي أبي المواهب التونسي رحمه الله:

عليك يا سيّد الأكوانِ أجْمعها ... تحيّة الله ما دامت لنا النِّعم
مَنْ فَاتَهُ منكَ وَصل حَظهُ النَّدَمُ ... ومَنْ تَكُنْ همَّهُ تَسْمُو بِهِ الهِمَمُ
ونَاظِر في سوى معناكَ حُقَّ لَهُ ... يقتصّ من جَفْنِهِ بالدَّمع وهو دَمُ
والسَّمْعُ إنْ جَالَ فيه مَنْ يُحَدِّثُهُ ... سوى حَدِيثكَ أمْسَى وَقرهُ الصَّمَمُ
فَمَا المنَازِلُ لَوْلا أنْ تحُلَّ بِهَا ... وما الدِّيارُ وما الأطْلالُ والخِيَمُ
لَوْلاكَ ما شَاقَنِي رَبْعٌ ولا طَلَلُ ... ولا سَعَتْ بِي إلى نَحْوِكما قَدَمُ
في كل جَارِحَةِ عَيْنٌ أرَاك بها ... مِنِّي وفي كُلِّ عُضْوِ بالثناءِ فَمُ
فإنْ تَكلمْتُ لَمْ أنطِقْ بِغَيْركُمُ ... وكل قلْبي مشْغوف بِحبّكُمُ
أخَذْتُمْ حُبِّي منِّي في مُلاطَفَةٍ ... فَلَسْتُ أعرِفُ غَيْراً مُذْ عَرَفْتكُمُ
نَسِيتُ كلَّ طَرِيقٍ كُنْتُ أعرِفُها ... إلاَّ طَرِيقاً يُؤَدِّيني لِرَبْعِكُمُ

[صاحب الباطن]

صاحب الباطن لا يكمل مُلكه ويستوي قائماً حتى يقهر أهل زمانه من أرباب وقْتِهِ. وأرباب وقته هم أهل العلم الظاهري، وهم الفقهاء. وأهل العمل الظاهري وهم أهل الرياسة الظاهرية. فإذا ملك هاتين الفرقتين فالوقت وقته. مَن حبَّ حبَّ، ومن كَره كره، سواء كان ملكه لهم شوقاً ومحبَّة أو قهراً وخوفاً لأنَّ الأشياء لا يظهر شرفها إلاَّ بعد اقترانها بأضدادها. كذلك صاحب الباطن لا يظهر شرف عِلمِهِ حتى يقترن علمه الباطني مع علم أهل وقته الظاهري فعند ذلك تتميَّز الأشياء بأضدادها. وكذلك العمل لا يظهر شرف عمل صاحب الباطن حتى يقترن مع عمل أهل الرياسة من أهل وقته، فعند ذلك إذا كان باطنه مؤسَّساً على قواعد الحقيقة فإنه يغلب كل واحد ولا يغلبه أحد لأن الحق لا يغلبه غالبٌ ولا ينجو مِن حكمه هاربٌ.

[وصولك إلى الله تعالى]

وأيضاً: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، ولا شك أنَّ العلم منه ما يكون

عياناً، وهو علم أهل الشهودِ والعيانِ بلا حجابٍ. ومنه ما يكون خَبَراً وهو علم أهل الدليل والبُرْهان مع وجود الحجاب.

الأول وصول الخاصَّة، والثاني وصول العامة. والجامع بين العِلْمين في مقام خاصة الخاصة، يأخذ بيَدِ الخاصة، فيوصلهم بالمشاهدة والعيان كما يأخذ بيد العامة فيصلَهُمْ بالدَّلِيل والبُرْهان. صار بَرْزخاً بين بَحْرَين: بحر الشريعة وبحر الحقيقة، يعطي لكل ذي حق حقَّهُ ويوفي كل ذي قسْط قسْطهُ. رزقنا الله محبَّة الجميع وجعلنا بفضله مِنَ السالكين على منهجهم القوِيم.

[وَجْدُ الشيخ رضي الله عنه]

وأيضاً: كان الشيخ، رضي الله عنه، يعتريه الوجد العظيم في بعض الأحوالِ حتى لا يقدر على كتمانِهِ. وكان إذا عَرَضَ له كثيراً ما يلتفت إليَّ ويقول لي: الله أكبَرُ. قال ﷺ: «أنا خَزِينة العلم وعليّ بابُها»[1] سَمِعتها منه مراراً. وكان رضي الله عنه يقول لي: والله لولا أنّي أخْرُجُ بِقَصْدِ ملاقاتكَ لم أخرج من داري لأحدٍ. يعني به أصحابنا. وكان رضي الله عنه إذا رأى مجموعة من الأوراق التي أكتبها يطالِعُها فإذا رأى فيها علماً رقيقاً نفيساً، يأمُرُني أن ننسَخَها وندفع النسخة منها إليه.

[متى يكون التعبير على المقام]

وأيضاً: التَّعبير على المقام لا يكون إلاَّ عند الاستشراف على المقام. وأما إذا حَصَلَ المُقَامُ في المقامِ بالفعل، على كل حال ينقض الكلام.

[الناس على ثلاثة فرق]

وأيضاً: الناس على ثلاثة فِرَق: الأولى فِرْقة أهل الدنيا. والثانية: فرقة أهل الآخرة. والثالثة: فرقة أهل الله.

أهل الدنيا هم الذين شغلوا بالدنانير والدراهم، عن كل شيء.

وأهل الآخرة هم الذين شغلوا بالاجتهاد في العبادة عن كل شيء.

وأهل الله هم الذين تجرَّدُوا لله من كل شيءٍ، تجرّدوا من دُنْياهُمْ، وتجرَّدوا من آخِرتهم، وتجرَّدوا حتى من نفوسهم، ومن عقولهم، ومن حسبهم، ومن نَسَبهم، ومن

(1) رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عباس بلفظ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب» (حديث رقم 4637ـ ج 3 ص 137) ورواه غيره.

تدبيرهم، ومن اختيارهم، وتجرَّدوا مِنَ الخلائق كلهم، حتى لم يشغلهم عن الله شاغل، ولم يجدوا في أيديهم شيئاً أوْثق من مُشاهدة الله، فعند ذلك صاروا ملوكاً أحراراً كما قال بعضهم: عبد الدينار أسيرٌ وعبد الآخرة أجيرٌ، وعبد الله أميرٌ.

قال الشاعر:

كـانَـتْ لِـقَـلْـبِـي أهْـوَاءٌ مُـفَـرَّقَـةٌ ... فاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رأتْكَ العيْن أهْوَايَ
فصَارَ يَحْسُدُني مَنْ كُنتُ أحْسُدُهُ ... وصِرْت مولَى الوَرَى إذْ صِرْتَ مَوْلاَيَ
تَـرَكْـتُ لِـلـنَّـاس دينـهُـمْ ودُنيَـاهُـمْ ... تـشـغـلاً بِـكَ يـا دِيـنـي ودُنْـيَـاي

[أحوال العارف الكامل]

وأيضاً: الوليّ العارف بالله الكامل، تجده تارةً عاقِلاً في غاية الحسّ وتارة أحمق في غاية الحسّ، وتارة عالماً في غاية الحسّ، وتارة جاهلاً في غاية الحسّ، وتارة عزيزاً في غاية الحسّ، وتارة ذليلاً في غاية الحسّ، وتارة قريباً في غاية الحسّ، وتارة بعيداً في غاية الحسّ، وتارة ملحوظاً في غاية الحسّ، وتارة مهمولاً في غاية الحسّ، وتارة مُحْسناً في غاية الحسّ، وتارة مُسيئاً في غاية الحسّ، وتارة معروفاً في غاية الحسّ، وتارة منكوراً في غاية الحسّ، وتارة معطياً في غاية الحسّ، وتارة مانعاً في غاية الحسّ، وتارة علوِيّاً في غاية الحسّ، وتارة سُفلياً في غاية الحسّ، وتارة سماوياً في غاية الحسّ، وتارة أرْضياً في غاية الحسّ، وتارة متكلماً في غاية الحس، وتارة ساكتاً في غاية الحس، وتارة مقبِلاً في غاية الحس، وتارة مُدْبِراً في غاية الحس، وتارة أوّلاً في غاية الحس، وتارة آخِراً في غاية الحس، وتارة ظاهرياً في غاية الحسّ، وتارة باطنياً في غاية الحس، وتارة مَوْصُولاً في غاية الحسّ، وتارة مقطوعاً في غاية الحسّ، وتارة الخلق كلهم إخوان له، وهو في غاية الحس، وتارة ما له في الوجود أخ وهو في غاية الحس، وتارة له أولاد ووالدين وأصحاب في غاية الحسّ، وتارة يتيم ما له ولَدٌ ولا صاحبٌ في غاية الحسّ، وتارة الناس كلهم أهل له في غاية الحسّ، وتارة منفرد وحدهُ في غاية الحسّ، وتارة بالخلقِ في الخلق للخلقِ، في غاية الحس، وتارة بنفسِهِ في نفسه لنفسه في غاية الحسّ، وتارة كثير الأقران والأمثال في غاية الحس، وتارة لا قَرِين له ولا مثيل في غاية الحسّ، وتارة مفروقاً في اجتماعِهِ في غاية الحس، وتارةً مجموعاً في افتراقه في غاية الحسّ، وتارة يرفع الرفيع ويضع الوضيع في غاية الحس، وتارة يستوي عنده الرفيع والوضيع في غاية الحسّ، وتارة يقر ما يُقرُّ وينكر ما يُنكرُ ولا يجد ما ينكر في غاية الحسّ، وتارة راتِعاً في العوائد في غاية الحسّ، وتارة راتِعاً في

خَرْق العوائِدِ في غاية الحسّ، وتارة فانٍ في علم الغيب باقٍ في عِلْم الحاضِرِ في غاية الحسّ، وتارة باقٍ في الصفات في غاية الحسّ، فَانٍ في الذاتِ في غاية الحسّ، وتارة باقٍ في الذات فانٍ في الصفات في غاية الحسّ، وتارة تصرُّفُه بالحِكمة في غاية الحسّ، وتارة تصرُّفه بالقدرة في غاية الحسّ، وتارة يملك غيره بنفسه كما يملك نفسه بغيره في غاية الحسّ، وتارة مَلِكاً لنَفْسه بنفْسِهِ ولا في الوجود غيره في غاية الحسّ.

وأيضاً: قال بعض العارفين رضي الله عنهم: وليّ الله الكامل يتطور بجميع الأطوار ليقضي سائر الأطوار. وهذه الخصال هكذا لا تجتمع إلاّ في مجذوبٍ سالكٍ، ساكر صاحٍ، الذي لم يغلب سكره على صَحْوِهِ ولم يَغلب صحوهُ على سكرهِ، يعطي كل ذي حقٍّ حقَّهُ ويوفي كل ذي قسْطٍ قسْطهُ، وقليل ما هم (..).

[أحوال صاحب الظاهر في الزيادة والنقصان]

وأيضاً: اعلم أنَّ الظاهر صفاته زيادة ونقصان: واسِعاً وضيّقاً، مَرْفوعاً موضوعاً، علوياً سفلياً، كبيراً صغيراً، موجوداً مفقوداً، عزيزاً ذليلاً، قوياً ضعيفاً، معطياً مانِعاً، قادراً عاجِزاً، مَبْسوطاً مقبوضاً، مجموعاً مفروقاً، فرِحاً محزوناً، صحيحاً سقيماً، حيّاً ميّتاً، صديقاً عدوّاً، موصُولاً مقطوعاً، عامراً خالياً، اجتماعاً وفُرْقة، فرداً وجماعة، رخاء وشدة، إلى ما ليس له حصر من الأوصاف وأضدادها، وذلك لأنه فَرْق.

والباطن بخلاف ذلك، صفاته زيادة بلا نَقْصٍ، واسِعاً بلا ضيقٍ، مرفوعاً بلا وَضعٍ، علوياً بلا سُفلٍ، كبيراً بلا صُغْرٍ، موجود بلا فَقْدٍ، عزيزاً بِلا ذلٍّ، قوياً بلا ضعفٍ، معطياً بلا مَنْعٍ، قادراً بلا عجزٍ، مَبْسُوطاً بلا قَبْضٍ، مجموعاً بِلا فَرْقٍ، فرحاً بلا حُزْنٍ، صحيحاً بِلاَ سُقْم، حيّاً بلا موْتٍ، صديقاً بلا عدوٍّ، موصُولاً بلا انقِطاعٍ، عامراً بلا خَلاءٍ، مجموعاً بلا فرقةٍ، رخاءً بلا شدةٍ، إلى ما ليس له حَصْرٌ من هذه الأوصاف المجموعة بلا فَرْقٍ. لأجل ذلك من دخل بجَمْعِ الباطن لفَرْقِ الظاهر، فقد دخل على السِّر الأبدي كما أنَّ من دخل لفَرْقِ الظاهر قبل حصول جمع الباطن فهو مخذول. كما قال بعضهم:

أنــا مــع الــخــلــق بــالــحــق أُشاهد الجمع على بساطِ الفَرْق

وقال سيدي عبد الرحمٰن المجذوب نفعنا الله به: مَنْ شاهَدَ الكونَ بالكونْ عِزُّهُ في عَمْي البصيرة، ومَن شاهده بالمُكوِّنْ صادَف عِلاَجَ السِّريرة.

[الحرية لا تفارق العبودية وبالعكس]

وأيضاً: اعلم أنَّ العبودية لا تفارق الحرية، وكذلك الحرية لا تفارق العبودية.

والكلام في هذا المعنى المراد به ثلاثة أصنافٍ من الناس: أهل مقام الفناء في الله حرّيتهم في بواطنهم وعبوديتهم في ظواهرهم، هذه الفرقة الأولى.

والفرقة الثانية: أهل مقام البداية، وهم بعكس الفرقة الأولى، أي عبوديتهم في بواطِنِهِم وحرّيتهم في ظواهرهم.

والفرقة الثالثة: وهم رؤساء العامّة، وهم أيضاً عبوديتهم في بواطنهم وحريتهم في ظواهرهم.

الفرقة الأولى إذا شئت قلت: هم أهل البواطن الدينية. والفرقة الثانية إن شئت قلت: هم أهل الظواهر الدّنيوية. ومما جرت به عادة الله في الوجود أنَّ الوجود يقابل الإنسان بما في قلبه. قال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: الآية 70].

الفِرْقة الأولى، وهم أهل الفناءِ: قابلوا الوجود بقلوبهم مملوءةً حُرِّية، قابلهم الوجود بالحرية كما قابلوه فوجدوا أهل الأرضين والسماء ومن فيهن كلهم أحراراً. فلذلك تجدهم منكورين عند جميع الخلق.

وأهل الفرقة الثانية، وهم المبتدئون في طريق الفقر: قابلوا الوجود بقلوبهم مملوءة عبودية لله، قابلهم الوجود بالعبودية كما قابلوه فوجدوا أهل الأرض كلهم عبيداً لهم. «يا دُنْياي أَخْدُمي من خَدَمَنِي وأَتْعِبِي من خَدَمك»[1] الحديث. فلذلك تجدهم مبرورين عند الخلقِ: الوحوش والجمادات والنباتات والحيوانات، بل عند الوجود بأسره مبرورين.

وأما الفرقة الثالثة، وهم رؤساء العامة: قابلوا الوجود بقلوبهم مملوءة عبوديةٍ لنفوسهم، قابلهم الوجود عَبْداً لهم، لكن لا يدوم لهم ذلك لأن ما كان لله دام واتَّصل، وما كان لغير الله انقطع وانْفَصَل.

[خليفة الله في أرضه]

الفرقة الأولى: وهم أَهْل عِزِّ الفناءِ، يتعزز عليهم الوجود حتى لا يجدوا فيه رفيقاً إلاَّ العزيز المتعال، ثم يؤول أَمْرُهم فيندفعون للمقام الذي بعده، وهو مقام عبودية

(1) أورده الشهاب في مسنده بلفظ: «يا دنيا اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك» حديث رقم (1ـ888)، [ج 2 ص 325] وأورده أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (ج 3 ص 194) والحديث عند غيرهما.

البقاءِ، وهذه المرتبة يُقال لها: مَرْتبة الإرث النبوي، وصاحب هذا المقام هو خليفة الله في أرضه، أقدامه على أقدام الأنبياء والرسل عليهم السلام. لا ينكره شيء كما هو لا ينكر شيئاً، يقول بأمر الله للشيءِ كُن فيكون. وصاحب مقام ذلِّ عبودية البدايات، يعني بداية طلب الله، يتذلّل له الوجود يَكُون الوجود كله عبداً لأمْرِهِ ونهْيِهِ، وإذا دام على طلبه وسَلِمَ من الآفات ولم يتعذّر له في سيره شيء، فإنه يندفع للمقام الذي بعده وهو المقام الذي ذكرناه. فإذا حصل فيه فإنَّ الوجود يُنكرهُ بأسرهِ كما وصفنا بعدما كان خديماً له حتى لا يجد رفيقاً إلاَّ مولاه. وأما صاحب عبودية النفس من رؤساء العامة مثل أهل الدنيا وما يشبههم، فإن الوجود يكون خديماً لهم ثم ينقطِعُ، وذلك لأنهم عبيد للفاني، وهم فانون، وكل فانٍ فهو زَاهِقٌ والزَّاهق إذا تعلّق بالزَّاهق عندما يظهر الحق يزهقون جميعاً. قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسرَاء: الآية 81] .

[أقسام العامة]

والعامّة أيضاً ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الطلباء من أهل العلم الظاهر.

والقسم الثاني: أهل الرياسة.

والقسم الثالث: عامّة الناس من أهل الأسواق وأهل الحِرَف.

والعامة لا يُمْلكون إلاَّ بعبودية كاملة، وهي عبودية الأفعال لله، أو بحرية كاملة وهي حرية الأقوال بالله لا زائد. ومن تمادى إلى هذا الفنّ ولم يأخذه عن أربابه فقد عرَّض نفسه للهلاك ظاهراً وباطناً.

[التوجه لكل فنّ]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل فنٍّ توجهت إليه لا تجد فيه إلاَّ الحق، وكل فنٍّ توجهت إليه لا تظفر بمقدار حبَّة الخردل منه إلاَّ بعبوديتك لله، في عبوديتك لأهله. والفنون كلها تنقسم إلى زوج: فنون منسوبة إلى الله، وفنون منسوبة إلى توَهُّم غير الله، ولا غير. والخلق كلهم عبيد الله على الإطلاق، طوعاً أو كَرْهاً. لكن منهم من جعله الله سبحانه بفضله عبداً له بفنونِ نسبته تعالى فأدخله جنة قربهِ ومُشاهدته، ومنهم من جعله سُبحانه بعدْلِهِ عَبْداً له بفنون نسبة غيره ولا غير، فأدخله جَحيم بُعْده وحجابه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريَات: الآية 56] . وقال جلَّ من قائِلٍ:

﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: الآية 7] . «هؤلاء إلى الجنّة ولا أُبالي، وهؤلاء إلى النّار ولا أُبالي»[1] الحديث. ومَن طلب أن يخرج من عبودية، فقد طلب شيئاً لم يخلقْهُ الله تعالى. يرحم الله الشيخ الشاذلي حيث قال: فإنّه قَدْ ظَهَرَتِ السعادة على مَنْ أَحْبَبْتَهُ، وظَهَرَتِ الشقاوة على مَنْ غَيْرُكَ مَلكهُ.

[الفقير مثل الماء]

وأيضاً: لا يكون الفقير فَقيراً حتى يكون مثل الماء. الموضع السُّفلي إليه يسيرُ، والموضع العلوي لا يطلع إليه، إلاّ إذا طلع له قهراً، هذه صفة الفقير الصادق في أقوالهِ.

[الحكمة في الظاهر والباطن]

وأيضاً: الحِكْمَة في الظاهر مجموعة في مسألتين، وفي الباطن أيضاً مجموعة في مسألتين. في الظاهر ما رغبْت في شيءٍ إلاّ زهد فيك هو. ولا زهِدتَ في شيءٍ إلاّ رَغِبَ هو فيك. وفي الباطن بالعكس، ما رغِبْت في شيءٍ إلاّ رغبَ فيك هو كذلك، ولا زهدتَ في شيءٍ إلاّ زَهِدَ فيك هُوَ كذلك، وذلك لأنّ الاختلاف لا بُدَّ منه. الظاهر ضِدّ الباطن، والباطن ضد الظاهر مع أنه في الحقيقة الظاهر هو الباطن والباطن هو الظاهر. لكن الفرق افترق حتى لم يكن فيه اجتماع والجمع اجتمع حتى لم يُجَدْ فيه افتراق. والكل حق ولا ثَمَّ إلاّ الحق.

وأيضاً: اعلم أنّ الله تعالى خلق كل شيءٍ وكل شيء خَلق له ضدُّه. وكل ما انعقد لا يحُلُّهُ إلاّ ضِدّه، وكل ما جُهل لا يعلم إلاّ بِضدِّهِ، وكل ما فسد لا يصلح إلاّ بضده، وكل ما صلح لا يُفسد إلاّ بضدِّه، وكما أن إيجاد الأشياء لا يكون إلاّ باقتران الأضداد كذلك إعدامها لا يكون إلاّ باقتران الأضدادِ. وكما أنَّ حياة الأشياء كان بين اقترانِ الأضداد كذلك موتها لا يكون إلاّ باقترانِ الأضدادِ. وكما أنَّ القرب لا يكون إلاّ بين اقترانِ الأضدادِ كذلك البعد لا يكون إلاّ بين اقترانِ الأضدادِ. وكما أنَّ المحبَّة لا تكون إلاّ بين اقترانِ الأضدادِ كذلك البُغض لا يكون إلاّ بين اقتران الأضداد، وكما أنَّ العِزَّ لا يكون إلاّ بين اقترانِ الأضداد، كذلك الذلّ لا يكون إلاّ بين اقترانِ الأضدادِ.

---

(1) رواه الطبراني في مسند الشاميين عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله عز وجل آدم ضرب كتفه اليمنى فأخرج ذريته بيضاء كأنهم الدر، ثم ضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» رواه الإمام أحمد 6/ 441، وابنه عبد الله بإسناد صحيح 2214، ورواه غيره.

[كل شيء بضده]

حاصله: كل ما أوجد الله تعالى جرَتْ عادته لا يوجد إلاّ بين اقتران الأضدادِ، كذلك جرت عادته لا يُعْدِمه إلاّ بين اقترانِ الأضدادِ. الذي يعذّب به يَرْحَمُ به إن شاء، حِكْمته في قدرته، وقدرته في حِكْمته. سبحان الحكيم العليم.

[القرب للملوك فيه شرف]

وأيضاً: اعلم أنّه كما أنّ القرْب لملوك المعاني فيه شَرَفٌ وعِزٌ كذلك القرب لملوكِ الحسّ فيه شرف وعزٌ. لا ترجيح بين ملوك المعاني وملوك الحسّ.

[التصرُّف]

ملوكُ المعاني تصرُّفهم بالنور الساطِع، وملوك الحسّ تصرُّفُهُمْ بالسَّيْفِ القاطِع. أهل النور الساطع لا يقوم أمْرُهم حتى يتوافقون مع أهل السيف القاطِع وكذلك أهل السيف القاطع لا يقوم أمرهم حتى يتوافقون مع أهل النور الساطع. الكُمَّل من أهل النُّور الساطع لا تَجِدُهم أبداً إلاّ متعطشين لأهل السيف القاطِع وذلك لِعِلمهم أن مُلْكَهم لا يقوم كماله إلاّ بهم. أهل السيف القاطع تصرفهم بالظواهر، وأهل النور الساطع تصرُّفهم بالغَيْبِ، والظاهر لا يقوم إلاّ بالغيب، كما أن الغيب لا يقوم إلاّ بالظاهر. أهل الظاهر العمل عندهم غالِبٌ على العِلْم، وأهل الغيْبِ العِلْم عندهم غالب على العملِ. مع أنّ أهل الظّاهر أهْل عِلم وعمل، وأهل الغيب كذلك أهل علم وعمل. ولكن الحكم للغالب. أهل الظاهر عالمون بالظاهر وبالغيب ولا يعلمون إلاّ القليل لأنّ العمل ظلمَة وأهل الغيب عالمُونَ بالغيب وبالظاهر ولا يعملون إلاّ القليل لأن العلم نورٌ. كأنّ أهل الظاهر يسمعون فيَعْمَلُونَ، وأهل الغيب يَروْنَ فيعملون. وليس من رأى فعلهم كمن سمع فعَمِلَ، ولا من سَمِع فعمل كمن رأى فعلم. كأن عمل هذا لا يقوم إلا بعلم هذا، العلم له تأثير عظيمٌ كما أن العمل بالعلم. والتوفيق بالله.

[كل من نَزَّل نفسه في مقام لا يجدها إلاّ فيه]

وأيضاً: اعلم أنّ كُلّ مَنْ يُنَزِّل نفسه عبداً لعبيد الله حقاً، فهو سيد عبيد الله حقاً. وكل من ينزل نَفْسَه سيد عبيد الله حقاً فهو عبد عبيد الله حقاً. هكذا جرت حكمة الله تعالى في خلقه، من حبَّ حبَّ، ومن كره كره. انظر قول الصادِق المصدوق: «خدِيمُ القوم سيدهُمْ» الحديث.

[حقيقة المزاح وأهميته]

وأيضاً: ومن أعظم الحقائق التي ليس لها مثل في الحقائق الباطنية، وهو المزاح، وهو من الحقائق التي لا يقدر عليها إلاَّ الأقوياء من رجال أهل الباطن لأنه أعظم الحقائق السّفلية، وهو يكون بالقولِ دون الفعلِ. وهذا هو الوجه الأصغر منها. ويكون الفعل دون القول، وهذا هو الوجه الأوسط منها، وهو أقوى من الأول. ويكون أيضاً بالقول والفِعْلِ وهو الوجه الأكبر منها.

صاحب هذه الحقائق يملك بها الملوك حتى يصيروا كلهم عند أمْرِهِ ونَهْيِهِ. ويملك بها الوجود بأسره. صاحب المزَاحِ ما قابله أحد من أهل الجِدِّ بجِدِّهِ إلاَّ ويملكهُ صاحب المزاح. ولو كان صاحب الجدِّ الذي قابله مِلِكاً مِنَ الملوك يملكهُ صاحب المُزاح، حتى يصير عند أمْرِهِ ونَهْيِهِ، أحَبَّ أمْ كَرِهَ.

[ما خصَّ الله به هذا الإنسان]

وأيضاً: سبحان من خصَّ هذا الإنسان بما خَصَّهُ، ومن جملة ما خصه به: أنك تجده صغيراً كبيراً، قريباً بعيداً، ميّتاً حيّاً، ذليلاً عزيزاً، سُفلياً علويّاً، عاجِزاً قادراً، ساكتاً متكلماً، جاهلاً عالماً، مظلماً منوّراً، واسعاً ضيّقاً، فاعِلاً مفعولاً، مبسوطاً مقبوضاً، بخيلاً كريماً، مظلماً منوّراً، واسعاً ضيّقاً، والداً مولوداً، وليس والِدٍ ولا مولودٍ، مفروقاً مجموعاً، حارّاً بارِداً، مقبلاً مُدبِراً، نائماً يقظاً، قوياً ضعيفاً، محسناً مسِيئاً، مُقِرّاً ناكِراً، غالباً مغلوباً، مانِعاً مُعْطِياً، قائماً جالساً، ساكناً متحركاً، غائباً حاضراً، حسيّاً معنوياً، عاقلاً أحمقاً، صادقاً كاذباً، حقاً باطِلاً، ظالماً مظلوماً، حبيباً عدوّاً، ظاهراً باطناً، صالحاً فاسداً، برّاً فاجراً، غنيّاً فقيراً، عالِماً مُتعلماً، ذكراً أو أُنثى، عبداً حرّاً، فاعِلاً بنفسه مفعُولاً به، ضاحِكاً باكياً، فرحاً غاضباً، راحلاً قاطِناً، صانعاً مصنوعاً، مُدَبّراً وهو مدبِّر، شاكراً مشكوراً، ذاكراً مذكوراً، حاكماً محكوماً عليه، قاهراً مقهوراً، ناظراً منظوراً، هو الخير وهو الشرُّ، هو الربح وهو الخسران، هو المالِك وهو المملوك، هو المتصرِّف وهو المتصرَّف فيه، وهو المعظم وهو المحقَّر، وهو المكيّف المحصور وهو الذي لا يكيَّف ولا يُحصَر، وهو الذي عَرَف نفسه وهو الذي جهل نفسه، وهو الذي رأى مولاه وأقرَّ بوحدانيته وهو الذي حُجِب عن مولاه وكفر برُبُوبيته، وهو الحجاب وهو المحجوب، وهو القابِض وهو المقبوض، وهو الطَّالب وهو المطلوب، وهو الحبيب وهو المحبوب، وهو الذي من أجله وُجد الوجود، وهو الذي من أجله يُعْدَم الوجود، ولولاه ما كان النعيم المقيم، ولولاه ما

سُعُر الجحيم، هو عريس المملكة، وهو أميرها، وهو خديمها، وذليلها وحقيرها.

حاصِلهُ: لو الُفت في الإنسان ألف ألف مجلَّد، فيما خصّ الله به لمْ أخصِ ذلك، والكل فضل منه عليه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية 34] .

[قف على التسوّل]

وأيضاً: اعلم أنّي كنت في زمَنِ الصّبا أسمع أهل الدنيا يتمازحون مع بعضهم ويقولون: السعاية هي الملك الأصغر. فلما بلغت زمن الكهولة وعقلت وفهمت وجدتها والله هي المُلك الأكبر، لأني نظرت وحققت فلم أجد شيئاً أسرع لقتل النفس من تذلّلها للأقران بخلاف من قال: إنها تموت بالتذلّل لله، مع أنَّ التذلل لله حاصل لكل أحدٍ، حتى للكافر، لأنَّ التذلّل للعظيم ليس تذلّل، وإنما التذلّل حقاً هو التذلّل للحقير وهو العبد.

[العلم والعمل]

وأيضاً: اعلم أنَّ العلم إذا قارنه شيء يسيرٌ من العمل فَضْله ما له حد ولا حصر ولا نهاية، وذلك هي مرتبة الخاصة، من خاصة أهل الخصوصية، وينقسمون على أربعة أقسام: صاحب علم من غير عَمَلٍ، وهذا بَطَّالٌ. وصاحب عمل من غير عِلْمٍ، وهذا جاهل. وصاحب عمل يصحبه شيء يسيرٌ من العِلْم، وهذا مُبْتديء. وصاحب علم يصحبه شيء من العمل، وهذا منتهي.

الأوّلُ إذا دام في عمله يرجى له أن يدفعه العلم إلى العمل، ولا ينقلب علمه جَهْلاً لأنَّ من عادته تعالى يخرج الأشياء من أضدادها، وصاحب العمل مع شيء يسير من العلم أشرف من الفرقتين الأوليين، لأنه راتع في بلاد الخاصة. وصاحب العلم الذي قارنه شيء يسير من العمل، فهذا من أهل المقامات والأحوال وذلك مرتبة خاصة الخاصة. رزقنا الله محبة الجميع وجعلنا عبيداً لهم بفضله وإحسانه.

[طريقتنا مثل سُرّاق الليل هذا مثلها]

وأيضاً: طريقتنا هذه مثلُهَا مثل سُرّاق الليل ما داموا واحِداً أو زوجاً، أمرهم مستورٌ. وأما ثلاثة فمخاطرة، وأما إذا كانوا أربعة يقوم عليهم جميع الخلق بالصياح من كل جانبٍ حتى لا ينجوا برؤوسهم إلاَّ إذا نجّاهم الله.

[قف على علم الباطن وعلى واضعه]

هذا العلم وضعه النبي ﷺ في بعض أصحابه سِرّاً، ولو كان يليق الجهر به لجهر به هو ﷺ. كذلك صار على هذه السنة الخلفاء من بعده يأخذه بعضهم على بعضٍ سرّاً رضي الله عنهم إلى الآن. وكل من حام حول الجَهْر بهذا السرّ فقد عرّض نفسه للهلاك، كما قيل: مَنْ فَهِم الإشارة فلْيَصُنها وإلاَّ سوف يُقْتَلُ بالسِّنَنِ.

[الخير في ملاقاة الخلق]

وأيضاً: اعلم أن الخير كله في ملاقاة الخلق جميعاً. ومن أراد أن يملك الخلق طُرّاً فليكثر من ملاقاتهم طرّاً. فإنه يملكهم طرّاً أحبّوا أم كرهُوا. انظر طريق سيدي عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به من شروطها السياحة أربعة عشر سنة لملاقاة الخلقَ. والتوفيق بالله.

[السائر في بلاد الباطن والظاهر]

وأيضاً: اعلم أنَّ السائر في بلادِ الباطن لا تظهر عليه إلاَّ الكرامات المعنوية. كما أن السائر في بلاد الظاهر لا تظهر عليه إلاَّ الكرامات الظاهرية أي الحسية. وإن ظهرت على صاحب الباطن الكرامات الحسية تكون له قسمة من الكرامات المعنوية، وتسعة أقسام من الكرامات الحسية. وصاحب الظاهر لا ينتهي حتى يستشرف على بلاد الباطِن، كما أنَّ صاحب الباطن لا ينتهي حيث يستشرف على بلاد الظاهر، وهكذا. وبالله التوفيق.

[ما تَتَهَرّس به النَّفس وتغلب وهي ثمانية حقائق]

وأيضاً: سمعت الشيخ، نفعنا الله به، يقول: مسائل تتهرّس بها النفس. أوّلها: السعاية للخلق ثم العزلة من الخلق ثم الجوع ثم السياحة ثم سقي الماء للخلق ثم الطواف في الأسواق بالبندير، ثم الكلام مع من يلتقيك من الناس، خصوصاً وعموماً، والطواف بالبخور، يبخر الناس من غير طلبِ الأجْرِ، ثم الحَفَا والعَرَا من الثياب. هذه ثمانية حقائق مباحات وهن من الخصائص العُظمى التي تجمع العبد على الله، يعني العبد الصادق في طلبه لله. وكأنها أبواب إلى الله كُلُّ من دخل من واحدة من هذه الثمانية، ودام فيها، بها يدخل على الله، وبها يصل إلى الله. وذلك بشرطٍ، والشرط هو الإقبال على الله بواحدة من هذه الأبواب بمرافقة أرباب الفنّ الماهرين في علم الحقيقة، وقليل ما هم. وهذا القياس من طريق السلوك في الجذبِ.

[أهل الفناء على فرقتين]

أيضاً: اعلم أنَّ أهل الفناءِ على فرقتين: أهل الفناء بذواتهم، وأهل الفناء بصفاتهم. والحضرة اثنتين: حضرة ذات، وحضرة صفات. أهل الفناء بذواتهم حصلوا على حضرة ذات الحق، وفرقة أخرى جمعت بين الحَضْرَتين: حضرة الذات وحضرة الصفات. وذلك أنهم فنَوْا أولاً بذواتهم فحصلوا على حضرة الصفات واستقرّوا بها ما شاء الله، ثم إنهم لم يقفوا هذا بك وزادوا للفناءِ بصفاتهم، فحصلوا على حضرة الذات واستقروا بها ما شاء الله، ثم إنهم بعد ذلك استوى سرورهم في الحَضْرَتين تارة في هذه وتارة في هذه. ومنهم، أي من هاتين الفرقتين، أي الثالث منهما بعكس ذلك، فنى أولاً بصفاته حتى حصل على حضرة الذات، ثم بعد ذلك فنى بذاته حتى حصل على حضرة الصفات، ثم بعد ذلك استوى سروره في الحضْرَتّين، وهذه الفرقة هي أفضل الثلاثة لأنها جمعت بين السلوكِ والجذبِ أو بين الجذب والسلوك.

أهل الفناء بالذاتِ، الذين حصلوا على حضرة الصفات، هم أهل الأسباب. وأهل الفناء بالصفات الذين حصلوا على حضرة الذات، هم أهل التجريد. والذين فنوا بذواتهم حتى حصلوا على حضرة الصفات ثم فنوا بصفاتهم حتى حصلوا على حضرة الذات هم الجامعون بين السلوك والجذب، وهذه الفرقة هي أهل دواء القلوب، وقليل ما هم.

[مُدَّعوا الخصوصية على اثنين]

وأيضاً: اعلم أن مُدَّعي الخصوصية بالكذب اثنان، الأول: ادَّعى الخصوصية من غير خصوصية وهو في ذلك راضٍ عن نفسه مستكفي بعلمه، لم تتحرك له هِمَّة للخروج عن عالم طَبْعِهِ، فهذا كاذِبٌ فاسِقٌ، لعنة الله على الكاذِبِينَ.

والآخر: ادعى الخصوصية من غير خصوصية، وهو سائر في طريقها بمرافقة أهل التحقيق. فهذا، وإن كان لم يحصل على الخصوصية ببدنه، فهو وصلها بنيَّته وهمَّتِهِ. حَمَلَهُ التَّعشق والتشوّق إليها. إن ادعى أنه مستقرّ بها واصل إليها فلا شك أن النيّة أبلغ من العمل، مع أن هذا حصلت له النية الصادقة، وهو سائر في سَيْره بالعمل. صار ذلك القول بالأصل عنه، مثل هذا، ربما يطلبه منه أرباب الفنّ لأنهم مع ما في صلاح قلوبهم كمن أراد أن يكون مَلِكاً، إذا لم يَدَّع المُلك قبل ظفره بالمُلكِ، لا يظفر بمُلكه أبداً، جَرَت عادة الله في خلقه أين يُنَزِّل الإنسان نفسه ثم يجدها، والخلق بأجمعهم لا يُنزلونك إلاّ أين تنزل نَفسك.

[الخلق من حيث نفعك أو ضرّك على قسمين]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخلق مقسومين على قسمين: قسم نافِعٌ لك، وقسم ضَارٌ لك، لا زائِدَ. مَنْ لم يكن فيه نفعٌ ففيه ضرٌ، وبالعكس. وغير هذا لم يكن إلاَّ أنَّ العارفين بالله رضي الله عنهم الكل عندهم خيرٌ لأنهم استوى عندهم الخير والشر. يزيدون بالخير كما يزيدون بالشرّ، ويزيدون بالشرّ كما يزيدون بالخير. والعامة بخلاف ذلك الخير عندهم مليحٌ يجتهدون في جَلبِهِ، والشرُ عندهم قبيح يجتهدون في دفعه، وهذا الجلب والدفع يتوهمونه العوام لضعفهم. وأما في الحقيقة لا يكون إلاَّ ما سبق في علم الله تعالى، وما قدَّره في الأزل: «فرَغ ربك من أرْبَع. . .» الحديث. ولو امْتحَت عنهم حجب الأوهام لبطل اشتغالهم بالتَّصويب والترتيب، واشتغلوا بالتنعُّم في مشاهدة الحبيب ولرأوا كل ما أوجد الله تعالى فهو على غاية الحسن والترتيب. انظر كلام الشيخ سيدنا عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به في قصيدته الكبرى المعروفة له، حيث قال:

وكُلُّ قَبيحٍ إنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ ... أَتَتْكَ مَعَانِي الحُسْنِ فيه تُسَارِعُ
يُكَمِّلُ نُقصانَ القبيحِ جَمَالُهُ ... فما ثَمَّ نُقصان وما ثَمَّ بَاشِعُ

[الإِقْبال على الله]

وأيضاً: إقبالُك على الله بذاتك يشهدك صفات الحق. وإقبالك على الله بصفاتك يُشهدك ذات الحق. جرت سنة الله بذلك. أن ذاته لا تشاهدها إلاَّ بصفاتِك، وصفاته لا تشاهدها إلاَّ بذاتِكَ، ومن أراد أن يشهد الذات بالذات فهو جاهل بحكمة الله وسنّته في خلقِهِ. وكذلك من أراد أن يشهد الصفات بالصفاتِ فهو جاهِلٌ بحكمة الله وسنتِهِ، كيف أجراها في خَلْقه. قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿269﴾﴾ [البَقَرَة: الآية 269] .

[الإنسان له همَّتان]

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان له همَّتان: همَّة باطنية، وهمَّة ظاهرية. فالهمَّة الظاهرة ترجمانها الأفعال ومثله في ذلك كالشجرة. الهمَّة الباطنة هي أصلها وهي جمع. والهمة الظاهرة هي فروعها، وهي فَرْقٌ. إذا كبرت همَّة باطِنِهِ، وهي أقواله، صغرت همَّة ظاهره، وهي أفعاله. وإذا صغرت همَّة باطنه وهي أقواله كبُرت همَّة ظاهره وهي أفعاله. والأقوال هنا نعني بها العلم، والأفعال هنا بمعنى العملِ.

أما أهل البدايات، الغالب عليهم أنك تجد همَّة أفعالهم غالبة على همَّة أقوالهم.

وأما أهل النهايات، الغالب عليهم أنك تجد همَّة أقوالهم غالبة على همَّة أفعالهم. انظر قول القائل: اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً. ولا شك أن الأدب هو العلم. وانظر في الأشجار أيضاً تجدهم زمن زيادة أُصُولهم وهو زمن الشتاء، يكون النقص في فروعهم. وزمن زيادة فروعهم، وهو المصيف، يكون النقص في أصولهم. كذلك الإنسان ما زاد في باطنه نقص من ظاهره. وما زاد في ظاهره نقص من باطنه. جرت سنة الله بذلك، كأنَّ المادة واحدة ما زاد منها في الظاهر نقص من الباطِن، وما زاد منها في الباطِنِ نقص من الظاهر، وهكذا.

[الخلق كلهم أولاد لذكر وأنثى]

وأيضاً: اعلم أنَّ الخلق كلهم أولاد لذكر وأُنثى. والكبير منهم من كبرت همَّته الباطنية، وهي علمه، أو من كبرت همَّته الظاهرية، وهي مالُهُ. وعلى كِبَر هاتين الهمَّتين تكون كبرية الإنسان، وبالعكس. الصغير من الخلق من صغرت همَّته الظاهرية، وهي مالُهُ، أو من صغرت همَّته الباطنية، وهي علمه. وعلى قدر صغر هاتين الهمَّتين يصغر أو يكبر الإنسان. ورزق الظاهر والباطن على قدر علوِّ الهِمَم.

[المعادن]

وأيضاً: سمعت الشيخ نفعنا الله به يتكلم، حتى قال في بعض كلامِهِ: . . . والشبّ والكبريت تقطر في القطارة، وماؤها هو الماء القاطع الذي يقطع في المعادن كلها، من الهند والنحاس والحديد والفِضَّة والذهب، وما أشبه ذلك. قال: أنا جرَّبته. وسمعته أيضاً رحمه الله يقول: قال: كنت أُجالس رجلاً من الصالحين، يعني من شيوخهم نفعنا الله بهم، نتحدث معه سوياً، ولم أسمعه أبداً يقول: أنا، ولا يذكر نفسه أبداً بخير ولا بِشرٍّ.

[الجذب على قسمين]

وأيضاً: الجذب على قسمين: جذب العامة وجذب الخاصة. جَذْبُ العامَّة جذبٌ مُنْشِيء عشقاً وشوقاً ومحبَّة للمخلوقِ. وجذب الخاصة جذب منشيء عشقاً وشوقاً ومحبَّة لله تبارك وتعالى. وجذب خاصة الخاصة: هو الذي جمع خير الحالتين، ظاهره جذب العامَّة وباطنه جذب الخاصة. حصلوا على خير الحضرتين: حضرة المخلوق، وحضرة الخالق. وهذه الفرقة هي أشرفهم.

[الصلاح والفساد كلها خير]

وأيضاً: اعلم أنه على قدر ما في الصلاح من خير، على قدر ما في الفساد من خير. وعلى قدر ما في العقل من خير على قدر ما في الحمق من خير. وعلى قدر ما في العزّ من خير على قدر ما في الذلّ من خير، لأنَّ هؤلاء كلهم مصنوعات الله والله تبارك وتعالى جميل، وكل ما يخلق الجميل لا يكون إلاَّ جميلاً. انظر قول سيدي عبد القادر الجيلاني في قصيدته المعروفة حيث قال:

وكـلّ قـبـيـح إن نـسـبْـت لـحـسـنِـهِ   أتتك معاني الحسن فيه تُسَارِعُ (. . .)

[علوّ العبد]

وأيضاً: علوّ العبد في عِزّه وشرفه، يدل على كبْرِ مولاه ورفعته وعظمته.

[الظاهر والباطن]

وأيضاً: اعلم أنَّ الظاهر مع الباطن، كأنَّ الظاهر ولدٌ والباطن أبوه. إذا كان الباطن قوياً لا يلد ولده إلاَّ قوياً، وهو الظاهر. وإذا كان الباطن ضعيفاً لا يلد ولده إلاَّ ضعيفاً، وهو الظاهر. وإذا كان الباطن ظلمانياً لا يلد ظاهره إلاَّ ظلمانياً. وإذا كان الباطن نورانياً لا يلد ظاهره إلاَّ نورانياً. حاصل الأمر: الظاهر نتيجة الباطن.

[ميزان الحقيقة والشريعة]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ ذات يوم: يا ولدي، الحق يكمل ظهوره على أربع. قلت له: كيف يا سيدي؟ قال لي: أوْزِن بميزانِ الحقيقة والشريعة تعْرِفْ. ففعلت ما قال لي، فظهر لي الأمر كذلك. فقلت له: يا سيدي فعلتُ. فقال لي: وما ذاك؟ قلت له: يا سيدي وجدت العلم ينوّر البصيرة والبصيرة تنوّر الهمَّة، والهمَّة تنوّر الفعل، ومهما ظهر الفعل فذلك كمال ظهور الحق والحق إذا كمل ظهوره تخضع له رقاب أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما.

العلم ينوّر البصيرة باليقين، واليقين ينورٌ الهمَّة بالاهتمام، والاهتمام ينوِّر الفعل بالتأثير والبرهان، وإن ظهر التأثير والبرهان، فذاك هو الكمال.

[الفقر أصل كل خير]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ رحمه الله ذات يوم، قال لي: يا ولدي لولا الفقر

من الدنيا ما استقام لنا شيء، ولكن لما أراد الله بنا خيراً أمدّنا بالفقر منها وذلك سُنَّة الله في خواصّ عباده من الأنبياء والصالحين، ينزع الدنيا من أيديهم حتى تمتلىء قلوبهم نوراً ويقيناً وعلماً. ثم بعد ذلك، إذا ردّهم إليها لا تضرّهم ولو كانت أمثال الجبال لا تزيدهم إلاّ خيراً وعوناً على ما في أيديهم لأنها تصير عندهم بحسب التبع لا تلجّ قلوبهم أبداً، وإنما منزلتها ظواهرهم فقط وأما قلوبهم فقد ملئت علماً وحِكمة وختم عليها بخاتم التوحيد المجرد، في القلب المفرد، لا ينفكُّ خَتمَها أبداً. ولو كانت الدنيا في أيديهم أولاً ما استقام لهم شيء من ذلك لأنَّ القلب إذا كان فارغاً لا يمتلىء إلاّ بما في اليدِ، وهي الدنيا، وإذا تمكّنت الدنيا من القلب لا يدخل عليها شيء من أسرار الأولياء أبدا، إلاّ القليل من الناس وهذا القليل لا يستقيم لهم ذلك إلاّ إذا أخذوا من جهة الصحبة لأحدٍ من العارفين بالله الماهرين في معالجة النفوس، وإن وُجدوا وقليل ما هم، وإلاّ فلا. قال الششتري: عندي محبوب إنما هو غيورْ يُهَلّل كطير حزوزْ، إن رأى شيئاً إمتنع أنْ يَزُوزْ لأنه مهما دخلَ في القلب توهّم السوءِ أخرج الحقّ منه.

[من أراد أن يغلب يُغْلَب]

وأيضاً: اعلم أن كل مَن أراد أن يغلب يُغلب. وكل من أراد أن يُغْلب يَغلب. وكل من أراد أن يَمْلِك يُملك. وكل من أراد أنْ يُملك يَملِك. وكل من أراد أن يعظم يحقر، وكل من أراد أن يحقر يتعظم. وكل من أراد أن يكبر يصغر، وكل من يريد أن يصغر يكبر. وكل من أراد أن ينعزّ لا بدّ له أن ينذلّ، وكل من يريد أن ينذلّ لا بد أن ينعَزّ.

حاصله: الأشياء كامنة في أضدادها، وأوصاف الكمال كامنة في أوصاف النقص، وأوصاف النقص كامنة في أوصاف الكمالِ، والكل كَمَالٌ ولا نَقص.

[عظمة الرَّب الكريم في الكون]

وأيضاً: انظر يا أخي هذا الرب الكريم ما أعظمه! ملكَ نفسه بنفسه كيف شاء، وجعل يتصرف في نفسه بنفسه كما شاء. سبحانه من إله، أوجد الوجود منه به إليه، ويعدمه منه به إليه، وأعزّ منه به إليه، وأذلّ منه به إليه. وعلم منه به إليه. وجهل منه به إليه. وأعطى منه به إليه. ومنع منه به إليه، ونصر منه به إليه. وخذل منه به إليه. ورفع منه به إليه. ووضع منه به إليه. وأغنى به منه إليه. وأفقر منه به إليه. وملك منه به إليه. واستملك منه به إليه. هكذا ينبغي أن تكون القدرة البالغة، سبحان القادر على من يشاء بما يشاء كيف يشاء، لا إله إلاّ هو سبحانه وتعالى علوّاً كبيراً.

[مُرَاد نفسك منك]

اعلم أنَّ غاية مراد نفسك منك أن تجمعَكَ مع ما أنت منه وهو منك، وهو الوجود وما فيه. والنفس حق، وهي حتماً لا ترشدك إلاَّ بما هو حق. ويدلك على ذلك كون مدارها كله دائر على الجمع. وذلك لأنها منه جاءت وعليه تدور وإليه تعود. والنفس عند العارفين بالله هي حق الحق ولا تتحرك إلاَّ بالحق، فالحق من الحق للحق.

[من نظر الله في الوجود كله]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى قال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية 139] . ومن ذلك أنك إذا نظرت في الوجود كله غير الله نظر الوجود كله فيك غير الله. وإذا تكرَّمت على الوجود تكرَّم عليك الوجود كله. وإذا بخلت على الوجود بخل عليك الوجود كله. وإذا ظننت في الوجود سوء، ظنَّ الوجود كله فيك سوءاً. وإذا ظننت في الوجود خيراً ظنَّ الوجود ومن فيه كله فيك خيراً. وإذا أحسنت للوجود أحْسَن الوجود كله لك. وإذا أسأت للوجود أساء الوجود كله لك. وإذا خنت الوجود خانك الوجود كله. وإذا عظمْت الوجود عظمك الوجود كلُّهُ، وإذا حقرْت الوجود حقركَ الوجود كله، وهكذا إلى ما لا ينحصر.

حاصله: الوجود كالمرآة، بما قابلته يُقَابِلك وذلك لأنَّ نَفْسَكَ نسخة من الوجود، والوجود نسخة منك. ونفسك تعدل الوجود كله والوجود يَعْدل نفسك. شاهده قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: الآية 32] .

[تكرمك للوجود أو لنفسك]

وأيضاً: اعلم أنك إذا تكرمْت على الوجود ونسيت نفسك، فإنَّ الوجود يتكرَّم عليك وينسى نفسه، وإذا تكرَّمت على نفسك ونسيت الوجود فإن الوجود يتكرَّم على نفسه وينساك. وعلامة شرف الإنسان على الوجود هو أن الوجود كله تابع لهمَّة الإنسان، صار الوجود كله تابع للإنسان يتحرك بتحركه ويسكن بسكونه، كأنَّ الوجود قشر والإنسان لبُّهُ. وفي بعض كلام الششتري رحمه الله قال:

أنـت مِـرْآة الـنـظـرْ وقـطـبُ الـزَّمـانِ وفيك انطوَى ما انتشَرْ مِنَ الأوانِي

يعني بالإنسان: القطب، لأن القطب عليه مدار الوجود. انظر قوله تعالى في

الحديث القدسي: «عَبْدي خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي»[1]. صار الإنسان هو ذرة الوجود، ومدار الوجود كله على الإنسان. كما أنَّ ذرَّة الإنسان هي روحُهُ ومدار الإنسان كله على الروح، ولو بطلَت الروح لبطل الإنسان، ولو بطل الإنسان لبطل الوجود. انظر يا أخي هذه الروح ما أشرفها وما أكرمها وما أعظم شأنها! وهي في الإنسان وهو لا يعرف قدرَها. ومما يدلك على عِظم شَرَفها قول الصادق المصدوق: «من عَرف نفسَهُ عَرف ربَّهُ»[2] الحديث. صارت معرفتها هي معرفة الله، وعدم معرفتها هي عدم معرفة الله.

ويتفاوت الناس في معرفة الله على قدر معرفتهم بنفوسهم، ولا يعرفها حق معرفتها إلاَّ الله. وانظر الإنسان إن حققته تجده يتلوَّن بالألوانِ كلها، كل وقت هو في شأنٍ وحال لا يشبه حالاً، وذلك من أجل النُّور الذي وُضِع فيه، وهو الروح، مهما تلوَّنت روحه بلوْنٍ يتلوَّن هو بلونها، كأنه هو، أي الإنسان حجاب على نفسه، والوجود حجاب عليه، ونور الروح يخرق حجاب الجسم وحجاب الوجود. ولو كانت ألف ألف حجاب على الروح لخرقهم نورها من عظم قوته، ولو ألَّف المؤلفون مئة ألف مُجَلَّد في علم الروح ما وصلوا على الألف من حروف اسم.

[مَن ادَّعى شيئاً وثبت فيه فهو له]

وأيضاً: مثل العامي الذي يلقي نفسه في الخصوصية كمثل مَن كان مِنْ عامَّة الناس، ثم إنه ادَّعى الملك، هذا لا يقدر عليه إلاَّ الأقوياء من الرجال. كذلك الخصوصية. ولمَّا يدعي المُلك أولاً يكون كأنه كذَّاب، ثم بعد ذلك يصير صحيحاً: مَلِكاً حقاً. كذلك الخصوصية، أول ما يدَّعيها صاحبها يكون كأنه كذَّابٌ أو ممازح ثم بعد ذلك هو يأخذ فيها ويطول ويثبت وهي لا تصح له حتى تصير له حقاً حقيقاً. المُلك والخصوصية من لم يجنهما كاذب، لم يجنهما حقاً. قال الشاعر:

الحبّ آخِرُهُ مَنَايَا   وأوّله شبيه بالمُزَاحِ

وهذه المَعْنَى إن فتشْتَ وجدتَّها في كل شيءٍ أوله يكون كأنه كَذِبٌ وآخره يكون صحيحاً حقاً.

[عبادة الله تنقسم على قسمين]

اعلم أن عبادة الله تعالى تنقسم على قسمين: عبادة الحسِّ وعبادة المعنى. مع أنَّ

(1) أورده المناوي في فيض القدير (ج 5 ص 366) طبعة المكتبة التجارية.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

أهل عبادة الحسّ لا تقوم عبادتهم إلاّ بالمعاني، ولكن الغالب عندهم، هي عبادة الحسّ. وأهل عبادة المعاني لا تقوم عبادتهم إلاّ بالحسّ، ولكن الغالب عندهم هي عبادة المعاني. لأنَّ عباد الله في الوجود ما اجتمع اثنين إلاّ كان الحكم للواحد على الآخر، وإلاّ واحدٌ يُهْلِك الآخر. أما أهل عبادة المعاني أهل راحة وبسْطٍ. وأهل عبادة الحسّ أهل تعبٍ وقبضٍ. وأهل المعاني البَسْط هو الغالب عليهم، وأهل الحسّ القبضِ هو الغالب عليهم، والحكم واحد. سبحان من أعطى كل قلبٍ ما أشغله، وجعل ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 53].

[العلم والعمل]

وأيضاً: اعلم أنَّ مَنْ لم يشتهر بفنِّه، لا يحسب من أهله، ولو حاز فيه من العلم ما حاز، لأن العلم خَبَرٌ وليس الخبر كالعيانِ.

العلم بغَيْر عملٍ كأنه أساس في بَطنِ الأرض، من غير بنيان على وجه الأرض. أعوذ بالله من علمٍ لا ينفع لأن العلم روح والعمل جَسَدهُ، ولولا الجسد ما عُرِفَتْ الرُوح، ولولا الروح ما عُرِف الجسد.

[الحقيقة مثل الإشارة]

وأيضاً: الحقيقة مثل الإشارة، والإشارة مثل الأسد، مهما قابلته ولم تحمل عليه وترْميه يحمل عليك ويرميك، إن رميته ملكتَهُ وتصرفت فيه وإن رماكَ ملكك وتصرّف فيك وبك. يرحم الله القائل:

لوح جملك وارقد من اسمك الضواحي   واعـزم قـبـل لا يـلـوحـك الأواحـي

[قف على التلوّن]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقيقة لها أصول وفروع، وحقيقة أصولها وفروعها هو التلوّن. والتلوّن اسم وصفات، والصفات هي عين الذّاتِ، والذات هي عين الصفات. وما كملت بداية البدايات إلاّ بالتلوّن، كذلك ما كملت نهاية النهايات إلاّ بالتلونِ، والتلوُّنِ حاصل على كل حالٍ، من لم يأته طوعاً يأته كَرْهاً، وشتَّانَ بين من سَلكه عارفاً به ومن سلكه تالفاً فيه.

[أول ما يرد على طالب هذه الطريق، وكيف ينقله شيخه من مقام إلى مقام]

أول ما يرِد على طالب هذه الطريقة على الشيخ، يجده الشيخ على فطرة الله التي

فطر الناس عليها، ومن ذلك: أنه يجده عزيزاً بنفسه، غنيّاً بنفسه، قادراً بنفسه، قوياً بنفسه، جاهلاً بربّه، فيأخذ بنقله إلى مقام التخلّي، وهو مقام الخاصة، لأنَّ ذلك المقام الذي وجده فيه هو مقام سائر العوام فينقله إلى مقام الخاصة برفق، شيئاً فشيئاً، حتى يصير ذليلاً بنفسه، فقيراً بنفسه، عاجزاً بنفسه، ضعيفاً بنفسه، ولما يُحسّ منه أنه حصّل هذا المقام، يُنقله أيضاً إلى مقام أعلى من هذا، وهو مقام خاصة الخاصة. وهو مقام التجلّي فيصير غنيّاً بالله، عزيزاً بالله، قويّاً بالله، قادراً بالله، فحينئذ يصير عارفاً بالله فيدخل في حضن مولاه، فيصير يغرف من بحور الحِكمة علماً وعملاً، جعلنا الله من أهل هذا الحظ العظيم بفضله وإحسانه وجوده وكرمه.

[ما يكون عليه الإنسان عند ولادته]

وأيضاً: أول ما يبرز الإنسان من بطن أمه إلى الدنيا، يكون حقيقة بلا شريعة ثم بعد ذلك هو يزيد في العمر وهو يترقى للشرائع. الحقائق تخرج والشرائع تسكن فيه شيئاً فشيئاً حتى تزهق الحقيقة ولا تبقى فيه إلاَّ الشريعة المحضة. ثم بعد ذلك يرجع إلى الحقيقة بالشريعة حتى تستوي فيه حقائقه وشرائعه، فعند ذلك ينتهي، فهذه هي مرتبة الكُمّال، ما بعدها إلاَّ الانتهاء في الأمور كلها، ظاهراً وباطناً، وبالله التوفيق.

[اسمه القهار]

وأيضاً: ومن أسمائه تعالى القهّار، ومن جملة قهره سبحانه أن جعل الإنسان تَرِد عليه أحوال يسلكها وهو كارهٌ لها، ولا يقدر أن ينقذ نفسه منها ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية 24] ، وذلك أنَّ مولاك أعرف منك بما يصلح لك. قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية 216] ، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: الآية 71] صدق الله العظيم.

[شرف العلم وأهله]

وأيضاً: اعلم أن الله تعالى شرّف العلم وشرّف أهله بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية 28] ، وقال رسول الله ﷺ: «علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل». وقال: «العلماء ورثة الأنبياء»، أو كما قال. وهذا الميراث أهله على فرقتين: فرقة أهل علم شرعي ظاهري، وفرقة أهل علم إلهامي، علم باطني حقيقي، العلم الحقيقي ورد من حضرة الجمع إلى حضرة الفرق، والعلم الشرعي ورد من

حضرة الفرق إلى حضرة الجمع.

وأهل العلم الشرعي لا يقوم علمُهُم إلاَّ بالعلم الحقيقي، ولكن الحكم للغالب عليهم، وهو العلم الشرعي. وأهل العلم الحقيقي لا يقوم علمهم إلاَّ بالعلم الشرعي، ولكن الحكم للغالب عليهم وهو العلم الحقيقي. وفي الأصل الجمع والفرق واحدٌ، والعلم الحقيقي والشرعي واحد، ولكن اختلفت الألوان باختلاف الذات. والصفات الأولية التي ليس لها بداية، والآخرية التي ليس لها نهاية.

[شرف الإنسان على غيره]

وأيضاً: انظر يا أخي، ما أكرم هذا الآدمي على الله! حتى قال فيه الصادق المصدوق: «إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ على صورتِهِ» الحديث. ومن كمال خَلقته أن جعل له ظاهراً وباطناً، باطنه جَمْعٌ، وظاهره فرق. وجعل فَرْقه يَنْشأ عن جَمْعِهِ وجمْعَه ينشأ عن فَرْقِهِ.

[خرق العوائد]

وأيضاً: قال في الحِكَم: كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد. ومن جملة عوائد الإنسان الاكتفاء بقلبه ونظره وعقله. والإنكار على غيره ولو كان أعلم منه وأفقه منه. وأصل ذلك من الاختلاف الطبيعي الذي خلقه الله في الإنسان وجعله مجبولاً عليه، بل الإنسان وغيره، وذلك من لباب الحِكمة، سبحان الحكيم العليم. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: الآية 118].

وحقيقة خرق العادة، أي بعض حقائقه، هو فعل أبي الحسن الشاذلي رحمه الله، عند ملاقاة الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش حيث قال: اللهُمَّ إنِّي اغتسلت من علمي وعملي حتى لا أملك علماً ولا عملاً إلاَّ ما يَرِد عليَّ من هذا الشيخ. نفعنا الله بالجميع. هذا والله ممَّن خرق العادة مِنْ نفسه. انظر يا أخي ماذا حاز رحمه الله من خير بهذه الكلمات. فيجب على كل مُبْتدىء في هذه الطريقة الشاذلية أن يتمسَّك بفعل هذا الإمام الجليل ويسير على هذا المِنْهَج القويم، لينال بعض ما نال هؤلاء الأئمة الراسخين. جعلنا الله من المتمسكين بأذيالهم، السالكين على سُنَنِهِم، الوارثين لأسرارهم، بفضله وإحسانه آمين.

[ضرر الأنانية وتجنبها]

وأيضاً: اعلم أن كل من قال: أنا، من قبل أن يعرف حكم: أنا. هو أنا. ما أنا

هُوَ. فهو شيطان ملعونٌ مطرود، لأنَّ الشيطان، لعنه الله، حين أمرَهُ الله تعالى بالسجود لآدم قال: أنا. ذلك سبب لَعْنِهِ وطَرْدِهِ مِن رحمة الله. وكذلك وقع لفِرْعون حيث قال: أنا، بغير علم. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وكان ذلك له هو سبب خِزْي الدنيا والآخرة. نسأل الله السلامة.

[شرف خرق العادة]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل ما يظهر على الإنسان من عظمةٍ وتكبُّر وتجبُّر فإنَّ الإنسان في ذلك لم يتعدَّ طورهُ. وذلك لأنه ورد من حضرة العزِّ والكبرياء والعظمة والشرف، صارت الكبرياء والعظمة هي عادته في بلاد الأولية التي ليس لها بداية. ومن جاء على أصله فلا سؤال عليه وكل ما يظهر على الإنسان من عجزٍ وضعفٍ وتذلل وفقرٍ فذلك هو خَرْق العادة، لأجل ذلك تجِد من يخرق العادة من نفسه قليلٌ لأنَّ غَرْسَ العادة يُثمر العادة، وغرس خرق العادة يُثمر خرق العادة. وأنت: ثمار ما قد غرست تجْنِي، كما قيل. كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد. صارت العامة كلهم مجبولين على عادتهم الأولى، أحوالهم كلها لا تشير إلاَّ لما كانوا فيه أوَّلاً وهذا الأمر لا يعرفه من نفسه أو من غيره إلاَّ من سلك بلاد المعرفة أو صحب من سلكها. وخرق هذه العوائد صعب عظيم، ثقيل على النفس، لا يظفر به إلاَّ الخصوص، ولا يظفر به الخصوص إلاَّ بصحبة الخصوص. ومن يقدر أن يقتحم لبارئه الذلَّ بعد العزِّ، ولباس الفقر أو لباس الضعف بعد القوة، ولباس العجز بعد القدرة، هذا مما لا يكون إلاَّ بتوفيق الله. ومن عرف ما قصد هانَ عليه ما ترك. وكل من لزِم عادة الناس لا يظهر عليه إلاَّ ما يظهر على خاصة الناس وإذا أمعنت النظر في الناس تجد كل من ظفر بحكمة من حِكم الدنيا والآخرة من حِكمة النفوس، ولا من حِكمة الفلوس، تجده ما ظفر بها حتى خرَقَ العادة من نفسه فيها. ولولا ذلك لم يظفر بها أبداً. قال الشاذلي رحمة الله عليه: اللهُمَّ إنَّ القوم قد حكَمْت عليهم بالذلِّ حتى عزُّوا وحكمت عليهم بالفَقْد حتى وجَدُوا. وقال الشاعر:

أدَبُ العَبْد تَذلل والعَبْدُ لا يَدَعُ الأدَبْ فإذا الكامل ذلّه نال المَوَدَّة واقْتَرَبْ

والذليل شفيع لا يُرَدّ أبداً، لا من جهة الخلق ولا من جهة الخالِق.

[العاقل والأحمق]

وأيضاً: اعلم أنَّ أعقل الناس من أراد أن يعرف نفسه بالله، وأحمق الناس مَنْ أراد أن يعرف الله بنفسه. وأعلم الناس من أراد أن يملك نفسه بالله وأجهل الناس من

أراد أن يملك الله بنفسه، لأنه لا يعرف مولانا إلاّ مولانا، ولا يملك مولانا إلاّ مولانا، ولا موجود مستغني عن مولانا إلاّ مولانا.

[فضل الله في اللقاء بالنبي جهرة، حصّل وسلّم للرجال]

وأيضاً: اعلم أنَّ مما خصَّني به مولانا من فضله وجوده وإحسانه، أن جعلني ما ذكرت النبي ﷺ بفكرٍ أو بذكرٍ إلاّ وجدته معي، وأنا بين يديه جهرة، حسّاً لا معنى، يحدثني ﷺ بعلوم المغيبات، وآخذ عنه علوم الظاهر وعلوم الباطن وأصحابه الكرام جالسون معي بين يديه ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين. هذا مما تفضّل عليَّ الكريم جلَّ ثناؤه وتقدّست صفاته وأسماؤه. والحمد لله على ذلك. فصِرْتُ آخُذ العلم والعمل من عين العلم والعمل، والجود والكرم من عين الجود والكرم، والصدق والتصديق من عين الصدق والتصديق، والحق والتحقيق من عين الحق والتحقيق. فيه أرْقُصُ وبه أُغَنِّي وفيه فناء فنائي عَنِّي، فهو ذِكري وشهودي وفكري، وهو شرابي ومدامي وخمري.

[اسم الله العظيم جعله الله في الذّل]

وأيضاً: اعلم أنَّ اسم الله العظيم الأعظم جعله الله تبارك وتعالى في الذُّلّ، مَن سأل به أُعطي، ومن دعا به أُجيب. مهما تذلّلت لمولاك أو للمخلوق إذا شاهدت فيه مولاك، بنفسك أو جِنْسِك، استجاب لك في الحين. قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: الآية 55] ، وقال جلَّ من قائِلٍ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل: الآية 62] ، قَرَنَ الإجابة مع الاضطرار لأنَّ مع الاضطرار يقع الذل، ومع الذل يكون العزّ لأنَّك مهما قابلت مولاك بالذلّ أغمسك في العِزّ، ومهما قابلت مولاك بالعِزّ أغمسك في الذلّ. وما توجَّهت بالذلّ لمولاك في شيء إلاّ قضاه الله تبارك وتعالى لك في الحين، أو توجهت لعباد الله تعالى أيضاً بالذلّ، وشهدت فيهم مولاك، إلاّ قضى الله تبارك وتعالى حاجتك من عندهم في الحين، من غير تَعْطيلٍ ولا تَعَبٍ ولا نَصَبٍ. لأن توجهك إليهم به هو توجهك إليه بهم، حجبْت عنهم به، فنيت الآثار، وبقي المؤثر.

قال ابن عطاء الله: مُحَال أنْ تَشْهَدَهُ وتشهد معه غيره. وقال أيضاً: تحقق بأوصافِكَ يمدُّكَ بأوصافِهِ.

[الاحتفاظ على النفس والجنس والحق تعالى]

وأيضاً: وممّا أوصاني به شيخي رضي الله عنه قال: احتفظ على نفسك واحتفظ على أبناء جنسك واحتفظ على ربك. وقال لي أيضاً: الحِكمة بين الشيء وضدِّه. وقال لي: الداخل لحضرة الخالق عند الخلق منكورٌ، والخارج من حضرة الخالق عند الخلق مبرورٌ. وقال لي أيضاً: كُنْ طالباً ولا تكن مطلوباً وكن عاشقاً ولا تكُن معشوقاً.

[صاحب الأذكار وصاحب الأفكار]

وأيضاً: مثل صاحب الأذكار وصاحب الأفكار مثل الصنّيع مع المسبب، لأنَّ التجار الكبار لا يكونون من أهل الصنائع وإنما يكونون من أهل الأسباب. قالوا: دِرْهم التجارة خير من عشرة إجارات، لأنَّ الدنيا لا تكثر إلاَّ عند أهل التجارات، وإذا كان أحد من أهل الصنائع تملَّكَ الدنيا لا يكون إلاَّ ناقصاً بالنسبة لأهل التجارات. وبهذا جرت عادة الله في أرضه. ولكن الصنعة إنما هي للسترةِ. قالوا: الصنعة إذا ما أغْنَت تَسْتُرْ. هذه نهايتها. والأسباب هي محلُّ الغِنى لأهل التجارة، وهذا قياس صحيح لأنَّ الفكر جعله الله لا يعادله شيء من جوارح الإنسان. كما قال في الحديث الصريح: «تفكُّر ساعة أفضل من عبادة سنة»[1]، وكما قال ابن عطاء الله في الحِكَم: ما نَفَع القلب شيء مثل عُزلة، يدخل بها ميدان فكرة، لأنَّ أهل الأفكار هم أهل العزِّ وأهل الكنز الفكر عبادتهم، وهو أشرف العبادات. لأنَّ صاحب الفكر سلطان لا يعادله أحدٌ، بيته بيت العلوم والمعارف بالله ما بين أعمال الفِكر وأعمال الجوارح، ما بين التطهّر بالماءِ وبالتيمم إن لم يجد الإنسان الماءَ، انتقل إلى التيمم، كذلك إذا لم يجد الإنسان سبيلاً إلى الفِكرِ انتقل إلى الذِّكر، كما قال الجنيد:

تَوَضَّأْ بِمَاءِ الغَيْبِ إنْ كُنْتَ ذا سِرٍّ ... وإلاَّ تَيَمَّمْ بالصَّعِيدِ أو بالصَّخْرِ

ماء الغيب يعني الفِكر، والصعيد أو الصَّخر إشارة إلى أعمال الجوارح.

كما قيل أيضاً: ذرّة من أعمال القلوب أفضل من الجبال من أعمال الجوارح.

[من طلب الله صادقاً وجده]

وأيضاً: رجلان قصدا إلى الله، الأول يعرف ما قَصَدَ فلم يجد إلاَّ الله، ولم

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور (ج 1 ص 409) وابن كثير في التفسير (ج 1، ص 439) ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن الحسن بلفظ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» حديث رقم (35223).

يعرف ما وجَدَ. والثاني رجل قاصد إلى الله وقد عَرَفَ ما قَصَدَ، فلم يجد سوى الله وقد عَرَفَ ما وجَدَ. الأول مكسُوّ بكسوة جلالِهِ، مشغول به عنه في جميع أحوالِهِ. والثاني: مكسوّ بكسوة جمالِهِ، مشغول به منه. هذا من كمال أوصافه.

الأول: شرب خمرة الحب ولم يعرفها، محجوب عن عذوبتها وعن لذَّتِهَا. والثاني: شرب الخمرة وعرفها، وقطف من أنوارها، وأكل من أثمارها. فسبحان من أعْطى وتفضَّل وقَسَم بين العبادِ فعَدَلَ. فهنيئاً لمن دخل من أبواب الجودِ والكمال، والويل ثم الويْل لمن سَبَقَ عليه القول بسابقِ الأزَلِ.

[الوجود قائم بين اثنين]

وأيضاً: اعلم أنَّ مِن إتقانِ صنع الله، صُنْعُ الله تعالى في هذا الوجود. أن جعله قائماً بين اثنين. قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: الآية 49]، وذلك لتفرُّد الوحدانية لله الواحد الأحد، جلَّ ثناؤهُ وتقدَّست صِفَاته وأسماؤهُ وجعل لكل شيء ضداً، وكل شيء عاشقاً لضدِهِ، طالباً له، ومهما وقع الوصول بين تلك الأضداد قام الوجود وظهر بينهم، كالمرأة مع الرجل، مهما التقيا، وُجد بينهما الولد. فإذا هو خصيمٌ مبينٌ. وكالشتاء مع الصيف، مهما التقيا في الإنسان قامت ذاتهُ وصحُتُ، وإن غلب واحد على الآخر هلك واضمحَلَّ.

[خلق الله من كل شيء زوجين]

اعلم أنَّ الله تعالى خلق من كل شيء زوجين، ومن جملة ذلك، أن جعل لعبده رزقين، رزق حسِّي بَدَني، ورزق معنوي. وجعل كل واحد منهما يستمدّ من الآخر. الحسِّي لا يقوم إلاَّ بالمعنوي، والمعنوي لا يقوم إلاَّ بالحسيِّ. إذا عظمت مادة الحسي ضعفت مادة المعنوي، وإذا عظمت مادة المعنوي ضعفَت مادة الحسي، سواء أحبَّ العبد أم كره.

[إذا قويت مادة النور بك انكشفت لك بها المغيبات العلوية والسفلية]

إذا حَويت مادة النور انكشف لك به بواطِن المغيبات في الملكوتِ العلوي والسفلي، وأشرقت عليك به شموس الحقائق في جميع الحضرات، صرت مؤنساً بالحبيب في روضة الجمالِ، وساكراً بمُدَام حضرة أهل الكمال، قائِلاً بلسان حالك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: الآية 34].

[قف على الظلمة وتجنّب طلوعها فيك]

وإذا قويت مادّة الظُّلام، طلعت سحائِبُ الأكوَانِ، واستوت على مِرْآةِ قلبِكَ، فحجبت عنك شموس العِرْفان، فأنت إذ ذاكَ مِن أبناءِ جنسك. فإن كنت عارفاً بجميع أحوالك فاعلم أنه تجلّى فيك بكمالِ أوصافِهِ وظهر فيك بما لا ينسب إليك من جميل أفعاله. ثم إنه أراد أن يتمّم نِعمتَهُ عليك، فرَضِيَ به منك إليه، لئلا يفوتك خير الحَضْرَتين: خير حضرة ربك، وخير حضرة نَفسك. خير حضرة ربك يقوّيك على حضرة نفسك، وخير حضرة نفسك يقويك به على حضرة ربك. والكل منه وإليه، قال جلّ من قائلٍ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: الآية 34] . هذا مقام الخاصة الحمّادون، الذين يحمدون الله على كل حالٍ. وأما خاصة الخاصة، هم أهل الفناءِ، لا يشهدون موجوداً سوى الحق. صاحب الفناء صارت عنده حضرة نفسه، هي حضرة ربِّهِ، وحضرة ربِّه هي حضرة نفسه، إن جَمَع سرَّهُ على مولاه لا يشهد إلاَّ إيَّاهُ ولو كُلِّفَ غير ذلك ما أطاقه. جعلنا الله منهم بمحضِ فضله وكَرَمِه.

[سرّ الصمت]

وأيضاً: ومما سمعت من الشيخ، نفعنا الله به، يقول: قال بعض الناس: أَخْضِ فَمَكَ تُستجاب دَعوتك. وأنا أقول: أخْضِ كلمتك تستجاب دعوتك مع الله ومع العباد.

[المنسوب محسوب]

وأيضاً: اعلم يا أخي أنَّ الكذَّاب عند الناس هو الذي لم ينتسب إلى مولاه. وأمّا من ينتسب إلى مولاه فهو الصادق المصدّق. وأما من يكذّب المنتسب فهو الكذّاب المكذِّب، لأنَّه كذَّبَ نفسه حين لم ينتسب إلى مولاه وكذَّب غيره حين انتسب إلى مولاه. ولو كان المنتسب منتسِباً بلسانه ولم يظهر لنا عليه أثر لذلك سوى مجرّد اللسان، فيجب علينا أن نَحمِلَهُ على الصِّدْقِ في دعوته، ونحسِن ظننا به لأنَّ النبي ﷺ قال: «أُمرت أن أحكم بالظواهر والله يتولَّى السرائر» الحديث. وقال أيضاً: «من قال لا إلٰه إلاَّ الله له ما لنا وعليه ما علينا»، أو كما قال: ألا نرى الإنسان إذا قال: لا إلٰه إلاَّ الله محمد رسول الله بلسانه ولم يظهر لنا عليه أثر أعمالٍ، هل نصدِّق في أعماله أم لا؟ بل نصدِّق في إسلامه ولا نقول: إلاَّ أخونا ومِنّا، إذا مات يجب علينا أن نصلي عليه، وندفنه في مقابر المسلمين، وإذا كان حيّاً أخونا ومنّا يعمهُ ما يعُمّنا، إن صحَّ هذا في العمومية كذلك يصح أولى وأحرى في الخصوصية لأنَّ من انتسب إلى مولاه بلسانه

وكُذِّبَ صار هذا من سوءِ الظن بعباد الله. أعاذنا الله منه. وفي الحديث: «خصلتان ليس فوقهما من الخير شيءٌ: حسن الظنّ بالله وحسْن الظنّ بعباد الله. وخصلَتَان ليس فوقهما من الشر شيء: سُوء الظنّ بالله وسوء الظن بعباد الله».

[حسن الظنّ بالولي]

وأيضاً: اعلم يا أخي أنَّ انتفاع الناس من الوليّ على قدر حسْن ظنِّهم به، وهلاك الناس من الولي على قدر سوءِ ظنهم به. لأنَّ الله تعالى قال على لسان نبيِّه ﷺ: «أنا عِنْد ظنّ عبدي بي». حرام على من ساء الظنَّ في الوليّ أن لا ينال مِنْهُ إلاَّ شرّاً لأنَّ ظنَّه السُوْء هو الذي حال بينه وبين خَيرهِ. وحرام على من حسَّن الظنَّ بالوليّ أن يُمنع خيره، بل ينتفع بخيره ويمنع شره، لأنَّ الوليّ كالكَيلِ، الكيل الذي تقبل عليه به هو الكَيْل الذي يعطيك به. الوافي بالوافي، والناقص بالناقصِ.

[شرف العزلة]

وأيضاً: صاحبنا عِزَّته هي عُزْلتهُ، وحرفته هي فكرته، صاحبنا معتزل عن الخلقِ، معشش في حضرة الحق. صاحبنا معتزِل عن أهل النقائِصِ، فَانياً في مشاهدة الحسن والإحسان.

[الجذب والسلوك والتصرف بالحق]

وأيضاً: اعلم أنَّ الجذب حقيقته إنما هو عشق ومحبّة، والسلوك حقيقته. إنما هو خوف وهيبة، لأنَّ النفس لا يخرجك عنها إلاَّ شوق مقلق أو خوف مزعج. وخروجك عنها هو اشتغالك بحقائقها. ومهما فنيتَ عنها في حقائقها صارتْ هي تتصرَّف في حقائقها لأنَّها عند ذلك تكون تابعةً لك. فعند ذلك تصير صفتها صفة النّفس وفعلها فعل الحق. لأنها هي منك وأنت منها، فبسبب تعلقك بالحقّ يكسيها الحق بكسوة الحقّ، فتصير تتصرف بتصرُّف الحقّ، كلما فَنيَتْ عنها في شهود الحق فنيت أفعالها، ولم يبق إلاَّ الحق بالحقّ. وما نوصيك يا أخي إذا حضر وقت الطَّمَع فكن أكبرهم، وإذا حضر وقت الكَرَم فكن أنت أكبرهم، ويدك العليا عنهم أكبرهم وأصغرهم، ولو بالمزاح.

[سِرُّ الملك على قدر عُزْلة الخلق]

وأيضاً: اعلم أن طريقتنا طريق المُلك، والمَلِك أول ما يحتاج إليه العُزْلة عن

الناس حسّاً ومعنى. المَلِكُ لا يُجالس إلاَّ مَنْ يليق ببساطِهِ ويكون تحت يديه، وعند أمره ونهيه. وأما إذا كان مختلطاً مع عامة الناس يفعل كفعلهم، ولا يخالطهم في أحوالهم ولا في أقوالهم، ولا في أفعالهم فإنه إذ ذاك من جملةِ العامة لا خصوصية له وإنما تحصل له الخصوصية من بينهم بمخالفته إيَّاهم في أقواله وفي أفعاله وفي أحواله. وبذلك يحصل له العزّ والرفعة، وبذلك تعلُو مرتبته عن مراتب الناسِ.

[بعض الأضداد]

وأيضاً: من الأضدادِ: الخوف المزعجُ، والشوق المقلق، والعلم والجهل، والعطاء والمنع، والمَدح والذَّمّ، والخير والشرُّ، والمرُّ والحلوُ، والذلّ والعزّ، والغنى والفقر، والضعف والقوة، والعجز والقدرة، والحبيب والعدوّ، والصيف والشتاء، والماء والنارُ، والصحة والسُّقم، والحياة والممات، والصِّغر والكِبَر، والغضَب والرضَى، والكَرَم والبُخْل.

[التوفيق وعدمه]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ رحمه الله، قال لي: إذا توقفت في شيءٍ أو احْتَجْتَ إلى شيءٍ فاقصد مَعْدنه، أو اقصد أهله. إذا قصدت معدنَهُ فإنه يلقيك مع أهله، وإذا قصدت أهله فإنهم يجمعونك مع معدنِهِ. فإنه يلقيك مع أهله لأنَّ كل شيءٍ أهله في معدنه ومعدنه عند أهله. ومما سمعت شيخنا يقول: يا ولدي، الإنسان موضع كَسْرِهِ هو موضع تجبيره، وأعظم مهمَّة للإنسان الكَسر، والكسْرُ هو النَّفس، ولا جَبْر للإنسان أقرب وأعظم من نفسه، هي أعدى الأعادي وهي أحبّ الأحباء.

[الطواف في الأسواق]

ومما قال لي سيدنا: يا ولدي، عليك بالأسواق، فإن فيها رِبحك وتجارتك وغنيمتك، لأنَّ صاحب الحقائق لا يليق به شيء مثل الأسواق، متى أرَدت أن تشتعل أنوار الحقائق في قلبك أدْخُلِ الأسواق ولا تخرج من الأسواقِ إلاَّ وقت استراحتك. كما قال الششتري: عيْن الزحام هو المسير إلى حيّنا ادْخل السوق تَسخُنْ، ادْخل السوق تَسخُنْ، ادْخل السوق تَسخُنْ.

[كيف يحتال الشيطان لعنة الله عليه على الإنسان ليوقعه في الشَّر]

وأيضاً: الشيطان، لعنه الله، من أعظم حيله على ابن آدَم لا يأتيه إلاَّ من الجهة

التي توجَّهَتْ هِمَّتُه إليها، ويسير معه فيها، وهو يسرقه ويدفعه من جهة الخير إلى جهة الشرّ. ولم يزل به كذلك حتى يوقعه في أقبح القبيح، إذ لو جاءَهُ أولاً وأمرهُ أن يترك الخير ويفعل الشرَّ لتعاصَى عليه، ولكن يرشده لبابٍ من أبواب الخير، وهو لا يريد بذلك إلاَّ احتيالاً عليه، ليوقعه في الشرّ، وبهذا يفهم قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: الآية 16] .

[كيف يساير الولي الكامل المريد حتى يسرقه إلى الخير]

والوليُّ الكامل يجد الإنسان مُصِرّاً على فِعْل الشرّ، ويصطحبُ معه على تلك الحالة، ولا ينكر عليه شيئاً من ذلك. وهو يحتال عليه حتى يسرقه شيئاً فشيئاً من بلادِ الشر، إلى بلاد الخير. حتى لا يَبْقى فيه شيء من بقايا الشرّ، وهو لا يشعر بنفسه كيف صار له، إذ لو أمَره بالخير أولاً ويُترك على ما كان عليه مِنَ الشرِّ لا يقدر على ذلك إلاَّ قليل من المريدين، إلاَّ من كان به صِدْق عظيمٌ. وهذا الفعل لا يفعله من الصالحين إلاَّ الكُمَّال.

[الدنيا والمصيبة]

سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: الدنيا إذا ازهاتْ الْهَاتْ، وإذا الْهَاتْ اجْلاَتْ، وإذا اجْلاَتْ اخْلاَتْ. وسمعته يقول: المصيبة إذا نزلت على المسكين كجمرة نارٍ سقطت على أرض مُزَلج بالزيج، إذا لم تجد ما يشعلها تنطفىء من حينها وتصير رماداً. وإذا نزلت المصيبة بالفاجر كأنها جمرة نار في هشيم يابسٍ، مثل الكتانِ وما يشبهه، تنزل كجمرة تحرق الدار وما والاها.

وسمعته يقول: صاحبنا إذا يعمل ما يعملها إلاَّ كبيرة، لأنَّ الكبيرة يحضر فيها الكبار، والذي يفعل الصغيرة هو الذي يفعل الكبيرة.

وسمعته يقول: نحن قوم لا نعرف العادة وإنما عندنا كل شيءٍ خرْق العادة.

[صاحب الطريقة لا بد له من مجاهدة النَّفس]

وأيضاً: اعلم أنَّ حاصل ما اجتمع عليه نظر شيخنا رضي الله عنه ونفعنا به، أن طالب طريقتنا هذه، يستعين بالله على مجاهدة نَفْسِهِ حتى يخالف كل ما هو عليه العامة من الأمور المباحاتِ التي ليس في تركها عقاب ولا في فعلها عقابٌ. لأنَّ صاحبنا مثل الأمير لا يبَاشر العامة إلاَّ برفع هِمَّته عن كل ما هُمْ عليه. أرأيت أن الأمير لو اختلط معهم في أسواقهم وفي بيعهم وفي شرائهم، هل تصح له خصوصية المُلك. لا يصحّ

له خصوصية، بل يكون من جُمْلتهم وإنما حصل له العِزّ باختصاص أحواله عما هم عليه، واعتزاله منهم، لأنَّ من أراد أن تصحَّ له خصوصيته من بين الناس لا بد أن يصنع بنفسه خلاف ما هو عليه الناس.

[طلب الدنيا بالمُزَاح عند أهل الله]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ رضي الله عنه أن قال لي: اطلب الدنيا من أهلها، ولكن اطلبها كأنك تمازح، وادفعها كأنك تمازح بها. إن رأيت أهلها يتمازحون عليها فاتركها لهم، وإن رأيتهم يتمازحون عليها فلا تمازح معهم فيها، في الازدحام عليها، فتصير من جملتهم، بل إذا رأيتهم يتمازحون ولو مزاحاً بسيطاً، اتركها لهم مُزاحاً وردُّهم عليها.

[ثمَار ما قَدْ غرست تجني]

وأيضاً: اغرس الجمع بالذَّاتِ، يثمر الفرْق بالذات، كما أنَّ غرْس الفرق بالذات يثمر الجمع بالذات. وكذلك غرس الفرق بالصفات يثمر بالجمع في الصفات. كما أنَّ غرس الجمع بالصفات يثمر بالفرْق في الصفات، وجمعك بما أنت مفروق فيه هو سبب فرْقكَ عما أنت مجموع به. كما أنَّ فرقك عما أنت مجموع فيه هو سبب جمعك بما أنت مفروق به. لأنَّ فرقك يطرد جمعك كما أنَّ جمعك يطرد فرقك. يفهم من هذا أنَّ جَمْعَكَ هو عين فرْقِكَ كما أنَّ فَرْقَكَ هو عين جَمْعِكَ. أنت المجموع بجمعك في عوالم فرْقِكَ كما أنت المفروق بِفَرْقِكَ في عوالم جمعك. جلال فرقك به قام جمال جَمْعِكَ، وجمال جَمْعِكَ به قام جلال فرقك، ما كان فرقك فرقاً حتى كان فارقاً بِجَمْعِ جَمْعِكَ، ولا كان جمعك جمعاً حتى كان جامِعاً لفرق فرقك. منك يبْرُزُ فرقك لافتراق جمعك فيه، ومنك يشرق جمعك لاجتماع فرْقِكَ فيك. صار مطلع شموس جَمْعِكَ منك فيك بِيَدِكَ، كما صار مغرب أقمار فرقك بيدك فيك منك.

[بما تُقابل تقابَل]

وأيضاً: اعلم أنَّ كل من أردته أن يكون لك عبداً كن أنت له عبداً تجده مملوكاً لك طوع يديك، والكلام كله بين العبودية والربوبية.

العبودية: وهي الذلّ لله، ولعباد الله بالنفوس. يقذف صاحبه في أوصاف الربوبية وهو العزّ بالله جَبْراً على النفوس، كما أنَّ التشبه بالربوبية وهو العزّ على عباد الله، باكتساب النفوس، يقذف صاحبه في أوصاف العبودية وهو الذلّ لله ولعباد الله جبراً

على النفوس. العبودية اكتساباً تَملكَ شيئاً قهراً كما أنَّ الحرية اكتساباً تملك كلَّ شيءٍ قهراً.

[ما يكون به العالمُ عالماً]

وأيضاً: اعلم أنه لا يكون العالم عالماً حتى يكون عالماً بجهله، كما يكون عالماً بعلمه. ولا يكون الجاهل جاهلاً حتى يكون جاهلاً بِعِلْمِهِ، كما يكون جاهلاً بجهله. فهذه مرتبة العوامّ، وصاحبها عام، لا يسمى بالعالم. وكذلك إذا كان الجاهل جاهلاً بجهله، عالماً بعلمه، فهذا أيضاً عام مخض. وذلك أنه كما أنَّ الجهل لا يقوم إلاَّ بالعلم كذلك العلم لا يقوم إلاَّ بالجهل. ولذلك المعنى صار العارفون بالله، رضي الله عنهم، لا ينكرون جاهلاً ولا عالِماً لأنَّ الشيء لا يقوم إلاَّ بضدِّهِ، المعنى بالحسِّ، والحسّ بالمعنى، والظاهر بالباطِن، والباطن بالظاهر، والخير بالشر، والشر بالخير، والحلوّ بالمرِّ، والمرّ بالحلوِ، والعلم بالجهلِ، والجهل بالعلم، والذات بالصفاتِ، والصفات بالذات، والجمال بالجلالِ، والجلال بالجمالِ، والعطاء بالمَنْعِ، والمنع بالعطاء، والحياة بالممات، والممات بالحياة، إلى ما لا نهاية له من الأضداد التي لا يقوم بعضها إلاَّ ببعض.

[العزّ والذّل]

وأيضاً: اعلم أنَّ شرف العبد على قَدْرِ عِظم ذُلّه، كما أنَّ الحرَّ شرَفُه على قدر عِظم عِزِّه. يعني العبيد يتفاوتُونَ في الشرف، على قدر عِظم نُزُولهم، كما أنَّ الأحرار يتفاوتون في الشرفِ، على قَدْرِ عِظمهم في علومهم وارتفاعِهِمْ، مع أنَّ العبد إذا انتهى في نزوله وعِزِّه يصير يفعل فعل العزيز في علوِّه وعظمته. وكذلك الحرّ إذا انتهى في صعوده وعزِّه وعلوِّهِ، فإنه يصيرُ يفعل فعل الذَّليل في نُزُوله وذلِّهِ. صار حينئذ مفتاح العزِّ هو الذلّ كما أن مفتاح الذل هو العزّ. ومفتاح الحرية هي العبودية كما أنَّ مفتاح العبودية هي الحرية. ومفتاح الحرية هي العبودية كما أن مفتاح العبودية هي الحرية. ومفتاح الحقيقة هي الشريعة كما أنَّ مفتاح الشريعة هي الحقيقة. ومفتاح البواطن هي الظواهر، كما أن مفتاح الظواهر هي البواطِن. إلى ما لا نهاية له من الأضداد، إذ كل شيء هو مفتاح بضدِّهِ. كما قال الششتري في بعض كلامه في هذا المعنى: ظهورك هو كان السَّبَب في زوالك. انظر كيف قرَّر الظهور هو مفتاح البُطُون. وكلام الناس في علم النفس في هذا المعنى كثيرٌ.

[الجلال والجمال]

وأيضاً: الجلال الظاهر عند أهل حكمة النفوس سأذكر ما تيسّر منه إن شاء الله. أول الجلال الصمت، وضده من الجمال الكلام. ومِنَ الجلالِ أيضاً عدم الضحك والبكاءِ، وضده من الجمال: الضحك، ومن الجلال أيضاً: الوقوف والجلوس، وضده من الجمال المشي، ومن الجلال أيضاً: غضّ السّمْع، وضده مِنَ الجمال السّمْع، ومن الجلال أيضاً: النّوْمُ، وضده من الجمال اليقظة. ومن الجلال أيضاً: العَرْي، وضدّه من الجمال: لبس الثياب الرّفيعة. ومن الجلال أيضاً: الحفَا، وضدّه من الجمالِ: لبس النّعْلين. ومن الجلال أيضاً: العُزْلَة من الخلقِ، وضدّه من الجمال: الاجتماع مع الخلق. ومن الجلال أيضاً: ضرْب النقاب، وضده من الجمال: تعرية الوجه. ومن الجلال أيضاً: البخل، وضدّه من الجمال: الكَرَم.

[إثبات العبد بنعت الفرق]

وأيضاً: من بعض كلام ابن العربي الحاتمي، قال:

الـــرَّبُ حَـــقٌ والـــعَـــبْـــد حـــقٌ ... يـا لـيْـتَ شِـعْـرِي مَـن الـمُـكَـلَّـفُ

إنْ قِـيـلَ عَـبْـدٌ والـعَـبْـدُ مَـيِّـتٌ ... أوْ قِـيـلَ رَبٌ أنّـى يُـكَـلَّـفُ؟!

فأجابه العارف بالله، سيدي عبد الرحمٰن الفاسي، بقوله:

نَعَمْ بحقِ إثباتِ عَبْدٍ بِنعْتِ فَرْقٍ يكلفُ

والعَبْدُ مَيّتٌ بِغَيْرِ رَبٌ لسِرّ عَوْن مِنْهُ يُكَلَّفُ

[العبودية على أربعة فرق]

وأيضاً: قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريَم: الآية 93]. والعبودية على أربعة فِرَق: العامة على فرقتين. والخاصة على فرقتين. العامة منهم فرقة قهرية، وفرقة إرادية. والخاصة منهم فرقة ظاهرية وفرقة باطنية. والله تبارك وتعالى هو الظاهِرُ والباطِن. ومن عُلُوِّ قدرهم عند الله تعالى أضافهم إلى هذا الاسم الشريف، وشرّفهم به. فرقة أضافها إلى اسمه الظاهر، وفرقة أضافها إلى اسمه الباطن. أهل الظاهر تجلّى لهم الحق تعالى بهيبته وعظمته، فشدوا للخدمة، والتسلّق لبابِهِ، وأهل الباطِن تجلّى لهم الحق تعالى بصفة الجمال والمحبّة. فتعلّقت قلوبهم به وهاموا في بحر مشاهدته، فصاروا سكارى بلذيذ خَمْرة قُرْبِهِ. أما أهل الظاهر، هم السالكون رضي الله عنهم، سلكوا مع الظاهر، ولا أخذوا من الباطِنِ إلاَّ ما

كلَّفهم به الشارع ﷺ لأنَّ الظاهر لا يقوم إلاَّ بالباطِنِ، ولو بشيءٍ منه. والباطِن لا يقوم إلاَّ بالظاهر، ولو بشيء منه، ولكن الحكم للغالب. قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: الآية 129] . والسالك والمجذوب كلهم سائرون إلى الله، ولكن اختاروا باختلاف الأسماء. أهل ظواهر السلوك سلكوا بالترقي، وأهل بواطن الجذب سلكوا بالتدلّي. ونهاية السالك هي بداية المجذوب، ونهاية المجذوب هي بداية السّالك. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: الآية 84] . وبهذا يُفهم أنَّ الترقي والتدلّي مقصودهما واحد، وهو الله تبارك وتعالى، وإليه سالكون. ولكن ألوان السلوك اختلفت فلذلك صح إنكار أهل الظاهر على أهل الباطن، ولم يصحَّ إنكار أهل الباطن على أحدٍ من أهل الظاهر لأنَّ نظر المجذوب أخصّ من نظر السالِك، السالك محبٌ، والمجذوب محبُوبٌ. وفي الحقيقة كلهم محبُوبون لأنَّ الكُلَّ منه وإليه سبحانه وتعالى.

الخلق على قدر ما تُريهمُ النور، يَرونك الظلام، وعلى قدر ما تريهم الظلام، يرونك الضَّوْء. مهما قابلتهم بشيءٍ قابلوك بضدِّه، وعلى قدر الضِدّ يكون الضّدّ.

[التجريد]

وأيضاً: التجريد للفقير كالتَّشْحِير للذَّهب والفضة، إذا شحرت في النار لا يبقى فيها دَنَسٌ. كذلك الفقير المتجرد للحقائق، فإنَّ الحقائق تصفيه ظاهراً وباطناً حتى لا تترك فيه دَنسٌ. مثل التصفية للذهب والفِضَّة. والله ما وجدت شيئاً للمريد أعلى مرتبة من التجريد، يتجرَّدُ المريد الصادق من النقائِص كلها. وبالله التوفيق، ولكن مع شيخ عارف يُرْشدهُ.

[المعتزل عن الخلق كالذي ينقش في الحجر]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ رضي الله عنه ورحمه الله: يا ولدي، الفقير المريد المعتزِل من الخلقِ، شغله مع قلبه كالذي ينقش في حجرٍ. والمريد المختلط مع الخلق لا يَصْفا باطنه أبداً كالذي ينقش على الماءِ لا يستقرُّ له شغل أبداً.

ومما قال لي أيضاً رحمه الله: يا ولدي كن عَبْد العبيد تظفر بخير الموالي وخير العبيد.

[حكاية مريد مع الشيطان]

وأيضاً: ومما حكى لي رحمه الله ذات يوم، قال: جاء رجلٌ إلى شيخ، وقال

له: يا سيدي، ادعو لي الله يَحُول بيني وبين الشيطان. واشتكى الرجل من أجل الشيطان كثيراً. فأجابه الشيخ قائلاً له: كما جئت تشكوني بالشيطان، كذلك جاءني الشيطان يشكو لي من أجلك. قال: يا سيدي أنا مسخّر على الدنيا وعلى أهلها وفلان يخوض في الدنيا مع أهلها ويريد النجاة مني ويشكو من أجلي. فقال له الرجل: والله يا سيدي، ما دخلت في شيءٍ من الدنيا إلاَّ أنني تمزَّق إزاري، ودخلت إلى السوق، وأخذت منه إبْرَة وخيطاً رقعت به إزاري، وبقيت الإبرة وبعض الخيط، فضل لي. فقال له الشيخ: مِن ثَمَّ دخل عليك، أترك الإبرة والخيط يُرخكَ الله منه. ففعل.

[الواصل في تدليه]

وأيضاً: الصادِق في أهل الله في تَدَلِّيه أو في تَرَقِّيهِ، كما يقتات من شيخه، يعني من مُعَلِّمِهِ، كذلك يَقْتات من مُرِيده، يعني من متعلمِهِ، يعني إذا تعذَّر الظفر بالشيخ فإنه يُمَد من مريده كما يُمَدّ من شيخه، لأنَّ من كان في طلبه صادِقاً ينتفع من أدنى الناس كما ينتفعُ من أعلى الناس. وهذا لا يصحُّ إلاَّ لمن صح رسوخه في اليقين، واستنار قلبه بصحبة الأشياخ العارفين. وفّقنا الله وإياكم لذلك، آمين (. . .).

[الصادق مع الله]

وأيضاً: ما في السائرين أحدٌ أنفع وأرشد وأنفد، ممن يكون سائراً بين شيخ مُرْشدٍ عارفٍ بالله، وبين مُريد صَادِق في توجّهه إلى الله. هذا في طريق التَّدَلِّي، أو في طريق الترقي، حكمهما في هذه المسألة واحد، وإن تخالفت طرقهم وألوانهم لأن شغلهم لما كان متكرراً على مرتين صار يُسْقي من جهتين، ما بقي بعدهما إلاَّ الكمال. وبالله التوفيق. لأنَّ كل من صادق الله حقاً يسْقى العسل من عروق الدِّفلا، كما يُسقى العسل من شَهْد النَّحْل. ينتفع من أدنى الناس كما ينتفع من أعلى الناس. استوى عنده كل شيء، الأشياء وأضدادها، في كل شيء، استوى عنده العزيز والحبيب، والعطاء والمَنْعُ، والمسيء والمُحْسن، والقبض والبسط، والعلوّ الأعلى والأسْفل السّفلي، استوى عنده كل شيء في كل شيءٍ. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: الآية 84] .

[السَّخاء]

بذلك الشيء، إذا قابلتها به كادت أن تكون نسخةٍ منك، كما قال بعضهم: أقبح قبيح صُوفي شحيح. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: الآية 38]. وقال بعض الصالحين: الصيام تجوُدْ والصلاة عادة، إن أردت أن تجرّب فجرّبهم في هذا. يعني الفِلْس، لأنَّ الطريق طريق الجود والكرم من الله، وطريق الإحسان لا تكون مبنية إلاَّ على الجود والإحسان. فكيف يا أخي تطلب أفضل ما عند الله بأقبح ما عندك، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية 139]. ومثل هذا، كمن غَرَسَ الشوك ويطمع أن يجني منه العِنَب. كما قال القائل: ثِمَار ما قد غَرَسْت تَجْنِي وهذه عادة الزمان. من بات منه الوَرَى في أمْنٍ بَاتَ مِنَ الدَّهْرِ في أمانٍ. خذ الحديث الصحيح عني، كما يدين الفتى يُدَان، كيف تطلبُ الكرمْ وأنت لم تتكَرّم. كيف تطلب الرَّحمة وأنت لم تَرْحَم. قال ﷺ: «إنما يَرحَمُ الله من عباده الرُّحماء»[1]، وقال ﷺ: «ارْحَمُوا من في الأرض يرحَمْكم مَنْ في السماء»[2].

[الآدمي قام بالأضداد]

وأيضاً: اعلم يا أخي، أن هذا الآدمي، أوجده الله تبارك وتعالى من الأضداد، ظاهراً وباطناً، حساً ومعنى، أقوالاً وأفعالاً وأحوالاً. كل ذلك من الأضداد. ومن جملة ذلك، خلق الله تبارك وتعالى في باطنه عَالَمَان، عالم جلالي وعالم جمالي، وجعل بينهما قرية، وهي القلب. أما عَالَمُ الجلال، جعل الله ظلمة، وجعل في تلك الظلمة مَلِكاً بجنوده وأعوانِهِ. كل ذلك من الظلمة، القرية من الظلمة، والمَلِك من الظلمة، والجنود والأعوان من الظلمة. وعَالَم الجمال جعله الله نوراً، وجعل فيه مَلِكاً من النُّور، وجنوده وأعوانه من النور، وجعل بين تلك المَلِكَين العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وهم يتحاربون على تلك القرية تارة تكون لهذا وتارة تكون لهذا. إذا غلب مَلِك الجلال دخل القرية هو وجنوده، فتمتلىء القرية مِنَ الظلام، وجعل الظلام يتصرف فيها، في ظاهرها وباطنها، فلا يظهر في الإنسان في تلك الساعة إلاَّ ما يوافق ذلك من الخيانة والكذب والفسْق، والرياء والتصنُّع، والحسد، وحبّ الرياسة، والكِبْر، وحبّ الجاه، وحب الدنيا، والازدراء بأهل الله، والبرور بأهل الباطِل، إلى ما

---

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب قول النبي يعذب الميت. . . ، حديث رقم (1284)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت حديث رقم (11ـ 923)، ورواه غيرهما.

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما على الوالي من أمر الجيش. . . ، حديث رقم (17683)، ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في رحمة الصبيان، حديث رقم (1924) ورواه غيرهما.

ليس له حَصْرٌ. فيكون عند ذلك المغلوب تحت يد الغالب مسجوناً مقهوراً لا يظهر له أثر كأنه لم يكن. وإذا غلب مَلِك الجمال دخل القرية وأخرج من كان فيها أذلة وهم صاغِرُونَ. واستقرَّ بها هو وجنوده فتمتلىء القرية من النور. وجعل النور يتصرف في ظاهرها وباطنها فلا يظهر في الإنسان في تلك الساعة إلاَّ ما يُوَافق ذلك مِنَ الوفاء والتواضع، والصدق والجود والكرم، والحياء والحنانة على عباد الله، والتماس الأعذار منهم والزّهد في الفاني وفي أهله، والرغبة في الباقي والبرور بأهل الله، والتحلّي بهم، ومجانبة أهل الفسق والباطل، إلى ما ليس له حصر. فيكون عند ذلك الآخر مغلوباً مسجوناً مقهوراً، لا يظهر له أثرٌ، كأنه لم يكُنْ، وشاهده قول النبي ﷺ: «إنَّ في ابن آدم مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلبُ» أو كما قال.

[الدَّال على الخير والشَّر مع الواسطة]

وجرت عادة الله في أرضه، كل شيء له واسطة، وكل شيء له سبب. الخير له أبٌ، والشرك له أبٌ، أبو الخير الدال عليه، وأب الشرّ الدال عليه. ما أفلح من أفلح إلاَّ بصحبة من أفلح. والعطاء والمنع لا يكون إلاَّ من عند الله، والواسطة تُشكر ولا تنكر، كما قيل: من لم يشكر الناس لم يشكر الله. ويجب على المريض أن يكون عند الطبيب بمنزلة الولد مع والده، لأن الوالدين كانا السبب فيك في الحياة الفانية، والواسطة سبب في حياة قلبك، وهي الحياة الباقية. وعلى هذا صاروا والدين، القلب مفتاح إلى الأدب معهم أعظم من والدي البَدنِ.

[قف على الأسباب]

المراد بالأسباب: هو الخروج عن الأسباب، ولو خرجت عن الأسباب لشهدت مسبِّبَ الأسباب. ما كان العبد مع العبد أُلبِس حلية العبودية وما كان العبد مع الربّ أُلبِس حلية الرّبوبية.

[قف على المشاهدة وتأمل]

والمراد بالنظر في الأكوان: هو الخروج عن الأكوانِ. ومهما شاهدته في الأكوان أو عند الأكوان أو قبل الأكوان أو بعد الأكوان، نسيت به الأكوان. والمراد بالأسباب هو الخروج عن عَالَم نفسكَ. ومهما أدبرتَ عن عالم نفسك فأنت عَوَالِم ربِّك، إذا نظرت في ذاتك حقيقة وجدتها من شريعة وحقيقة.

[ما يخطر ببالك كلّه]

وأيضاً: من عرف نفسه عرف ربَّهُ. ومنه أيضاً قولهم في الشريعة: كل ما يخطر ببالك فالله بخلافِ ذلك. وأهل الحقيقة قالوا: كل ما يخطر في بالك فهو عين ذلِكَ. ومنه قوله ﷺ: «من ذكرتموه بخير وجبت»[1]، ومن ذكرتموه بشرٍّ وجبَتْ. في حديث الجنازة، ومنها: «كان الله ولا شيء معه»[2] وهو الآن على ما عليه كان.

[صدق طلب الدَّوَاء]

وأيضاً: اعلم يا أخي، أن العلَّة التي رفعت أمرك فيها إلى الله يُقال لها: ظلمة الأغيار. لا ينقذك منها، إلاَّ نور المعرفة بالواحد القهَّار. فإن كنت صادقاً في طلبِ الدَّواءِ وأردته من جهة الشريعة، فعليك بصحبة أهله، وإن أردته من جهة الحقيقة فعليك بالرضّى بالواقع، وَردّ الصنعة إلى الصانع، لأنَّ المُمَرّض هو الطبيب، ورأس الدواء هو حب الحبيب. فنسأل الله تعالى أن يُلْهمنا وإيَّاك إليه حتى نعرفه حق معرفته.

ودواء آخر: لا ينجيك من تلك العلة إلاَّ معرفة اسم الله العظيم الأعظم، هو الدال عليه، أعرف ما طلبت. مَنْ عرف ما طلب هانَ عليه ما تركَ. قال الشاعر:

مَن طلب الحسناء يصبر على البَذْلِ

[الوجود ما قام إلاَّ بالأضداد]

وأيضاً: اعلم أنَّ هذا الوجود قائم بالأشياء وبأضدادها، العارفون رضي الله عنهم، لما ظهرت لهم الحكمة في الأشياء ظهرت لهم الحكمة في أضدادها، لأنَّ الإنسان مصنوع بأقواله وبأفعاله وبذاته، كلها مِنَ الأضداد. ومهما تعطَّل فيه أحد الضدَّين أشرف على الهلاك: فالواجب على العاقل أن يعرف حكمة الوُجْد، وحكمة الفقد، ويعرف حِكمة العطاء، وحكمة المنع، ويعرف حكمة النِّعْمَة، وحِكمة النقمة،

(1) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه برقم 2591 ونصه: عن أبي الأسود قال: «أتيت المدينة وقد وقع بها مرض وهم يموتون موتاً ذريعاً، فجلست إلى عمر رضي الله عنه، فمرَّت جنازة فأُثني خيراً، فقال عمر: وجبَتْ، ثم مر بأخرى فأُثني خيراً، فقال عمر: وجبَتْ، ثم مُرَّ بالثالثة فأُثني شراً، فقال: وجبَتْ. فقلت: وما وجبَتْ يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة. قلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة. قلنا: واثنان؟ قال: واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد». ورواه غيره.

(2) هذا الحديث سبقت الإشارة إليه.

وحكمة القبض، وحكمة البَسْط، وحكمة الحبيب، وحكمة العدوّ، وحكمة الحضور، وحكمة الغياب، وحكمة الظهور، وحكمة الخفاء، وحكمة الجوع، وحكمة الشبع، وحكمة الفقر، وحكمة الغِنَى، إلى ما لا ينحصر من الأضداد التي قام بها هذا البشر بحكمته.

[خرق العادة ظاهراً وباطناً]

اعلم أنَّه لا تخرق عادة الظاهر حتى تُخرق عادة الباطن، لأنَّ الباطن أساس الظاهر، كلما ألقي في الباطن بانت شواهده على الظاهر، كذلك إذا انخرقت العادة في الباطن تنخرق في الظاهر لا محالة، لأنَّ ما فيك خرج على فيكَ.

والحاصل: المسك لا تخفى روائحهُ ولو حجبه في سبعين حِجاباً إلاَّ من لا يشمُّ، كالمريض أو ما يشبهه. وإذا كان الإنسان مريضاً يجب عليه أن يعالج نفسه، ويطلب الدواء من عند أهله. وفي الحقيقة كل شيء بقضاءٍ وقدر، «اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له»[1] الحديث. وعلى الحقيقة تترتَّبُ الشريعة لأن كل شريعة حقيقة وليس كل حقيقة شريعة.

[الصحبة ومقارنة خفاء الذِّكر بها]

وأيضاً: اعلم أنه حرام على الرجال أن يصلوا مواصل الرجال إلاَّ بصحبة الرجال. وقيل: ما أفلح من أفلح إلاَّ بصحبة من أفلح. وقيل: إنما سلكت هذا الطريق بأقوام كُنِسَتْ بأرواحهم المَزَابل. قال جلَّ من قائِلٍ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: الآية 55]. وعلى هذا صار خفاء الذِّكر هو رأس الخير كله، وهم أعظم العبادات. ولكن لا تحصل ثمرة هذه المزية العظمى إلاَّ لأرباب القلوب الذي خفي ذِكرهم في قلوبهم عن كل ما سوى المحبوب، حتى عن حفظتهم. لا مُطَّلع على قلوبهم سواهُ، منه إليهم ومنهم إليه. قال القائل:

قلوبُ العارفين لها عيُون ... ترى ما لا يُرى للناظرينَ
وألسنة بأسرار تناجي ... تغيب عن الكرام الكَاتبينَ
وأجنحة تطير بغَير ريشٍ ... إلى ملكوتِ ربّ العالمينَ

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر...، حديث رقم (1362)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه...، حديث رقم [6. (2647)]. ورواه غيرهما.

كما قال ﷺ: «ذرّة من أعمال القلوب أفضلُ من أمثال الجبال من عمل الجوارح»[1]، أو كما قال. وقال ﷺ: «تفكّر ساعة أفضل من عبادة سنة»[2] الحديث. لأن القلب خلقه الله أميراً على جوارحِ الإنسان، وحسناته أعظم من حسنات الجوارح كلها، وسيئاته أعظم من سيئات الجوارح كلها.

[أوصاف الكرام الحقيقيين]

وأيضاً: اعلم أنّه من كمالِ أوصاف الكِرام ومن شِيَمِهم، أنهم يتكرمون بالكرم العَظيم، وينسُبُونه لغيرهم. وهذا كرَم فوق الكرم، وهذا لا يفعله إلاّ من اسْتَعْلى كرمُهُ فوق إكرام جميع الكِرَام، والكرم من أوصاف الكريم، والكريم: اسم من أسماءِ الله تبارك وتعالى، به سمّى نفسه، وبه وصفها، ووصف العبد ضد هذا الوصف، وهو البُخْل. ولكن إذا أراد أن يظهر كرَمَهُ تكرّم على عباده وغطّى وصفهم البخيل بوصفه الكريم. ونسب الفعل إليهم وشكرهم به، وجازاهم عليه، فصاروا كراماً بهذا بأنفسهم، وهذا من نهاية الكَرمِ.

[الفاني إذا تعلّق بالباقي]

وأيضاً: اعلم أنّ الفاني إذا تعلّقت همّته بالباقي، صار باقياً، لأنه مهما دخل الحق، زَهَقَ الباطل. والباقي، إذا تعلقت همّته بالفاني صار الطالب فَانٍ، والمطلوب فَانٍ، زاهق متعلق بزاهِقٍ. باطل متعلق بباطلٍ. قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: الآية 81].

[الواسطة]

وأيضاً: جرت عادة الله في خلقه: أنّ كل شيءٍ له واسطة. فمن ظفر بالواسطة، ظفر بالشيءِ، ومن لم يظفر بالواسطة لم يظفر بالشيءِ. وكل شيء له أبٌ، فمن ظفر بالأب ظفر بالولدِ، ومن لم يظفر بالأبِ لم يظفر بالولدِ.

[الخير له أب والشّر له أب]

وأيضاً: الخير له أبٌ، والشرّ له أبٌ. فمن ظفر بأبِ الخير ظفر به، ومن ظفِر

(1) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

بأب الشرّ ظفر به. وأبو الخير هو الدال عليه، وأبُ الشر هو الدّال عليه. فمن صحب أهل الخير دَلّوهُ عليه وظفِر به. ومن صحب أهل الشر دلّوه عليه وظَفر به. ما أفلح من أفلح إلاّ بصحبة من أفلح. إذ لولا الواسطة لذهب، كما قيل، الموسوط. ومن قال: إنه يصل إلى شيء من غير واسطة فقد كَذَبَ وقوله مردود عليه. وخطابنا هذا، مع أهل البدايات من المريدين، وأما أهل النهايات لم يشهدوا شيئاً في الوجود سواهُ، صاروا يشهدونه في كل شيءٍ وقبل كل شيءٍ وبَعْدَ كل شيءٍ، كما قال القائل: «وقيل إنه مولانا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، والله أعلم».

رأيتُ ربي بعَينِ قَلبِي ... فَقُلتُ لا شكَّ أنتَ أنتَ
أنت إلٰه حزت كُلَّ أيْنٍ ... فَحَيثُ لا أيْنَ ثَمَّ أنتَ
ليسَ للأينِ مِنكَ أيْن ... فَيَعلم الأيْنُ أيْنَ أنتَ
ولَيسَ لِلوَهمِ فِيكَ وَهمٌ ... فَيَعلَمُ الوَهمُ كيفَ أنتَ
أحَطتَ علماً بكلّ شَيْءٍ ... فَكُلُّ شيءٍ أرَاهُ أنتَ
وفي فَنَاءِ فَنَى فَنَائِي ... وفي فَنَائِي وجدتُ أنتَ
فَمَنٌ بالعَفوِ يا إلٰهِ ... فَلَيسَ نَرجُو سِوَاكَ أنتَ

[لا يطلب القوم إلاّ الله تعالى]

بسم الله، ما شاء الله، لا قُوّة إلاّ بالله، اعلم أننا قوم لا نطلب شيئاً سِوَى الله، لأنَّ طالب النّعمة محجوب بها عَنِ المُنْعِم، وطالب الكرامة محجوب بها عن الكريم، لأنَّ هؤلاءِ المطالب كلها من حُظوظِ النّفس، وطلب حظوظ النفس عندنا حَرَامٌ؛ في مذهب أهلِ هذه الطريقة، كما قال بعضهم: كُنْ طالبَ الاستقامَة، ولا تكن طالب الكَرامة لأنَّ طلب الاستقامة يجرُّ إلى الكَمالِ وطلب الكرامة يجرّ إلى الضّلالِ. طلب الكرامة فيه اشتغالك عن الله بحظ نفسك، وهو سوء الأدب بنفسه. وهذه الطريقة حقيقتها هو الأدب مع الله، وسوء الأدب ليس من شِيَم أهل الحضرة، كما أنَّ الحضرة العالية مطهرة منزّهة عن النقائص، كذلك أهلها، مطَّهَرون ظاهراً وباطناً من الأوصاف الذّميمة. قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقِعَة: الآية 79] ليس لهم إرادة سوى ما أراد الله تعالى، لا يريدون إلاّ ما أراد محبوبهم، لو ألقاهم في عذاب الجحيم لكان أَحَبَّ إليهم من كل شيءٍ.

[الكرامة]

والكرامة أيضاً، فيها الظهور للخلق برؤية المزية دونهم، وانحياش الخلق إليه،

وهو رأس البلايا والفِتَنِ. نفورُ الخلق جُمِع فيه الخير بأجمعه، كما قال ابن عطاء الله: إقبالك على الخلق إدبارك عن الحقّ. وصاحب هذه الطريقة لا يبالي بإقبال الخلق ولا بإدبارهم، كله عنده سواء. ولا يلتفت لظهور ولا لخفَاءٍ، كما قال بعضهم: فمن كان عبد الظهور فهو عبد الظهور، ومن كان عبد الخفاءِ فهو عبد الخفاء، وعبد الله سَوَاء أظهره أو أخفَاهُ.

[توثيق العقدة]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ سيدي العربي نفعنا الله به، رواه عن شيخه، سيدي أحمد اليماني وأمثاله، قال: يا ولدي، إذا جاءَك أحَدٌ يطلب من الله ومنك حاجة، وواعدك بشيءٍ لا تعقد إلاَّ بالسَّوْمِ الصحيح الذي يرضي خاطرك. وأمُرْهُ أن يشهد على نفسه بالعدول، ويأتيك بالرَّسْمِ، واقرأه، فإن وجدته وثَّق على نفسه غاية فذاك، وإن لم تجده موثقاً كما تحبُّ أرْدُدْهُ إليه حتى يوثقك غاية واعقد معه لأنك على قدرِ ما تصحح العقدة في الظاهر على قدرها تصحح في الباطن. وإياك وإياك وإياك أن تعقد مع أحدٍ العقدة مرْخية بغير كتاب، أو تبيع له بِبَيْع السارق، فتفسد لك المعاملة، والله الموفق، وعليه التكلان.

[هذا الوجود مرآة]

وأيضاً: اعلم يا أخي، أنَّ مِنْ أعظم ما أُخبرك به، أنَّ هذا الوجود مِرْآة، ما قابلته بشيءٍ إلاَّ قابلك هو به بنفسه على تلك الحالة.

ومما أخبرني به الشيخ رضي الله عنه قال: يا ولدي، الكلام مثل أجناس الطيور، والطَّيْر الذي نَصبْت له يأتيك جنسه.

وقال لي أيضاً: الدنيا مع الآخرة كالنِّسَاءِ الضَّرَائر، إذا حضرت واحدة غارت منها الأخرى ونَفَرَتْ.

ومما قال لي الشيخ سيدي العربي رضي الله عنه: يا ولدي، إذا سَمِعت شيئاً من المعاني ولم تفهمه لا تقسهُ على ما عندك في نفسك، ولكن احفظه حتى تصل إليه، وتحتاج إليه وتجده، وينفعك الله به، لأنك إذا قستَهُ وأنت لم تفهم معناهُ، ربما قسْتَهُ على ما في نفسك، ربما أخطأت معانيه ومُنِعَتَ نفعه وخيرهُ.

[سخاوة النفس والفِلْس]

اعلم، أنّي ما رأيت في جلال النفوس مع الوجود أقمع وأسرع من جنسين،

هما: سخاوة النفس وسخاوة الفِلْس. كذلك ما رأيت في جمال النَّفسِ مع الوجود أقطع وأسرع من الكلمتين، هما: الكلام والضحك. صاحب الحقيقة ذاكر الله على كل شيءٍ من أجل ذلك صار يُبَاح له كل شيء، ولا تجده ينكر شيئاً. وصاحب الشريعة يذكر الله على كل شيءٍ، ويذكر المخلوق على كل شيءٍ. ما ذُكر عليه الله فهو مباح له، وما ذُكِر عليه الشيطان فهو حرام عليه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: الآية 121] . كما قال بعضهم من أرباب الحقيقة:

أهلُ الحقيقة يَعْذُرُونَا وأهلُ الشريعة يُخرِقُونَا

وقال سيدي عبد القادر الجيلاني في بعض كلامه:

إذا كُنت في حكم الشريعة عاصِياً فإني في حكم الحقيقة طائِعُ

[السر والعقل]

وأيضاً: اعلم أنَّ حدَّة السِّر وحدة العقل لا تجد صفاته إلاَّ غالبة على ذاتِهِ. وشامخ السِّر وشامخ العقل لا تَجِدُ ذاته إلاَّ غالِبَة على صِفَاتِهِ، حِدّة السرِّ مكسوّ حضرة الربوبية، وهي كسْوة العِزِّ والعُلُوّ، وهي تصرف صاحبها في الذلّ والدّنوّ، أحَبَّ أم كَرِهَ. وشامخ العقل مكسوٌ بكسوة حضرة العبودية، وهي كسوة الذّلّ والدّنوّ، وهي تعرّض صاحبها في العزّ والعلوّ، أحبَّ أم كَرِهَ. غرس الصفات عِزٌ يثمر بأثمار الذات ذل، وغرس الذات ذلّ يثمُرُ بأثمار الصفات عزٌ. هكذا في الإنسان وهكذا في الوجود. كأن الأشياء كامنة في أضدادها في الوجود كذلك الأشياء كامنة في أضدادها في الإنسان. الإنسان نسخة الوجود والوجود نسخة الإنسان.

[تصرُّف الإنسان في الوجود كله]

الإنسان ملك على الوجود، والوجود مملوك للإنسان. مُلك الإنسان قائمٌ بمملكة الوجودِ ومملكة الوجود قائمة بِمُلك الإنسان. ما شاء الإنسان كان في الوجود، وما شاء الوجود لا يكون في الإنسان.

تصرّف الإنسان في الوجود، كتصرّف القلبِ مِنَ الإنسان. فالإنسان والقلْبُ بيت الله في الإنسان، وهو بين أصابع الرحمٰن، ينقلب في كل حال، وفق إرادة المَلِك الدّيَّان.

[الأقوال أسماء والأفعال هي الأشياء]

وأيضاً: اعلم أنَّ الأقوال كلها أسماء للفنون، وليست هي الفنون. كما أنَّ

الأفعال كلها هي الفنون، وليست أسماء الفنون هي الفنون، وإنما الأسماء مخبرة بالفنون والأفعال هي الفنون. الأقوال معانٍ وهي مخبرة بالحسِّيات، والأفعال حسيات، وهي لا تقوم إلاَّ بالمعاني. الأقوال عُلُومٌ، وهي أسماء للعملِ، والأفعال عمل والعمل من غير عِلمٍ جَهْل وضَلالٌ.

[المبتدى والمنتهى وفضل الذكر فيهما]

مُبْتَدِىءُ بداية على أصْلِهَا، أفضل من مُنْتهي خصوصيته لا أصل لها. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية 45] . وقال جل من قائل: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: الآية 45] . الذِّكر أشرف العبادات كلها، وهو على قسمين، ذِكْر باللسان ظاهر جلِّي، وذِكر بالجنانِ باطِن خَفِيٌّ. ذِكْرُ اللسانِ لأهل البدايات وذِكر الجنان لأهل النِّهايات.

[حقيقة الخصوصية]

حقيقة الخصوصية ذِكر بالله لله، وشريعة الخصوصية: العمل بالله لله. كما أنَّ حقيقة العمومية الذِّكر لله، وشريعة العمومية العمل بالله لله.

وأيضاً: اعلم أنَّ الإنسان إذا كان بمولاه وكان بخير أو بشرٍّ، فهو في غاية الكمال، وإن كان مع غير مولاه وكان بخير أو بشرٍّ فهو في غاية النقصِ.

[الثبات]

وأيضاً: الحِكمة هي الاستئناس بالحِكمة، وأما مَن ظفر بالحكمة ولم يستأنِسْ بها حتى تصير له طبعاً طائعة لا حكمة له، ولو وصل ما وصل فيما وصل.

[الخير والشر]

وأيضاً: الخير كله، بابه وَزَرْبه هو الشرُّ، من دخل الباب وشق في الزَّرب وصل إلى الخير، ومن لم يدخل على الباب لم يصل إليه: «حُفَّت الجنَّة بالمكارهِ»[1] الحديث. وكما قال بعضهم: ما قطعوا واد الربح حتى قطعوا واد الخَسَارة.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم [1ـ (2822)]، ورواه الترمذي في جامعه الصحيح، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره. . . ، حديث رقم (2559) ورواه غيرهما.

وأيضاً: اعلم أن الإنسان بإسقاط الكُلَف على نفسه يصير يقول للشيء: كن فيكون. وهو مقام عين الوحدة الذي طلب مولاي عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به وجعلنا من السالكين على منهجه القويم.

[مقام الربوبية]

وأيضاً: اعلم أنه عند هؤلاء الرجال، أهل هذه الطريقة مقام يصلونه، يقال له: مقام الربوبية، وهو أرفع المقاماتِ وأعلاها، وأكبرها وأرفعها من جهة الحقيقة، لا يُنالُ إلاّ بفَضلِ الله تعالى. ومن جهة الشريعة لا يُنَال إلاّ بِعَدَم الكُلَف، وهو مقام عين الوحدة الذي طلب مولانا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به آمين.

[عبد الله حقاً يصير حرّاً مَلِكاً]

وأيضاً: اعلم أنَّ مِن جملة كَرَم المولى جلّ ثناؤه، أنَّ الإنسان ما دَامَ عَبْدَ نَفسه، أو جنسه، وهو عبد مملوك، ومهما انتقل من عبودية الخلقِ إلى عبوديته تعالى، يقول له الله تبارك وتعالى: «أنا غِنيٌّ عن عبوديتك، لكن لمَّا رضِيتَ أن تكون لي عبْداً مملوكاً فأنْتَ مالِكٌ لِمَمْلكتي، أبَحْتُها لك تتصرّف فيها بتصرفي، فكيف تجود عليَّ بنفسكَ، وأُنزلك عبداً؟ حاشاي من ذلك، أنا أكرمُ وأكْرَمُ مِن ذلك بإذْنِي، فأنت مالِك لملكي بأسرِهِ لا يكون فيه إلاّ ما تريدُ مُلكاً باقياً دائماً لا يَفْنَى ولا يزول أبداً». قال بعضهم: دَعَوْنِي لِمِلكِهم فَلَمَّا أجبْتهُمْ قالُوا: دعَوْنَاكَ لِلْمُلكِ لا لِلْمِلكِ.

[الجور]

وأيضاً: الجور حقيقة عظيمة، علوية جلالية، بها استقام المُلك العلوي والسّفلي، على قدر ما يعظم الجورُ يعظم الظفر والتمكين. ومن لم يتخلّق بالجور علماً وعملاً مِن الملوك، لا مُلكَ لهُ.

والملوك على قسمين: ملوك النفس وملوك الجِنس. ملوك النفس رعيَّتهم جوارحهم الظاهرية والباطنية. وملوك الجنس رعيتهم الخلق. ومهما جارَ المَلِك على الرَّعية حنَّتِ الرَّعية إليه. ومهما حَنَّ المَلك على الرَّعية جارت الرَّعية عليه، حتى قيل في الجور: إنه روح الحقائق، وروح الوجود كله. وبالجملة، الخلق كلهم ما قابلتهم بالجلال إلاّ قابلوكَ بالجمال، ولا قابلتهم بالجمال إلاّ قابلوك بالجلاَلِ، هذا يعمُّ نفسك وجنسك. هكذا جرت عادة الله في هذا الوجود.

ومُلوكُ النفس على فِرْقتين: منهم من هو جوره في باطنِهِ، وجماله في ظاهره. ومنهم من هو جوره في ظاهره وجماله في باطنِهِ.

الأول جلاله عظيم، وجماله قليلٌ. والثاني: جماله عظيم وجلاله قليل. الأول مُلكه شرعي، والثاني مُلكه حقيقي. الأول ملكه قليل بحسب إضافته إلى المخلوقِ، والثاني ملكه كثير، عظيم كبير، بحسب إضافته للخالق جل ثناؤه.

[العوج]

وأيضاً: اعلم أنَّ صاحب العِوَجِ إذا قَصَدَ الله بالعِوج، فذاك عبادتهُ، لأنَّ ربَّ السقيم هو رب العِوَج، ورَبّ العِوَج هو رب السّقيم. والحِكمة في الطلب الصادق في المقاصِد: «إنَّ الله يَنظر لقلوبكم ولا ينظر إلى صُوَرِكُمْ»[1] الحديث.

[قف على قوله تعالى في الحديث القدسي: «مَن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً»]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تعالى قال على لسان نبيِّنا ﷺ: «مَنْ تقرَّب إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْت إليه ذراعاً، ومَنْ تَقَرَّبَ إليَّ ذِرَاعاً تقرَّبْت إليه باعاً»[2] الحديث. كذلك الرزق موصُوفاً بأوصاف مولاهُ، ما تقرَّبتَ إليه شبراً إلاَّ تقرَّبَ إلَيْكَ ذِراعاً، فيجب على العاقل أن يَرْفق على نفسه في طلبِهِ، ويتيقَّن أنَّ الأشياء كلها عاشقة الإنسان أكثر من عشقه لها، فيستريح مِن مُذَاكرة هَمّ الرزق، والإعانة بالله عليه.

[الولي كصيَّاد النَّحْل]

وأيضاً: الوليّ الكامل يصطاد الخلق كصياد النّحلِ، يختال أن يجلب خيره، ويفوته لدْغه.

[معرفة الله أسهل من معرفة العبد]

وأيضاً: مَعْرِفة الحقِّ أسهل من كل شيءٍ، ومعرفة الخلق أوعص من كل شيءٍ.

[وصولك إلى الله تعالى وصولك إلى العلم به]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ سيدي العربي رضي الله عنه، قال لي: وصولك إلى

---

(1) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (حديث رقم 2564).

(2) هذا الحديث سبقت الإشارة إليه.

الله، وصولك إلى العلم بِهِ.

ومما قال لي الشيخ رضي الله عنه: قال لي بعض الصالحين: جَرَّبْنا الَّلي يجيء ويجيبْ مَعَ الَّلي يجيء وَلاَ يجيب شيئاً. نعمل هذا، قَدْر هذا، فلم يكُن ذلك. قال لي سيدي العربي: وأنا أقول: صاحبنا إلَّلي ياتي إلَيْنَا، وصاحبنا إلَّلي لا يَاتِي إلينا، أحْبَبْنَا أن نجْعلهما سواء، فلم يكن ذلك.

وقال أيضاً رحمه الله: النفس مثل حَبَّة الزَّرْع، أنت تدفنها في أقبح الأشياء مثل الغبار في الزِّبل، وهي تصلح ويكثر خيرها. يعني: إذا كان قَصْدك الله. كل ما يكثر جلال النفس في الظاهِرِ يكثر جمالها في الباطن، وعلى قدره.

[الطرق إلى الله تعالى طريقان]

وأيضاً: الطرق إلى الله طريقتان: واحدة فرْع من الأُخرى، واحدة يُقال لها: طريق القرْبِ، والأخرى يقال لها: طريق البُعْد.

طريق البُعْد هي طريق العادة. وطريق القرب: هي طريق خرق العادة.

الأولى: فَرْعٌ من الثانية، العادة شرع، وخرق العادة حقيقة. والشريعة بعض الحقيقة، والشريعة سُلَّم الحقيقة. قال سيدي عبد القادر الجيلاني في بعض كلامه: إنما وضع هذا الشرع لتلك الشرائع. نفعنا الله به، آمين.

[القدوم على أصحاب الجاه بالله تعالى وبالفقر إليه]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ، سيدي العربي نفعنا الله به، بوصية أخذها عن أبيه، وكان هو يفعلها. قال لي: يا ولدي، إذا كانت لك حاجة عند أحد من أهل الدنيا، مخزن أو غيره، إياك تقْدمْ عليه بشيءٍ مِنَ الدنيا أو شبهتها، لا تَقْدِمْ عليه مَعنِياً عزيزاً إلاَّ بنسبة الله، ونسْبة الفَقْر، لأنهما تغْلُوانِ فوق كل شيءٍ ولا يُوقف لهما شيء.

[من كرَّمه الله برؤية أهل السماوات وأهل الأرض ساجدين إلاَّ هو]

وأيضاً: ومما أخبرني به الشيخ سيدي العربي، نفعنا الله به عن ابْرَا (رسالة) كان كتبها الشيخ سيدي محمد بن سعيد، للشيخ سيدي أحمد بن عبد الله، نفعنا الله بالجميع، من جملة ما كتب له فيها، قال لي: إني رأيت في حالٍ وَرَدَ عليَّ، رأيت أهل السماوات السَّبع كلهم ساجدين إلى الله، إلاَّ أنا لم أسْجُد ـ يعني لم أقدِرْ على

السجودِ ـ، قال: فلما نكرت ذلك وأخذت في نفسي، بينما أنا كذلك إذ سمعت النداء عليَّ من قِبَل الله تعالى، وهو ينادي باسمِي: يا فلان، السجود لا يكون إلاَّ لِمَنْ بَيْنَهُ وبين الله حِجاباً، وأما من رُفِع عنه الحجاب لا سجود عليه. شرَّفَنا الله بذكر هؤلاء الرجال، وجعلنا من المتعلقين بأذيالهم، آمين.

وصاحب هذه الطريقة، مثل الكُناوي، على قدْر ما يسْوَدُّ لونُهُ على قدْرِ ما يَسْوَى سَوْمُهُ. وعلى قدر ما يَبْيَضّ لونه على قدر ما ترخص قيمته، ويبخس سَوْمه.

[تجلّي الحقيقة]

وأيضاً: اعلم أن مما وقع لي في بعض سلوكي، أنه ورد عليّ حال من الأحوال تجلّت لي صفات الحق جلَّ ثناؤه في نفسي، وفي جميع الخلائق، فصرت أعشق نفسي وأعشق الخلق بأسرهم، كل من رأيته رجلاً أو امرأة، شيخاً أو صبيّاً أعشقه، حتى تهمونِي بعض سخفاءِ العقول بالفسُوق والزَّندقة، وهم لا يدرون ما بي. ولكن عبَّروا عليَّ بما في بواطنهم. وصرت أيضاً أعْشَق الحيوانات والأنهار والأشجار والطيور والسماء ونجومها والأرض وأحجارها، كل من رأيته من الخلق، بشراً أو جماداً أعشقه، وألحّ عليه حتى أنَّ بعض الخلق لا يشك أني فاسق، من شدَّة اللحاحة والعشقِ، حتى صرت أُحِبُّ من يُحبني، وأُحبُّ من لا يحبُّني ومن يعرفني ومن لا يعرفني، لأني كنت أشهد ذاتي قد ملأت الوجود علوي وسفلي. والخلق كلهم أبعاضِ مني، مثل أعضائي وجوارحي، وعشقي إيَّاهم ظهر لي أني لا أعْشق إلاَّ ذاتي وصفاتي، وأنا لا أتكلم بشيءٍ من ذلك، ولكن شهود أحوالي أنبأت مَنْ يعرف ذلك لا يخفى عليه، ومن لا يعرف يظن أني عَاشق.

[ما تفعله بربّك]

وأيضاً: اعلم أنَّ سيئة تَفْعلها بِرَبِّكَ، أفضل من ألف سيئة تفعلها بنفسكَ.

[القناعة والإلحاح]

وأيضاً: اعلم أنَّ القناعة والإلحاح ضِدَّانِ مجتمعانِ في الإنسان، ما ظهرت القناعة في ظاهرِهِ، إلحاحة حتماً تكون في باطنِهِ. ومن ظهرت إلحاحة في ظاهره حتماً تكون القناعة في باطِنِهِ. هذه سنّة الله في خلقِهِ ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، وهذا قياس صحيح، والله أعلم.

ومما سمعت من الشيخ سيدي العربي رضي الله عنه يقول: إنه سمع من أبيه

الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله يقول: إنَّ الله تعالى يقول لعبده غداً يوم القيامة: عبدي، ألم أخمل ذكرك عن الخلق فضلاً ورحمة مني عليك. هكذا سمعتها من الشيخ، سمعها من أبيه، نفعنا الله بهم أجمعين.

[طريق الحرف والمعنى]

وأيضاً: اعلم أن الطرق إلى الله طريقتانِ: طريق الحرف، وطريق المعنى. قال الششتري: هو حرْف، وكل معنى ذَاكَ. طريق الحرف هي طريق الجَبْر، يعني السلوك. وأما طريق المَعْنَى هي طريق التلف، يعني طريق الجذب. ولكن مَنْ دخل من الجَبْر ينتهي إلى التّلَف. ومن دخل من التلف ينتهي إلى الجبر، لأنَّ الحرف هو المعنى، والمعنى هو الحرف. والجبر هو التلف والتلف هو الجَبْر. والمقصود واحدٌ؛ وهو الله تعالى.

وصاحب الحرف، كما أنه لا يُفارق الحرْف، لا يُفارق المعنى. وصاحب المعنى كما أنه لا يُفارق المعنى لا يُفارق الحرف. والأمر لا يقوم للإنسان إلاَّ بينهما، وهما مُرْتبِطان في بعضهما، مَنْ حُبِس في واحدٍ يجد له الأخرى لا محالة.

[الشيخ الميت لا يكفي للتربية]

ومما سمعت الشيخ رحمه الله يقول: المريد إذا مات شيخه مثل من هو سائر مع الخير، إذا مات له الخير يجب عليه أن يعمل خيراً آخر ليسير معه. وأما من يقول: إنَّ الشيخ الميت يكفيه، إنما ذلك من قلّة علمه، أو من كثرة جهله.

وأيضاً: رآني الشيخ يوماً وأنا آكل طعاماً، فقال لي: يا ولدي، ذاك الذي أراك تفعل هو الذي حال بين الناس وبين الأسرار كلها، وهو الاهتمام بالرزق.

[ثلاث فرحات سيدي علي الجمل]

وأيضاً: منذ عرفت الشيخ ما فرحْت قط، مثل ثلاث فرحات.

أولها: جاء رجل إلى الشيخ فلم يجده فجاء يرجوه حتى جاء الشيخ نفعنا الله به فسَلَّم عليه وجلس بين يديه وجعل يتحدَّث مع الشيخ، والشيخ يحدّثه وأنا جالسٌ معهما. فقال له الرجل: يا سيدي، كنا نأتوا إليك ولا نجدوكَ. فقال رحمه الله: إنْ أتيت إليّ ولم تجدني هذا يقضي لك كل ما نقضيه أنا لك. وأشار إليّ بيده رحمه الله.

ويوماً آخر، كنت جالساً وليس معنا أحد. وكان الشيخ رحمه الله في تلك الساعة

اعتراه حال عظيمٌ، فعطف عليّ مثل الرجل إذا عطف على ولده، ورفع عمامته من فوق رأسِهِ وقال لي: هاتِ رأسكَ. فمددتُ رأسي وجعلها لي على رأسي، كما كانت على رأسِهِ.

ويوماً آخر، كنت جالساً معه صباحاً في الزّاوية، قبل أن يأتوا أصحابنا، الذين كانوا يجلسون معنا كل يوم مع الشيخ، والشيخ رحمه الله، يتحدَّث معي حتى قال لي: يا ولدي، لو ما كنا نأتي كل يوم إليك لقصدكَ هذا الموضع لَمْ نأتِ لأحدٍ من هؤلاء الناس ـ يعني الذين يجلسون معنا ـ جلوسي ها هنا كله لأجْلِكَ.

هذه الثلاث مرات ما فرحت قط مثلها لاعتناءِ الشيخ بي، ونفسي كانت عنده أحقر من ذلك، فعلمت أن الله تعالى قد تفضَّل عليَّ بخاطر الشيخ. لو ملكْت مُلك الأكاسرة ما فرِحْت به مثل ذلِكَ.

وحكى لي الشيخ رحمه الله: أن جدَّه سيدي محمد بن عبد الله، نفعنا الله به، كان يجلس في الزّاوية وكان الناس يأتون إليه كثيراً حتى تمتلىء الزاوية، ويجعل الناس طريقاً مِن باب الزاوية إلى الشيخ، طريقاً في وسط الناس، يسلك الناس منها إلى الشيخ، وكان الشيخ سيدي محمد بن عبد الله، يقول في بعض الأوقات لأصحابه: يا ولدي، لولا رجل أو رجلان نجلس من أجلهما في هذه الزاوية ما فتحنا بابها.

وأيضاً: حكى لنا الشيخ رحمه الله: أنَّ رجلاً من الفقراء وجد رجُلاً من الصالحين على شاطىء البحر فسَلَّم عليه، وجعل يسأله عن الطُّرقِ إلى الله، فقال الرجل: يا سيدي، الطرق إلى الله شتى. فقال له الوليّ: الطريق إلى الله طريقتان: أما واحدة أظنك عرفت بعضها، أمَّا الأخرى وهي هذه، ورمى رجله في البحر، وصار يمشي على الماء حتى غاب عن عين الرجل (. . .).

[المعرفة بالله تعالى]

وأيضاً: اعلم أنَّ المعرفة بالله ما دامَتْ لأهلها إلاَّ بمداومَة الحِكمَة. الحِكمة ما دامت لأهلها إلاَّ بمداومة الجلوس لأهلها، لأنَّ حكمة الله مع معرفة الله بمنزلة الرُّوح مع الجسد، كأنَّ المعرفة جَسَدٌ والحكمة روحه، ولا فات أهل الباطن أهل الظاهر إلاَّ بالحكمة. أهل الباطن انشغلوا بالحكمةِ فدامت معرفتهم، وأهل الظاهر شغلتهم الخدمة عن الحِكْمَةِ. ومن لا حِكمة له لا معرفة له، ومن لا معرفة له رُبَّما آثر ما يضره على ما ينفعهُ وهو لا يشعر (. . .).

[الوصل الحقيقي]

وأيضاً: الوصل الحقيقي عند أهل الله رضي الله عنهم، كل حال من أحوالهم فيه وصْلٌ وكل وصل يَرِد عليهم أعظم من الذي قبله، تُنَسّيهم نغمات ولذات الوصل الذي قبلهُ، وصفهم كوصف أهل الجنة، بل أعظم وأعظم، لأجل ذلك سميت جنة المعارف.

قال في لطائف المِنَنِ: «إنَّ لله في الدّنيا جَنَّةً من دخلها لَمْ يشتق لجنة الآخرة».

وسمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: طَلَبَني رجل في الخصوصية وحرص عليَّ فيها، فقلت له: اضمنْ لي عدم الاهتمام بالرزقِ أضمن لك أن تصل إلى المقامات كلها ولكن بمداومة الجلوس معي.

وأيضاً: لا تصل منزلة حتى ينزلك الخلق فيها ويشهدون لك بها. والخلق لا ينزلونك في منزلة حتى تنزل نفسك فيها، وأنت لا تنزل نفسك في منزلةٍ حتى تصطحب مع أهلها، ولا تصطحب مع أهل منزلة حتى تكون عبداً خديماً للكذَّابِين من أهلها. هكذا جرت حكمة الله تعالى وعادته في خلقِهِ، ولن تجد لسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً.

[المريد الصادق مع الشيخ]

ومما قال لي الشيخ، سيدي العربي، نَفَعَنا الله به، قال: يا ولدي، بنفس ما أسمَع صَوْتك تنادي عليَّ من باب الدار: يا لعربي، مثلت نفسي في تلك الساعة كامرأةٍ سمعت صَوْتَ ولدِهَا صاح في المَهْدِ بنفس ما سمعت صوتَه توجد الحليب في ثديهَا لترضعه، مع كونها قبل استماعِ صَوْتِهِ لا حليب كان في ثديها، ولكن بسبب استماع صوت ولدها يوجد الله الحليبَ في ثديها ما ترضعه كذلك أنا بنفسي، عندما أسمع صوتك، نوجد ما أُرضعك به من العلم بالله (. . .).

[شرف الذُّل والفقر]

وأيضاً: ومما وقع لي يوماً مع الشيخ سيدي العربي، نفعنا الله به، أنه جاءَ بي يوماً إلى القرويين في صلاة العصر، وهو يريد صلاة العصر ـ أغني عنّي ـ ووقف يصلي العصر مع سارية من سَوَاري المسجِد، فجلست أنا قريباً منه. فلما فَرَغَ من صلاتهِ قُمْت إليه وجلست بين يديه، فكان أوَّل ما تكلم لي به، قال لي: يا ولدي، هذا الأمر الذي أراك تطلبُ لا يُنَال إلاَّ بما أراك تفِرُّ منه، وهو الذلّ أحْبَبْتَ أمْ كَرِهْتَ، لا سبيل له سِوَى هذا، لا سبيل له سوى هذا، لا سبيل له سوى هذا. وقال: وكان رجل من

أصحاب سيدي أحمد بن عبد الله، نفعنا الله به، يُقال له: الحاج علي سوسان، أراد الطلوع إلى الشرق فأمرهُ سيدي أحمد، إذا وصل إلى طرابلس أن يصل إلى الشيخ سيدي محمَّد بن سعيد، وأعطاه كتاباً يوصله إليه. فلما وصل إليه، نفعنا الله به، أعطاه كتاب سيدي أحمد بن عبد الله، وجعل سيدي محمد بن سعيد يسأله عن سيدي أحمد بن عبد الله، وعن أحواله، فقال له: يا سيدي، سيدي أحمد بن عبد الله مكلف، أدع الله أن يوسع عليه. قال له: أسْكت، لا تقول هذا، كذلك الله تعالى يضيق عليه السفينة، لا تسِر إلاَّ بالثِّقل.

وأخبرني أيضاً: أنَّ الشيخ سيدي عبد الله البرناوي، كتب كتاباً لسيدي أحمد اليماني، فيه: بسم الله العظيم الأعظم، حروف مقطعة، وكتَبَ له تحت الحروف قوله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝13﴾ [المُزمّل: الآية 13] الآية، وأخبرني أيضاً: أنَّ الشيخ سيدي عبد الرحمٰن الفاسي وقف عليه مولاي عبد السلام بن مشيش في المنام وقال له: يا ولدي، طريقتنا هذه لا تُنَال إلاَّ باللذَّة وشيء من قِلَّة الدنيا. نفعنا الله بالجميع، آمين.

[الفعل المُستعمل والجِبِلِّي]

ومما سمعت الشيخ رحمه الله يقول: بين الفعل الذي يكون مستعملاً مع الفعل الذي يكون جِبلّياً، كأنَّ المستعمل شغل كامِلٌ، والذي يكون جبلياً نصف الشغل، والناس يفهمون خِلال ذلك.

[من فني عن شهود الخلق ولم يشهد إلاَّ الله]

وأيضاً: الإنسان إذا فنى عن شهودِ الخلقِ، ولم يشهد فيهم إلاَّ الحق، فإن هذا تذلُّلُهُ لهم هو عين العزِّ، وفقره لهم هو عين الغِنَى، وضعفه لهم هو عين القوة، وعجزه لهم هو عين القدرة لأنه صار فِعله مع الخلق كلهم بالله ولله ومن الله وإلى الله، لا يشهد غيره ولا يعرف سواهُ، انخرَقت له حجُب الأوهام، ولم يشهد في الوجود سوى المَلِك العَلاَّم. وإذا كان الإنسان مغموراً في دائرة الحجاب، غلبَ عليه شهود الخلق، ولم يعرف بين الفرق والجمع، فإنَّ هذا تَذَلُّلُهُ لهم ذُلّ فوق الذّلّ، وفقره لهم فوق الفقر، وضعفه لهم فوق الضعف، وعجزه لهم فوق العجز، وهكذا. لأن فعله صار يفعله بنفسه، والفاعل بنفسه مخذول على كل حالٍ. يعني صار مشتغلاً بنفسه، عبداً مملوكاً لنفسه لا يظهر عليه إلاَّ ما يَبْرُز منها من النقائِص والأفعال الذَّميمة مما لا يُعدّ ولا يُحصى، لأنَّ النفس خلقها الله مملوكة لك، وأكْرَمَك بها كرامة لا يعدلها شكر ولا ثناء إلاَّ ما أثنى

جلَّ ثناؤه على نفسِهِ. أتحفك بها لتستعين بها على معرفته وخدمته، وهي مملوكة لك، وأنت مملوك لمولاك، فصرت أنت مملوكاً لها مقهوراً مأسُوراً في يدها، غافِلاً عن مولاك الذي صوَّركَ وأنشأك. قال مولانا جلَّ ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝﴾ [الانفطار: الآيات 6-8]، وقال تبارك وتعالى على لسان نبيه ﷺ: «عبدي، خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تشتغِلْ بما هو لك عمَّا أنت له»[1]. أو كما قال ﷺ، الحديث.

[الواحد الأحد]

وأيضاً: الله تبارك وتعالى واحد في ذاتِهِ وفي صفاتِهِ وفي أفعالِهِ. اجتمع حتى لم يكن فيه فَرق، وافترقَ حتى لم يكن فيه جمعٌ. ولكن جمعه هو الدَّليل على فرْقِهِ وفَرْقُهُ هو الدليل على جَمْعِهِ.

[متابعة النفس تارة حرام وتارة واجب]

وأيضاً: متابعة النفس لها موطنانِ، في مَوْطن: متابعة النَّفس فيه حَرَامٌ، وفي مَوْطن آخر: متابعة النفس فيه فَرْض واجِبٌ. وكذلك مُتابعة الجنس لها موطِنَانِ، في موطِنٍ: متابعة الجِنْسِ فيه حَرَامٌ. وفي موطن آخر: متابعة الجنس فيه فَرْض واجبٌ.

وتبيين هذا هو: أن المريد إذا سَلِمَت نفسه إسلام الشهود والعيان، يجب عليه أن يتبع نفسه وجوباً فرضاً، ويحرم عليه متابعة الجنس في هذا المقام. وما دام المريد إسلامه إسلام الدليل والبرهان، يحرم عليه مُتابعة نفسه. ويجب عليه متابعة جنسه من أهل فَنِّهِ وجوباً وفرضاً، وذلك أنَّ إسلام العيان هو الذكر الأكبر والذكر الأكبر ما حصل لنفسٍ إلاَّ فنيت تلك النفس وبقي الحق.

[من تبع نفسه بعد الفناء فقد تبع الحق]

صار من تبع نفسه بعد الفناء فقد تبع الحق، كما أن من تبع نفسه قَبْلَه فقد تبع الباطل. قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: الآية 32] . ومفتاح متابعة النفس هو متابعة الجِنْس، يعني الوسائط، إذ لولا الواسطة لذهب ـ كما قيل ـ الموسوطُ. وكذلك مفتاح متابعة الجنس لك ـ يعني من المريدين ـ هو متابعتك لنفسك كما قيل: مَنْ لا تربَّى كيف يُرَبِّي؟ أو من حصلت له تصفية نفسه كيف يصفِّي غيره على يده.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

[الذاكر الله في الأمور كلها يفوز ويجوز كل خير]

وأيضاً: اعلم أن الشيخ خبَّرنا عن أبيه، نفعنا الله بالجميع، أنه كان يقول: إذا وجدتم المريد يذكر الله في الأمور كلها فاعلموا أنه قد فاز وحاز.

[القبض والبسط]

وأيضاً: البَسْط له أهلٌ، والقبض له أهل. فأمَّا أهل البَسْطِ إذا قابلهم القبض يزيدون بَسْطاً على بَسْطٍ. وأهل القبض إذا قابلهم البَسْط يزيدون به قبضاً على قَبْضٍ. صار القبض عند أهل البَسْطِ هو عين البَسْطِ، والبَسْط عند أهل القبض هو عين القبض.

[مظاهر الحق تعالى]

وأيضاً: اعلم أن مظاهر الحق تعالى لعباده اثنان: مظهر الذات، ومظهر الصفات. للعامة وللخاصة.

وأيضاً: سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: نحن قوم لا نُسَيِّب العود للنَّار حتى لا يصلح لشيءٍ، إذا لم يُصنع منه شيء فعند ذلك نُسَيِّبْه للنَّار.

[من تعزّه وتذله]

وسمعته يقول: كل من تعزّه يعزّك، وكل من تذلّه يذلّك، إلاَّ نفسك وفِلسكَ. كلما تُعِزّهما يُذلاَّكَ وكلما تذلّهما يعزّاك.

وسمعته يقول: الإنسان يخدم الأشغال ولا يطلع له منها شيء، يعود ثم يعود، وهو لم يطلع له شيء، حتى ينظر الله الصِّدق منه في طلب ذلك الشيءِ، فعند ذلك يأمر الله ذلك الشيء أن يُطيعه، حتى يصير ذلك الشيء طَوْع يديه.

وسمعته يقول: مثل الفقير في أموره كمن يصطاد بالأسَدِ، الأشياء كلها تخاف منه وهو لا يخاف من شيءٍ.

وسمعته يقول: الفقير ما يكون فقيراً حتى يكون مثل العَظم الرَّاشي ما يطمع فيه كلبٌ.

[كل بلد يلبسك لباسه ويجردك من لباسك]

اعلم يا أخي، أن كل بلد من البلدانِ، ما تلبسك إلاَّ لباسها، ولا تلبسك لباسها حتى تجردك من اللباس الذي يكون عليك ـ يعني لباس غيرها ـ أحببت أم كرهت، حساً أو معنىً سواء.

[النفع في كل شيء غالباً للبعيد]

ومما سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول: العين لا تسقي الغريب منها، وإنما ينتفع البعيد منها أكثر، جرت عادة بهذا. كذلك الوليّ، أكثر ما ينتفع به البعيد، وأكثر ما يُحْرم خير الولي قرابته، كما قال القائل: الذي يَزُورني لا يسأل عني جيراني.

ومما قال لي الشيخ رضي الله عنه لمَّا رآني أخذتُ في التجريد، قال لي: حالتك يا ولدي اجتمعت فيها حالتانِ: الظهور والخفاء. وقال لي: ما أخبرتك بهذا الأمْرِ إلاَّ لننتفع بأخبار حالك هذه إن شاء الله.

[المريد لا ينبغي أن يسكت باستمرار عند شيخه]

وأيضاً: المريد لا ينبغي له أن يكون بين يدي الشيخ ساكتاً، العلم لا يتعلمه مستحيي ولا متكبِّر، لأنَّ المريد الساكت بين يدي الشيخ كالصبي الذي لا يتكلَّم، لا يدري والدهُ ما به، لأنَّ الدواء لا ينزل إلاَّ على الدَّاء، وإذا تكلم الإنسان بدائِهِ يجد من يرشده إلى دوائِهِ.

[سلطانة النفوس والفلوس]

وأيضاً: السلطانة على وجهين: سلطانة النفوس، وسلطانة الفلوس. سلطانة النفوس تنزلاً، ثم بعد نهاية التدلي تترقّى إلى نهاية الترقي، أحب مولاها أم كَرِه. وسلطانة الفلوس تترقى إلى فوق ثم بعد نهاية الترقي تنزل إلى نهاية التدلّي، أحبَّ مولاها أم كره. وسلطانة النفوس حقيقة، وسلطانة الفلوس شريعة. وشتَّان ما بين الغرس والحمار، بينهما ما بين الدنيا والآخرة.

رُوي عن الشيخ سيدي محمد بن ناصر، نفعنا الله به، أن رجلاً جاءَهُ وقال له: يا سيدي، أردت من الله ومنك أن تدلَّني على شيخ يكون كامِلاً، قال له: من تكون له مريداً كامِلاً يكون لك شيخاً كامِلاً. سمعت الشيخ رضي الله عنه يقولها هكذا.

[ثمار ما قد غرست تجني]

وأيضاً: اعلم أنَّ جمال الحقيقة في مقام النهاية أساسه هو جمال الشريعة في مقام البداية. كما أن جلال الشريعة في مقام نهاية النهايات أساسه هو جمال الحقيقة في مقام النهايات. أي على قدر ما يأخذ المريد من جلال الشريعة في البدايات على قدر ذلك يأخذ جمال الحقيقة في النهايات. وعلى قدر ما يأخذ من جمال الحقيقة في النهايات

على قدر ما يأخذ من جمال الحقيقة في النهايات. على قدر ما يأخذ من جلال الشريعة في نهاية النهايات. ومن لا جلال له في بدايتِهِ لا جمال له في نهايته.

يقول صاحب القوانين في هذا المعنى: مَنِ ادَّعى شهود الجمال قبل تأدّبه بالجلالِ أرْفضه فإنه دَجَّالٌ.

[الفلاحة الظاهرية والباطنية]

وأيضاً: أهل الفلاحة الظاهرية يقولون في زرع أرض الوجود: مَن قتله العطش يحييه الماءُ، ومن قتله الماء لا يحييه العطش.

ونحن نقول في الفلاحة الباطنية في زرع النفوس: من قتله الجلال يحييه الجمال، ومن قتله الجمال لا يحييه الجلال، ومن قتله الشوْق تحييه المحبّة، ومن قتلته المحبة لا يحييه الشوق. ومن قتله الفَرْق يحييه الجمع، ومن قتله الجمع لا يحييه الفَرْق. ومن قتل بالذَّاتِ تحييه الصفات، ومن قتل بالصفات لا تحييه الذَّات. ومن قُتِلَ بالذّلّ يحييه العِزُّ ومن قُتِل بالعِزّ لا يحييه الذّلّ. ومن قُتِل بوصف العبودية يحيا بوصف الرّبوبية، ومن قتل بوصفِ الربوبية لا يحييه وصف العبودية.

[تصرُّف العارف الكامل في الوجود]

ومن أوصاف العارف بالله الكامل، أن يكون يتصرف في الوجود في جميع أحوالِهِ. إذا كان في حال الجمع يتصرف بالجمع قدرة، كالذي يضرب السّاقور، يقسم كل ما والاه به، ولا يلتفت إلى مفصل. وإذا كان في حال الفَرْقِ يتصرف بالفَرق حكمة، كالموسى الماضي في يد الحجّام، يذهب بالشعر من الرأس، وصاحب الرأسِ نائم ولا يشعر به، وإذا لم يكن العارف تصرفه بالحكمة كتصرفه بالقدرة وتصرفه بالقدرة كتصرفه بالحِكمة، فهو ناقص بالحِكمة ذلاً وعبودية، وبالقدرة عِزّاً وحُرِيّة. وهكذا رأينا وسمعنا من أشياخنا أنهم كانوا هكذا، وهكذا كان أشياخ أشياخنا رضي الله عنهم أجمعين.

يقول شيخ أشياخنا سيدي عبد الرحمٰن المجذوب رضي الله عنه في هذا المعنى: أفقير وغني ومداح، ولا أنا في هذه الحال بادي (. . .).

[أوصاف الحق ليس لها انتهاء، وأوصاف الذي يكون بالحق ليس لها انتهاء]

وأيضاً: اعلم أنَّ الظاهر والباطن ليسا طُرُق، وإنما هُما مقامانِ. والله تبارك

وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: الآية 13] . لكن من أراد خرْق العوائد في الأفعال عليه بارتكاب الشرائع الظاهرية.

غرْس الشرائع الظاهرية يثمر بالأفعال، وذلك لأنَّ الأفعال ظُلمة والظلمة عنصرها الفَرْق، كما أن من أراد خَرْق العوائد في العلوم: علوم الخبر وعلوم العيان، عليه بارتكاب الحقائق الباطنية.

غرس الحقائق الباطنية يثمر بالعلوم، وذلك لأنَّ العلوم نور والنور عنصره الجمع. والعارف بالله لا غناءَ له عن أثمار أفعال الفرق. وكما لا غناء له عن أثمار علوم الجَمْعِ، وهو دائماً، ليس هو مع جمع، ولا هو مع فرقٍ، وإنما هو أبداً مع الحق. والذي يكون مع الحق حقاً صفاته تكون في الموجودين مفقودة مع المفقودين، حيّاً مع الحيّين، ميّتاً مع الميتينَ، بل كل حال في الوجود ضده، فهو مع أهل ذلك الحالِ أو مع أضدادِهِ. وذلك لأن الحق جلَّ ثناؤه غطَّى وصَفْه بوصفِهِ ونعته بنعته تعالى. ومن أوصافه ونعوته تعالى: أن يكون كل يوم هو في شأنٍ، كذلك العبد الذي يتغطى وصفه بأوصاف سيده، يكون كل يوم هو في شأنٍ. وكما أنَّ أوصاف الحق ليس لها انتهاء كذلك أوصاف العبد الذي يكون بالله ليس لها انتهاء. والأمر فوق ما تصف الألسن، تقصر العبارة وتكلّ ولا يعلم هذا الأمر على حقيقته إلاَّ الله. وبالله التوفيق.

[من خُرِقَ له الحُجُب، فلا يُحجب عن ربِّه ولا عن نبيه طرفة عين]

وأيضاً: هذا الأمر الذي وقع بيني وبين سيدي العربي، نفعنا الله به، حِكمة الله ظهرت فيه، ولم تشفق مني ولا منه، رغماً على أنْفِي وأنْفِهِ، لا رَادّ لحكمة الله ولا مُعقب لأمْرِهِ. سبحان الحكيم العليم. وقد وقع لي هذا الأمر مع والديّ: والدي الطين ووالدي الدِّين، وتدبَّرت ذلك وحقَّقته، فلم نَجدهُ صدر مني ولا منهم. وإنما ذلك كما قلنا حِكمة الله ظهرت بذلك رغماً على أنفي وأنفهم، ولم تشفق علي ولا عليهم. سبحان من يَحُولُ بين المَرْءِ وقلبه. ولكن، والله، إني قد علمت وتيقَّنْتُ أنَّ ذلك من كمال ما أراد الله تبارك وتعالى بي وبهم من زيادة خَيْر ونعمةٍ وكرامةٍ، ولا يَجهل أنَّ كمال الخَيْر والفضل وزيادة العلم والعمل، والمعرفة بالله في هذا الأمر الذي ظهر بيني وبينه إلاَّ ذو بصيرة مظلمة، والعياذ بالله، والآن كل اجتماع لا بد له من فَرْقٍ، بالحياة أو بالممات، والآن نرجو من الله تعالى، إذا كان تفرقنا بالأشباح لم يكن بالأرواح، وإذا كان بالحسِّ لم يكن بالمعنى، وإذا كان في الظاهر لم يكن في الباطن، وهكذا

يكون الأمر إن شاء الله، لأنَّ كلَّ من اصحَبَ مع أحدٍ من العارفين بالله ولم تظهر عليه خِصْلة، أذكرها إن شاء الله، فهو مطرود مَرْدود، لا صِدْق له في طلبِ مَولاه، وهي أن يستوي عنده غيبة الشيخ وحضوره، أي ينتفع به في غيبته كما ينتفع به في حضوره، وينتفع به في حال سكوته كما ينتفع به في حال كلامه، وينتفع به في مماته كما ينتفع به في حياته. وهذه الخصلة لا يجدها إلاَّ من انتهك عنه الحجاب وزال بينه وبين مولاه حتى لم يُحْجَبْ عن ربّه ولا عن النبي ﷺ ولا عن شيخه طَرْفة عين.

[قف على الفناء بنوعيه]

وأيضاً: اعلم أنَّ الفناء فناءان: فناء من حَضْرَة العوام إلى حضرة الخصوص. وفناء من حضرة أهل الدنيا إلى حضرة أهل الآخرة. صاحب حضرة العموم هو في الوجود وصاحب حضرة الخصوص الوجود فيه. كما أنَّ صاحب حضرة أهل الدنيا كذلك هو الوجود، وصاحب حضرة الآخرة الوجود فيه.

انظر كلام الششتري في تربية المريد حيث قال:

إذا شَعَرْتَ بالوُجودِ قد لاَحَ في ذَاتِكْ هو سِرّ ولازم الجحود هذك صفاتِكْ

واضربْ بترْسِ العقود والْقَ عَصَاتك

وانظر ابن عطاء الله في لطائف المِنَن حيث قال: لا يُدْخل على الله إلاَّ من بَابَيْن: باب الفناء الطبيعي، وهو الموتُ وإلاَّ باب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة الشاذلية. وعلى قدر ما تتقوَّت ذاتُ الإنسان وصفاته من ذاتِ الوجود وصفاتِهِ في أيام حياته، عاماً أو عشرة سنين أو مائة سنة، على قدر ما تتقوَّت ذات الوجود وصفاته من ذاتِ الإنسان وصفاته، يعني بعد مَوْتِهِ. وهذه الأمور كلها يطلق عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية 49] من حيث الإنسان لا يبرح حتى يصير وجوداً، وبالعكس.

[مشاهدة الحقّ]

وأيضاً: مشاهدتك للعبد الذي يشاهد المولى، تقوم لك مقام مشاهدة المولى وذلك لأنَّ العبد الذي يشاهد الحق ما له من العبودية سوى خيال العبودية. وأما هو: الحق شاهد نفسه بنفسه ولا عَبْدَ. إذ محال أن يعرفَ الحق إلاَّ الحق أو يشهد الحق إلاَّ الحق. ولكن إذا أراد الله جل ثناؤه أن يظهر لنفسه بنفسه في الوسائط، فإنه تعالى يكشف عن وجهه الحجاب فيتَجَلَّى لمَنِ اصطفى من أحبَّائِهِ من عباده، فيفنَى عند ذلك

وجود ذلك العبد حتى لا يبقى له أثرٌ، ويبقى الحق عند ذلك وحده، وهو الشاهد لنفسه بنفسه في نفسه، وهو السامع لنفسه بنفسه في نفسه، فيبقى عند ذلك العوام يشهدون من ذلك العَبْد خيال العَبْد، لا العبد لأنَّ العبد قد فني وتلاشى واضمحلَّ، ولا يبقى إلاّ الحق، وتلك الخيال الذي يشهده العامّة، يعني خيال العبودية، هو في أعْيُن العامة لا في الوليّ، لأنَّ الولي كان عبداً قبل ظهور الحق إليه، وأما بعد ظهور الحق إليه، جاء الحق وزَهَقَ الباطل، وأهل الحجاب لا يشعرون، كأنَّ العبودية هي ضِدّ هذا المقام، وإن كانت هي التي توصل أهل هذا المقام إليه. العبودية هي الحجاب الذي يحجب عن هذا المقام، وهي المفتاح الذي لا يُفتح هذا المقام إلاّ به. بها وصل من وَصَلَ وبها قطع من قُطِعَ. وهذا الخيال الذي يشهده العامة هو كما قلنا: في بصائر العامّة لا في الوليّ.

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

سبحان من جعل الحجاب هو عين الباب، كما جعل الباب هو عين الحجاب. سبحان من يُعَذِّبُ بما يَرْحَمُ به إن شاء ويَرْحم بما يُعَذِّب به إن شاء، سبحان القادر الحكيم.

[الرُّوح في الدّارين]

وأيضاً: اعلم أنَّ الرُّوح في دار الدنيا غريبة مقطوعة، والجسد موصول في أهله. من أجل ذلك كان الناس في الدنيا أجسادهم حاكمة على أرواحهم، وسيكون في الآخرة الأمر بالعكس، الجسد يكون غريباً مقطوعاً والروح تكون موصولة في أهلها، وسيكون في الآخرة أيضاً أكثر الناس أرواحهم حاكمة على أجسادهم ـ يعني من كان جسده حاكِماً على روحه في الدنيا هو الذي تكون روحه حاكمة على جسده في الآخرة ـ وهؤلاء هم العامّة. وأما الخاصة، ليس لأجسادهم حكم على أرواحهم في الدنيا وليس لأرواحهم حكم في الآخرة، بل كما كان الحكم لله، لأجسادهم ولأرواحهم في الدنيا، كذلك سيكون الحكم لله في الآخرة على أرواحهم وعلى أجسادهم. يموت المَرْء على ما عاش عليه، ويبعث المَرْءُ على ما مات عليه. من كان عبد شيءٍ في الدنيا فهو عبده في الآخرة ـ يعني من الأكوانِ ـ ومن كان عبد الله مخلصاً إليه في الدنيا فهو عبد الله مخلصاً إليه في الآخرة. ثم يُقال لعبد الأكوان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿98﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية 98] . ويدخل في زمرة عبيد الأكوان عَبْدُ نفسه، وعبد الآدَمِي من جِنْسِهِ، وعبد الدرهم والدنيا، نسأل الله تعالى أن

يعصمنا من رُقية أنفسنا، ومن رقية الأكوان، وأن يجعلنا بفضله عبيداً له مخلصِينَ إليه في جميع الحالاتِ وأن يوفقنا لذكره برحمته وجوده وكرمه.

[أحوال سيدي العربي ابن سيدي عبد الله]

وأيضاً: اعلم أنَّ الشيخ سيدي العربي، نفعنا الله به، كانت له كُتب عديدة، كتبها بيده، مما كان يرد على قلبه، سمعته يتكلم على كناش من تِلْكَ الكتب، قال: هذا الكناش جعلت فيه ثلاثة آلاف تجلّي، تنقص أقل من مئة. قال: مِن هذا التجلّي ما الذي كنت أمكث فيه ثلاثة أيام، وفيه ما كنت أمكث فيه شهراً، وفيه ما كنت أمكث فيه ليلة، أو أقل من ليلة.

وكان رضي الله عنه ما رأيته يتكلم في شأن الدنيا عند الاضطرار إليها أكثر من ثلاث كلمات قط.

وكان رضي الله عنه لا يفرح بإقبال الدنيا ولا يَحْزن على إدبارها. ما تبعه أحد في شيء منها إلاً تركه له من غير التفاتٍ إليه ولا إليها.

وكان رضي الله عنه لا يتكلف كلفة أبداً ولا يأمر أحداً بكلفة ولا يحضر مع أهل الكُلَفِ. ما له إرادة، سوى ما أراد الله في الوقت.

وكان رضي الله عنه يؤثر معرفة المسَاكين الفقراء المنسوبين إلى الله عن معرفة أهل الدينار.

كان رحمه الله قانِعاً من الدنيا بما وَجَدَ منها، همَّته كلها مصروفة في طلب مولاه أبداً.

وكان رضي الله عنه في السخاء أكرم من السَّحَابِ.

وكان رضي الله عنه لا يتكلّم بكلامٍ ولو بمزاح في الوجود كله إلاً كان. وكان جلُّ كلامه في شأن الدنيا كأنه مزاح، يقبضها مزاحاً، ويدفعها مزاحاً.

وكان رضي الله عنه لا ينكر على الخلق حالاً من أحوالهم ولا يأمر أحداً بالانتقال عن حال وجده فيه، بل يُقرّهُ عليه، ويحضه على الاجتهاد والرجولة فيه.

وكان رضي الله عنه مشغولاً في باطنه مِنْ قلّة كلامه على الدّنيا حتى كان الكثير من أهلها ينكرونه. وكان رضي الله عنه لا يعبأ بإنكارِهِم ولا بإقرارهم.

وكان رضي الله عنه، مطلوباً غير طالب، معشوقاً غير عَاشق في الأمور كلها، غَنِيّاً بالله عن جميع الخلق، عن محسنهم وعن مُسِيئهم. وكان لا يؤثر عن الجلوس مع أهل فنّهِ شيئاً، وهو أحبُّ إليه من أولاده وماله، ومن الدنيا وما فيها.

وكان رضي الله عنه صاحب أحوالٍ، في بعض الأوقات نَجِدُ فيه حِلماً عظيماً، وتاسِعاً عظيماً، وفي بعض الأوقات كأنه أسَد، ما تكلم في أحَدٍ بخَيْرٍ إلاَّ أغناهُ ولا تكلم في أحَدٍ بِشرٍّ إلا أفناهُ. كلمته لا يردها مولاه في خير ولا في شرٍّ، كأنها كرَةٌ خَرَجَت من مِدْفَع من يَدِ رَامٍ، يضرب الحبة بل أسرع وأسرع.

وكان رضي الله عنه، كل يوم نَسْمع منه علوماً جديدة، طرية، لم نسمعها منه بالأمس. ما سمعنا منه علماً ورجع إليه غداً قطُّ، إنه كل يوم له علم جديد، هذا شأنه منذ عَرَفناه إلى الآن، وكأنه رضي الله عنه، الحقيقة عنده كأنها دقيق، والشريعة كأنها مِلْحٌ، ولكن يتصرف بالحقائق السفلية كما يتصرف بالحقائق العلوية، كأنه كما قيل: يمني وعسري مسرح يخدم الهبوط كما يخدم الطلوع، ويخدم الطلوع كما يخدم الهبوط، يأخذ صاحبه كيفما وجدها، وهذه الحالة لم نجدها في وقتنا هذا في غيره، كأنه بَرْزخ بين بحرين: بحر الحقائق وبحر الشرائع.

[الصلاح والفساد]

وأيضاً: اعلم أنَّ الله تبارك وتعالى خلق الفساد وخلق ضدَّه، وهو الصَّلاحُ رحمة منه على عباده. الفساد جلالي، وهو في غاية الاتقان. والصلاح جمالي، وهو في غاية الاتقان. كما خلق الأشياء كلها، ظاهرها وباطنها، كلها بأضدادها: الجلال ضده الجمال، والجمال ضده الجَلال. أما ما ينكره الخلق، مثل الفساد والذل والعجز والضعف والفقر وما أشبه ذلك مما ينكره خاطر الإنسان كله، هؤلاء يسمونها حقائق.

وأما أضداد هذه الأشياء كالصلاح والعزّ والقدرة والقوة والغنى من جهة العَبْد يسمونها شرائع. وأما من جهة الحق تعالى كلها حقائق، إلاَّ أن الأولى حقائق النزول والثانية حقائق الطلوع، والإنسان قائم بين هذه الأضداد. بهن قام هذا الوجود، لكن كما قال القائل: بين الطلوع والنزول تخبَّلت الغزول. صار الإنسان إذا غلبت عليه حقائق الطلوع تطلبه حقائق النزول، وإذا غلبت عليه حقائق النزول تطلبه حقائق الطلوع. على هذا أهل العقول الكمَّل رضي الله عنهم استقرُّوا في النزول، وحطُّوا فيه رِحَالهم، واستلذوا بأمر ما في الأشياء، واقتحموا أعظم الفجائِع. كما قال الشاذلي رضي الله عنه: اللهُمَّ إنَّ القوم قد حكمت عليهم بالذلّ حتَّى عَزُّوا، وحكمْتَ عليهم بالفقدِ حتى وَجَدُوا. لأنَّ الفساد هو أصل الصلاح، على قدر ما يعظم الفساد يعظم الصلاح. وكذلك سائر الأضدادِ، على قدر ما يعظم الضِدّ يعظم ضِدّه. كقول ابن الفارض:

وأعجب شيء كلما زدت ذلّة إليهم   أرى قدري في النّاس بهم يَغلُو

الصلاح لا يكون بغير فساد، والفساد لا يكون بغير صلاحٍ. إن أساتذتنا رضي الله عنهم حاشاهم أن يأمرونا بالفساد، أدباً مع الشريعة، ولكن عليهم أن يخبرونا بالطريقة وأصولها وحلوّها ومرّها. ونفهم أنَّ حلوّها لا يقوم إلاَّ بمرّها، ومرّها لا يقوم إلاَّ بحلوّها. ومرّها به ظفروا بحلوها، وإذا خبَّرونا به قولاً وكنا صادقين في طَلَبِنا، نقتحم أَمَرَّ المرائر، ولا نبالي بقول عدوٍّ ولا صديق لأجل ما طلبنا:

ومن يَطْلُب الحسْنَاءَ يصبِرْ على البَذْلِ ويغوصُ البَحْرَ في طَلَب اللآلِي

ومن طلب العُلاَ سهر اللَّيَالِي

فإذا رأونا سادتنا ارتكبنا فجائع الحقائق، يتحققوا بِصدْقِ طلبِنَا، ولا يُنْسَب عليهم أنهم أمرونا بشيءٍ من ذلك. كما أنَّ الله تعالى أمرنا بأشياء ونهانا عن أشياء. أمرنا بالخيريات، ونهانا عن الشريّات. ولكن علم سبحانه أن لنا الخير في الشريات ابتلانا بها، وأن لنا الخير في الخيريات ابتلانا بها، وهو أحكم الحاكمين. ولا يجب علينا أن نثني عليه إلاَّ ما هو أهلاً، من الخير والإحسان، لأنَّ كل شيءٍ من جهة مولانا فهو خير ومن جهة أنفسنا: هذا يليق بها خيرٌ طيب، وهذا لا يليق بها شر قبيحٌ.

[حُكْمُ الأشياء على وفق حكم سيّدها]

وأيضاً: وأما سادتنا، رضي الله عنهم، لا يشهدون إلاَّ الخير في الأشياء وفي أضدادها، لأن المولى كريمٌ، جوّاد، كامل. والكامِلُ لا يخرج من عنده إلاَّ الكمال، ولا يوصف إلاَّ به، كذلك سَادتنا وصفهم الله تعالى بأوصافه، رضي الله عنهم، لا يشهدون منه إلاَّ الكمال. إلاَّ أن الأدب من جهة الخلق لهم منه يختلف في ظواهرهم بأخلاق الخلق. وفي بواطنهم بأخلاق الخالِق. رزقنا الله محبتهم ونفعنا بهم آمين، وهذا من حلمهم ورأفتهم أنهم يعلموننا بأحكام الحقائق، وأن الشرائع بيّان، والحقائق هي المقصود، كما قال سيدنا عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به: إنما وُضع هذا الشَرْع لتلك الشرائع ومع هذا يحنُّون علينا ويرأفُون بنا ولا يأمرونا، وإذا رأونا اتبعنا ما سَمِعْنَا منهم يسيروا معنا سير الأب مع ولدِهِ، كل مافسدنا يرطبوه لنا، ويرجوننا خَيْرهُ وذلك لئلاً يُنتسب عليهم مع الخلق النقص كما أنهم لم ينتسب عليهم مع الخالق إلاَّ الكمال، كذلك مع الخلق. والصحيح والله ما يُظْفر به إلاَّ بالصحيح، من أحبَّ هذا يصبر على هذا، والسلام.

وبعدما تدخل في هذه الحقائق بالله، أو لله، أو على الله، احْذَر من خصْمي النفس، وخصمي الجنس. فإن نجَّاك الله منهما اعلم أن مولاك اختارك من خلقِهِ

واصطفاك لنفسه وجعلك من حضرة قُدْسِهِ. يا سعدك يا بشراك، أبشر بما ترتجي من خير مولاك، وما ذلك على الله بعزيزٍ. غير أن هذا المنتَسِبَ إلى الله يطلبه أعداء يرُدُّونه، لا ينجو منهم إلاَّ القليل ولا ينجو إلاَّ من نجَّاه الله تعالى، وقليل ما هم، وبالله التوفيق.

[إذا اخترت اختر الضِّيق على التاسع]

ومما قال لي الشيخ، رحمه الله، قال لي: يا ولدي لا تختار حالاً على حَالٍ، أنت مع ما أقامك مولاك، وإذا كان ولا بد من الاختيار اختر الضيق على التاسع، يعني الضيق في الظاهر هو عين التَّاسِع في الباطن. انظر قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القَدر: الآيات 1-3]. قال بعض المفسرينَ: القَدْر هو الضيق.

[كن مطلوباً ولا تكن طالباً]

وأيضاً: إياك أن تكون طالباً، كن مطلوباً عند الخلقِ ولا تكن طالباً؛ لأنَّ الخلق مجبولون على أن من طلبَهم تركوه، ومن ترَكهُمْ طلبوهُ، ما تطلبه ويطلبك أكثر إلاَّ مولاك، جَرَت عادة الله أنَّ من طلب شيئاً لا يظفر به حتى يبذل فيه نفسه وماله. يا خسارة من بذل نفسه وماله في طلب الخسْران، وهو المخلوق. ويا ربح من بذل نفسه وماله في طَلَبِ من يُضاعفها له أضعافاً كثيرة، وهو الله تبارك وتعالى.

قال الله تبارك وتعالى على لسان نبيّنا الصادق المصدوق: «مَنْ تقرَّب إليَّ شِبْراً تقرَّبْت إليه ذراعاً، ومن تقرَّب إليّ ذِراعاً تقرَّبتُ إليه باعا». وقرْبُك منه على قدر زهدك في الدنيا وفي الآخرة، كصفة الشيخ الذي تجلَّت له الدنيا وأعرض عنها، وهي في أحسن هيأة، فأعرض عنها وسار، ثم تجلَّت له الآخرة في هيْأة لا تشبه هيأة الدنيا، ثم أعظم وأعظم، وأعرض عنها وسَار. فإذا هو بالنِّداءِ عليه: يا فلان، لو وقفت مع الأولى لحجبناك ـ أي منعناك الثانية ـ ولو وقفت مع الثانية لمنعناك مِنّا، والآن، هما لك باثنين، ووجهنا.

[بعض الإيمان بالغيب]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ سيدي العربي نفعنا الله به، قال لي: يا ولدي، من الإيمان بالغيب أن تطلب الرزق من وجوه كنت تظن أنك لا تُرزق منها. يقول رسول

الله ﷺ: «أبى الله أن يَرْزق عبده المؤمن إلاّ من حيث لا يحتسب»[1].

[القدرة تابعة لهمم الخلق]

وأيضاً: اعلم أنَّ القدرة تابعة لِهِمَم الخلقِ، ما نظروا أحداً بالعُمْران إلاّ عُمِّرَ، ولو كان خالياً. ولا نظروا أحداً بالخلاءِ إلاّ خَلاَ، ولو كان عامِراً. والكلام على الجُلِّ.

[تخمة هات وخُذْ]

وأيضاً: هاتِ لها تخمة، وخُذْ لها تخمة. إذا أتخمتك هات، لا تجلّي عنك التهمة إلاّ خُذْ. وإذا أتخمتك خُذْ، لا تجلّي عنك إلا هاتِ. وكل شيء يُقْبلُ منك فيه العُذْرُ إلاّ الصحبة لا يقبل منك فيها عُذْرٌ. يعني صحبة أهل الفنّ.

[بعض أوصاف الفقير الصادق]

وأيضاً: ومن جملة أوصاف الفقير الصادق الكامل أن لا يذكر نفسَهُ في وسط الخلق، ولا يعبأ بها ولا بحَظِّها، ولا ينسُب لها شيئاً من الأفعال ولا من الإرادات، ولا من التأثير. هذه بعض صفات الفقراء السادة المؤدبينَ مع مولاهم. ولا لها قدر في وسط الخلق. وحق الخلق كلهم عليه، ولا يرى لنفسه على الخلق حقاً ولا ينكر على الخلق شيئاً من أحوالِهم.

سُئل أحد المشايخ، قيل له: يا سيدي، ما مُراد الله تعالى من خلقِهِ. قال: الحال الذي هم عليه الآن.

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ: يا ولدي، الفقير حاجته هي الحاجة التي بقيت ولم يحتجها الخلق كلهم.

ومما سمعت الشيخ، نفعنا الله به، يقول: الفقير أولاً حالُهُ حال الذي يوقد ناراً في الأعواد الخضراء، أولاً يحصل له التعب بالدُّخان والكُفُوس حتى تشعل النورانية، ينقلب ذلك الدخان كله نوراً فتحصل له الراحة، ويطوى عليه المكان حتى تظهر له كل خفية، ويقضي به ما أراد إذا صبر أولاً لمشقة الدخان.

[الخروج عن عادة الخلق]

وأيضاً: ومما قال لي الشيخ، نفعنا الله به: إنَّ الحكمة التي هي رأس الحِكَم

---

(1) رواه الشهاب في مسنده بلفظ: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلاّ من حيث لا يعلم» حديث رقم [1ـ (379)] ج 1 ص 341)، وأورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (58).

الباطنية كلها، هي: الإنسان يحتال حتى يعوِّد نفسه الخروج عن عادة الخلقِ. بهذه الفائدة تتبيَّن له الأشياء الظاهرية والباطنية، كتبيّن الحديد بين يدي سيدنا داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ الناس كلهم ـ يعني العامة ـ مرهونون. فالعادة هي التي شرطت لهم الخير كله وحالت بينهم وبين كل مَنْ خصّ بشيءٍ من أهل الخصوصية الظاهرية والباطنية، والمدد على قدرِ الهِمَمِ، وما كان لله دام واتَّصَل، وما كان لغير الله انقطع وانْفَصَل.

[العلم مثل المال]

وأيضاً: العلم مثل المال، مهما يحركه صاحبه يزيد. سمعته من الشيخ رحمه الله.

ومما قال لي رضي الله عنه ونفعنا به، قال لي: يا ولدي، إذا طوّل الله عمرك ودمْت في هذه الحقائِق، سترى إن شاء الله، أين توصل بها، وسترى من خوارق العادة في الظاهر والباطن ما ليس له حدّ ولا حَصْرٌ.

[شرف الباطن]

وأيضاً: اعلم أنَّ هذا الإنسان، جعل الله باطنه أكبر من كل شيءٍ كبير، وظاهره أصغر من كل شيء صغير. باطنه جمالي، وظاهره جلالي، وهذا مراد الحق تعالى منه. إذا وافَقَتْ أحواله أصله فهو في أكملِ هيئةٍ وإذا لم توافق أحواله أصله فهو مخذول. إذا كان ظاهره جلالاً وباطنه جمالاً يكون خيره كثيراً وشره قليلاً والحكم للغالب.

[حقيقة الحقائق]

وسأل رجل يوماً الشيخ سيدي العربي، نفعنا الله به، فقال له: يا سيدي، ما حقيقة الحقائق؟ قال له الشيخ: حقيقة الحقائق هو ألاَّ تعمل لمولاك إلاَّ ما يُريد ولا يعمل لك مولاك إلاَّ ما تريدُ.

ومما وقع لسيدي أحمد الفضيل، مع شيخنا سيدي العربي، نفعنا الله به، ستة أشهر وهو يطلبه في شيءٍ من الحقائق والشيخ يقول له: السِّير إلينا كل يوم. وسيدي أحمد يقول له: يا سيدي زدني شيئاً أفعله. والشيخ يقول له: حسبك المجيء إلينا. ما زال يكرر عليه طلب الزيادة والشيخ نفعنا الله به لا يزيده شيئاً عن: حسبك المجيء إلينا. حتى قال له يوماً: يا ولدي، أنت تطلبُ الكلفة وطريقتنا هذه طريق عدم الكلفة.

[على قدر الجلال يكون الجمال]

وأيضاً: جرت عادة الله في خلقِهِ: كل ما يشرق جلاله في أوله يشرق جماله في آخره، وكل ما يشرق جماله في أوله يشرق جلاله في آخره. هذا عند أهل الظاهر، وأهل الباطن كلُّهم فيهما سواء، إلاّ طرقهم وألوانهم مختلفة. حسنات هؤلاء سيئات هؤلاء، وهكذا.

[طريق الذّات]

وأيضاً: طريقتنا هذه يُقال لها طريقة الذات، وهي أشرف الطرقِ وأسرعها لأنها موصوفة بأوصاف ذاتِ النبي ﷺ.

جاء في الصحيح: أنَّ النبي ﷺ كان جلالي الظاهر، جمالي الباطن. وهذه الطريق جعلها الله تعالى كذلك، جلالية الظاهر، جمالية الباطن. وأهل هذا الوصف الكامل قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: الآية 24] . قال ﷺ: «حُفَّت الجنَّة بالمكَارِهِ وحُفَّت النار بالشهوات»[1].

[رجل واحد من العارفين بالله تعالى أفضل من مئة ألف رجل من غيره]

وهذه الطريق جعلها الله مُحَوَّطة بحائطِ الجلال وذلك من غِيْرَة الحق عليها وعلى أهلها لأنَّ رجلاً منهم أفضل من مئة ألفِ من غيرهم. لما أراد الله تعالى أن يخفيهم عن أعيُن خلقِهِ جعل ظواهرهم جلالاً وبواطنهم جَمَالاً. لأجل ذلك، صار عامة الناس ينكرونهم ولا يعرفهم من الناس إلاّ من أخذ الله بيدهِ، وفتح بصيرته، لا يوصّل إليهم مولاهم إلاّ من أراد أن يُوَصله إليه. يا سعد من فتح الله بصيرته وعرف أحداً من أهل هذه النسبة النبوية، جعلنا الله وإياكم من أهل محبَّتهم المشتاقين لرؤيتهم، آمين يا رب العالمين.

وأيضاً: سمعت الشيخ سيدي العربي يروي عن أبيه سيدي أحمد بن عبد الله، نفعنا الله بالجميع، كان يقول لأصحابه: يا ولدي، صاحبنا إذا لم يحصل على فائدة لا بد أن تحصل له خِصلتان: يَصْلح دينه، ولا يُشمتُ فيه أحد. نفعنا الله بهم أجمعين.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

[الراحة على قدر المشقة]

اعلم أنَّ صاحب الحقائق، أولاً يلقى فيها مشقة عظيمة، ثم بعد ذلك إذا لم تهزمه تلك المشقة يحصل له فيها راحة عظيمة، الراحة على قدر المشقة، إذا أشرقت بدايته على قدرها تشرق نهايته. إذا لم تهزمه المشقة الأولى واحتَزَمَ في شأنه في بدايته على قدر حُزْمتِهِ يكون نَفْعُهُ.

[الجذب بالتعليم]

وأيضاً: ومما سمعت من الشيخ، نفعنا الله به، وهو يتكلم مع أحدٍ من أصحابه، فقال له: يا ولدي، الجذب يتعلمه أهله مثل الصَّنعة، ونهاية الجذب يعلمها الله من نفسه، حيث يقول للشيء كن فيكون. وذلك نهاية الجَذْبِ. «لا يزال عبدي يتقَرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّهُ، فإذا أحبَبْتَه كنت. . .»[1] الحديث.

[تفسير النوافل عند أهل الإشارة]

قال بعض المفسرين: النوافل هي الحقائق العلوية والسفلية.

وكنت مع الشيخ، نفعنا الله به، جالساً معه على شاطىء نهرٍ وهو يتحدث معي، فقال لي: يا ولدي، الماء في الأرض بمنزلة الدَّم في الإنسان.

وسمعت منه يقول، قال: يا ولدي، الخير خير الله ـ يعني سرّ الخصوصية ـ، وقال: هو مثل الواد تَرِد منه مائة ألفٍ، فمائة ألف، ولا ينقص شيء منه ولا يشعر بهم، وَرَدوا منه أو لا، والذي رأى قصراً أو نقصاً فإنما القصر في نظره والنقص في عبارته، وسبب ذلك هو حب الدنيا وحب أهلها ومجالستهم. من ذلك قصر نظره ونقصَتْ عبارته. والعبارة في النَّظر تقصر وتنقصُ على قدر ما في طوية القلبِ، وتعظم على قدر ما في طوية القلْب. إذا كان القلب مطوياً على حب المخلوق فإن العبارة لا تخرج إلاَّ ناقصة وإذا كان القلبُ مطوياً على حبِّ الخالق فإن العبارة لا تخرج إلاَّ كامِلة.

[مِنَّة الله على عبده المحبوب الذي يكون العرش وما حوله في قبضته]

وأيضاً: ومما مَنَّ الله عليَّ أن أدخَلَني جنَّتين: جنة حقيقتي، وجنَّة شريعتي. إذا

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (6137)، ورواه ابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله في أحواله. . .، حديث رقم (347)، ورواه غيرهما.

كنت في جنّة حقيقتي أجِد العَرْش العظيم وما حوى كله في قبضتي، والكون العلوي والسفلي أتصرف فيهما بحكمتي ومشيئتي. وإذا كنت في جنة شريعتي أتنَعَّم في عشقي وشوقي وخضوعي وذلّي في عبوديتي، وأتبختر في اضطراري وعجزي وضعفي وتملقي على أبواب أحِبّتي. وكمال المنّة عليَّ أن لا أرجح شريعتي على حقيقتي ولا حقيقتي على شريعتي.

[التعظيم يوصلك إلى أعظم منزلة... التعظيم ما له نهاية]

وأيضاً: باب التعظيم عظيم. سمعت الشيخ، نفعنا الله به، يروي عن أبيه رضي الله عنه يقول: قال: التعظيم ما له نهاية، التعظيم يوصلك إلى أعظم منزلة، والفتح يحصل للمريد على قدر التعظيم. يكون المريد أولاً يطلب الفنّ بالتعظيم، حتى يتمكّن التعظيم من ظاهره وباطنه، فيصير عند ذلك، الفنّ يطلبه. فإذا حصلت له المعرفة بأنّ الفنّ يطلبهُ فإنّ الراحة تحصل له عند ذلك ويصير عارفاً. وإذا حصلت المعرفة انتفى الجَهْل وذلك عين المطلوب. وبالله التوفيق.

باب رأسِ الحكمة، وعين الأدب على مذهب السالكين بالجذب لربّ العالمين. الباطِن يصدق والظاهر يكْذب.

[الفقير لا يُربط لا بخير ولا بشر]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ رحمه الله، قال لي: يا ولدي، إياك ثم إيَّاك يربطك أحدٌ، كُنْ حُرّاً دائماً لا يربطك أحدٌ بخير ولا بشرٍّ، لأنَّ الإنسان ربما يُرْبط بخير الناس فيه وربما يُرْبط بخيره في الناس، وربما يربط بشره في الناس، وربما يربط بشر النّاس فيه.

قال لي الشيخ سيدي العربي: كان أبوه سيدي أحمد بن عبد الله، نفعنا الله بالجميع، يعبر على الخير مع الشرّ، قال: يأتي الشّرّ إلى باب الدار فيطرق الباب فيقول له الإنسان: من أنت؟ فيقول له: أنا الشر. فيقول له: لا أفتح لك، إذهب، لا حاجة لي بك. فيقعد بقرْب الباب حتى يأتي الخير فيطرق الباب فيقول له الإنسان: من أنت؟ فيقول: أنا الخير. فيفتح له الباب، فبمجرد ما يفتح له الباب يدخل الخير ويدخل الشر معه، ولولا ما فتح الباب للخير ما دخل الشرّ.

[التقرُّب للولي بالنوافل حتى يصير صاحبه يقول للشيء كن فيكون]

وأيضاً: قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: «ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافِلِ

حتّى أُحِبَّه، فإذا أحببته كنت. . .»[1] الحديث.

قال بعض العارفين في تفسير هذا الحديث: لا يزال العبد يتقرَّب لمولاه بالنوافل، أي الحقائق، حتى يصير العبد حقاً، فإذا صار حقاً يصير أمره بين الكافِ والنُّون بأمر الله تعالى، يقول للشيء كن فيكون. وما ذلك على الله بعزيز.

[المُريد مع الشيخ كالميت بين يَدَي المُغَسِّل]

وأيضاً: اعلم أن أول ما يحتاج إليه طالب هذه الطريقة في بدايته، أن يُلْقي نفسه لشيخ عارف بالله، ماهرٍ بالسَّير بالتدلِّيات والترقيات، ويكون عنده كالميّت عند مُغَسِّلِهِ. ولا يعترض على الشيخ إذا فهم شيئاً يفهمه ناقصاً ولو كان على غير مشروع. قال سيدي عبد القادر في بعض كلامه، نفعنا الله به: إذا كنتُ في حُكْمِ الشريعة عاصياً فإني في علم الحقيقة طائعُ.

ويجب على المريد أيضاً: إذا قَدِم على الشيخ أن يغتسل من علمه وعمله، كما فعل الشيخ سيدي أبي الحسن الشاذلي، نفعنا الله به، حين التقى مع الشيخ سيدي عبد السلام بن مشيش، نفعنا الله بالجميع، في مُلاقاته المعلومة.

ويجب عليه أيضاً: أن يتوب من حسناته ومن سيِّئاته، بل يتوب من حسناتِهِ أكثر من سيئاته. كما قال بعضهم: توبَة المعصية توبة واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة. ومع هذا يصطحب معه ويلتصق معه حتى يكون الشيخ عنده أعزَّ عليه من نفسه وماله وولده، حتى لو أمَرَهُ بالمحال القطع الذي لا يتصور في العقل لفعله من غير التفاتٍ ولا تَبرُّمٍ.

وأما قولنا: يتوب من حسناته ومن سيئاتِهِ ليقدم على مولاه طامعاً في مَحْضِ فَضْلِهِ، لا بشيءٍ ولا على شيءٍ. وبالله التوفيق.

[كتابة كلام الشيخ]

وأيضاً: ومما روى لنا الشيخ سيدي العربي، نفعنا الله به، عن أبيه: أن سيدي محمد بن سعيد كان، رضي الله عنه، هو يتكلَّم، والكتَّاب جالسُون يكتبون كل ما سمعوا منه من العلوم اللَّدنية والمواهب القلبية. وإذا تمَّ كلامه وسَكَتَ يسألونه عن بعض ما تكلَّم به ليثبتوا إذا نسوا شيئاً، فيقول لهم الشيخ: لا أدري ما فات، تكلموا

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

معي إذا شئتم في شيء آخر، وأما ما فاتنا لا نَرْجع إليه أبداً. نفعنا الله بالجميع.

[شغلك مع الشريعة ومع الحقيقة]

وأيضاً: ومما أوصاني به الشيخ سيدي العربي، نفعنا الله به، قال لي: يا ولدي، ومما نؤكد عليك تأكيداً بعد تأكيد: المحلوبَةُ احْلِبْها حَلِيبْ، والمعصورةَ اتركها تسلم. هذا يكون شغلك مع الحقيقة ومع الشريعة. ولا يحصل لك العزّ الكامل - يعني عزّ الملك الكامل - حتى تباشر الدنيا وأهلها كأنها مُزَاح، ثم تخدمك الدنيا وأهلُها خِدمة المَمْلوكِ للمَالِكِ.

[بداية الشيء أمرٌ من الحنظل ونهايته أحلى من العَسَل]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحقائق كلها: علوية وسفلية. كلها في أولها تكون عند صاحبها أمرَّ من الحَنْظَلِ، وما دام صاحبها لم يَصْدق فيها وهي تحلو له حتى تصير عنده أحْلَى مِنَ الشَّهْدِ. المبتدىءُ يُخاف عليه من مَرَارتها، والكامِل يُخَاف عليه من حلاوَتها أن تُشْغله عن الله. قال بعض سادتنا عن أهل المعرفة بالله، قال: ما قطعُوا واد الربح حتى قَطَعُوا واد الخسارة. والزّغبي في واد الخسارة باق.

[الحقائق لها قواعد]

وأيضاً: اعلم أنَّ هذه الحقائق لها قواعد من دخل هذه الحقائق وهو لم يعرف قواعدها فهو مخذول. وفي بعض كلام العرب: يقتل البلاد من يعرفها وتقتل البلاد من لا يعرفها، بصحبة من يعرفها. من جملة قواعدها، ربما غرسَ صاحبها خيراً خرج له شرّاً، وربما غَرَسَ صاحبها شرّاً خرج له خيراً. ولا يعرف حكم ذلك إلاَّ الحكيم، أو من أخَذَ الفن عن حكيم بمجالسة السُّوّق فيه، إذا وجده، وإذا وجدهم، وقليل ما هُمْ.

ومما أوصاني به الشيخ، رضي الله عنه، قال لي: يا ولدي، إذا كتبت كتاباً جليلاً أو حقيراً كيف ما كان فراجعه في الحين قبل خروجه من يدِكَ، فإنَّ ذلك فيه صلاح عظيم لك ولكتابتك.

[خذ الحَذَر من نفسك ومن جنسك]

وأيضاً: الإنسان يحْذر الحذر العظيم من نفسه أو من جنسه، وإذا كان الإنسان، الخير لا يدخل عليه إلاَّ من نفسه أو من جنسه كذلك الشرُّ لا يدخل عليه إلاَّ منهما، والنفس والجنس لا يغلب عليهما إلاَّ صاحب العلم الحقيقي أو مصطحب مع صاحب

العلم الحقيقي فقط. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية 44] هذا وجه. ووجه آخر: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: الآية 44] أي فرحوا به لا بنا ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: الآية 44] الآية.

والنفس والجِنْس منهما ينكَسِرُ الإنسان ومنهما ينجَبِرُ، لأنَّ المولى جلَّ ثناؤه من كمال قدرته تعالى أن يَرْحم قوماً بالذي يُعَذِّبُ به آخرين، ويُعذب قوماً بالذي يرحم به آخرين. وذلك ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: الآية 12].

[الزُّهاد]

وأيضاً: اعلم يا أخي، أنَّ الزُّهاد، رضي الله عنهم، زهدوا في نفوسهم لأنهم رأوها هي أعْدَى الأعادي إليهم، وذلك لأنهم يتوهَّمُون وجودها معه، فحجبُوا بذلك الوهم عنه، فصاروا في أشدِّ تعبٍ ونَصَبٍ، تائهين في مُكابرة ظلمة الحجاب لأنهم يشهدون نفوسهم، ومن شهد نفسه حُجِبَ عن مولاه، ومن يشهد مولاه حجب عن نفسه، محال أن تشهده وتشهد معه سواه.

وأما العارفون، رضي الله عنهم، استغرقوا في بَحر مشاهدته، حتى لا يشهدوا في الوجود سواه. شاهدوا الله في نفوسهم فصارت هي أحبّ الأحباب إليهم لأنَّ العارف بِرَبِّه هو العارف بنفسه. صار هو الطالب وهو المطلوب، وهو الحبيب وهو المحبوب، بَرِيءٌ من جميع العيوب، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان. ولو صحَّت لك المعاملة مع الحبيب لصار أعدى الأعادي إليك حبيباً، ولو شَرَق نور الإيمان لغطَّى وجود الأكوان، ولوقع العيان على فَقْدِ الأعْيَانِ.

[كل شيء عاشق للإنسان]

وأيضاً: الإنسان في حال حضرة الأشياء، خيرياتها وشرياتها، كلها متعشقة إليه، مهيّأة للظفر به، من كل فرق، في كل وجهة. لا تبرح حتى يأخذ ما طاب له منها ويتخلّق به، ويرُوِّح عليه حتى يبلُغ أشده، وينعقد بدنه وعقله عليه، فحينئذ كل عضو منه يأخذ من تلك الحالة حسابَهُ ويختم عليه بخاتم لا ينفكّ أبداً سَرْمداً، لا في دنياه ولا في آخرته؛ لأنَّ المَرْء يموت على ما عاش عليه ويُبْعث على ما مات عليه. وإن كان ما دام في الدنيا والأشياء، خيرياتها وشرّياتها، متشوقة إليه، عاشقة، أي طامعة فيه، لكن إذا بلغ الأربعين سنة لا يرجع عمَّا شَبَّ عليه من مألوفاتِهِ إلاَّ القليل، وذلك

هو النادر. وفي هذا المعنى قالوا: تعليم الصغار كالنقش على الحجر، وتعليم الكبار كالنقش على الغبار.

[العلمُ علمان]

وأيضاً: اعلم أنَّ مظاهر الحق العلم، وهو عِلْمَانِ: عِلمٌ ظاهري بالتواتر وعمله بالتَّواتر، وعلم باطني يقيني وعمله باطني يقيني لَدُنِي. مأخوذاً من النبي ﷺ عن الله تبارك وتعالى، عياناً في حضرة القدر لا تقليداً، وذلك إنما هو شجرة الإيمان تَنْبت في قلوبهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: الآية 24] وهم أهل جنة المعارف، وهي الجنة المُعَجَّلة.

قال بعض الصالحين: إن لله في الدنيا جَنَّةً من دخلها لم يشتق إلى جنَّةِ الآخرة، وهي مستقر قلوب العارفين ومُنْتَهى مَطلبِ الصَّادِقِين. أدخلنا الله وإياكم إليها بفضله وإحسانه وجميع المسلمين، آمين.

ومما قال لي سيدنا وسندنا إلى الله تعالى، سيدي العربي ولد الشيخ الكامل، سيدي أحمد بن عبد الله، رضي الله عنهم ونفعنا بهم آمين، قال لي: يا ولدي، ما بَلَّغَنَا الوِصال إلاَّ بجِدِّ النِّضَالِ.

وسمعت الشيخ، نفعنا الله به، يقول: هل رأيتم النحل لماذا وُجدت بينها تلك العسل؟ لأنَّهُنَّ مجتمعْنَ على الله، لا تحاسِبُ نحلة أختها في عمل ولا تحسدها في شيءٍ فلذلك وجدت بينها تلك العسل.

وسمعته يقول: هَلُمُّوا إلى خَيْرِ الخَيْر له خَادِمٌ.

ومما سمعته يقول: صاحبنا هو الذي يكون نفسه على كل مفصل مثل الدَّابة التي ضربَها الريح.

ومما سمعته يقول: قيل: إنَّ النوافِل هي الخروج عما هم عليه العامة، مما ينكره الشرع - يعني من الحقائق.

ومما سمعته رضي الله عنه يقول: النَّفس في الإنسان مثل الشعر الأبيض في اللَّبَن، إذا فتشته لَمْ تجِدهَا في اللَّبَن، وهي كامنة فيه.

[معاملة الله تعالى لعبده. . . ووصف أهل الله تعالى]

وأيضاً: قال تعالى في الحديث القدسي: «عَبدي إذا ذكروا ذكروني، وإذا شكروا شكروني، وإذا مجَّدوا مجَّدوني، وإذا عظَّمُوا عظَّمُوني، لم تشغلهم نعمائِي عن

الالتجاء عَنِّي، ولم يفرحوا من شيء سوَايَ، تالِفِين في جلالي وجمالي، غابُوا عن الأكوانِ بمشاهدة عظَمَتِي وكبريائي، صارت الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون، مؤنِسينَ بقربي، سَاكِرِين بخمرة حبِّي، يسرحون ويروحون في حَضرة المؤانسة، فائزين بعطور نسمة المجالسة، فازوا بالمحبوب ونالوا المطلوب، وغيرهم في رقية الشهوات مكسوب، شغله التدبير والاختيار عن أن يكون من جملة الأحرار، حازَته نفسه لها عبداً باتباع دعاويها، فصارت تسْلُك به طريق الظلمة والجهالة. كلما أراد النهوض حبَسَته بأحْبَال الشهوات والإرادات وحالَتْ بينه وبين طريق أهل النجاة، فصيرَ أنيسَهُ الشيطان، والنفسُ والهوى عليه أعْوان، لا يُمْكِنه الرحيل من عَالَم طبعِهِ بسبب الرأي النَّاشيء عن وسْوَسَة نفسه»[1].

قال جلَّ من قائِلٍ: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآية 14].

وبالجملة: ليس الدواء إلاَّ في الرجوع إلى الله والفرار لبابِهِ، لأنَّ الصَّنعة إذا غابت تُردُّ إلى صانِعِهَا.

واعلم يا أخي أن هذه الأعداء لا ينجِيكَ منها إلا الاشتغال بالحبيب، لأنك مهما اشتغلت بمحبوبك كفاك مؤونة الأعداء، لأنَّ العبد لا ملجأ له من مولاه إلاَّ إليه، لأنَّ الممرِّض هو الطبيب والمداوي هو الحبيب.

[الاشتغال بالله عزَّ وجلَّ]

وأيضاً: اعلم يا أخي، أنَّ الاشتغال بالمحبوب هو نهاية الخير والمُنى والمطلوب. إذا اشتغلت الناس بالعبادة اشتغل أنتَ بالمَعْبُود. وإذا اشتَغَلَتِ الناس بالمحبَّة اشتغل أنت بالمحبوب. وإذا اشتغلت الناس بالدعاءِ اشتغل أنت بالمَدْعوِّ له. وإذا اشتغلت الناس بالأعْدَاءِ اشتغل أنت بمحبَّة الحبيب. وإذا اشتغلت الناس بمكابَدَةِ النفوس اشتغل أنت بِمحَمَّد العروس. وإذا اشتغلت الناس بتصفية الباطِنِ اشتغل أنت بالظاهر والباطن. وإذا اشتغلت الناس بالعملِ اشتغل أنت بمن لا يزول. وإذا اشتغلت الناس بطلبِ النَّجَاة من النَّارِ اشتغل أنت بمَوْرِدِ الأسرار. وإذا اشتغلت الناس بطلب الجنَّة اشتغل أنت بمن حكم على خلقِهِ بالفناء. وإذا اشتغلت الناس بالإنعام اشتغل أنت بالباقي على الدَّوام. وإذا اشتغلتِ الناس بالنجاة مِنَ الشيطان اشتغل أنت بالملك الدَّيَّان. وإذا اشتغلت الناس بطلب الكرامات اشتغل أنت بلَذِيذ المُنَاجاة. وإذا اشتغلت

(1) هذا الحديث القدسي لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

الناس بتكرار الأوراد اشتغل أنت بمولاك الجوّاد. وإذا اشتغلت الناس بكثرة المجاهدة اشتغل أنت بنور المشاهدة. وإذا اشتغلت الناس بالاجتهاد في الوصال اشتغل أنت بمشاهدة الجمال. وإذا اشتغلت الناس بالترتيب اشتغل أنت بالحبيب. وإذا اشتغلت الناس بالتمتع بالإنعام، اشتغل أنت بمسبلها على الدّوام وإذا اشتغلت الناس بخرق الحجب اشتغل أنت بعلاّم الغيوب. وإذا اشتغلت الناس بطلب الزيادة اشتغل أنت بتخليص العبادة. وإذا اشتغلت الناس بوارداتِ القلوب اشتغل أنت بالحبيب المحبوب. وإذا اشتغلت الناس بالمعارف والعلوم اشتغل أنت بمراقبة الحي القيّوم. وإذا اشتغلت الناس بوقائع أهل الطريقة الجأ أنت إليه في كل حقيقة ودقيقة. وإذا اشتغلت الناس بإنظار النقص والكَمَال أنظر أنت لسابقِ الأزل.

[عدم الالتفات لا للطاعة ولا للمعصية]

وأيضاً: ما من معصية ردّتك إلى الذّلّ والانكسار بين يدي مولاك إلاّ كانت أفضل من كل طاعة تعظم بها نفسك وترى لها قدراً ومزية منك، لأنك إذا كنت عبد الطاعة فأنت عبد الطاعة، وإذا كنت عبد المعصية فأنت عبد المعصية، وإذا كنت عبد الله مخلصاً إليه فكُن له عبداً في الحالة التي أقامك فيها لأنك إذا نظرت الفعل كله فِعْله صار لك كل ما فعل المليح مليحاً، لأنّ المُلك مُلكه وأنت من جملة مُلكِهِ وهو المدبّر المختار يفعل في ملكِهِ ما يريد، هو الحاكم العادل الذي يقضي ولا يُقضى عليه. دبّر الزمان والمكان، وخلق الأشياء وأوجدها، يعلم ما يصلحها وما يفسدها، وكل ما أبرز من بديع صنعته فهو في غاية الكمال والاتقانِ. نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المستسلمين له، الرّاضين بحكمه وقضائه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: الآية 6] ومراد العدوّ منك أن يحول بينك وبين الحبيب، وإذا اشتغلت بعداوة العدوّ نال مراده منك وفاتتك محبّة الحبيب، وعداوة العدوّ حقاً هي اشتغالك بالحبيب، وإذا اشتغلت بالحبيب كفاك شأن العدوّ وفُزت بمحبة الحبيب.

[الوجود والعدم]

واعلم: أن من كان أُخرِجَ وجوده من العَدَمِ وعرض له بعد العدم الوجود فهو في وجوده عدمٌ، ولا يوصف وجوده بوجودٍ ولا بِعَدَمٍ بَعْد الوجود إلاّ من سبق قبل وجوده العدمُ ولا يبقى بعد عدم الوجود إلاّ موجد الوجود من بعد العَدَمِ، فهو الذي أوْجد الوجود ولولا وجوده للوجودِ لما كان وجود الوجودِ. وهو الغنيّ عن الوجود وإليه يفتقر كل الوجود، ولولا فضله قد عَمّ الوجود ما وُجِد اسم وجود الوجود. كان

موجوداً ولا شيء معه موجوداً وهو الآن على ما كان عليه مَوْجُوداً، هو الظاهر الذي ظهر لكل موجود، وهو الخفي الذي خَفِي عن كل موجودٍ. حارت في وصفه الأفكار وذهل التعبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية 11]، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: الآية 103]. كيف يخفى عليك مولاك وهو الظاهر فيك إليك، كيف يخفى عليك مولاك وهو أقرب منك إليك، كيف يخفى عليك مولاك وفضله قد ظهر قبل وجودك عليك.

[مَثَل المريد مع شيخه أثناء التربية وبعدها]

وأيضاً: ومما قال سيدي العربي لبعض أصحابه، قال لهم: يا أولادي، مثلي ومثلكم، كرجل جاءني وعنده بهيمة مَرِيضة ضعيفة، وقال لي: يا سيدي، أردت منك أن تعالج معي هذه البهيمة حتى تصلح ولك نصف منفعتها. فجعلت أُعالجها، وهي تستريحُ شيئاً فشيئاً، فلما رآها صحّت وبرأتْ حلَّ رباطها وذهب بها وترك لي رباطها - أي قَسَمَ معي - هو خرج بالبهيمة وأنا خَرَجت بالرباطِ. هذه سيرتنا مع كثير ممَّن عرفنا من الناس، وهذا الفعل لا يضرُّنا نحن لأنَّ عملنا لله وإنما لا يتأتَّى منه الذي فعل. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: الآيتان 7،8] أي لا يُنْفَعُهُ الله بما حَصَل له.

ومما قال لي، نفعنا الله به: الوليّ المربّي هو الذي يقبض صاحبه بالطعم الذي ألف به، خيراً كان أو شرّاً، به يداويه ومنه يداويه. كما قال الشاعر:

وَدَاوِ بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ (...)

[ما تفضّل به الله تعالى على صاحب هذا الكلام سيدي علي الجمل رضي الله عنه]

وأيضاً: ومما تفضل عليّ مولاي، مِنَّة مِنْهُ، أن جعل لي عَلَمَانِ: عَلَم الحسّ وعَلَم المَعْنَى، وجعلني فيهما كالعريس، معشوقاً لهما، مشتاقان إليّ، مَنْ ظَفِرَ بي منهما دون الآخر يفتخر ويُبَاهي الآخر، وهما عند أمري ونهيي. إذا التفتَ إليّ عَلَم الحس بادر لامتثالِ أمري، وأمدَّني بكل ما أردت واشتهيت من غير عطلةٍ. وإذا التفَتَ إليّ عَلَم المعنى كذلك يُبادر لامتثال أمري ونَهْيي ويمدني بما أردت من غير تعطيل، حتى غَدَتْ عندي مادَّة الغيْب كمادَّة الحاضِر، ومادة الحاضر كمادة الغَيْبِ. وأنا بينهما متخير، أنا أميرٌ وهما جنود، ذلك من فعل الله تعالى وجوده وكرَمِهِ. لا خير إلاَّ خيره، ولا فضل إلاَّ فضله، لا ربَّ غيره ولا معبود بالحق سِواهُ.

[الـذّل]

ومن أعظم ما يحتاج إليه العاشق أن يتعلّم الذُلّ ويتخلّق به، ويُلازم نفسه إيّاه ويُرَبيها عليه، حتى تمتزج نفسه مع الذلّ لمحبوبه، لأن العشق لا يصلح إلاّ بالذّلّ.

قيل لابن سهل اليهودي: لماذا نَجِد في أشعارك من الحلاوة ما لا نجده في كلام غيرك؟ قال: نعم، لأنّ كلام الغير عليه ذلّة واحدة، أي ذلّة العشق، وكلامي عليه ذلّتان: ذلّة العشق وذلّة اليهودية. لأجل ذلك كان كلامي أحْلَى من كلام غَيْري. وقال الشاعر:

أيا رَبّة الحُسْنِ التي سلبَتْ نُسْكي   على أية حَالَةٍ كنت فلا بُدَّ لي مِنْكِ
إمَّـا بِـذلٍّ وهـو ألْـيَـق بـالـهَـوَى   وإمَّـا بِـعِـزٍّ وهـو ألْـيـقُ بـالـمُـلْـكِ
فـإن كـنـتِ فـي بَـرٍّ أتـيـتـك راكـبـاً   وإن كنتِ في بَحْرٍ أتيناك بالفلكِ

[قف على غلق أبواب الظاهر]

وأيضاً: أول ما يفعل بصاحب هذا الطريق، تُسدُّ عنه أبواب الظاهر حتى يرده مولاه إليه، أحبَّ أم كَرِهَ. ثم بعد ذلك يقع له الفتح بالمغيبات فتفتح له أبواب الغيوب لأنّ شمس النهار لا تطلع إلاّ بعد ظلمة الليل. لأجل ذلك قيل: الفاقة أعياد المريدين، لأنّ العيد هو الذي يعود على أهله بالسرور والأفراح، هذه شدّة الفاقة إذا حَصَلت للمريد وكان مع شيخ عارف بالله وكان عند أمرِهِ ونهيه لا يغيب عنه شيئاً مما يعرض له من الفاقة.

والفاقة: هي شدّة الاحتياج، وإذا ضاقت عليه الأرض بما رحُبَتْ فإن ذلك علامة الفتح، وعلى قدر ما تعظم الفاقة وتشتدُ على قدر ما يعظم الفتح ويجهر ويتبيَّن، فصار على هذا لا يوم على المريد أفضل من يوم تشتد عليه الفاقة في الظاهر أو في الباطن. فإذا كان الأمر هكذا وجب على المريد الصادق طلب الفاقة لا الفرار منها، كما يقع لبعض المتفقرة، ويرحم الله القائل:

إنْ شَـكَـوْتَ الـهَـوَى فَـمَـا أنْـتَ مِـنَّـا   أحْـمِـل الـصَّـدَّ والـجـفـا يـا مُـعـنّـا
تَـدَّعِـي مَـذْهَـبَ الـهَـوَى ثُـمَّ تـشـكُـو   دَعْـواه فـي الـهَـوَى قُـل لـي أنّـى
لَـوْ وجَـدْنَـاكَ صَـابِـراً لِـهَـوَانَـا   لأعْـطَـيْـنَـاكَ كُـلَّ مـا تَـتَـمَـنَّـى

[شرف الباطن]

ومما يدلك على أهل الباطن، أعظم من أهل الظاهر، انظر في نفسك، أين ظاهرك مع باطنك. إذا نظرت بعين الظاهر تنظر ميلاً أو ميلين، وإذا نظرت بعين باطنك تخرق الوجود بأسْرِهِ: علوي وسفلي، وتجوز على ذلك حتى تخرق الكون، والأين، والكيف،

حتى تشاهد بعين باطنك ما لا يحتويه أين ولا كيف. سبحانه وتعالى عمَّا يشركون. قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: الآية 21] وهذا مما يدل على عَلَم الحسِّ بأجمعه كسفينة في بحر المعاني أين السفينة من البحر وأين البحر من السفينة.

[إضافة الدنيا إلى الذكر وإضافة الذكر إليها]

وأيضاً: اعلم أن الدنيا إذا كانت مضافة إلى الذِّكر ولو كانت أمثال الجبال لا تزيد لصاحبها إلاَّ عوناً على حالهِ، ونور وضوء في قلبه. والذِّكر إذا كان مضافاً إلى الدنيا، ولو كثر، حتى لا يفتر صاحبه منه، مثله كتِبْر الذَّهب، مختلطاً مع التراب لا يحصل لك النفع به إلاَّ إذا وجدت معلماً حكيماً عارفاً يخلصه لك أو يدلك على تخليصه، لأنَّ الذِّكر مثله كالكيمياء، لو أضفت شيئاً يسيراً منها إلى الكثير من المعادن لصار كله ذهباً ساطِعاً من تلك الإضافة. كذلك لو جمع الفاني بأجمعه وأُضيف إلى الباقي لصار كله باقياً. ولو أُضيف الباطِل كله إلى الحقِّ لصار كله حقاً. ولو أُضيف الناقص كله إلى الكامل لصار كله كامِلاً. ولو أُضيف الذُّل كله إلى العزيز لصار كله عزيزاً. ولو أُضيف الضعيف كله للقوي لصار كله قويّاً، ولو أُضيف الفقير للغنِيّ لصار غنِيّاً. ولو أُضيف العاجز للقادِر لصار قادِراً، ولو أُضيف الميت للحيّ لصار حيّاً. ولو أُضيف الجاهل للعالم لصار عالِماً. ولو أُضيف البخيل إلى الكريم لصار كريماً. ولو أُضيف الظلمة إلى النُّور لصارت الظلمة نوراً.

قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: الآية 18]، وقال تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء: الآية 81] لأنَّ الحق غيور لا يدخل مكاناً فيه الباطل إلاَّ قهره وعلا عليه، ومهما ظهر الحق تلاشى الباطل وفَنَى وزهق حتى لا يبقى في الوجود إلاَّ الحقّ.

يُحْكى أن رجلاً كان بين يدي الجُنَيد، فعَطس، وقال: الحمد لله، ولم يقل: رب العالمين. فقال له الجنيد: كمِّلْ يا أخي، فقال الرجل: وأي قدر للعالمين حتى يذكر معه. فقال له الجنيد: قله يا أخي فإن الحادث إذا قُرِنَ بالقديم تلاشى الحادث، وبقي القديم.

قال في الحِكَم: يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحادث مع مَن له وصف القِدَم.

[ثمرة الإيمان]

وأيضاً: اعلم أنه لا يحصل على ثمرات الإيمان إلاَّ من سَجَدَ سجدتين: سجود

شرعي للفرق، وسجود حقيقي للجَمع. كما قيل: مَنْ تشرَّعَ ولَمْ يتحقق فقد تفسَّقَ، ومن تحقَّق ولم يتشرَّع فقد تَزَنْدق ومن جمع بينهما فقد تحقق ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النّساء: الآية 80]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 31]. قال بعضهم: «ليس مِنَّا مَنْ لَمْ يولد مَرَّتين» يعني ميلاد الحسّ وميلاد المعنى. وإن شئت قلت: ميلاد الشريعة وميلاد الحقيقة. وإن شئت قلت: ميلاد أرضي ترابي وميلاد سماوي هوائي. وإن شئت قلت: ميلاد في حضرة الخلق وميلاد في حضرة الحق. وإن شئت قلت: ميلاد الجلال وميلاد الجمال. وإن شئت قلت: ميلاد الطين وميلاد اليقين. وإن شئت قلت: ميلاد في علم الأشباح وميلاد في علمِ الأرواح. وإن شئت قلت: ميلاد بالذات وميلاد بالصفات.

[العزيز لا يشاهد إلا بالعزّ]

وأيضاً: اعلم أنَّ الحق عزيز والعزيز لا يُشاهد إلاَّ بالعزِّ. لكن ليس عز الظاهر بل عزّ القلوب، وعِزُّ القلوب لا يحصل إلاَّ لمن حصل له الذل الظاهري، وبعبارة أخرى لا يرى الحق حقاً إلا من انتهى ذل ظواهره لأنَّ من انتهى ذل ظواهره حتماً على كل حالٍ ينتهي عزّ قلبه في بواطنِهِ، وإذا انتهى عزِّ قلبه على كل حال، بالعزِّ يشاهد العزيز وهو الحقُّ. فإنهم قالوا: أهل الظواهر طالبين للحقائق اكتساباً فِعْلاً. فجاءتهم الشرائع إهابة قهراً صاروا هم أبداً في طلب الحقائق بنفوسهم، والشرائع بالله أبداً في طلبهم. ولا شك أن ما كان بالله أقوى مما كان بالنفس على كل حالٍ. لأجل ذلك كان أهل البواطن أهل حقائق والذين وجدوا الشرائع، وهم أهل الظواهر، وجدوا الخلق، وحجبوا عن الحقّ، ولا تكمل ولايتهم حتى لا تحجبهم حضرة الخلق عن حضرة الحقّ، كما لا تحجبهم حضرة الحق عن حضرة الخلق، ولا تحجبهم حضرة الخلق عن حضرة الحقّ.

[تكريم الله تعالى لسيدي علي الجمل بدخوله الجنة وهو على قيد الحياة مستغرقاً في مشاهدة الله تعالى]

وأيضاً: اعلم علَّمك الله، أنه بينما أنا في مشاهدة الحق إذ حفزتني نفسي واشتقت إلى الجنة، فأمر الجليل جلَّ جلاله، رِضوان خازن الجنة، أن يفتح لي الباب ويدخلني إياها، لنأكل من أثمارها، ونشرب من أنهارها، وننكح أبكارها، ونشاهد ما أعدَّ الله لعباده المخلصين. ففعل، وفتح لي باب الجنة، فدخلت فرأيت فيها ما يعجز الواصفون عن وصفه «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». ومن

جُملة ما رأيت: أني بعدما دخلت من الأبواب واستشرفت على قصور الجنة وأشجارها وأنهارها والحور العين تستشرف من القصور كأنهن اللؤلؤ والمَرْجان، وإذا أنا بشجرة في باب القصر الذي قابلني، طالعة على ساق واحدٍ حتى استوت وتفرَّعت أفراعاً وأغصاناً وأوراقاً وأثماراً، ما رأيت مثل حُسْنها وزينتها واختلاف ألوانها وأثمارها، ورقة لا تشبه ورقة، وثمرة لا تشبه الأخرى، طولها خمسمائة عام، وعرضها كذلك، ومكتوب على ساقِهَا وعلى كل فرْع وعلى كل ورقة وعلى كل ثمرة مكتوب: لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله. وكل خط مكتوب بقلم لا يشبه الآخر وكل غصن وكل ورقة وكل ثمرة لها صوت يغنيّ بألحانٍ لا يُشبه الآخر. ليس صوت الأغصان كصوت الأوراق، ولا صوت الأوراق كصوت الأثمار. وكل صوت ورقة وثمرة لا تشبه أختها. فأكلتُ من أثمارها وشربت من مائها، فإذا أخذتُ ثمرة نَبَتَتْ أخرى في مكانها، وكل ثمرة لا يشبه طعمها طعم الأخرى، ولا لذَّتها ولا نعمتها، فسألت عن ذلك رضوان، وقلت له: يا أخي، لمن هذه القصور وهذه الأنهار وهذه الأشجار؟ قال لي: هذا بعض ما أعدَّ الله لرجل من أهل لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، فلما رأيت نفسي قد كنت لذلك، تركت الجنة ونعيمها وزخرفها، ورجعت إلى العلم الأسْنَى، فلما رجعت إلى مشاهدتي كما كنت أولاً نسيت الجنة كأني وددت لم أدخل الجنة، ولم أنْحطَّ إليها، لما وجدت من لذيذ المشاهدة صرت كأنني كنت مَسْجُوناً، واسترحت بمشاهدة مولاي، فجعلت أستغفر من ذلك، فغفر لي مولاي وأقبل عليَّ وقرَّبني إلى حَضْرته وخاطبني خطاب الحبيب لحبيبه.

[الهفوة في المشاهدة]

وأيضاً: اعلم أني وقعت مني هفوة، وعصَيْت مَولاي، أي غفلت عنه فأخرجني ربي من جنَّة المشاهدة والعيان وأدخلني في جنة النعيم والرضوان، أي سجنني فيها، فلما دخلتها واستشرفت على قصورها وأنهارها وأشجارها وسمعت أصوات ألحان الغصون فذكَّرني أصواتهم في حضرة مولاي فتبت واستغفرت ودقت في الباب فوجدته غفَّاراً لمن تاب، وسقاني وقرَّبني واجتباني.

[اليقظة الحسيّة]

وأيضاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية 78] وقال ﷺ: «اللهمَّ بارك لأمَّتي في بُكورها»[1] أو كما قال، لأنَّ الإنسان إذا نام يكون غائباً في

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، باب ذكر ما يستحب للإمام أن يكون إنشاؤه. . .، حديث رقم =

حضرة الغَيْبِ، والغيب أنواره لا تنحصر ولا تعد ولا تُحصى. وإذا فاق الإنسان من نومه إلى يقظته الحسية تغيب عليه آثار الحضرة، وآثار أنوارها وأسرارها، لا يسبق لقلبه عندما يتيقظ إلا أهم الأشياء إليه. يعني ما تعلقت به همّته فيجد نفسه متفرغاً لذلك بقلبه، فيبلغ فيه ما أراد لأنه كما أن البشرية تقوى بالحضور، كذلك الروحانية تقوى بالغَيْبِ.

ومما قال لي الشيخ رضي الله عنه، قال لي: يا ولدي صاحبنا لا يتكلم مع من فوْقهُ وإنما يتكلم مع من يجده تحته.

[لا حجة لأهل الظاهر على أهل الباطن]

وأيضاً: ومما نقل من بعض تآليف العارف بالله، سيدي عبد الرحمٰن الفاسي قال: لا تجعلوا أهل الظاهر حجة على أهل الباطن فمن نسبهم إلى الجهل فهو أحقّ به، لأن كذب بما لم يحط به علماً، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسرَاء: الآية 36] فمن اعترض عليهم من غير ذوْقِ حالهم، فقد تَعَدَّى طوْرهُ وجهل قدرهُ.

خيانة أهل الحبّ أنْ يُظهروا الشكوى وأن يَسْئَمُوا مِن صُحْبَةِ الضّرّ والبَلْوَى
ومَنْ لَمْ يجِدْ هَجْر الحبيبِ كَوَصْلِهِ فما ذَاقَ مِنْ طُعْمِ الغَرامِ سِوَى الدَّعْوَى

[الزُّهد]

وأيضاً: من زعم أنه شرب من شراب القوم أو فهم معانيهم، ولم يزهد في الدنيا فقد كَذَبَ. كما أن الجنة مُحَرَّمة على من لَمْ يَمُت ويُبْعَث، كذلك جنة المعارف، محرَّمة على من لم تمُت نفسه على الدنيا، وعن تدبيرها واختيارها، وعن إرادتها وشهواتها، وقيل: مُتْ بالإرادة تحيا بالطبيعة.

[الرجوع إلى الله]

وأيضاً: رأس الخيرات كلها الرجوع إلى الله في الحركاتِ والسَّكَنَاتِ، وكل ما يعرف لك من حقيقة ودقيقة، وعدم ذلك بالرجوع إلى الأسباب وتقصير النظر لظواهر

= (4754) [ج 1، ص 62]، ورواه أبو داود في سننه، باب الابتكار في السفر، حديث رقم (2606)، ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في التبكير في التجارة، حديث رقم (1212)، ورواه ابن ماجه، باب ما يرجى من البركة في البكور حديث رقم (2237) ورواه غيرهم.

الاكتساب. قال ابن عاشر رحمه الله: رأس الخطايا هو حُبُّ العاجِلَةْ، ليس الدَّواء إلاَّ في الاضطرار له.

قال في الحِكَم: علامة النجاح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات. وقال أيضاً: ما توقف مَطلبٌ أنت طالبه بِرَبك ولا تيسَّر مَطلبٌ أنت طالبه بنفسك.

[شرف الجوع]

وأيضاً: ومهما جاعت بطنك شبِعَت الجوارح كلها، ومهما شبِعت بطنك جاعت الجوارح كلها. كما رُوي عن رسول الله ﷺ، قال: «البطنة تميت الفطنة»[1]، ومن ماتت بطنته حَيِيَت فِطنتهُ، والجوع تنوير للقلب، وصحة للجسم، لأنَّ الجوع يورث الحِكمة والشبع يورث التخمة.

[صحبة الأخيار]

وأيضاً: محبة الأخيار تنوِّر الأسرار، وصحبة الأشرار سبب لغضب الجبَّار. ولا تدرك الحِكمة واليقين إلاَّ بصحبة العارفين. وكل من تعلقَّت همَّتك به لا تدركه إلاَّ بصحبة أهله ويشرف في هذا الطريق بمعرفة أهل الصدق والتحقيق، الذين تجلَّى لهم الحبيب وسقاهم من لذيذ أُنسِهِ، وقليل ما هم. فالزم يا أخي صحبة الأخيار، فالمَرْء على دين خليله، كما قال النبي المختار[2]. واصحب من لا يخفى عليه أقوالك وأفعالك وأحوالك واترك من يعجز عن دفع الضَّرّ عن نفسه، واصحب من يُسَبِّحُ الرَّعد بِحَمْدِهِ، والملائكة من خيفتِهِ. هـ.

اعلم أن أهل العبودية ينقسمون على فرقتين، فرقة يعبدون الله على قرب وهيبة، وفرقة يعبدونه على شوق وعشق ومحبة.

أما أهل الخوف والهيبة، فمنهم يعلم فيؤَجل، وأما أهل الشوق والمحبة فمنهم يؤَجل فيعلم.

ثم قال رحمه الله: اعلم أنه ليس العجب ممن يلبس المرقعة ويصوم النهار ويقوم الليل ويصطحب مع هذه الحالة، إنما العجب ممن يلبس الثياب الرفيعة، ويفطر النهار،

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (909) وأورده غيره.

(2) يشير إلى قول النبي ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». المستدرك على الصحيحين، كتاب البر والصلة، حديث رقم (7319)، وسنن أبي داود، حديث رقم (4833)، وسنن الترمذي، حديث رقم (2378).

وينام الليل، ويصطحب مع هذه الحالة. ليس الزاهد في الدنيا من تركها، وإنما الزاهد في الدنيا من اصطحب معها، ليس الزاهد في الدنيا من وجدها وتركها؛ إنما الزاهد في الدنيا من استوى عنده وجودها وعدمها. ليس الزاهد في الدنيا من تركها وترك أهلها، إنما الزاهد في الدنيا من عرف الله في إقبالها وإدبارها. انتهى.

انتهى[1] كلام سيدي علي الجمل رضي الله عنه، ولا ينتهي الثناء الحسن عليه. وكان الفراغ من نقله هنا عشية يوم السبت سابع عشر من شهر رمضان المعظم، عام تاسع وتسعين وثلاثمائة وألف هجرية 1399هـ، الموافق لحادي عشر أوغست، سنة تسع وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية.

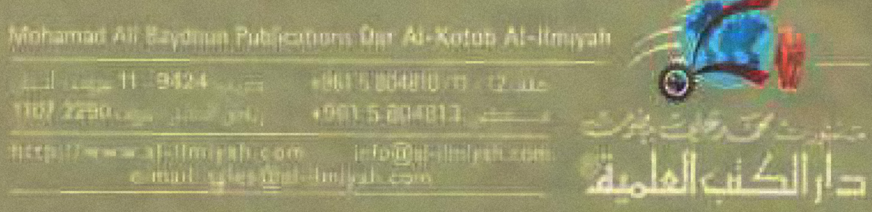
ناقله عبْد ربه، وراجي عفوه، الفقير إلى مولاه على الدوام العمراني الخالدي عبد السلام، لطف الله به في الدارين، آمين. والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

(1) وفي نسخة أصلية عتيقة، وجدها الأستاذ الشيخ عبد السلام العمراني عند الأستاذ الشيخ سيدي رفيق الحداوي، وجد الزيادة التالية: «انتهت الدرّة الغرّة، في صفو الطريقة الشاذلية للحبر الإمام، عليّ الهمة، ومبدي الأسرار من العلوم اللدنية، سيدي علي الجمل رضي الله عنه وأرضاه، والحمد لله بدءه ومنتهاه». انتهى.

فهرس المحتويات

نصيحة المريد
في
طريق أهل السلوك والتجريد
ويسمى أيضاً
اليواقيت الحسان
في تصريف معاني الإنسان


ISBN 2-7451-4300-X


Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com